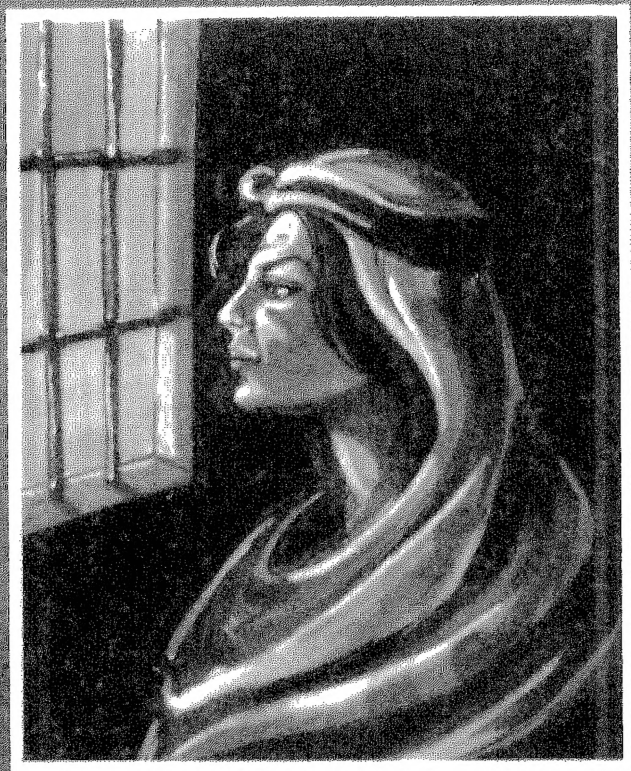


أبناء الجن

مذكرات عن الاكراد ووطنهم



تأليف
الذكورة مارغريت كان

ترجمة
نورا شيخ بكسر

أبناء الجن

حقوق الطبع محفوظة
لِلناشر
الغلاف، سَعِيدُ الْحَسِينِي
الخطوط، دَلِيلُ
مَطْبَعَةُ الْخُلُود ٢٢٤٢٧١
دَمَشَق

GIFTS OF 2001

FRIENDS OF BIBLIOTHECA
ALEXANDRINA ASSOCIATION
IN NORWAY

أبناء الجن

مذكرات عن الاكراد ووطنهم

تأليف

الدكتورة مارغريت كان

ترجمة

نورا شيخ بكر

التدقيق اللغوي

الاستاذ دحام عبد الفتاح

إهداء

- إلى أحمد من أجل كل شيء
- إلى أمير لنبضه، الأخوي الجارف
- إلى أبناء الجن

أهدي هذه المساهمة المتواضعة
نورا

استهلال

ان كردستان التي تمتد ضمن حدود ايران، العراق، تركيا والاتحاد السوفياتي، تشكل أمة بدون لغة رسمية وبدون حدود أو علم، ولكن كردستان قد وجدت منذ قرون كوطن روحي وجغرافي للملايين.

يشكل الشعب الكردي قومية عرقية، حيث بقيت لغته المتميزة وثقافته حية على الرغم من الاضطهاد الوحشي الذي كانت تمارسه الدول المعتدية. وعلى نحو مغاير عن شعوب أخرى في الشرق الاوسط، الاكراد هم مسلمون سنيون مخلصون، ترتدى نساء وهنم الالبسة ذات الالوان البراقة ويظهرن سافرات الوجوه. انهن مدافعون جبارون عن الاستقلال الكردي، وهن مضيئون يحسنون الضيافة وجيران لطفاء.

عندما سافرت مارغريت كان الى كردستان سنة ١٩٧٤ لدراسة اللغة الكردية، اتخذت هي وزوجها من تعليم الانكليزية عملا لهما في ريزاي. وهي مدينة تقع في الشمال الغربي من البلاد. وبما ان الكردية كانت محرمة قانونيا في ايران، فان مهمة م. كان تحولت الى متاهة محبطة من المبادرات المزيفة والصمت المريب. عندما حاولت أن تقيم علاقة مع الاكراد. وببطء وهي تحطم حواجز اللغة والعادات والسياسة، اكتشفت م. كان كردستان وشعبها المتشبث بقوة بتراثه وكذلك يحلمه الحي أبدا في الاستقلال.

وخلافا للنساء التركيات والفارسيات في مدينة ريزاي رحبت نساء كردستان بحماس بالموءلفة. ان البستهن ذات الالوان القوس قزحية الصاخبة بالمقارنة مع العباءات السود الخشنة لنساء مسلمات أخريات وطبعهن العملي يتناقض مع تكلف النساء الايرانيات المتمدنيات.

ان م . م . كان ، وهي واحدة من النساء الغربيات القليلات اللواتي كتبن عن الاكراد ، تزودنا بنظرة راشعة عن دور النساء كعضوات في مجالس الحريم وكممونات بالغذاء في قرى ذات أصالة . ترسم مارغريت كان لوحة حية للاكراد من أصولهم التاريخية ، حتى الصراعات المعاصرة الموروثة في العلم التطبيقي ونزاعات مساواة تحرر المرأة ، والحياة المدنية .

والكتاب المعنون بأبناء ألجن الذي أتى في زمانه ومكانه المناسبين يوضح كيف يعيش شعب مضطهد ، لا يقهر في احدى أكثر المناطق المتفجرة في العالم .

منحت مارغريت كان شهادة دكتوراه سنة ١٩٧٦ ، بعد أن كتبت اطروحتها عن اللغة الكردية . علمت الانكليزية واللغويات في جامعات عدة في الولايات المتحدة وكذلك في ايران ومصر ، وهي مؤلفة " مدخل عن الاكراد " في موسوعة هافسـرد للمجموعات العرقية الامريكية . وتقتن السيدة م . م . كان فـسـي كـاليفورنيا مع زوجها وابنتها .

مقدمة المؤلف

منذ قرون خلت ، ألقى النبي سليمان خمسمائة . مسن
الارواح السحرية التي تدعى الجن خارج مملكته ونفاهم الى جبال
زاغروس . انطلق هؤلاء الجن في البداية الى اوربا لاختيار خمسمائة
من العذراوات الجميلات كعرائس لهم ، ومن ثم ذهبوا للاستقرار فيما
عرف بعد ذلك بكردستان .

هذه فقط واحدة من الاساطير التي نحاول تفسير كيف أن
أناسا ذوي بشره ناعمه ، وشعر أشقر معروفون بعلاقاتهم الوحشية
غير المحتمله ، وبعد اوانهم قد أتوا ليعيشوا في الجبال الواقعة
على نحو منفرج على الحدود التي تفصل بين ايران ، العراق ، تركيا
والاتحاد السوفياتي في الوقت الحاضر . لغتهم شبيهة بالفارسية ومن
بعيد تمت بصلة الى الانكليزية وكذلك بالنسبة لاجلبية الالسن
الاوربية . ان الاكراد ولكونهم منغلقيين في جبالهم لم يتزاوجوا
من العرب والأتراك كما فعلوا مع الفرس . ربما لهذا السبب يبدو
بعض الاكراد كالأيرلنديين أوحتى كالسويديين أوربا تكسون
مورشات تلك العذراوات الاوربيات التي أحضرها الجن قديما .

مضيت في بحثي عن الاكراد - لأنهم بالنسبة لي - يمثلون
مغامرة بعيدة عن الوطن وقضية عادلة أو من بها . كانت لـدي
تذكره طائفة وعمل ينتظرنني في ايران . ولكن كردستان وليس
ايران كانت غاييتي . لاتوجد خرائط عدا تلك التي رسمها الاكراد و
اصدقاؤهم تدرس كردستان ، وطن الأكراد ، لاتوجد اشارات تدل
على الطريق ، لامكتب للسياح ، ولامرشد ون سياحيون . هناك البوليس
السري الذي سيوجهك بسرعة وبقوة الى الاتجاه المعاكس لكن كردستان
هي مكان حقيقي ، لها حدودها ومدنها ولها لغتها ، فكردستان

هي كامارات سحرية في ضباب الجبال غير الكثيف لها طريقة فسي
الظهور والاختفاء ، فهي تكشف نفسها للغربية ومن ثم وبشكل محبب
تنغلق على نفسها في وجهها .

ان الكثير من الامريكيين والاييرانيين وجدوا صعوبة فسي
فهم سبب اتخاذي القرار لدراسة الكردية ، فليس فيها كسب مادي
ولا مجال لتعليم اللغة والأدب بها كما بالنسبة للفرنسية او العربية
وفي الحقيقة لا يوجد الكثير من الادب الكردي المدون . واللغة الكردية
بالنسبة للكثيرين من الايرانيين والترك والعرب ليست لغة حقيقية
فهم يعتبرونها مجرد لهجه ريفيه خرقاء يتداولها الاميون وأنهم
غير جديره باهتمام دراسة تعتبر نفسها باحثه حقيقيه .

أما الاكراد أنفسهم فلم تكن لديهم صعوبة في فهم
اختياري لغتهم . فبالنسبة لآناس يقاتلون من أجل حياتهم ، وللسيادة
على أرضهم ، تعتبر لغتهم الام شيئا عزيزا جدا عليهم . ليس
كل الاكراد شقرا وذوي ملامح اوربية ، فبعضهم يشبه العرب ، وليس
كل الاكراد يرتدون سراويلهم التقليديه الفضفاضة أو الالبسة
المتعددة الالوان ، فبعضهم يعمل في المدينة وآخرون يحفرون
الجامعات بألبسة غربية الطراز . ولكن الى حد الان فكل الاكراد
تقريبا المتعلمون وغير المتعلمين ، الشقرا او السمر ، القاطنون في
تركيا ، ايران ، العراق ، أو الاتحاد السوفياتي جميعهم يتحدثون
الكردية . وفقط في بضعة من العقود الأخيرة المعاصرة ، نجحت
الحكومات الثلاث في الانتقاص من هذه العلامة الأخيرة والاكثر أهمية
بالنسبة للهوية الكرديه .

ان طريقة اللباس والحلي والحرف اليدويه ستصبح أسلوبا
متبعا في ايران بالطريقة نفسها التي سادت فيها الثقافة الامريكية
الهندية في أمريكا في الوقت الذي لن يعد يشكل فيه الشعب القبلي
تهديدا للثقافة المهيمنة . وكلما حدث هذا بعجلة أكبر شمر
الايرانيون بارتياح أكبر نحو هؤلاء الذين يريدون دراسة

الكردية . لكنني لم ارد أن انتظر حتى ذلك الوقت ، وأملني هو
أن ذلك الوقت لن ياتي ولا بشكل من الاشكال .

كان الاكراد قد استقروا في جبالهم لوقت طويل قبل أن
يتربع شاه الفرس على عرشه الطاوسي أو أن يبني أعمدة
(أوزيماندياس) في (برسيبوليس) . وقبل ولادة النبي محمد (ص)
بوقت طويل اعتنق الاكراد العقيدة الزرادشتية مميزين كلا من الله
الشر واله الخير ، بانين لهما معابد النار ، ومقيمين طقوس النوروز
" اليوم الجديد " في يوم الاعتدال الربيعي .

عندما قدم العرب أذعن أغلبية الأكراد مثل أغلبية شعوب
الشرق الأوسط للإسلام . وقد أعطى الأكراد للإسلام واحدا من أعظم
المدافعين عنه - صلاح الدين الايوبي - حيث قاتل ريتشارد قلب
الاسد والمليبين لاستعادة القدس " اورشليم " سنة ١١٨٧ . وقد كان
صلاح الدين مخلصا للزمن الذي عاش فيه ، فقد قاتل المليبين دفاعا
عن الاسلام وليس عن الأكراد ضد العرب .

تبدلت الازمان ثانية ، وفي سياق الامبراطوريات الاسلاميه
العظمى بحث الاكراد عن هويتهم الخاصة . كان صلاح الدين منهم ولكنهم
أعطاهم القليل . وفي ظل تلك الظروف أرادوا الخلاص من ضرائب
العثمانيين المرهقة ، وأرادوا التعرف على ثقافتهم ولغتهم قبل
أن يظهروا من قبل العربية الكلية الوجود . ولكن المشاليين فقط
مثل الشاعر الكردي العظيم أحمد خاني ، طالبوا بمثل هذه الامور في
تلك الايام المبكرة .

ان أغلبية القواد الأكراد كانوا يتبعون في جبالهم ،
ومثل الاسياد الاسكتلنديين يقاتلون أعداءهم من الأكراد ، ناسين
كلية قضية وحدة الأكراد .

والآن لقد اعيق الاكراد - مثل أسلافهم الجان - ليس في
القمقم ، بل في جبالهم . لقد حرموا من الكثير من مكاسب القرن

العشرين باقين رعاة فقراء ومزارعين پرعون ويعملون في أرض صعبه بأساليب وادوات أجدادهم . ولم ترأية حكومة أنه من المناسب أن تحسن أراضيهم هذه ومثلما كان حال سليمان مع جانه ، تخاف هذه الحكومات من الاكراد ، تخاف مما قد يفعلونه مع حصة وافرة من نتاجات البترول التي تكمن تحت أرض كردستان ، تخاف مما قد يطالبون به لو عرفوا كيفية القراءة والكتابة وكانت لهم الحرية في التكلم بلغتهم الأم واصرارهم على حقهم في أن ينفوا أكراد . والأكراد منذ القدم يشغلون بعضا من أقسى وأصعب الاراضي في المنطقة ، ولكن العراقيين قد نجحوا في ابعادهم خطوة اخرى الى الصحراوات الحارقة في الجنوب . أما ايران وتركيا فقد اعتمدتا على أساليب نفسيه للسيطرة على الاكراد ، وهم معرضون ضمن حدود هذين البلدين لخطر دائم للابعاد ، ليس الى الجبال هذه المرة ، بل ليكونوا غير أكراد ! ولخطر تجريدهم من لغتهم وحتى من لسانهم الخاص .

كان الأكراد في العقود الثلاثة الاخيرة ، قد أغروا وعمدوا ونكثت الوعود من قبل الانكليز والروس والامريكان . لقد سمحوا لأنفسهم بأن يكونوا ببيادق في لعبة الشطرنج الشرق أوسطية العظمى آملين في الحصول على الحكم الذاتي لأنفسهم كأكراد . فكل قوة عظمى كانت تعدهم بالحرية عندما تتفرغ من مشاغلها وفي كل مرة ، وعلى الرغم من أنهم كانوا يقاتلون بشجاعة وشرف فقد كانوا يخذلون في قتالهم . وما من دولة - وبغض النظر عما وعدت الأكراد به لحظية قرارها استخدامهم لمصلحتها - سمحت لهم بأن يقاتلوا من أجل أنفسهم ومن أجل حلمهم القومي . وفي الوقت الحالي ، وفي الربع الاخير من القرن العشرين ، وبوفاق الامريكان والسوفييت مع الانظمة في طهران وبغداد ، وأنقره هناك القليل من الاهتمام بالاكرد وبمطالبهم .

ان النضال من أجل حق تقرير المصير الكردي ظل متنقلا من تركيا في بداية القرن العشرين الى العراق سنة ١٩٣٠ و ١٩٤٠ ، والسى ايران سنة ١٩٤٦ وثانية الى العراق سنة ١٩٧٥ ويهود ثانية الآن وأخيرا الى ايران .

ان الأكراد المقيمين في هذه الدول الثلاث وكذلك المقيمين في سوريا والاتحاد السوفيتي يزايد عددهم عن سكان الدانمبارك، والنرويج والسويد مجتمعين . ومع ذلك ولأسباب تاريخيه ولانفساماتهم القبلية لم يحفظ الأكراد حقهم أبدا . وفي كل مرة يظهر فيها انه لم يعد لهم أمل فان الأكراد يثورون المرة تلو الأخرى . وكل حكومة من الحكومات المعنيه تنقبض على الأكراد فبصة مميته وعندما تضعف تلك القبضه ولو قليلا فان الأكراد يسعدون للقتال . وكما يقول الأكراد " كردستان بيان نمان " كردستان أو الموت .

وما يتبع في كتابي هذا هو سرد لفصل بحثي عن كردستان ايران السبعينات ، ايران الشاه وبوليسه السريح . عندما عدت مني زيارة أخرى سنة ١٩٧٨ ، كانت كردستان واضحة أكثر ، الى حد ما ، لأنني عرفت أين ابحث عنها وكذلك لان قوة الشاه كانت قد ضعفت والان وقد أطيح بالشاه ، لا أحد يعرف بالمصبط ماذا سيحدث في ايران خاصة في تلك الزاوية العاصفة في الشمال الغربي ، حيث تقسم كردستان . ومرة أخرى وكما في أوقات كثيرة خلت ، يقاتل الأكراد من أجل الاعتراف بهم ومن أجل حياتهم .

الجزء الاول
خارج كردستان

الفصل الاول

ان لباس المرأة في ايران وخاصة لباسها الخارجي هو صومعتها ، هو مأواها ، انه تركيبه تخبر العالم أن المرأة فسي خارج بيتها ليست آمنة ، وأن أمنها الفعلي هو في بيتها الذي تنتمي اليه . والكلمة المرادفة للعباءة هي " الشادر " وحرفيا تعني الخيمة ، والفرق بين أن تكون المرأة بعباءة أو بدونها يمكن أن تعني الفرق بين أن يتحرش بها الرجال أو أن تهمل من قبلهم في الشارع . ان المرأة المغطاة بحجابها والمتحرش بها بطريقة ما ، لها الحق في أن تشور لأنها قد افترضت مظهر الفضيلة بلباسها والمظاهر في ايران هي أهم بكثير مما يكمن في الداخل وفي جوهر الأشياء .

عندما وصلت الى ايران لأول مرة أحاطت بي مجموعة من السيدات من ذوات الخيم السود وهن يتهايمن ويحدقن في ، متلهفات لفرصه ليتفحمن فيها امرأة أجنبية عارية تقريبا . وكرد على تصرفهن هذا ، أمعنت التحديق فيهن أنا أيضا ؛ واندھشت لروءيية الكميات الهائلة من مستحضرات التجميل على وجوههن المكشوفة وملامح من أجسادهن من خلال مخاولاتهن المطردة والضرورية للاحتفاظ بالخيام المنزلفة حول جسد كل واحدة منهن . وعلى الرغم من أن النساء الايرانيات قد بدأن بالتححرر من عباءاتهن شيئا فشيئا ، ويذهبن الى العمل والمدرسة ويمشين ولو بمهوبة في الشارع سافرات الوجوه ، فان العباءة تشكل الغطاء التقليدي للمرأة الفارسية منذ قرون عدة . وبعيدا من طهران لبضعة كيلومترات فقط الى الشمال الغربي ، وجدت مجموعة كبيرة من النساء لم يرتدين العباءات ، نساء لا تزال تعني لهن كلمة العباءة خيمة فقط ، وهي قطعة ثقيلة من الصوف المنزلي

أما الأكراد فلهم حكاية أخرى ، انهم أمة من بضع مجموعات قومية باقية ترتدي لباسها التقليدي . وبلغت قريية من الفارسية يقدر الاكراد على الاندماج أكثر من الاتراك الذين يسخر منهم بسبب نبرتهم الفارسية ولكن الكثيرين من الاتراك لايهتمون على وجه خاص بالاندماج .

حدثت أنا وجيرد باعجاب صامت في ذلك الرجل الكردي عندما خطا بعيدا عن المنضدة بارزا في سرواله الازرق المصوفي الفضفاض وسترة متناسقة مع السروال ، وعمامة ملفوفة حول قلنسوة مطرزة ضيقة .

شعرنا بقليل من خيبة الامل عندما سعدنا الحافة ، لعدم وجود أترك فيها . وفي ليلة طويلة متعبة قضيناها وعيون المسافرين متوجهة الى خارج النوافذ ، لم يشغلني شيئا عن الانسياق في تداعياتي فقد حلمت طوال سنتين بالعودة الى كردستان . ومع ذلك فقد تسرددت عندما حان الوقت لذلك ، ووجدت نفسي مرتاحة في الشرق الاوسط . ماذا عن محاولات الاخلال بالأمن ، التي كانت تحدث في كل انحاء البلاد ، ومنذ الشتاء الاخير ؟ . ماذا عن الحقد الذي يحمله الكثيرون من الايرانيين للحضور الامريكي في بلدهم ؟ ، ومع كل العنف الايراني المبرر لم أحتج الى أن أمعن النظر في أسباب شخصية أخرى تتعلق بمسألة تخوفي . وحالما بدأت الحافلة بالسير متسلقة الهضبة ، بدأت الذكريات القديمة والشكوك تزحف الى ذهني .

منذ أربع سنوات خلت ، وبعد مرور قرابة سنة أشهر على زواجي أقنعت زوجي على كره منه بالمجيء الى مدينة صغيرة تدمى ريزاي قريبة من الحدود حيث تلتقي ايران بكل من العراق وتركيا . يقطن خمسة عشر مليوناً في تلك الجبال الحدودية والمناطق المحيطة بها وجميعهم يتحدثون بلهجة أو بأخرى من اللغة الكردية . كنت قد ذهبت خصيصاً لدراسة لغتهم ولكنني اخبرت الحكومة الايرانية أنني قد اتيت لتعليم اللغة الانكليزية في كلية محلية . لم يشجع الاجانب أبداً على أن يقضوا وقتاً مع أقليات متفجرة مثل الاكراد ، وفي فترة اقامتي كانت قد اندلعت حرب أخرى ضمن السلسلة الطويلة من الحروب على الحدود العراقية مباشرة . كان من الممكن دراسة لغة يمكن

من بين مجموع الناس الذين التقيت بهم تلك السنة في إيران
تكونت لدي ثقة بالأكراد . وهم الوحيدون الذين بدا لي أنهم يثقون
بي . ومع ذلك فإن غياب ثلاث سنين زرع شكتي تلك ، على الرغم من
أنني لم أكتب رسالة واحدة ألا وتلقيت عليها جوابا . والآن وقد
تطبعت بسلوك الإيرانيين فيما يتعلق بالثقة في معناها الظاهري ،
تساءلت في نفسي لماذا وثقوا بي على الرغم من كل شيء . لقد ذهبت
الى هناك والثورة الكردية في أوجها ، حرب كان من المفترض أن يخوضها
الأكراد العراقيون فقط ، ولكنها جعلت الامل يضطرم من جديد في نفوس
الأكراد في كل مكان .

لدى عودتي الى إيران تأكدت من شيء كنت قد شككت فيه من قبل
وهو تورط أمريكا الممقوت ، والواسع الانتشار في تلك الحرب . ففقدت
تأكد لي بعد ذلك أكثر من أولئك الذين بدأ أنهم كانوا يهزغونه .

عندما غادرت إيران في المرة الاولى ، بعد مرور خمسة أشهر
على انهيار الثورة الكردية في العراق كان الأكراد الإيرانيين لا يزالون
يلقبون باللائمة على الشاه لخيانته اخوانهم العراقيين وقد بدا عدد
قليل فقط من الأكراد العراقيين واعين لدور المخابرات المركزية
الأمريكية الذي لعبته في خيانة مصالح الأكراد . ماذا لو حزم أصدقائي
ولو على نحو متأخر وبعد كل شيء - أنني كنت جاسوسة ؟ ، بأي ضرب
من الترحيب كانوا سيستقبلونني عندما أعود ؟

عندما كنت في كردستان كنت أشعر مع الرجال الأكراد براحة
أكثر مما لو كنت مع رجال آخرين من أي فئة أخرى في المنطقة . ومع ذلك
فقد كانت تحدث مدامات مخبئة مع الرجال الأكراد في القرى الجبلية
النائية والمدن التركية الحدودية الصغيرة الواقعة بين الغرباء . كان
جبرد معي هذه المرة كما كان في معظم رحلاتي . ان وجود الاسلحة في قرية
كردية ، سيجعل ابتغاء النجاح لزوج أمريكي متعب في مهمته أمرا ملحا .
حدثت خارج النافذة مرة أخرى للاطمئنان فقط ، مرأبت ومضات من النور
تلوح من بعيد . ففي إيران القليلة السكان تكون الأصقاع الواقعة بين
المدن ، خالية على الأغلب وقد كانت الجبال لقرون عديدة ، مساوى
لقطاع الطرق وحتى الوقت الحاضر ، في العقود الأخيرة من القرن العشرين

أتساءل عمن يمكن أن يختبئ هناك ، منتظرا حافلتنا لتمر به .
في داخل الحافلة ، راقبت امرأة جالسة في المقعد الأمامي
وهي تلف رأسها ، والجزء العلوي من جسدها بعباءتها استعدادا للنوم .
ومرة ثانية شعرت أنني مكشوفة وبدون مأوى . والقرى التي كنا ننسوي
البقاء فيها ليست بعيدة عن المدينة إلا ببضعة كيلومترات ، ولكن
هذه الكيلومترات غالبا ما تكون متعرجة حيث تلتف عبر الجبال فوق
طرق ترابية . وليس في القرى طاقة كهربائية ولا هواتف . فليست
بمقدورك أن تخطو إلى حجرة ما وتتمل بالشرطة إذا أصبت بسوء . أعرف
أنني كنت أترك مخيلتي تسرح حالا ولكن الشياطين كانت تتملكني .
- أنا خائفة .

استطعت أخيرا أن أهمل بذلك عاليا لجيرد .
- أفترض أنهم لا يريدون رؤيتنا مرة أخرى . افترض أنهم يظنوننا مع
المخابرات الأمريكية .
أجاب جيرد موءكدا :
- أنا لست متأكدا من أنهم لن يريدوا ذلك ، ولكنني أثق بحاج اسماعيل
فهو صديقنا .

كان الحاج اسماعيل يجيب على رسائلي لمدة سنتين بخطه الرديء
وبكتابة فارسية تعلمها بنفسه . لم يتح الرجال الاقطاعيون الوقت
الكافي للالتحاق بالتعليم الرسمي في حياتهم المحمومة في الأيام الخوالي .
وقد كنت أبذل جهدا أحيانا في فك رموز رسائليهم المكتوبة بالكرديسة
على الرغم من خبرتي الواسعة بالمراسلة ، لأنه لم يكن أحد منهم قد
تلقى تعليما في أصول كتابة لغتهم الخاصة وفي مناطق عديدة يقطنها
الأكراد تعتبر الكتابة عملا خارجا على القانون . ولكن الحاج اسماعيل
كان يكتب على أية حال ، ويرسل تحيات مجموعة من نساء لايجسدن
الكتابة . لقد قضوا حياتهم في القرى بعيدين عن أية مركز بريد ، ولكن
للمسافة لم تكن هي المشكلة فغالبيهم كانوا أميين .

عندما فكرت بالنساء ، وتذكرت أسماءهن مثل : مريم ذات الشعر
الأحمر والعينين الزرقاوين وخديجة ذات العينين البنيتين والأنف الطويل

ونسرين بذقنها " المود بجلياني " وشعرها الأسود الفاحم ، شـمـعـرت
بالطمأنينة تعود الي . حاولت أن أتخيل ماكن يفعلنه خلال فترة الثلاث
سنوات التي كنت فيها بعيدة عن ايران . فقد كنت ادون ملاحظاتـــــــي
المتعلقة باللغة الكردية ، وقد حصلت على درجة علمية ، ودرست وسافرت
كثيرا خلال هذه السنوات الثلاث . أما هن فقد كان من المحتمل أنهن
بقيين في القرية باستثناء بعض الرحلات القصيرة مصطحبات معهن مرافقات
الى المدينه حسب هوى الحاج . ربما كان علي أن أذهب بعيدا وأمسود
لأدرك كيف أن هوءلاء النساء لم يذهبن الى مكان آخر لاخلال فترة الثلاث
سنوات من بعدي ولافي غيرها ، لربما خرجن من القرية في أوقات الحرب
والهجرة ، أو بسبب الزواج من أكراد من مناطق أخرى ، هذا بالنسبة للنساء
غير المحظوظات منهن . وخلال الشتاء حيث تجعل حرافات الثلج والمواقــــد
النفطية الحياة تعبسه ، كانت مريم وخديجة ونسرين يستيقظن كل يوم
ويوءدين أعمالهن . وخلال الربيع كن يتمشين بين القطعان وبجوار الجداة
والخراف ذات القوائم الضعيفة . كانت نسرين وخديجة تعملان في كل فصل
من فصول السنة في ذلك المطبخ المعتم الممتلىء بالدخان في خلفية المنزل
ونحن الآن في فصل الصيف ، فصل الحصاد ، وجني المشمش والخيار من البساتين
والحقول . وسيحل فصل الخريف حالا ، وستهطل الأمطار ثمانية . وعلى الرغم
من صدادع الرأس وآلام الأسنان والحيض وغثيان الصباح الذي كان يصيبهن
أثناء حملهن فقد كانت هوءلاء النساء ، يشاركن في تموين أهاليهن .
ان تحملهن وثباتهن هذا جعلني أطمئن في غمار بحثي الفجري لتحقيق
الذات . ماكان عليهن أن يتبعن مايرغبن به ، فقد كان السبيل قد
مهد أمامهن منذ قرون خلت .

قررت البقاء في جناح الحريم وارتداء ملابسهن . ولدى خروجي
في نزهات الى السهل ومنه الى الجبال سيظن بي على أني امرأة كردية .
لقد كان من الصعب تمييزي بشعري البني وبشرتي الشفراء عن الكردييات
وبقدر اقتحامي واديا من جنون الاضطهاد والارتياب والعظمة ، وجدت
نفسى أحلق ثمانية في مخيلتي الى جمالية كوني سيدة كردية .

انقطعت تأملاتي عند هبوط الليل ، وفي الساعة الحادية عشرة
لدى توقف الحافلة في الاستراحة الأولى ، واندفعنا الى حجرة مزخرفة

مضاءة ومعتلثة بمسافرين متعبين، يلتهمون من أمامهم كميات كبيرة من الأرز المسمن . لقد كانت معدتي مضطربة بسبب حركة الحافلة والشيء الوحيد الذى أحسست به هو أنني استطعت الجلوس لألتقط من وقت لآخر شيئاً من طبق " الشالي كباب" الأرز المطبوخ مع اللحم الذى أمر جيرد بإحضاره أما شهية جيرد فقد كانت في حالة سوية .

بعدئذ قفلنا راجعين ووقفنا خارج الحافلة نتحدث مع مسافرين آخرين . كانت واحدة منهم امرأة عجوزاً ، قالت انها عملت فـلـسـي السفارة الأمريكية في طهران ولكنها لم تكن تعرف التحدث بالانكليزية قط. حتى أن لغتها الفارسية كانت ذات نبرة ثقيلة بسبب من لغتها التركية الآزرية الأم. لمحح الينا زوج المرأة ذات الحجاب الجالسة في المقعد الأمامي أن ريزاي ليس بالمكان المناسب لنا لنقوم بزيارته ونصحنا قائلاً: على الأجانب أن يبقوا في طهران . أدركت أنه كان يريد التودد الينا وأخبرنا أنه قد درس في فلوريدا ويتمنى الذهاب الى كاليفورنيا حالاً لاثمام دراسته . حالما صعدنا الحافلة تسألت بصمت فيما اذا كانت زوجته معتادة على ارتداء الحجاب ، أم أنها قد ارتدتته خميماً لهذه الرحلة . لمدينة ريزاي المتخلفة .

اندفعت بنا الحافلة بعناد على طول الطريق العام وقد أعيق تقدمها فقط بالتفتيش الدوري في كل ساعة من قبل شرطة الطريق العام فقد كانوا ينظرون الى السرعة المرسومة ببيانها على ورقة الأسطوانة الموضوعة خلف مقياس السرعة للتأكد من أن السائق لم يتجاوز حدود السرعة المناسبة . وقد ابقتني المواقف المستمرة يقظة . ولكني سلمت بصحة انخفاض عدد الحوادث منذ أن فرضت دورية الطريق العام النظام الصارم .

بعد برهة بدأنا نتقدم على طول الشاطئ الشمالي الغربي من بحيرة ريزاي الشبيهة بشكل معين ، وهي بحيرة ضخمة ممتدة مألجة تقع شرق سلسلة جبال زاغروس الواقعة الى الشمال الغربي من ايران .

فتحت عيني عند انبلاج الفجر وحدثت عبر البقاع المألجة حتى البحيرة الضاربة في الزرقة . ولكن بحيرة ريزاي أصبحت ملجئي المفضل منذ بدأت بالتجديف لساعات على سطحها أمس الخيار في الماء المالح وأقضمه على مهل بصوت مسموع .

بدأنا بالتدريج نرى علامات تذل على أن المنطقة مأهولة ، مثل بعض القرى التي يمكن لها أن تصبح يوما ما ضواحي ريزاي الحقيقية . ولدى تقدمنا صوب المدينة نفسها لاحظنا خضرة في أزهار عديدة وهي دلالات أكيدة على وجود كائنات بشرية في هذا السهل المقفر . عبرنا مصنع سكر الشندر ومن ثم الطريق الجانبية المؤدية الى المطر . وأخيرا وجدنا أنفسنا في الساحة الدائرية مع تمثال والد الشاه ، رضا ، الذي أعيد تسمية المدينة بريزاي نسبة لاسمه .

دمدت الحافلة هابطة بنا الى شارع عريض ، وعندما شعرت بدنو الجبال ذهبني شياطين وجنيات الليلة الفاتنة ، وعند الفجر شعرنا فقط بقليل من الغربة المنهكة . كانت ريزاي صغيرة جدا ، وقد استوقفتنا هذه المفاجأة كلينا . عندما كنا نقيم هناك كانت بالنسبة لنا عالما كله ، عالما من الألوان الخضراء والرمادية والبنية التي جانب زرقة البحيرة . تقع المدينة على بعد ساعة واحدة من طهران . وهي مكان لم يشجع الاجانب ، أو الايرانيين المدنيين على الذهاب اليها بسبب صغرها ، على الرغم من كونها المدينة الكبرى في منطقة أذربيجان الغربية .

عندما أحسست بأن أيقاظات جسدي مرتبطة للأبد بأهتزازات الحافلة ، عند ذلك فقط شارفت الرحلة على الانتهاء . كان أحد سائقي سيارات الأجرة قد استيقظ مبكرا ليلتقي بالحافلة وقد بدا ميتهجنا على طريقته التركية الخشنه عند لقائه فجأة بأجنيبين . كنت أخشى ألا أجد أحدا في منزل الحاج اسماعيل ، وقد انتظرت في السيارة مع السائق ، بينما ذهب جيرد ليدق الجرس . لم تكن واجهة المنزل بقرميده الأصفر وقضبانه الحديدية المطلية بالأزرق في كل نوافذ الطابق الأول قد تغيرت . ولكني لمحت زجاجا مكسرا وطبقة كثيفة من الغبار خلف القضبان ، فشعرت لوهلة بالخوف . لماذا ترك الحاج اسماعيل بيته يبدو وكأنه مهجور ؟

بحيوية مذهشة وإفق سائق التاكسي على أن يمضي بنا عبر الجبال . فمن المألوف أن سائقي سيارات الأجرة يغفلون أن يتركوا

الغولغات الروسية الشبيهة بالدبابة أن تتدبر أمر سيرها عـــــــــــــــــبر
الجبال .

في غضون هذه الفترة كانت الشمس قد أشرقت ولكن الشــــــــــــــــار ع
الطويل المشجر كان خاليا من المارة عندما أسرعنا هابطين برويــــــــــــــــة
مارين بالكلية التي عملنا فيها حتى بلغنا نهاية الاسفلت . فسي
قرية باند حيث تنتشر المنازل فوق جبل يشرف على واد أخضر خصــــــــــــــــب .
ان باند هي قرية بالأصل ، ولكنها تتحول الى ملجأ لفئة السائقين
في ريزاي .

هبط السائق مبطلا في سيرة عندما ارتطمت سيارته بطريقــــــــــــــــق
حصوي منحدر . ها نحن الآن نتبع النبع المصافي الذي يتدفق مــــــــــــــــس
الجبال هابطا نحو سهل مرگا وار خلال ممر باند ، وعبر سهل أخــــــــــــــــر
متوجها الى البحيرة . وقد أدهشني اخضرار الجبال الى يسارنا وامتلاء
النبع الى يميننا . فقد كان هذا شهر تموز وقد مرت أشهر على موسم
الامطار . وفي شهر تموز في السنة التي مكثنا فيها في كردستان كان
الجفاف قد جعل السهل ظمئا وذا لون بني داكن .

ارتفعت الجبال فوق رؤوسنا مباشرة خارج سهل ميرگــــــــــــــــاوار
الدائري العريض . والى الاسفل من رقع الثلج كانت قرية دستان تقبــــــــــــــــع
مثل زمردة فوق رقعة خضراء مائلة للصفرة من الخضرة الجافة . وقد
أخبرتنا الاهرامات العالية من القش ، المكومة على طول الطريق عند
مدخل القرية بأن الحمادة كانت تعمل قبل قليل من الزمن . ولختجنب
الجدول المتعرج عبر دستان ، اتبع السائق توجيهاتنا الى المنــــــــــــــــزل
الحجري ذي الطابق الوحيد ، منزل مريم خانم زوجة الحاج اسماعــــــــــــــــيل
الثانية . لم يبد أحد في تلك النواحي و شعرت بالغربة لذلك ،
فبعد أن قطعت هذه المسافة الطويلة وما أحد يرحب بي أو حتى يلاحظني .
ومع ذلك فان رغبتني في أن يلحظني أحد ماتعزى فقط الى شعوري النامــــــــــــــــي
بأنى لم أبتعد حقيقة كل هذه المسافة أبدا . لم يكن أي شيء غريبــــــــــــــــا
علي ، المدينة ، وادي باند ، النهر ، الجبال ، كلها كانت كما كنــــــــــــــــا
قد تركناها ولربما أكثر اخضرارا ولكنها من الممكن أن تكون كذلــــــــــــــــك

لأن شهر آيار لا يزال قاسما والسهل لا يزال يتشرب من الثلج المذاب . من الممكن أن النوم كان قد أخذنا في هذه المدينة الصغيرة القابعة في حضن الجبال . أولربما أننا قد استيقظنا لتونا وتذكرنا أن لنا موعدا لمقابلة الحاج اسماعيل في دستان .

قبل ذهابي الى كردستان للمرة الاولى ، وحتى قبل أن اقـرر الذهاب ، مضيت في ما يقارب نصف دزينة من الرحلات الفكرية الى هناك برفقة مجموعة تقريبا كلها من المفامرين البريطانيين في غزواتهم لكردستان الموحشة . حيث صورت وبجلاء ، المشقات البدنية التي عانى منها المؤلفون والخوف من قطاع الطرق في هذه الأسماع . والشـيء الأكثر امتناعا لي كان اندهاش الرجال الغربيين لتمتع المرأة الكردية بحرية نسبية . فبعد مجالس الحريم والاعطية السوداء التي لقوها في المدن الفارسية والعربية لم يقووا على الاقتناع بمظهر نساء كردييات بغير خمار يعشن ويعملن جنبا الى جنب مع رجالهن .

كان من الصعب عليّ تتبع الكتب وهي تصف الحملات العسكرية المملة أو تسهب في التفاصيل من جغرافية منطقة لم استطع تخيلها . ومع ذلك فقد نجحت في أشياء عدة . لقد كان الاكراد مثل الفرس زرادشتيين قبل أن يعتنقوا الاسلام في القرن السابع الميلادي .

واذا أخذنا بعين الاعتبار التربية الجبلية الصغيرة التي نشأ فيها استغرابنا لترحال الأكراد وعلى نحو تقليدي من مكان لآخر ، يراعون قطعانهم وسواهمهم في المكان الذي يعثرون فيه على الكلاً . وقسـد تبقيهم الشتاءات الجبلية القاسية في الاحواض الجبلية خلال فصل الثلج وعلى قمم الجبال عندما تصبح السهول حارة قاتظة في الصيف .

لم أقرأ هذه الاوصاف عن الرحلات الكردية بالترتيب الذي كتبت فيه بل كنت أقرأها ، كلما وجدتها في الروايات المغيرة في المكاتب الضخمة . عندما قرأت مجموعة الكتب والاسفار الكاملة عنهم ، لاحظت اختلافا مدهشا ، لافتا للنظر بين كردستان ١٨٧٠ وكردستان ١٩٧٥ ، أسلوب الحياة لم يتغير عمليا ، واللباس والعادات كانت كما هي منذ قرون قبل أن يصفها الغربيون . أن جغرافية المنطقة هي التي فسـد

تغيرت ، ف كردستان القرن التاسع عشر العظمى قد قسمت الى اجزاء
وأقسام من العائلات والقبائل التي وجدت نفسها في التخوم غيسر
الصلحة وكانت هذه دائرة الانقسامات .

على الرغم من أن أجزاء من كردستان قد حكمها في أوقات
مختلفة شيوخ قبائل وأمراء أكراد ، فإن كردستان لم تتوحد فعلياً
أبداً . أن الأكراد أنفسهم يرجعون سلسلة نسبهم الى الميديين تلك
السلالة الإيرانية الحاكمة الممثلة في القدم والتي غزت نينوى في
٦١٢ ق.م ، ثم هم أنفسهم غزوا من قبل الفرس سنة ٥٥٠ ق.م ومنذ
ما يقارب ٦٠٠ ق.م فما فوق فإن المساحة التي تسمى بكردستان حالياً
كانت قد غزت بالتتابع من قبل السلوقيين ، البارثيين ، الساسانيين ،
الارمن ، والروم والبيزنطيين والسلجقة والمغوليين والعثمانيين ،
وفيرهم وعندما كانت تضعف هذه الحكومات الاستعمارية أو يسزول
كيانها ، كان الأكراد سريعيين في حكم أنفسهم . لكن مع قسودوم
الجيوش الحديثة والحكومات القوية للسيطرة عليهم أصبح الحكم
الداخلي الكردي أقل احتمالاً . وفي سنة ١٥١٤ ثبت تقسيم كردستان
بين الامبراطورية الفارسية والعثمانية ، ولكن الحدود الجبلية
المرتفعة في كلا الامبراطوريتين اللتين لم تكونا تطلقهما
تجهيزات عسكرية حديثة ، لم تكن واضحة بعد في الحياة اليومية
للأكراد العاديين . وقد حدثت الهجرات حسب الفصول متبعا لصلحية
مناطق الرعي أكثر من أن تكون أوامر من الحكومات المركزية .
لقد كان المغامرون البريطانيون في القرن التاسع عشر محظوظين ،
وان كان عليهم أن يقاتلوا قطاع الطرق ، فقد كان بإمكانهم
التجوال في كردستان دون أن يعيقهم حرس الحدود .

بعد الحرب العالمية الاولى وانحلال هاتين الامبراطوريتين
وعد الأكراد الذين كانوا تحت الحكم العثماني بدولتهم المستقلة
من قبل الحلفاء . وفي وقت مبكر من القرن التاسع عشر كان قد
اجتمع بعض الأكراد المنورين مثل الشيخ عبيد الله النهري - وقد
التقيت بأحد أحفاده لاحقاً - بالحكومات الأوروبية للتححر من ضغط
الأتراك كممثلين عن الأكراد . وبعد الحرب العالمية الثانية انطلق الأكراد

في دعواهم لإنشاء دولة كردية على أسس بنود ولسون الأربعة عشر التي أعلنها في كانون الثاني سنة ١٩١٨ . فقد عرض ولسون اقتراحها بوجوب إعطاء الفرصة للأقليات العرقية الكبيرة داخل الامبراطورية التركية مثليـل الأكراد والأرمن والآشوريين لإقامة دولهم الخاصة بهم ، ولكن معاهدة سيفر الموقعة سنة ١٩٢٠ بين الحلفاء والحكومة التركية الألعبسية ، تكفلت بإقامة دولة كردية خلال سنة من تاريخه ولكنها لم تترجم عمليا أبدا . فلقد رفضها القوميون، الأتراك الجدد بقيادة مصطفى كمال أتاتورك . أما اتفاقية السلام الجديدة - معاهدة لوزان - التي وقعت سنة ١٩٢٣ فلم تذكر الأكراد مطلقا .

وبدلاً من أن يصبح للأكراد دولتهم الخاصة بهم ، وجدوا حريبتهم الثقافية والسياسية تتفلس أكثر من أي وقت آخر . أما الأراضـي الكردية الواقعة تحت نير تركيا ، تلك الجمهورية الحديثة التي تزعمها أتاتورك ، فلن تدعي بكردستان مرة أخرى وسيدعى السكان " بأتراك الجبال " وستحرم قانونيا تلك اللغة التي يتكلمها ربع سكان تركيا . التقيت في إيران بعدد لا يحصى من الأشخاص وأحفادهم الذين فروا نتيجة لقمع أتاتورك الوحشي للثورات الكردية في تركيا الشرقية . أما الأكراد في الدولة العراقية الحديثة فلم يصابوا بهذا سوء أبدا . ولم تكن لهم سيطرة على البترول الكامن في أراضيهم ، فالبريطانيون قد عملوا جاهدين للتأكيد على أن يبقى في أيدي العرب . ولكنهم على الأقل تمتعوا بالتحدث بلغتهم القومية ، وبارتداء لباسهم الوطني . يشكل الأكراد نسبة كبيرة في العراق وبسبب ذلك ، ولضعف الحكومات البغداية المتتالية فقد كانوا قادرين على إشعال عدد من الثورات التي لم تنته بهزيمة حقيقية ، بل انتهت في مآزق . لم يكن الأكراد الإيرانيون محظوظين بهذا القدر . لقد كانت لهم سنة واحدة مجيدة ، أسسوا فيها دولة كردية صغيرة جنوب ريزاي سنة ١٩٤٦ في نهاية الحرب العالمية الثانية . وعندما تحرك الجيش الروسي الذي كان يحتل على نحو مهلهل القسم الكبير من شمال غرب إيران للانسحاب ، تاركا الدولة الكردية الفتية بدون حماية ، دخل الجيش الإيراني مهاباد وهي المركز القيادي للجمهورية الجديدة ، وأعدم القواد ، ولوحق كل من دارت حوله الشكوك بتماطفه معهم لثلاثة من العقود التالية . وأصبح الأكراد - دون

حكومة ذات حكم ذاتي - مجرد احدى الاقليات العرقية المتعددة فـ في
ايران .

ان المصادر الرسمية غير الجديرة بالثقة والرديئة السمعة فـ في
كل الاحصائيات السكانية تكون متذبذبة وعلى نحو خاص عندما يتعلق
الموضوع بالاكرد في كل دولة حديثة يقطنونها الآن . لقد كانت العراق
ولسنوات تحاول أن تثبت أن حقل البترول الضخم في كركوك لا يقع حقيقة
في مركز سكاني كردي . أما الاتراك فلا يحصون الاكرد عندهم نظرا
لعدم اعترافهم بوجودهم كأكراد . وايران تكره في تقدم تقريرها
دقيقا عن قوة أي من اقليةاتها المستاءة وحتى لجرت محاولة من قبل
أي من تلك الحكومات لاجراء احصاء رسمي دقيق في كردستان ، فـ ان
الاكرد سيقاومونها اعتقادا منهم أنها من المحتمل لن تفيدهم . ان
الأكرد ليسوا أحرارا في كتابة وتداول لغتهم في أي بلد باستثناء
العراق والاتحاد السوفياتي الذي يشكل فيه الأكرد اقلية صغيرة .

ان افتتاني بهذا الشعب لم يتطلب مني جهدا كبيرا في البحث
والمطالعة . فقد عرف عن الأكرد موقفهم الأكثر تسامحا تجاه المرأة
أكثر من أي مجموعة اسلامية في المنطقة . لقد كنت أبحث عن لغة ما
واللغة الكردية كانت تبرز عاليا لباحث يدرسها . وبمشروع كهذا لن
ادع همتي تغتر بالاقتمار على المكتبات ، و بحوث الجامعات المملوكة .
ويتوجب علي الذهاب الى الجبال كي أكتسب ثقة هؤلاء النساء ذوات الأثواب
الملونة ، واللواتي لا يفضن الخمار .

ان طهران محطتنا الأولى ، لم تكن كما توقعتها بالضبط ،
ولكنها كانت تتراءى فقط على نحو مبهم تحت الطبقة الكثيفة من
الدخان والغباب اللذين كانا يتخللان جو المدينة برتابة . لم نلاحظ أي
من الأكرد فيها ولم يتناهى الى سمعنا أن أحدا يتحدث فيها بالكردية
فقد كان من الصعب سماع أي شيء يعلو صوت حركة المرور ، وقد تجولنا
فيها لبضعة أيام في مشاهدة محاولين أن نتصور اذا كنا حقاً فـ في
ايران ، بلاد فارس عمر الخيام الاسطورية وحكايات الجن الغريبة . لقد
كنا قد حلقنا ما يربوا على ٦٠٠٠ ميل شرق نيويورك ولكنها كانت

تتقدمنا بطريقة ما . لقد كان ذلك شعورا غريبا .

أما مدينة ريزاي فقد كانت أفضل ، على الأقل كانت هنالك عربات تجرها الخيول مع أجراسها ، وجبال تخلو من الدخان والضباب وكان أيضا هنالك أكراد يظهرون في كل شارع . حتى في ريزاي الريفية كان الناس يرتدون ألبسة غريبة أو صورة مطابقة لها باستثناء الأكراد . لم أكن متحمسة لمحاولة الذهاب الى هؤلاء الأكراد والتحدث معهم بكرديتي الجزلة التي تعلمتها في الجامعات الأمريكية ولكني لم أتوقع أنها ستكون مسألة أيام أو اسبوع قبل أن ألتقي ببعض الأكراد واتحدث معهم باطراد .

سألت كل طلبتي في الصفوف الانكليزية في الكلية المحلية عن الأماكن التي أتوا منها واللغات التي يجيدونها ، وقد ظننت أنني حاذقة ، ولم يمر وقت طويل قبل أن يعرف كل طالب أن للسيدة م . كان رغبة غريبة في دراسة الكردية . والعدد القليل من الطلبة الأكراد أتوا الي تواقين لذلك . ولم يكن أحد منهم من منطقة ريزاي ، كما لم يتكلم أحد منهم اللهجة التي كنت أهتم بها . فوق ذلك فانهم لم يبدوا كالأكراد . لقد نشؤوا في المدن أكثر ممافي القرى ، وكانسوا يرتدون البدلات - بدلات الدنيم - إذا كانت لهم القدرة على شرائها . أرادوا أن يحصلوا على درجات جيدة في الانكليزية ولكنهم كانوا يرتابون بشدة بدوافعي ، وقد ابتهجت لاني لم أكن أنوي دراسـة لهجتهم .

في استعادة أحداث الماضي وتألمي فيها تحققت من أن لا أحد منهم كان سيوافق على قضاء الكثير من الوقت معي خارج الصف ليعلمني لغة قد حظرتها الحكومة الإيرانية . وكما اكتشفت مؤخرافلد كانوا متأكدين - من وجهة نظرهم - من أنني من عناصر المخابرات المركزية الأمريكية .

لم ينتابني شعور باليأس مباشرة فقد كانت لدي أمور أخرى لأقوم بها . فقد وجدنا مسكنا بمساعدة أناس في الكلية وانتقلنا على نحو سريع الى خمس غرف مجردة باستثناء قليل من الأثاث مع شرفة

ونوافذ ضخمة ممتدة من الارضية حتى السقف ولكنها كانت يسدون مدفأة أو شلاجة أو سخانات أو ستائر . كانت الدُور رطبه وجسداً ولكنها كانت مظلية بالكلس ، بحيث أنك لو اتكأت على الحائط فسان ملابسك ستغطى بالمسحوق الابيض . أمضينا معظم وقت فراغنا في البازار القديم وفي مركز المدينة التجاري ، مواجهين ولأول مرة في حياتنا صفقات شراء كبيرة من الحاجات المنزلية . رأينا الكثير من الأكراد في البازار ، وفي البداية لم أكن أميز بين المحليين واللاجئين . كان قد اخبرنا رجل جالس بجانبنا في الطائفة من طهران الى ريزاي أنه قد قدم المساعدة لمعسكرات اللاجئين التي أقيمت في المنطقة لآيسوا وتقديم الغذاء لآلاف من الذين مروا من القصف العراقي . ان الثورة القائمة حاليا كانت قد بدأت في الربيع الذي سبق وصولنا الى ايران ، وكانت الحكومة الايرانية تدعم الاكراد بنشاط ، وتقدم لهم السلاح وتشجعهم على جلب عائلاتهم الى حيث الأمان في ايران . كنت اتشوق للاطلاع على هذه الحرب ، وخاصة عندما اكتشفنا وجود عدد من الخبراء العسكريين الامريكان ، وقد كانوا يسكنون في ريزاي وكانوا يسافرون على نحو دوري الى الحدود العراقية لاعطاء التعليمات عن استعمال الاسلحة . كانوا يصرون على التأكيد بأنهم يلقنون التعليمات لعناصر في الجيش الايراني ، ولم أضغط عليهم أكثر من ذلك ، فقد كنت مدركة أنني لم أحصل عليّ إلاذن من الحكومة الإيرانية للبحث في اللغة الكردية التي تشكل أهمية أقل بكثير من حرب حدودية سريّة .

كانت عائلة كبيرة من اللاجئين تسكن خلف منزلنا مباشرة لقد وصلوا حديثاً مثلنا الى ايران وقد كانوا أغراباً في الجوار على نحو يلفت النظر. بدأ منزلهم مهتلجاً بالنساء والاطفال وقد كان جيل الفسيل المعلق في الشرفة مكسواً بالملابس القوس قرحية وملابس أطفال غربية حديثة. الى جانب البهجة نسائية كردية تقليدية من المخاميل والاقمشة المطرزة . كنت أنا وجيزد نحدق بافتتان من نوافذ مطبخنا عبر ساحة المنزل الى حجرة جلوسهم ومن حين لآخر ، كنا نلمحهم وهم يختلسون النظر اليينا بالمثل . وفي أحد الايام علقوا الستائر ببر

ليجربوا منا روءيتهم وقد واصل بعضنا التحديق في البعض ونحن في الشارع ولكن لأحد من الجانبين سيبادر بالتحدث أولاً .

كنا نرى الأكراد في طريقنا ، في كل مكان نذهب اليه في مركز ريزاي التجاري . كان رجال من الأكراد بعماماتهم المهدبة يتجمعون في زوايا الشوارع أو يجلسون عند النوافذ في المقاهي . كانت النساء الكرديات يتجمهرن في البازار وبعضهن كن يرتدين الاغطية فسوق لباسهن . ولكن خلافا للعباءات الفارسية ، كانت هذه الاغطية مجرد زركشات سوداء تكشف عن الالبسة التي دونها ، ونساء أخريات كن يمشين دون حجاب وكن مغطيات فقط بطبقات من الأثواب والصنادير وسراويل مصنوعة من المخامل والساتين ، مصبوغة بكل لون يمكن تصوره .

لفتت نظري ساحة منزل مأهولة بسكان أكراد مرت بها في طريقي من وإلى الكلية . كانت سيارة لاندروفر خضراء رمادية طويلة تغلف عادة خارج الأبواب الفيروزية التي تؤدي إلى الباحة حيث كنت أصدق دوماً بشابين متوردي الخدين يحملان واجهة السيارة أو يحملانها بحزم أو يفرغانها . كانا يرتديان سروالين خاكيتين مكويين بشكل جيد ، ذلك السروال الكردي ذو الساق الواسعة المجتمع أو غير المجتمع عند الكاحل ، وذلك حسب عادة القبيلة المنتمى إليها . والبذلة كاملة تتضمن وشاحاً حول الخصر وعمامة . عندما كانت أبواب الفناء مفتوحة قليلاً كنت ألمح أحياناً رجلاً ذا وجه نحيل يفع على رأسه عمامة ضخمة سوداء مهدبة . وقد رأيت مرة امرأة قصيرة ممثلة ترتدي سترة فضفاضة من المخمل القرمزي . كانت ترافقها فتاة شابة جميلة ذات صفائح طويلة وفكرت في نفسي أنها تشبه بطلة من حكايات الجن .

بينما كان الآخرون في المدينة يحدقون في كأمراً أجنبية مكشوفة ، كنت أنا الأخرى أصدق في الأكراد . لقد بدوا معتاديين على التحديق أكثر مني . ولكن أحد منهم لم يتكلم معي ، أو حتى يجيب على نظراتي الباحثة . وكثيراً ما صرح لي الناس الذين أعرفهم أنه يجب أن أتخذ سبيلاً واضحاً من هؤلاء الناس الجبليين اللفظاء . وقد

بدأ يتكون لدي تصور أنني لن أقابل أيًا من الاكراد أبداً في ريزاي وقد بلغت درجة تكونت فيها لدي شكوك بأنني لم اختر اللغة المناسبة لدراستها . ليس فقط أن كل القاطنين في ريزاي يتكلمون الآزيرية التركية فحسب - وهي فرع من التركية تتصل الى حد بعيد بالتركية - المتداولة في استنبول بالقدر الذي تتصل فيه الكردية بالفارسية - بل أن شفاهم ترم باحتقار كلما ذكرت الاكراد .

يسمى الاتراك مدينة ريزاي في خدمة الحكومة المركزية فـي طهران مثل جميع المدن الإيرانية الواقعة الى الشمال والغرب من المدينة الكردية مهاباد على طول شواطئ بحيرة ريزاي . أن اغلبية الموظفين ذوي الرتب العالية هم من الاصقاع الإيرانية التي تتحدث بالفارسية ولكن مخفر الشرطة والسلطات المحلية والمدارس والبنوك كلها قد زودت بالمساعدين الاتراك . كانت ريزاي تدعى أورميا ، قبل نهوض سلالسة بهلوي الحاكمة في ايران وهو اسم قديم جدا لدرجة انه ما من أحسد متأكد من أصله حقيقة . وقد أعيد لريزاي اسمها القديم بعد سقوط محمد رضا بهلوي الذي كان قد اطلق هذا الاسم على المدينة نسبة لأبيه الممقوت جدا . وبالنسبة لبعض الشعوب مثل الآشوريين المسيحيين الذين حكموا هذا الجزء من أذربيجان الغربية فترة من الزمن ، فلم يعترفوا بأن هناك مدينة تدعى ريزاي او بحيرة ريزاي ، بل فقط - مدينة أورميا وبحيرة أورميا - وهؤلاء الآشوريون يتتبعون أنسابهم من بقايا الامبراطورية الآشورية القديمة ، ويبدو أن هؤلاء الآشوريين القاطنين في ريزاي وكذلك يهودها كانوا يسكنون المدينة منذ زمن موغل في القدم . ولكن كلا المجتمعين قد انخفض عددهما الى حد كبير في القرن العشرين . اليهود عبر هجراتهم المتتالية الى اسرائيل والآشوريون خلال المذابح الجماعية . وفي اواخر القرن التاسع عشر اجتذب الآشوريون في ايران على الحدود العراقية مباشرة مساعدة البعثات التبشيرية الأوروبية والأمريكية . وفي الحقيقة كانت الكلية التي عملنا فيها في الاصل قد بنيت كمستشفى من قبل الأمريكان الذين أتوا لمساعدة المسيحيين الفقراء المتمسكين بعقيدتهم القديمة وسط الهجوم الاسلامي الضاري . وقد أشار هذا الاهتمام من قبل الغربيين

بعض الشك والغيرة لدى جيرانهم المسلمين ، فكان الآشوريون يذبحون على نحو متتابع وبأعداد كبيرة بأيدي الأتراك والأكراد في بدايات القرن العشرين . وبعد ذلك أصبح سهل أورميا يخض الأتراك وحدهم ، على الرغم من الجهود الكردية لنيله ، ولا يزال الصراع بين الأكراد والأتراك مستمرا على أورميا . ان طهران التي لاتنفيد الأتراك فسي شيء عدا استخدامهما ايهاهم ضد الأكراد ، تتدخل عندما يكون للأكراد اليد العليا ، كما فعلوا سنة ١٩٤٦ وقد كرروا هذا ثانية بعد سقوط الشاه سنة ١٩٧٩ . ولكن خلال اقامتي في ريزاي ، بدت المعساة الحقيقية كما لو أنها في الماضي . كان الأكراد الذين التقيناها هم يفتخرون بقدمهم الى ريزاي منذ عشر سنوات قبل وصولنا وأنه سيتم قبل اغلقوا المدينة ردا على غارة تركية على قرية كردية ، ولكسب حتى هذا النوع من الحرية المتاحة للجميع قد قمعت بشدة من قبل السلطات الحكومية وبشكل مؤقت على الأقل . وقد تسرب البوليس السري بهراة الى المدينة التركية وضواحيها من القرى الكردية .

عندما أتينا في البداية ، لم أقدر كم كان عدد اللاجئين والفرويين الذين يمرون بسهولة عبر المدينة من ضمن الأكراد الذين رأيتهم ولم أكن أعرف كم يخاف جيران الأتراك هؤلاء النـسـاس الجليين العنيفين الذين تحيط قراهم بمدينة الأتراك وكم يحتقرونهم ولأسابيع عديدة حدثت بحزن وكآبة في لباس الأكراد الملائم لحكايات الجن وهم يمرون أمام ناظري في الشوارع ولكن بعد كل ماعرفتـه عنهم كان من الممكن أن أعود الى امريكا والاحق صفحات من كتاب ماعن رحلة شامضة .

* * *

الفصل الثاني

في ريزاي لم استخف بما كان يحدث في الشارع أبدا ، فلاشيء مما يحدث في الشارع الايراني يمكن أن يكون شخصيا أو خاصا . ففي الكثير من الاحيان وجدنا أننا وجيرد نفسينا مع جمهور قد احتشد ليصفي الى محادثاتنا ومجادلاتنا . وعندما كنت أتمشى وحدي كان بعض الرجال يتسكعون على مقربة مني تماما . وفي مكان كهذا فان المنازل تحتاج الى جدران حولها لحمايتها من الشارع . والعباءات " الخيم " هي امتداد لهذه الجدران ليس غير .

لفترة قصيرة سأأقلم مع الشارع متناسية تقريبا أين كنت ، وبعدئذ سيحدث شيء مايعيدني الى اليقظة ، وسأدرك أنني كنت غريبة ، وأني فريسة لكل فضولي وفاسق كان يلاحقني بنظراته . لكن وعلى الرغم من عدم شعوري بالأمان في مركز المدينة او في الاحياء الغربية فقد أصبحت تدريجيا أثق بالذين يحيطون بي في الوقت الحالي . وبما أننا كنا نقطن على مسافة بعيدة تماما عن الشارع الرئيسي ولأن سيارات الاجرة كانت وسائل نقل جماعي ، مع مسافرين آخرين متوجهين الى أماكنه مختلفة فقد كنت أعادر السيارة عند بداية زقاق أمير فلاح وكان علي أن أمشي كل يوم بمحاذاة الجدار العالي الذي يحيط بمنزل الأهل أمير فلاح ، ذلك الرجل الغني الذي يشغل منزله المساحة المجاورة كلها . وهناك في الزاوية وتماها عبر البوابات الكبيرة المؤدية الى باحة منزله كان يقف ثلاث أو أربعة شبان بستراتهم الجلدية والجلينسز المستوردة ، لقد كانوا أولاد رجال أغنياء ، تبدو النظافة عليهم على نحو جلي ، وليس لديهم مايقومون به أفضل من التسكع بالمدرسة .

بعد فترة ليست بطويلة من انتقالنا الى هذا الحي ، اقتنى أحد هؤلاء الصبية بندقية ذات رصاصات صغيرة ، كنت بعد ذلك كلما مررت راقبت البندقية ووجهة تصويبها . كانت هذه البندقية تشيهر أعصابي حتى بعد أن قابلت والد الصبي الذي يقتنيها . لم أفهم لماذا يحتاج أحد ما بندقية في هذا الزقاق الاسفلتي المغبر ، فقد كانت الطيور كلها داخل جدران حدائق المنازل . يبدو أنه لا يوجد لعبة مثيرة أخرى غير ارباك الناس .

ربما كانت تلك البندقية كناية عن شيء ما ، فالصبي الذي كان يحملها كان قصيرا ونحيلا ، ولكنه ككل الذكور كان يحتاج لظهار قوته في الشارع . كان بعض الناس يعتبرون الغطاء زيا قديما ومع أن والسدة هذا الصبي لم تكن تفع الغطاء ، فقد كان لا يزال يحدق في كما لو أنه لم ير من قبل امرأة بدون غطاء أبدا .

عندما كنت امشي بمحاذاة جدران منزل أمير فلاح القرميديه ذات اللون الاصفر كنت أجبر نفسي على إلقاء التحية على صاحب البندقية . وبعدئذ استمر بالمشي لأعرج الى زاوية زقاقنا ، مارة بحذو أعالي أشجار الكرم التي كانت تتدلى على جدران حديقة أمير فلاح . كان زقاقنا يقع في منطقة مبنية حديثا ، لذلك كانت واسعة بحيث تكفي لمرور سيارة وقد كانت معبدة أيضا ، فالكثير من الأزقة في ايران هي مجرد ممرات ضيقة مع مجاري صرف مفتوحة تلحق بالمركز .

وجدت نفسي ضجرة من الجدران بعد الاسبوعين الأولين من إقامتي في ريزاي . لقد كانت تمنعني من رؤية المدينة على ما هي عليه ، حتى أثناء ركوبي عاليا في الحافلات ضمن المدينة فلم أستطع رؤية الجانب الآخر من الجدران داخل المنازل والحدائق في ريزاي وكل شيء واهل امرئ مختبئ وراءها . كان لمنزلنا أيضا جدار في مقدمته ولكن بما أن زقاقنا كان قيد البناء فان كل بنايي الأجر الذين يعملون في الطابق الثاني في شقة تبني في الجانب الآخر من الشارع كان باستطاعتهم التحديق صوب شرفتنا ومن خلال نوافذنا .

بعض النساء في ايران يفتخرن لأنهن لم يفعن الغطاء أبداً في حياتهن ، على الأقل كن يظهرن ذلك أمامي . ولكن اذا كن من المسلمين الشيعيات فقد كنت أنزع الى عدم تصديقهن . لأنه لابد أنهن قد وضعن الغطاء ولو في مناسبة ما لكي يتقدين على الدخول الى الجوامع الكبيرة أو المعابد مثل ضريح الامام رضا في مشهد . لن أراهن على أن أي امرأة قد خرجت مكشوفة فعلا طوال حياتها في ايران عدا المسيحيات واليهوديات أو نساء البهائيين الذين يعتبرن الغطاء عيباً . ولكن علي أن أكتشف ذلك - هنالك درجات عديدة من الاغطية تتدرج ابتداءً من أوشحه رأس بسيطة تربط مسدلة على الجبين بشكل لا تظهر منه أية ملامح جمالية وانتهاءً بالعباءة السوداء العراقية الطراز مع غطاء للوجه وأكمام مفتوحة بشكل طولي . والغطاء المألوف في ايران، الحجاب ، ليس الاقطة رقيقة من القماش ، وعادة تكون بلون فاتم ، وأحياناً بنقوش صغيرة . ان تعديل القماش جيداً في مكانه المناسب له أهمية كبيرة جداً في تقرير قيامه بالوظيفة كخمار ساتر مفاتن التي ترتديه . وكما ترينني الآن فاتنه بزّي هذا ، فذلك ستكونين أيضاً بدون هذه الاغطية التي تستر مفاتنك .

خلال عهد والده الشاه الأخير رضا شاه ، كان الحجاب قد حرم في ايران ومثلما فعل أتاتورك في تركيا فقد أراد الشاه أن يجعل بلده غربياً في ليلة وضحاها . ولكن حيث نجح أتاتورك فشل في ذلك الشاه . فقد ظهر الغطاء ثانية كخمار أقل جدية ولا يشمل الجسم ولكنّه كان كلي الوجود . ففي المدن الكبرى والقرى الصغيرة على حد سواء ، استمرت أغلبية نساء الفرس والأتراك في استخدام الغطاء على الرغم من تحقيقات رجال الصحافة الغربيين الذين لم يقوموا بها في الاحياء الأكثر فقراً ، يسود الغطاء على نحو فعلي .

ان الأفراد هم من بين المجموعات الاسلامية القليلة في الشرق الاوسط الذين لا ترتدي نساءهم الغطاء على نحو تقليدي . وفي القرى يسكن الناس في الخيام - الشوادر - عندما يتبعون قطعانهم للرعي في الصيف ، ولا يرتدون الشوادر هذه . أما في المدينة فغطاء النساء الكرديات يعتمد على غنى العائلة وعلى درجة الاحتكاك بالمدينة . فأفقر

معارفي مثلاً ، وهي امرأة قروية تدعى صلحية ، لم يكن لديها غطاء
وعندما أتت صلحية الى ريزاي حيث كان ولد ها طالبا في المدرسة
ال ثانوية ، كانت ترفع وشاح رأسها البرتقالي لتغطي عنكها وقمها
عندما تكون في الشارع ليس الا . ونساء كوريات أخريات في أنحاء
ال بازار كن يرتدين أثوابهن الفففاضة ، وأوشحة روءوسهن كنما لوأنهن
في القرية ، ولكن نساء أخريات أيسر حالا كن معظم حياتهن في المدينة
كان غطاءهن متفقا مع العرف الاجتماعي والذوق العام . وعلى الرغم
من طبقات البستهن العديدة فالكوريات قليلات الحاجة لأغطية أخرى
ويتحسن من نظرات الرجال الفرس والترك المحبذة فيهن . فمن
الصعب تماما أن تكوني كوردي في مدينة تركية دون أن تظهر
مكشوفة .

حقيقة أن الاغطية في كردستان ليست جزءا أساسيا من اللباس
النسائي كانت واضحة أيضا من لباس اللاجئين العراقيين . ونساء القرى
القبلية في معسكرات حول ريزاي لم يضعن الغطاء أبدا سواء في
المعسكرات أو أثناء زياراتهن للمدن ولكن زوجات وبنات الجنرالات
وقواد الحزب الديمقراطي الكردي اطلعن حالا على العادات الإيرانية .
وبعض من النساء العراقيات الأكبر سنا والأكثر تقليدية كن يضعن
العباءات التي جلبنها من العراق حيث تلبس النساء العربيات الغطاء
بشكل عام . وفي العراق أيضا بدا أن نساء الطبقة العليا من الأكراد
المقيمت على نحو دائم في المدينة بين العرب كن يستعملن الغطاء . ولو
أنه يختلف عما هو في كردستان إيران فان بنات هؤلاء النسوة كن
يحضرن الى المدارس ويظهرن كلا من اللباس الكردي التقليدي والغطاء جانبا
وأثناء نفيهن في إيران كانت الواحدة تلو الأخرى منهن تجبر من قبل
ذويها على ارتداء الغطاء . لقد كن يفضلن على العباءة التي كانت
تميز مباشرة من قبل أصحاب الدكاكين في ريزاي كعلامة تدل على
الغريب .

في حينما المأهول على نحو خاص بسكان أتراك منتمين
للطبقتين الوسطى والعليا رأيت القليل من الاغطية ، وفي الحقيقة رأيت

القليل من النساء . وبدلاً من ذلك فانك تجد السيارات . فالنساء في هذه الاحياء يقدن السيارات كبديل لارتداء الخمار الذي بطول ريشه . والألبسة المفضلة لدى جارتى شهرزاد والسيدة جام كانت تتألف من جزء علوي وهو عبارة عن جورسيه مقفور ، بالإضافة الى تنانير أنيقة نادراً ما كانت تقلل من اهتمام الرجال في الطريق . و فلبس ببقائهن في السيارات كانت تلك النسوة قادرات على أن يبقين محتشمات وماضيات على الطراز الحديث في الوقت نفسه . وباستخدامهن سياراتهن كغطاء فقد كن يذهبن من مدخل باب الى آخر ولو الى قطع مايقارب دزينة من المحلات التجارية المتلاصقة وبعدد تتوقف سياراتهن ثمانية . والسيدة جام الأكبر سناً كانت تخرج فقط لعمل ملح معتمدة على النقود وعلى منزلتها الاجتماعية ، لتجلب الناس الى منزلها . ولم تكن تبرع في قيادة سيارتها المرسيديس ، فقد كانت كثيرة الاصطدام بحواجز الشوارع ، والحواجز الحجرية عند حواف الطرق والجدران وبسيارات أخرى أما شهرزاد فقد كانت تناور بسيارتها اليابانية الصغيرة بشكل أفضل بكثير . وعلى الرغم من اشاعات بذيئة كانت تكثر حول شهرزاد تشير الى أنه كان لها المئات من " الخلان " قبل أن تتزوج وهي في الخامسة عشر من عمرها فقد اخبرني بأن زوجها هوشنگ يثق بها ثقة مطلقة ، وأنه قد سمح لها بأن تقود سيارتها الى أي مكان تريده .

في المرة الأولى التي رأيت فيها شهرزاد وهي امرأة عامرة الصدر ممثلة الجسم مفعمة بالصحة على نحو جذاب بعينين تحمسلان أهداباً كثيفة ، وشعر فاحم ، كانت تقف في ممر منزلها مشيرة اليها بالحاج أن ندخل قاعة :

- " بفرماييد ، بفرماييد "

وهي الدعوة المختلفة الاغراض حيث تشكل المرتكز " حجر العقد " لحسن الضيافة والوفادة الإيرانية .

كنت أميل الى الذهاب مباشرة الى بيتها ولكن الإيراني الذي كان معنا رفض دعوتها بلباقه . وبدلاً من قبول اعتذاره ألحت أكثـر من ذي قبل مشيرة بيدها الى مدخل بيتها المعتم ومتحركه الى الخلف

مع هسهسه من شفتيها ، طالبة منا أن نتبعها . رفض الإيراني ثانية بأدب ، ولكن باصرار فأومأت شهرزاد برأسها وخرجنا الى الفندق ونظرنا الى الأعلى مرة أخرى ، الى حيث شرفة الطابق الثاني الذي كنا نعتزم اشتجاره . قال الرجل الإيراني وهو مدرس في الكلية :

- أنت محظوظة ، جارتك ودودة جدا فقد سألتها الموظف الموجه إذا كانت ستسمح للأمريكان بالسكن في نفس المنزل معها فأخبرته أنها ترحب بذلك . وكما رأيت الآن ، فقد أرادت فعلا أن تدخلني الى منزلها .

في غضون الايام الاولى من استقرارنا في مسكننا الجديد كانت شهرزاد تبسم وتكرر دعوتها لنا في كل وقت ترانا فيه وحالما قدرت على ذلك ، فقد قبلت الدعوة ووجدت نفسي في كرسي منخفض منجسد ومريح ، تقدم الي الشاي والحلويات . ادير مفتاح التلفزيون الموضوع أمامي وقد كنت اتحول بين التحديق في وجه المغنية السمينه الممكيج باتقان ومحاولة التحدث مع شهرزاد ، وفي وقت متأخر قابلت هوشنغ زوج شهرزاد وهو رجل نامي العضلات ربع الغامة ، وقد ارتدى قميصا وسروالا أنيقين . وكان يتكلم القليل من الانكليزية . وكثيرا ماكانا يخبراننا بأنهما يرحبان بنا أنا وجيرد دائما في منزلهما .

لقد كانت أسابيعة الاولى في ايران محومة بكل صعوبات اقامة منزل في أرض أجنبية . وشهرزاد وهو شنف كانا قلقين بشأن المشاكل التي تصورا أننا نواجهها . فقد سألني هوشنغ عن كيفية ايجادي الوقت لشراء الغذاء واعداد الوجبات نظرا لتواجدنا كلينا طوال الوقت في الكلية ، ولعدم وجود خادمة لدينا ، ابتسمت غير موضحة الموقف وأنا افكر بأن كل ذلك صحيح ، فلم يكن لدينا الوقت الكافي فعلا وكما لو أنه قرأ افكاري ، دعنا هوشنغ مباشرة لتناول جميع وجباتنا معنا . وعندما رأى أن قوائم كراسينا المعدنية كانت تحفر فجوات في الارضية الكلسية اللينة لحجرة جلوسنا الضخمة ، عرض علينا هوشنغ أن يعيرنا بساطين ايرانيين كبيرين مصنوعين آليا . وموخرأ سألنا هوشنغ متى سنتفرغ لنحل عليه وعلى شهرزاد غضبوف في

النادي الليلي الذي كانا يترددان عليه . نادي ليلى ؟ . لقد قُدرت
عرض الوجبات علينا على الرغم من أنها كانت دعوات سخية جدا لقبولها
وبسرور أخذت البساطين ولكن هذا العرض الجديد قد ضايقني قليلا فأننا
لم آت الى ريزاي لأزور النوادي الليلية . تطوع جيزد قاتلا بفظاظة :

— مارغريت لاثحب النوادي الليلية كثيرا .

نظر هوشنغ بفضول . فهو لم يتوقع أن يلتقي بأمريكية لاتذهب الى
النوادي الليلية . وقال بلطف :

— حسنا ، لربما تحب أن تذهب في وقت آخر . رجاء أخبرينا

عندما تكونين مستعدة لذلك .

استقرت بنا الاوضاع تدريجيا في الكلية حيث بدأ الدوام في
صفوفنا بعد اسبوعين أو ثلاثة ضمن برنامج محدد المواعيد . وقد
زود بيتنا بثلاجة ومدفأة وسخانات للشتاء وقطع عديدة وغربية من
الاثاث الذي أعارته لنا الكلية على مضي بعد أن قدمنا عريضة الى
عميدها . والآن بما أننا لم نعد بحاجة للتسوق كل يوم بعد العمل
فقد اجبرت على ملاحظة شعوري بوحدتي المتنامية . فهذه المسألة لم
تكن نتيجة لعدم تصرف الناس معنا بود . ففي الكلية كان كل امرئ
يبتسم لنا ويسألنا عن صحتنا باطراد . وكنا دوما نجد أناسا شغلس
معهم خلال تناول الغذاء في حجرة الطعام التابعة للكلية لكن عند
التفكير في ذلك كان يخطر في ذهني أنه من المحتمل أننا لم نكون
قد فهمنا نظام التشريف بعد ، وقد كنا نجلس مع كل من نريد . وفي
الحقيقة ، وبدون علم منا ارتكبنا زلات اجتماعية كافية لتجعل
الاييرانيين حولنا أن يطبقوا افواههم بانفعال . ومع ذلك فقد
ظلنا نقع في تخططات أكثر . فلم يخبرنا أحد بأننا ننقص أنفسنا
بركوب حافلة المدينة جنباً الى جنب مع العمال والطلاب . ولم يسوح
الينا أحد أنه ليس من الضروري أن نقبل الدعوات التي توجه الينا
من اللحظة الاولى . كنا نتحدث مع الناس حولنا بالآلفة الميسورة
التي يسلم بها الامريكان ، طائنين أننا كنا مهذبين وحساسيين
بالمقارنة مع بعض الامريكان الآخرين الذين رأيناهم في المدينة . وعلى

نحو خاص خبراء الاسلحة التابعين لجيش الولايات المتحدة الذين كانوا يأتون أحيانا لتناول الغذاء في الكلية كضيوف على أستاذ إيراني يدعى السيد خشيني . والشئ الذي لم نكن نفهم كنهه هو أن الإيرانيين كانوا يجلوننا جميعا . بنظرتهم دون تمييز ، فرقة السلام ، الجيش وبجاشة عن الاكراد و الكردية . ولكنني كنت أرتاب في افتقار الناس من حولنا للشعور الودي . فلم أكن متأكدة منه على الاطلاق .

في البداية تحدثت عن رغبتي في لقاء الاكراد لأناس كنت أظن أنهم غربيون على نحو كاف لفهم مشروع كهذا . وقد حرفت أن هذا يمكن أن يعتبر حساسا من الناحية السياسية بالنسبة للحكومة . ولكن لم يخطر على بالي أبدا انه يمكن أن يكون حساسا من الناحية الاجتماعية أيضا . وعندما كان يجابه بطلبي واهتمامي الغربيين أعضاء مثقفون من الالمان والامريكان في الكلية ، كانوا يبتسمون بأدب فقط ، ويقولون بأنهم سيبدلون جهدهم ليقدموني الى بعض ممن - وهنا توقفوا هنيئة وأردفوا قائلين : - من الاكراد .

عندما كان جيرد يعود من الكلية بعد الظهر كان يأخذ ساعة من النوم ، أما أنا فقد كنت أنقر من النوم ، لذلك فقد اعتدت على التردد الى الطابق السفلي حيث منزل جيراننا الجعفريين . ولم تتخل شهرزاد أبدا عن ابتسامتها المرحبة ، وطبق الحلويات و تلفزيونها البواق ذي الدوي العالي . تكلمت عن اعتزامها السفر لتعلم الانكليزية للقيام بأي شئ بالإضافة الى العناية بالأطفال . وعلى الرغم من كوننا من نفس العمر بالضبط . فقد تزوجت قبلي بثماني سنوات وكان لديها طفلان . وبما أن لها خادمة متفرغة تدعى نانا ، وأم متفرغة وتسمى مامان ، حيث تعيش مع العائلة وتقضي معظم وقتها في العناية بالأطفال ، فلم أر أن ابنها وابنتها يشكلان عبئا عليها .

كانت شقة شهرزاد صورة طبق الاصل عن طابقنا العلوي حيث كانت قد لفت بطراز ثمين ، فقد بسطت على الارض سجادات من تبريز وكاشان وقد غطيت النوافذ بالمخمل متناسب مع الطاقم المطلوب من الكراسي المزخرفة المنجدة بالمخمل حيث كانت الموضة الدارجة في ايران . لم

أحد يجلس على الأرض ، فقد فصلت حجرة الجلوس أو ردهة الضيوف عن حجرة غذاة رسمية يستأجر من الأورغنزا موءطرة باتقان وقد أزيحت الى السوراء .

كانت حجرة الطعام بطرازها الازرق الباهت المجلوب من كاشان توحى بمنظر مقامرة من الوزن الثقيل تعقد في نهاية كل اسبوع . كان هوشنغ المتعهد الحكومي يملك الكثير من المال ، بحيث لم يكن يسدرى ماذا يفعل به . لقد كانت النقود تتكوم لديه ، وقبل ثلاث سنوات - على الرغم من عدم امكاننا اعتبارهم فقراء - كانوا لايملكون هذه البسط أو هذه الكراسي المصنوعة وفق طلبهم . لم تكن ممتلكاتهم القديمة المكونة في قبو منزلنا مترفة لهذا الحد ، وحاليا ينشئ الجعفريون منزلهم في جزء آخر من المدينة ليتلافثوا مع ثروتهم الجديدة .

كان الجعفريون في بيئة مدينة ريزاي يعتبرون منتهكين فلا أحد يعتبرهم حسني الاسلام . فقد كانوا يقامرون ويعاقرون الخمرة ويرقصون . كانت شهرزاد تعتبر امرأة منحلة ، والشئ الغريب هو أنهم لو كانوا في أمريكا ، لكانوا يعتبرون عاديين ، وربما حتى مملين ومحتشمين أيضا . لم تكن لدى شهرزاد فرصة للقيام بشؤون أخرى مع كل استهتارها المتحرر من كل قيد . انه لشئ لايتصور أن تقضي وقتا مع أي رجل ليس بزوجها أو قريبها الحميم . أنجبت طفلها الأول في السادسة عشرة ، وتعيش أمها معها الآن وقد كانت توءكد على ارتداء الحجاب حتى انها أحيانا كانت تلبس ابنة شهرزاد ذات الخمس سنوات الحجاب عندما تأخذها الى اجتماعات النساء الدينية .

كثيرا ما أحبرنا الجعفريون من سعادتهم بجيرتنا ، لقد أحبوا أمريكا ويأملون في زيارتها ، لقد أرادو أن يتكلموا الانكليزية معنا ، ورغبوا أن نريهم آخر صيحات الموضة في الألبسة والرقص وسبل المعيشة . لقد توقعات منهم أن يخبروني عن العسادات والتقاليد الايرانية التي استمرت عبر القرون . لقد كانت هذه ايران التي أهتم بها ، وليس ايران ذات السيارات المستوردة وحفلات

السكر التي تنعج بالكلام المتملق الحسن . ولكنني أدركت بالتدريج كم كنا على أهداف مفترقة . لذلك ترددت في الحديث عن مشروعي المتعلق بالأكراد لشهرزاد . ان القدر الذي كانت تعرفه فقط هو أنني قسدت قطعت مسافة مايقارب نصف محيط الارض ليس الالتعليم الانكليزية في كلية ريفية صغيرة وغامضة . بدا هذا غريبا لها ولم يمر وقت طويل حتى سألتني عن ذلك قائلة :

- لماذا تختار أجنبية ، أمريكية أن تعيش في مكان مثل ريزاي ؟ . ماذا يمكن أن أفعل في مكان متخلف مثل هذا ، حيث لا يوجد فيه سوى ناد ليلي واحد فقط ؟ أخذت نفسا عميقا وأخبرتھا :
- لقد أتيت لأدرس الكردية ، وأريد أن أوّلف كتابا عن قواعد اللغة الكردية :

تظاهرت كما لو أنها لم تسمعني وبدأت تتحدث عن رغبتها في ذهاب ابنها الى مدرسة داخلية في انكلترا ليتعلم التحدث بلغتي بطلاقة سألتھا :

- ولكن ماذا عن ابنتك ؟ ألا تريدین ارسالها هي أيضا ؟ .
رمقتني شهرزاد بنظرة مشدوهة ، أولا الأكراد والآن هذا .. حتى النساء ذوات المظهر الحديث مثل شهرزاد لا يفكرن في أن تكن فتياتهن مستقلات . ماذا سأقول أكثر من هذا ؟ أفضل من أن ارتكبني قسول شيء خطأ آخر ، أغلقت فمي بينما استمرت هي في الشرثرة .

واظبت على روءيتي لشهرزاد ، فقد بدت متشوقة لقضاء وقت معي على الرغم من برنامجها الاجتماعي الممتلئ . كنت أعرف أنني لن أتقرب من الأكراد بانفاق الساعات من وقتي دون أن أقوم بجهود وأنا جالسة أمام خزانة تلفزيونها الفخمة أحتمي الشاي وأكسل الحلويات ولكنني على الأقل كنت أحسن لغتي الفارسية والشيء الأكثر أهمية اني كنت اتجنب الوحدة في أرض غريبة جدا عني .

كان الأكراد دوما في أعماق ذاكرتي لدى تحدثي مع شهرزاد ربما كانت تعرف بعض الأكراد ولم تكن تخبرني ، وربما عندما نعرف بعضنا أكثر أتمكن من اشارة الموضوع ثانية ، وفي ذلك الحين

حاولت أن ازيد ثقتيها بي بعدم التحدث عن السياسة أو عن نزاعات
تحرر المرأة أو عن الاكراد .

لقد تعلمت الحذر ليس مع شهرزاد فقط ، بل مع أي شخص يمكن
أن أطلب منه أن يقدمني الى الأكراد . ولكني بدأت أدرك أكثر من ذي
قبل أنني لن أقابل الأكراد فقط بمصادفتهم في الشارع . وفي الكلية
دأبت على طلب هذا من زملائنا المدرسين والاداريين والطلاب . وذكر
الكثيرون انه هناك مدرس كردي بيولوجي في الجامعة من منطقة ريزاي
ذهبت الى مكتبه وصافحت رجلا نحيفا مرتديا سروالا أنيقا جدا
متناسقا مع قميص أنيق وربطة عنق حول رقبته . كان لا يكاد يتحدث
الانكليزية قط بما أنه قد أمضى الخمس سنوات الاخيرة من دراسته في
باريس ولكنه أكد لي أن لغته الأم هي اللهجة الكردية التي أهتم بها .
وبعد عدة عبارات مهذبة ودعوات متلهفة لزيارة منزله ، ألقاها في
مزيج من الانكليزية المتكسرة والفرنسية ، أخبرني أخيرا عن مكان ولادته
فهو لم يكن خارج المنطقة التي اهتم بها فحسب ، بل حتى أنني بسدت
أتساءل في نفسي بعد قضاء نصف ساعة في مكتبه اذا كان يقدر على
التحدث بأي لغة غير الفرنسية . لم تكن لدى بعد الخبرة الكافية
لأدرك أن ربطة عنقه الحريرية وسيارته البيجو الجديدة ذات الملامسة
التجارية وطريقته المداهنة تنم عن غربة طويلة عن الحياة الريفية
وقد بدت عليه خيبة الأمل ، عندما نهضت فجأة لأستاذن بالمضيافة .
فسألني :

— ولكن أئن تأتي الى منزلي ؟ .

— ربما في وقت ما .

قلت ذلك على نحو غامض مندفعة من جو مكتبه المغلق والمعطر .

كنت كل ليلة في مسكننا ، أصغي السمع الى أصوات الكرمانيين .
اللهجة التي كنت أنوي دراستها ، المذاعة من محطة راديو ابرانيس .
لم أكن أستطيع فهم كل الجمل ، ولكني كنت اجلس الى جانب مذياعنا
أتمتع بالكلمات التي أميزها . من أين كانت تأتي هذه الاصوات ؟ . لقد
كانت الإشارة واضحة تماما بحيث أنني أدركت حالا انه من المحتمل أن

الكرمانجية تذاغ مباشرة من ريزاي ، ولكن الناس القليلين الذين سألتهم بدوا أنهم لا يعرفون الكثير عنها ، لابل أنهم لم يستمعوا الى البرامج الكردية في الراديو أبدا . ولكني واصلت الاستماع اليها ولو أن موجات الصوت كانت واضحة فقط لكنت تتبععتها حتى مصدرها .

على الرغم من عدم قدرتنا على اللقاء بالأكراد ، فقد كان هنالك أناس آخرون يريدون التعرف علينا . وكان على رأس القائمة اداريو دائرة الجيش الأمريكي ومفتربون آخرون . ولكن وجهات نظرهم المؤيدة للشاه وكرههم الشديد لليرانيين جعلنا حذرين . حتى ولو كانوا من أكثر الناس حذقا والاكثر وعيا من الناحية السياسية فلم نكن نرغب أن نمضي وقتنا مع متحدثين بالانكليزية والفرنسية أو الالمانية . فإذا لم أقدر على التحدث بالكردية ، فالفارسية كانت أفضل . ولكن على الرغم من أن جميع متحدثي الفارسية الذين كانوا يلقون علينا السلام أو يسألون عن صحتنا كل يوم فقد بدا أنه ليس لدينا أصدقاء حقيقيون سوى الجعفريين . كل من التقينا به كان بالنسبة لنا أميا أو خانما ، سيد أو سيدة . حتى الناس الذين كانوا في نفس عمرنا ومكانتنا كانوا يعطوننا فقط أسمائهم الأخيرة عندما كنا نتعرف عليهم ، لذلك كنا نضطر أن نخاطبهم بشكل رسمي . أوضح لنا الجعفريون هم فقط ، منذ البداية بأنهم يريدون أن نناديهم بأسمائهم الأولى بدون ألقاب . وقد كانوا الوحيديين أيضا خارج نطاق أصحاب الدكاكين الجريئين في استخدامهم الضمير " TO " الراجع للكلفة عند مخاطبتنا وهو المرادف الفارسي للفرنسي " TU " وذلك عندما التقينا للمرة الأولى . وقد انتظرونا أن نرد بمثل هذه الاليماء الدالة على المودة ولكننا لم نقدر ، ليس لأننا لم نرغب بذلك ، بل لأننا ماكننا قد تعلمنا الشكليات أبدا . ولدى عودتنا الى الجامعة في الولايات المتحدة كان مدرسنا الفارسي قد حذرنا بأننا كغرباء من المحتمل أننا لن نتمتع بامتياز مخاطبة أي من الإيرانيين بالشكل المألوف . حتى العديد من الاطفال الإيرانيين لا يستخدمون " TO " عندما يتحدثون مع والديهم . وعندما لم نرد بـ " TO " التي استخدمها الجعفريون ، انتقلوا بسرعة الى الضمير " YOU " الأكثر رسمية .

كانت هذه التبادلية مشكلة بالنسبة لنا ، ليس فقط فيما يتعلق باللغة ، بل أيضا فيما يتعلق بحسن الوفادة وكرم الضيافة . فقد استمر الجعفرليون بتقديم الطعام لنا ، ولكننا عندما كنا ندموهم للغذاء كانوا يوضحون وبالحاح بأنهم لا يشتهون ما كنا نطبخه ، ولقد كانت شهرزاد تدفع طعامها من جانب آخر في طبقها ببساطة ، بينما تحاول اطراءنا بأن طعامنا لذيذ جدا ، وبعد فترة قصيرة وافقنا على احتذاء ما يرغبون به في قبول دعواتهم بدون أن نقلق أنفسنا بكيفية رد فعلهم هذا . أخذنا اخوهوشنغ وهو عازف جيتار في جولة بالسيارة لنرى للمرة الاولى البحيرة التي تقع على بعد عشرة كيلو مترات من المدينة . وقد اصطحبنا شهرزاد وهوشنغ في إحدى نزعاتهم في ايام الجمع الى قرية باند .

خلال زيارتي اليومية لشقتهم ، كنت أعقد محادثات طويلة مع ابنة شهرزاد ذات الخمس سنوات ، حيث كانت قد بدأت للتو بتعلم الفارسية من والديها . لقد كانوا يريدونها أن تعرف شيئا مما بالاضافة الى لغتها التركية الأم قبل أن تبدأ بالذهاب الى المدرسة التي كانت تُدرس رسميا بالفارسية فقط . كنت أنا وجيرد غالبا ما نسأل نصائح هوشنغ وشهرزاد عن العادات والامراف الاجتماعية في ايران ، وفيما اذا كنا نرتكب خطأ في قبول دعوة بسرعة كبيرة أو أننا نوضح آراءنا بصراحة شامة أو أننا نلبس على نحو منافي للدوق ، ولكنهم كانوا دائما يبتسمون ويؤكدون لنا أننا كنا نقوم بكل شيء على ما يرام . وعلى الرغم من تأكيدهم كان الشعور بالقلق وبعدم الراحة يتنامى لدي أكثر فأكثر . فادانا كنا نتصرف كما يجب ، فلماذا كان يحرق فينا كل شخص في الزقاق ، في الكلية في الحافلات العامة ، بهذا الشكل غير الودي اذن ؟ .

ان الشغل المشالي للمرأة الايرانية هو أن تقضي وقتها مع قريباتها ، او اذا كانت أقل تقليدية مع صديقاتها ، تقتل وقت العصر بالثرثرة وأقداح لانهاية لها من الشاي مع المعجنات وطبعمي

أن مثل هذه المرأة لديها خادمة تمكث في المنزل تنعش الغبار عن الوسائد أو كما في حالة شهرزاد تستخدم المكنسه الكهربائية لتنظيف البسط الثمينة . والجدة تعثني بالأولاد . كان أطفال شهرزاد يدعون جدتهم بماما ، الكلمة الفرنسية التي اتخذتها الطبقات العليا والوسطى في ايران بدلا من كلمة " أم " و كانوا ينادون أمهم الحقيقية باسمها الاول .

ان لم تتواجد شهرزاد في دكان السلع النسائية أو عند مزيني الشعر أو الخياطين فأنها تكون مع أصدقائها وأقاربها . وذات يوم بينما كنت أمر من أمام باب منزلها دعنتني للدخول ، التفت حولي وأدركت حالا أن سروالي المخملي المهدب وفميصي ذا النقوش المربعة لا يلائمان المناسبة . لقد كنت محاطة بنساء مرتديات تنورات تصل حتى منتصف الساق ، وأحذية عالية الساق أو كما في حالة شهرزاد حيث كانت مرتدية فستانا أسود مقورا ، معدا للمساء . عندما قدممتني شهرزاد اليهن توقفن عن الحديث مع بعضهن ليمنحنني ابتسامات عذبة جدا ، وكلمات ترحيب بالفارسية ، وبعدد تحولن الى التركية ثانية ، جلست هناك ، محاولة أن أتمرف كجزء من هذه المجموعة ولكني شعرت فقط بالغباء والبلادة . فالنساء الايرانيات كن يشعرنني بالحالة الآتية : أنني مرتدية على نحو أقل منهن ، وأني ذات تعليم عالي ، وعموما يدعنني في حيرة . وماذا بهم اذا كانت العديدا ت منهن لم ينهين الشانوية أو أنهن قد سلمن أطفالهن للجدات ليقدرن على أن يقضين أوقاتهن في حفلات الشاي عصرا ، أو أنه ليس بينهن من لديها أدنى فكرة من السياسة أو الاقتصاد في البلد ؟ لقد كن يشعرنني بالدونية . وقد كنت أشعر بها فعلا ، وذلك لعدم قدرتي حتى على التحدث بلغتهن . وقفت في حيرة بينما احتشدن جميعهن في غرفة نوم شهرزاد ، حيث كانت آلة تمرين مستوردة ، غير مستعملة تقف في احدى الزوايا . تتبعتهن الى الغرفة وراقبتهن ، وكل واحدة منهن تخطو على حدة فوق ميزان شهرزاد ، فصدرت عنهن همهمات مفرغة ، لقد أصبحن بدينيات جدا حيث أن كل هذه الملابس

المستوردة التي يرغب فيها رغبة شديدة ستبدو مخيفة عليها .
ماذا بإمكانهن أن يفعلن ؟ كانت المسألة تُناقش بالتركية ، لذلك
لم أتمكن من تتبعها ، وقد تذكرن التحدث معي ثانية عندما هممن
بالمغادرة فقط ، حيث تحولن الى العارسية ثانية ليودعنني بصيغ
مسرفة في التعبير العاطفي .

في اليوم التالي ناولتني شهرزاد رزمة من الحبوب كانت قد
اشتريتها من الصيدلية المحلية ، حيث كان يباع كل شيء من الأدوية
المخدرة الى حبوب منع الحمل بدون وصفات طبية . وكانت شهرزاد تريد
أخذ هذه الحبوب لتحميها من السمّة ، وكان طبيبها قدنصحها
بتناولها . ولكنها كانت لاتزال متخوفة قليلا ، فالحبوب قوية جدا
وربما تسبب لها أعراضا جانبية . هل لي أن أقرأ النشرة المرافقة
- وقد كانت بالانكليزية - وأوضحها لها ؟ .

نظرت في النشرة واستنتجت وبدون معرفة أي شيء يذكر عن
علم العقاقير أن هذه الحبوب تعطى للذين يعانون من اضطراب في
الخلايا الحية التي تسبب السمّة . وبالقدر الذي يمكنني قوله فأن
سمّة شهرزاد لم تكن تعزى الى أي اضطراب في الخلايا الحية بسبب
وبشكل محض الى أكل الحلويات والارز طوال اليوم بدون القيام بأقل
مايمكن من التمارين . ولكني قررت أن أترجم كل المكتسوبات
بالانكليزية وبذلك يمكن لشهرزاد أن تقرأ وتقرر بنفسها . وقد
وافقت طالبة في سنة التخرج مجتهدة في الانكليزية والبيولوجيا
أن تزودني بترجمة مكتوبة ، واضحة ايها بحروف عربية سرفرة في
صفحة من دفتر الملاحظات الخاص بي . وقررنا معا أن ننصحها بعدم
أخذ هذه الحبوب . وقد كتبت الطالبة في أسفل الترجمة : عليك أن
تتمرن بدلا من أخذ الدواء . بعدئذ نقلت الي هذه الطالبة - التي
كانت في طريقها للدراسة في أمريكا - موقف شهرزاد الساخر .

ففي العهود الغابرة بقدر ماتكون المرأة بدينة مثلما كانت

عليه شهرزاد فان ذلك لم يكن يعتبر غير ذي جمالية ، بل أن هذه البدانة كانت تشير الى الغنى والى حقيقة أن زوج المرأة لديه المال الكافي لاطعام عائلة على نحو جيد . وفي فترة تفارب الجيل كان كل شيء قد تغير ، كل شيء عدا اسلوب الحياة الذي ينتج مثل هذه السمنة . ان تمرينا حقيقيا في الهواء الطلق لمرأة مثل شهرزاد كان شيئا مستبعدا عن التفكير . فحتى انها لن تخرج من سيارتها أو تتمشى . عندما عدت الى المنزل ، قرعت جرس مسكن شهرزاد واخذت صفحة الترجمة من دفتر ملاحظاتي وأعطيتها اياها فأخذتها بشغف ولكنها حالما شرعت بالقراءة بدأت ملامحها تتجهم وعندما أتت على نهايتها رمقني بنظرة غريبة وشكرتني ببرود . ومن ثم لم تذكر لي موضوع وزنها مرة أخرى أبدا .

مع شهرزاد وايرانيين آخرين كانت قشرة الحضارة الغربية التي تعطي الاشياء رونقا وجمالية موضوعة بكثافة . حيث لم أقدر أن أميز أين تنتهي الا في وقت متأخر . ففي البداية لم أصدق أن تكون لدى شهرزاد أو السيدة جام آراء مسبقة مجففة يمكن أن تمنعهن عن فهمي واحترامي . وبالطبع كانت حياتنا مختلفة تماما ، ولكنني شعرت أن ذلك كان عرضيا فقط ، فقد كنت أنا وهي في نفس العمر ، ولكنني اعتبرت عدم انهاؤها للدراسة الثانوية مجرد سوء حظ . لم يخطر ببالي أن أحتقرها كما كانت تفعل السيدة جام لعدم حصولها على الدبلوم بالمراسلة . والسيدة جام وعلى الرغم من أن لديها ثقل اولاد صغار وزوجا لتعتني به عندما كانت في السادسة عشر فقط واصلت دراستها وتخرجت . ان ذلك لم يدخل الكثير من التغيير على حياتها كامرأة متزوجة من الطبقة الراقية في المجتمع ، فهي وشهرزاد كانتا تلاحقان نشاطات متشابهة ، والاختلاف الوحيد كان أن السيدة جام أكثر تقليدية نسبيا ، فهي التي كانت تقوم بتربية اولادها وليس أمها . وهي التي كانت تطبخ بنفسها تاركة خادمتها وخدامها يقومون بالأعمال الروتينية . ولم يحدث لي أن شككت في أن كلا من شهرزاد والسيد جام كانتا تريان نفسيهما أفضل مني أنا ،

أبحث عن أكراد من مهاباد ، لأنني لأدرس لهجتهم السورانية بلل
للهمزة الكرمانجية التي يتداولها سكان منطقة ريزاي وإلى الشمال
منها . أومأت شهرزاد برأسها متشككة ماذا تعرف هي عن
اللهجات الكردية وماذا فيها لكي تثير اهتمامها ؟ لقد بسدت
سعيدة لأنني لم أكن أرغب في أن ازعج نفسي بأكراد مهاباد على
كل حال . فسألتنني وهي تعرض على نفسها فستان مخمل أخضر
ريزفونسي ، منتظرة أن أبدي اعجابي به :

— مارغريت ، ما رأيك بفستاني الجديد ؟ .

كل ماكنت أستطيع التفكير به هو مهاباد ، مهاباد . وماذا لو أنني
أدرس اللهجة الخاصة بها ؟ فعندما يتعلق الأمر بالأكراد كنت
أهتم بما هو أكثر من اللهجات . قلت :

— ولكنني أريد أن أراها .

فسألتنني :

— ماذا ؟ ترين ماذا ؟

أجبتهما :

— مهاباد .

بدت على محياها امارات الخيبة والكآبة ، ولكنها ابتهجت بعدد
وقالت :

— أوه ، حسنا ، لم لا ؟ ان هوشنغ يذهب الى هناك كل

يوم ، يمكننا الذهاب جميعا . وسنلهو قليلا .

كانت شهرزاد بهائسة تماما وكان هذا واضحا على محياها .

عندما أتى هوشنغ إلى المنزل رُحب كل شيء تلك الليلة على
أن نسافر إلى مهاباد خلال يومين . وحتى الآن لم أكن أعرف على
نحو كاف شيئا من العلاقات بين الاتراك والأكراد لأدرك اني سأزور
مدينة كردية برفقة العدو . عندما قالت شهرزاد ان هوشنغ يتحدث
القليل من الكردية صدقتها ، وعندما قالت أنها ستستمتع برحلة
إلى مهاباد فأظن انها كانت توهم نفسها بتصديق ذلك . فلو سميت
المدينة باسمها القديم الذي كانت تسمى به قبل الشاه بسوج بـولاق

لكانت ترددت . ولربما تذكرت أحداث ثلاثة عقود خلت قبل مولدها بقليل ، تلك الاحداث التي غيرت مهاباد وبقية ازربيجان الغربية . وحتى ذكرما كان قد جرى في الايام الخوالي تلك ، يمكن ان يعتبر شيئا منطويا على الخيانة . لربما شهرزاد قد نسيتها . أو أشهها لم تخبر بها أبدا . حتى في فترة بقاءنا في ايران كان الشاه مايزال مشغولا في اعادة كتابة التاريخ من خلال آتة الدعايية ، ليحول عدم قيامه بأي دور في انسحاب الجنود الروس من ازربيجان الى انتصار مذهل .

بعد الجلوس على كراسي منزل شهرزاد المدثرة كان من الصعب تصور الموقف في نهاية الحرب العالمية الثانية ، تلك الحرب التي أرا د رضاشاه دخولها الى جانب الالمان . في تلك الايام كان هنالك القليل من الآلات ذاتية الحركة في ازربيجان . فقد كان الناس ينتقلون بين المدن والقرى بالعربات أو على ظهور الاحصنه . لم يكن هنالك كهرباء ولا مياه جارية غير موءذية ، ولا تليفونات . والاشاث الاوربي كان أقل انتشارا بكثير ولم يكن أحد قد سمع بعد بآلة التمرين . وبلغ من النساء كن يتجولن في الطرقات ، وتقريبا لأحد سوى المسيحيات واليهوديات كن يمضين سافرات .

ومع ذلك وعلى الرغم من الظروف البدائية السائدة حينئذ ، فان فترة جمهورية مهاباد تذكر بفرح ليس فقط من قبل القاطنين في مهاباد بل أيضا من قبل كل الاكراد في كل مكان . وبالنسبة للجعفرين كانت مهاباد منفذا مغيرا يعوزه الاشراف والحيوية - مغبرة أو موحلة ، وهذا يعتمد على الفصل . لم يشر إلى الجعفريون الى المعالم البارزة في مهاباد عندما ذهبنا الى هناك . فقد كانت بالنسبة لهم مدينة بلا ماض . وقد كان ذلك يقع على عاتقنا أن نميز أهمية مدينة كانت ذات يوم تخص الأكراد وحدهم فقط .

الفصل الثالث

ان الاسماء في كردستان لها دلالاتها الخاصة . ان نسبة وفيات الأطفال مرتفعة في كل من ايران ، تركيا والعراق . ولكن في كردستان الجبلية فهي مرتفعة جدا ، وقد التقيت مرة بكردي من تركيا كان يدعى " ميثان " الضيف . كان الملا المحلي الذي كان يستشار في هذه الأمور قد اقترح هذا الاسم . من الواضح أنهم قد استعطفوا الله بامارة الخنوع هذه ، حيث ان الطفل بالفعل قد كبر الى أن أصبح رجلا . ولكن الحكومة التركية هي أيضا يجب أن تستعطف ، ففي الكردية الضيف هو " ميثان " وفي التركية هو " مسافر " وفقط في المنزل وما حوله بين الاصدقاء الأكراد يبقى " ميثان " . أن أكراد تركيا معتادون على مثل هذه الازدواجية . فالمدينة التي كانت مسقط رأس الميثان كان لها أيضا أسماء مختلفان ، اسم فرضته الحكومة واسم قد استخدم منذ زمن غابر بقدر ماتسع المرء الحيلة في التذكر . ففي المحادثات غير الرسمية خارج مسمع الحكومة والبوليس السري يستخدم الناس دائما الاسم القديم على الرغم من أنه قد محي من الخرائط الرسمية منذ سنوات عديدة .

تماما مثلما كانت أورميا قد غيرت من قبل الشاه الى ريزاي كذلك كانت سوج بولاق قد قلبت الى مهباد ، والاختلاف يكمن في أن مهباد كلمة حميدة نسبيا مع الاصول الايرانية ، بينما ريزاي قد أعيد تسميتها بهذا الاسم نسبة لرضا ، الوالد الممقوت للشاه الاخير . ولكن على الرغم من كون اسم مهباد حميدا فان سوج بولاق قد بقيت بثبات سوج بولاق وهو اسم تركي يعني الماء البارد . ولمجرد حقيقة أن الحكومة هي التي قد فرضت الاسم الجديد عليهم فان ذلك كاف لجعل الأكراد يرفضونه . لقد كانت سوج بولاق وستبقى سوج بولاق .

ان أول من صحح استخدامي لمهاباد كان أحد تلاميذي الأكراد الذين أتوا من تلك المدينة . وكان يقال أن هذا الطالب ذو القامة الفارعة والوسيم هو متحدر من سلالة أحد قواد الجمهورية الكردية التي أسست سنة ١٩٤٦ . ومثل طلاب أكراد آخرين في الكلية كان قد افتتن لدراستي لغثة الأم . وفي أحد الأيام وبعد انتهاء المحاضرة تحدثت بلهفة عن رغبتني في زيارة مهباد ، ذلك المشروع القابع في ذاكرتي منذ وصولي الى ريزاي . ومهاباد تقع عند النهاية الجنوبية للبحيرة على بعد ثمانين كم فقط .

- نعم انها مدينة جميلة .

أجاب طلابي الأكراد على نحو جماعي بينما كانوا واقفين حشوا مقعدي . فكرت في نفسي : أن هذه هي الفرصة المناسبة كي أسأل اذا كانوا يعرفون كرديا يدمى حسن قد التقيت به في الولايات المتحدة وكانت بلدته مهباد . ولكن وجوه طلابي توجهت لدى ذكري اسمه فأشار أحدهم قائلًا .

- لقد قتل السافاك أخاه .

- ظننت أنه قد غرق في الرحلة المعسكرة في منيسوتا .

قلت ذلك وأنا أشعر بحيرة ازاء افتراض أن البوليس السري الايراني كان قد نفذ حكم الموت بأخي حسن . ربما لم يسمع هؤلاء الطلاب قط بالتفاصيل الحقيقية . صرح أحد الطلبة :

- ان الذي يجيد السباحة لا يمكن أن يغرق . لقد قتل

السافاك . أولاً الآخرون هروءوسهم موكدين ذلك ، وهم يحدسون في مشككين . هل أنا مبعوث من السافاك لأقنعهم بغير ذلك ؟ .

هذا ماكان يتعلق بطلابي الأكراد . وهنا في ايران حيث لا توجد جريدة تنشر أخبارا موثوقة ، كانت لديهم أخبارهم المستمدة من مصدر موثوق . أما أنا وبعد التحدث الى حسن في أمريكا ففقدت

تصورت أنه كان مجرد حادث مأساوي. ماهي حقيقة الامر ؟ طالما هي مرتبطة بالسافاك فلن نعرفها أبدا . فكل الحوادث الأليمة في ايران يلفها ضباب كثيف . ففي غضون اقامتنا هناك انهدم سقف مبنى مطار طهران تحت ثقل ثلج الشتاء وقد قتل فيه المئات ممن المسافرين ، وذلك اعتمادا على المصدر الذي أعلن عن الحادث . وكان الطلبة في ايران لسنوات عديدة يقومون باضرابات يحيون فيها ذكرى اليوم الذي يقولون أن أربعة وأربعين طالبا في جامعة تبريز قد قتلوا فيه على يد الجيش . ومع ذلك فان شهود عيان يدعون أنه لم يكن هناك قتلى .

انبعثت حقيقة صعبة من خلال مناقشاتي مع طلابي المهاباديين فلم يخاطر أحد بنفسه كي يريني المدينة . وقمت أنا وجيرد بمحاولات عديدة لأخذ الحافلة الى هناك لوحدها ، ولكننا كنا نفشل فيها . فقد رفض الموظف الجالس في مقعد في محطة الحافلات الصغيرة القذرة ، الواقعة قرب بازار ريزاي أن يعطينا مقاعد مستقلة فمن الواضح أنه لم ير في حياته أجنبيين بملابس حسنة يريدان الذهاب الى مكان مثل مهباد بالحافلة . والآخرون في حجرة الانتظار كانوا يرتدون أسمالا بالية وكانوا جميعا يتحدثون فينا بينما كنا نتفحص الجدران بحثا عن لائحة أو قائمة أسعار ولكن بدون جدوى .

والآن وبعد مضي شهر على وصولنا الى ريزاي وجدنا أخيرا وسيلة للوصول الى مهباد . وحقيقة أننا كنا ذاهبين برفقة الاتراك لم تزعجني . لقد كنت سعيدة جدا لكوننا سنذهب على كل حال . راجعت في ذهني ماكنت أعرفه عن المدينة . كان أصدقاء لنا قد خدموا هناك في فرقة السلام قبل ثماني سنوات ، وقد وصفوها لنا على نحو شامل ولكن من الواضح أن الاشياء قد تغيرت منذ ذلك الحين . كان أصدقاؤني قد نصحوني بأخذ ملابس خاصة لأرتديها في شوارع ريزاي . ولكني لاحظت مباشرة أن ارتداء السروال كان قد أصبح دارجا لدى المرأة الايرانية العصرية . قالوا اننا لن نجد ماء نقيا ولاشلاجة ،

أو سخانة ماء حيث حصلنا عليها مباشرة . وكانت هنالك جشتان معلقتان في سوق مهباد في يوم وصول أصدقائنا اليها قبل ثمانية سنوات . وقد كانتا جثتي كرديين اتهمتا بمعارضة السلطات . كان الأكراد خلال اقامة أصدقائي هناك مايزالون يناضلون ضد الحكومة علنا ، وكانت الحكومة تمثل بالأكراد في السوق . في الوقت الذي وصلنا فيه كانت هذه الاساليب قد بطلت . كانت الزنانات الخفيفة للسافاك وقوات الدرك الريفييه النشطة تسبطن الى حد ما على المناطق الريفية .

إذا كانت للأسماء في كردستان حياة خاصة بها ، فإن الاسم الرنان المتسم بالطهارة " چارچرا " ويعني حرفيا القناديل الاربعة . هو احياء لذكرى اثنين من عمليات الاعدام ، فقد كان قد نفذ حكم الاعدام في اثنين من قواد الجمهورية الكردية هناك . وموعـخـرا كانت ساحة " چارچرا " المستديرة بقناديل شوارعها الاربعة عند نقطة التقاطع المغبرة قد ازيلت ، والشوارع المؤدية اليها قد أعيد تسميتها ويسبب مهباد فان طهران لن تشق بالأكراد أبدا . فالأكراد جميعهم أعداء والخيانة كامنة في نفوسهم وهم مخربون بالنسبة للدولة التي تحكم من طهران . وبالانسحاب سنة ١٩٤٦ يستنبط الفرس بأن الأكراد قد قضوا على أنفسهم الى الابد ، كانت مهباد بالسبب للشاه وللايرانيين بمختلف قناعاتهم السياسية مثالا لما يستطيع أن يفعله الأكراد وما سيفعلونه ثانية ، إذا أتاحت لهم الفرصة . وكذلك فان تبريز هي رمز لأحلام القوميين الأتراك و اضطهادهم . ولكن قصة الجمهورية التركية متعلقة هنا بالمحيط الخارجي .

في سنة ١٩٤٦ كانت كردستان ايران قد حررت على نحو غير متوقع من قبضة رضا شاه المحكمة ، الذي كان قد استخدم أساليب وحشية ليسيطر على الأكراد وعلى غيرهم من المجموعات القبلية المقاتلة . ومن جملة ما قام به من اعتداءات ، أنه اعتقل قواد قتال في طهران ، فرق أراضيهم ، وحرّم اللباس التقليدي عليهم .

في أواسط الحرب العالمية الثانية احتل البريطانيون ايران الجنوبية قرب حقول النفط بينما تحرك جنود الجيش الروسي نحو الشمال الغربي على طول الحدود التركية الروسية وكان ذلك - وعلى حد زعمهم - للتأكد من أن رضا شاه لم يدخل الحرب الى جانب الألمان . ولكن في الحقيقة كان لكلا البلدين مخططاتهما في ايران . وعلى نحو خاص في المطامع في نفطها . بما أن حضور الجنود السوفييت قد منع الجيش الفارسي على نحو فعال من فرض النظام القائم حينذاك على كردستان فقد مضت مهاباد أو " سوج بولاق " بثبات أكثر تجاه الحكم الذاتي . والروس الذين كانوا أكثر فعالية بين الاتراك في الشمال رفعوا القيود عن الاكراد .

واخيرا - في سنة ١٩٤٦ وبتشجيع من الروس ، انشقت دولتان من بقية ايران وأعلنتا استقلالهما . وكانت جمهورية ازربيجان الكبرى الاثنتين قد أسست في تبريز التي تقع على بعد ١٨٠ ميلا الى الشمال من ريزاي . وكان يديرها الاتراك الذين جعلوا من لغتهم التركية اللغة الرسمية في الجمهورية . حتى ذلك الحين كانت الآزرية لغة لاقوام لها ، مهمة رسميا من قبل طهران ومحظور تداولها العام . وقد شجع الروس الاتراك الآزريين وساعدوهم على اعلانهم عن الاستقلال الثقافي والسياسي عن طهران . وكانت الحكومة الجديدة لجمهورية ازربيجان قد قبلت باحكام على شاكلة التفكير والعمل والسلوك السوفييتي مع منظمة بوليس سري محكمة .

على نحو أبعد الى الجنوب ، وبدعم أخف من الروس كانت الجمهورية الكردية الاصغر ، وكان يديرها قواد مجتمع يتمتعون باحترام بالغ من مهاباد مع ممثلين عن المناطق القبلية المحيطة . لم يكن هناك بوليس سري والتوجيه الروسي كان يتصف بالقلية نسبيا وكان جيش الجمهورية الكردية مشكلا على نحو رئيسي من أتباع قواد القبائل المحلية المختلفة ، ولكن ، كان من الصعب أن يكفي لصد هجوم منظم . كان على الجمهورية أن تدافع عن نفسها عاجلا أم آجلا . ولكن عند ما أنجبت مهاباد جنرالها الاول الحقيقي لم يرحب به بسأذر ع

مفتوحة .

في الوقت الذي أسست فيه جمهورية مهباد ، تسلم رئاسة قبيلة البرزاني في شمال العراق قناشد قبلي جبار ، متوسط العمر ، مدعى ملا مصطفى البرزاني . كان البرزانيون مقاتلين مشهورين بالإضافة الى محاربة أعدائهم التقليديين مثل قبيلة زبيساري، كانوا في وقت قريب جدا يحاربون البريطانيين . وردا على ذلك فقد قصفت القوى الجوية الملكية مقاطعة برزان وأجزاء أخرى من كردستان وقد حادت جمهورية مهباد في وقت احتاج فيه الملا مصطفى للخروج من جبال برزان ، حيث كان يُجذب بأناة الى فخ نصبه الانكليز . بالتواطؤ مع قبائل معادية مجاورة . في ١٩٤٠ كان البريطانيون قد قرروا فرض النظام في كردستان العراق بأية وسيلة . وقد رأوا في اتباع البرزاني القبليين تهديدا مباشرا لخطتهم لنقل زمام السلطة في العراق الى العرب مبعدين بذلك كلا من الأكراد والآشوريين . وعلى نحو مغاير من العراق كانت ايران قد قسمت وسادت فيها الفوضى خلال الحرب العالمية الثانية ، مقدمة بذلك أرضية مثالية للأكراد الراغبين في حكم أنفسهم بأنفسهم . قرر البرزاني أن يعبر برجاله الحدود ، وأقام مركز القيادة في مهباد . في البداية استقبل البرزاني بحذر ، وعلى الرغم من أنه كان قد هرب لشوه من الأسر البريطاني ، فقد كان يرتاب فيه على أنه عميل بريطاني ممن وجهة نظر أذربيجان التي يشرف عليها السوفييت . وموئرا فقط عندما تحرك الجيش الفارسي على مقربة من مهباد تثبتت بـسـراة البرزاني وقواته بمآثرهم الشجاعة .

على الرغم من أن الدولة الكردية كان يتوفر فيها القليل من الديمقراطية ، فان هذا القليل كان يمثل تقدما كبيرا عما كان يسبقها فقد طرد البوليس الفارسي والبوليس السري والجيش من المدينة ورفع العلم الكردي ، وقد رقص فعلا سكان المدينة في الشوارع ، وظهرت الجرائد والكتب بالكردية مباشرة ، وقد استخدمت الكردية في المدارس ،

وفي دور العدل والقضاء التي كان يديرها قضاة مسلمون تقليديون ، وكان القاضي محمد رئيس الجمهورية الصغيرة نفسه واحدا ممن هولاء القضاة .

على الرغم من أن الأكراد كانوا قد تمتعوا بحكم ذاتي فعلي لسنوات عديدة خلت ، فإن الجمهورية الحقيقية استمرت قرابة سنة واحدة . خلال ذلك الوقت وعد الروس بدعم كلا الجمهوريتين - الكردية والازربيجانية . ولكن القوى العربية التي لم تكن تريد أن ترى الجمهوريتين المحميتين من قبل روسيا في ايران سعت جاهدة لازالة القوى الروسية . وأخيرا انسحب الروس من الجمهوريتين الفتيتين اللتين شجعتهما مع قليل من التحذير أوحى بدونه أيضا وأصبحت الجمهورية الازربيجانية أسطورة بين عشية وضحاها - وعهد الارهاب يقول شيئا والحلم القومي يقول أشياء أخرى - وواجه الأتراك عقدا من المجاعة ، وكان سوء المناخ وندرة المحاصيل سببا في ذلك جزئيا . ولكن في فترة اقامتنا في ايران ، وبعد مايفارب ثلاثة عقود كان الناس يقولون : ان طهران لن تسامح تبريز أبدا . تلك التي كانت أكبر مدينة في ايران ذات يوم وكانت عاصمة السلالة الحاكمة ، وقد تركت لتبلى في غبارها ، وأصبحت منسية عندما وضعت الخطط الصناعية فاضطر سكانها الى الهجرة الى طهران بحثا عن العمل .

في مهاباد ، في النهاية الأخرى من البحيرة ، كان مصيبر الأكراد أكثر دموية ، لاعتقادهم أن الايرانيين لن يقوموا بأي عمل انتقامي ضدهم . لم يكونوا على علاقة متينة بالروس ، ولم يرتكبوا تجاوزات الأتراك في الشمال منهم . مع ذلك ، وبعد معارك عديدة وبعض المفاوضات مع الحكومة الايرانية ، اعتقد البرزاني أنه من الحكمة الفرار مع جيشه ، وقد عرض عليه الالتجاء الى ايران ولكن بشرط أن يسلم هو ورجاله كل أسلحتهم وأن يستقروا في مكان بعيد من مهاباد ، ولكنه قرر مغادرة ايران هو ورجاله في ظروف بالغة القسوة جنبا الى جنب مع عائلاتهم ، وكانوا يطاردون في الجبال على

طول الطريق حتى الحدود الروسية . من ضمن الأكراد الإيرانيين كان هنالك من لا يضر الحب للبرزاني . فاحدى القبائل على نحو خاص وهي قبيلة " الهركيين " تعاونت مع جيش الشاه بالقيام بغارات متكررة على البرزانيين وهم يفرون الى الشمال . ومرة أخرى انقسمت كردستان الى اتجاهات قبلية وكل مجموعة تحاول أن تستفيد على حساب الاخرى . يبدو أن هذا هو بالضبط ماتريده الحكومات من الأكراد أن يفعلوه . وبعد مرور ثلاثين سنة بدا واضحا أن الشاه لم ينس موقف الهركيين ذاك ، حيث تتفاخر قرى الهركيين بالمستودار والمستوصفات التي تفتقر اليها القبائل الاخرى .

قبل أن تسقط جمهورية مهباد مباشرة وقبل أن يتقدم الجيش الإيراني نحو الداخل ، ذهب البرزاني الى القاضي محمد الرئيس ليسأله اذا كان يريد الذهاب الى روسيا . لكن القاضي .

— أما لبساطته وألأمانيته البالغة — اختار البقاء فسي مهباد . فقد شعر بعدم قدرته التخلي عن الناس الذين مضوا معه في هذه المجازفة الجريئة من غير اعتبار للحكومة الإيرانية ، ومن المحتمل أنه لم يصدق حقيقة أن الحكومة ستكون غيبية ، لتجعل منه شهيدا . ولكن وقبل مغادرة البرزاني بثلاثة أسابيع كان القاضي واثنان من أقربائه قد أعدموا في ساحة " چارچرا " القناديل الاربعة في سوج بولاك . ان كلا الاسمين — چارچرا وسوج بولاك لم يعودا بعزيان لأي مكان في ايران . ومهباد كغيرها من المدن أرهقت بحمل اسم شارع بهلوي وبتماثيل الشاه البهلوي ووالده البرونزية العديمه الذوق . لكن أهالي مهباد لن ينسوا ما حدث لهم أبدا .

حتى بعد قرائتي لتاريخ الجمهورية الكردية كنت لا أزال أدرك مضامينها فقط على نحو غامض فيما يخص العلاقات بين الاكراد والاثراك في ايران في الوقت الحاضر . في سنة ١٩٤٦ قاومت دولتان طهران وتحدا الحكومة المركزية بالقيام بأي شيء ضدها .

وكان كل من الاتراك والاكرد قد تلقيا الكثير من التشجيع من الروس ليتعاونوا معا ، ومع ذلك فطوال الأحد عشر شهرا من وجود جمهورية مهباد ، كان الكثير من الاكراد في شمال مهباد ، في منطقة ريزاي يرون الاتراك الازربيجانيين - وليس فرس طهران أعداء حقيقيين . والازربيجانيون من جهتهم كانوا قد تجاهلوا الاكراد قدر استطاعتهم . وبما أن المدن الواقعة الى غربي البحيرة و ريزاي وحوالي تبريز كانت تقطنها الأغلبية التركية ، فقد شعر الازربيجانيون الاتراك بالامان عند منعهم الجماهير الكردية التي تشكل كما ضخما في القرى المحيطة من أن يمثلوا أنفسهم ، أو أن يؤخذوا بعين الاعتبار . وهذا الوضع لايزال مستمرا حتى هذا الحين . ويشكو الاكراد من أن المدرسين والطلاب الاتراك يتحدثون التركية في المدارس العامة في ريزاي ، حيث من المفترض أن تكون الفارسية هي اللغة الرسمية . ويقول الاكراد بأنهم سيتذكرون طالما فيهم من لديه القدرة على التذكر أن الاتراك لم يتجاوبوا معهم على الوجه الاكمل . الا أنني احتجت الى فترة من الزمن لكي أدرك ادراكا كاملا عمق التعصب العرقي في ريزاي ، كان جميع جيراني اثراكا بينما كان معظم زملائي في العمل من الفرس . وتماما مثلما لم أشك بماهية شعور الجعفرين تجاه الاكراد ، كذلك لم أكن اعلم ولو جزئيا كم كان الاساتذة الامريكيين والاوربيين في الكلية يحتقرون جيرانا . كانت رحلتنا الاولى الى مهباد رحلة لشخصين بريطين ، مثلما كانت لقاءاتنا الاولى غير المتوقعة والعديد في ايران . وصلنا الى مهباد عن طريق عام كان لايزال قيد الانشاء ، هذا الطريق المعبد يوصل تبريز بكرمناشاه في الوقت الحاضر . لم نرى شيئا لعدة أميال سوى سهول موحلة ممتدة الى جانب البحيرة وفي احدى البقاع شاهدنا قطيعا من الجمال لايفسر وجوده هنا على اعتبار أنه ليس من الحيوانات المألوفة في أذربيجان الغربية . وحالما شادرنا السيارة في شارع بهلوي في مهباد وسط منطقة الجزء الأدنى من المدينة شعرت بأنه كان لزاما علينا عبور

الحدود . أن النساء في الشارع المهابادي لا يفعن الغطاء . فهن لا يحتجنه - ففي مهاباد القليل من الاتراك والفرس ، والشوارع مزدحمة بالرجال الأكراد المرتدين العمامات الفخمة والسراويل الفضفاضة التي تفيق عند الكاحل . وقد اكتشفت حالا ان الأكراد لا يحدقون في بطريفة الاتراك المتغطرة . على الرغم من أن مهاباد بطبيعتها محاطة عند حوافها بالجبال أكثر من ريزاي القابعة فوق سهل واسع فان مهاباد التي تقع في واد الى حدما ، هي أكثر اشراقا واضاءة . وربما كان تفسير ذلك هو غياب العباءات .

عندما خرجنا من السيارة لاحظت أن شهرزاد لم تظهر لثقاسمني حماسي لهذه المدينة الكردية . فقد لفت شالها الاسود المحبوك ببكسل جيد حول جسدها بعصبية عندما قادتنا على نحو سريع الى دكان تذكارات يفتنيه ويديره تركي من ريزاي . قضينا فترة الصباح هناك حسب ارشاداتها . وبعد ان قمنا ببعض المشتريات عزمنا على الاتصال بعائلة حسن المهابادي الذي التقيناه في امريكا . وحالما ذكرت اسمه تغير جو المحل ، فأوحى اليها صاحبه ان اخا حسن ربما يكون - وعلى ما هو شائع - في السجن . ولكنني رفضت أن يثبطوا عزمي وبذلك ساعدتني شهرزاد على مضى كي اهتف الى منزل عائلة حسسن . وحين ظهر رجل بدين لا يشبه حسن في شيء عند مخزن التذكارات راودني الشك فيه ، متساءلة فيما اذا كان هذا حقاً ، أخو حسن أم أنه من عناصر السافاك . لم تكن هناك وسيلة لمعرفة ذلك . لماذا كانوا يفكرون في وجوده في السجن ؟ هل كان مجرماً ؟ فأنا لم أقم المدة الكافية في ايران لأميز بين المقياس الامريكي والايرواني في أسباب الاعتقال . اعطانا أخو حسن رقم هاتفه مكتوباً بأرغام انكليزيه مشكلة بطريقة غير متقنة وبعدد مضي بعيداً مما أراح شهرزاد كثيراً . لقد اراد أن نتصل به ونجتمع في المرة القادمة في مهاباد عندما نحضر اليها ، ولكننا لم نفعل ذلك أبداً .

ان تاريخ حسن واخوته الى حد ما هو نموذج لما كان على

المقيمين في مهباد أن يمانوه في غضون سنوات . ففي سنة ١٩٥٠ . وبعد فترة ليست بطويلة بعد سقوط الجمهورية ، كان هنالك أخ آخر لحسن وقد كان في الثلاثين من عمره آنذاك ، حين جمع مع شباب آخرين وحجزوا في كوخ صغير لمدة اسبوع وكان البوليس قد غطى أرضية الكوخ بالماء بعمق قدم وقال حسن أن اخاه ذاك لم يشرف من ذات الرقة التي اصيب بها أثناء التعذيب . كان قد اتهم بنشر مواد تحريفية وبعدئذ أفرج عنه . لقد تضررت رقبته فقط ، أما الآخرون فلم يكونوا محظوظين مثله . كان ذلك في الزمن الذي يعتبر فيه الادب الديني عملا تحريفيا . وحسن نفسه وأخوه الذي قتل في إحدى المخيمات العسكرية كانا فعلا قد رتبا امرهما للذهاب إلى الولايات المتحدة ، زاعمين انهما سيذهبان للدراسة ولكنهما حقيقة وقبل كل شيء أرادا أن يبقيا على حياتهما . وبعد عودتي من ايران ، ولدى روميتي لحسن عند ذلك فقط ، افهمني وأنا في امريكا سبب افتراض تلاميذي المهاباديين مباشرة ان السافاك قد اقتالوا أخاه . ان حوادث موت اناس من مهباد غالبا ماتكون غير طبيعية ولا عرقية .

عندما سرنا مع شهرزاد إلى فندق " مامون سراي " الحكومي ، المحلي ، الصغير ، القينا نظرة خاطفة على المدينة . كان درينات من الرجال الباطمين المتجولين ينادون على بضائعهم التي تضم راديووات ومسجلات وبضائع مستوردة أخرى على طول الطريق الرئيسي ، لقد كانت مهباد مشهورة بكونها قبلة البضائع الغربية المهربة ، وبما أن الاتراك على جانبي الحدود كانوا يتعاملون مع بعضهم البعض بيسر ليجنبوا الجمارك من غير ريب ، فان سلسلة التهريب قد كسرت عندما استخدمت الحكومة العراقية النار وجردت عناصرها لتحدث ما يبلغ امتداده خمسة وعشرين كيلو مترا من الأرض المحروقة بين قراها الكردية والقرى التابعة للبلدان المجاورة لها في ايران وتركيا .

بعد أن تناولنا الغذاء في غرفة خاصة في فندق مامون سراي - حيث لا تأخذ النساء غذاءهن في حجرة الطعام العامة - تجولنا أنا وجيرد لوحدها عبر الأزقة الصغيرة الموحلة وعلى ناصية الشارع الرئيسي وقوت الأزقة الملتوية والمنازل المبنية من الطين شعورنا بأننا كنا فعلا في بلد آخر . كان منزلنا الخاص مبنيا من الاسمنت مع قطع صغيرة من الزجاج الملون ، وكانت مرايا مكسرة تبرز في الواجهة . وفي وقت لاحق ، عندما سرنا الى موقع الانشاء الذي يعمل في هوشنغ ظننت ان مهاباد ستفخر حالا بمنازل مثل منازلنا . كانت منازل هوشنغ تبني في صفوف مستقيمة ، طويلة وكثيفة . والانابيب تتدحرج في تلك الانحاء بين غبار الشارع غير المنتهي ، وكأن المنطقة مظهر اعزل ، كثيب ، مغاير تماما للمتاهات التقليدية للأزقة بجدرانها المنخفضة وحداثتها الصغيرة . غامرني شعور بانني ساتخلي بسعادة عن سخانه الماء والثلاجة لاعيش في مهاباد القديمة .

امضينا يوما في مهاباد على عجل ، وانتهى هوشنغ من عمله ، وتحررت شهرزاد من حملها المقيت لتريتنا تلك الانحاء . كنا نتتبع مجرى النهر خارج المدينة ، عندما انعطف هوشنغ وبسودون سابق انذار من الطريق الرئيسي الى شارع مستقيم منحدر ، ومفروش بالحصى بشكل حسن . بعد بضعة كيلومترات ادركنا ساحة مستديرة ، وكانت تشبه تلك الساحة التي تشير الى بداية مهاباد تماما ، الا أن هذه ، تتميز بعدم وجود تمثال للشاه او والده ، وانعدام العشيب في وسطها . داخل هذه الساحة المستديرة كان يقف مجموعة من الرجال بعضهم كبار وبعضهم شباب ، وجميعهم مرتدون البسة ملوثة وممزقة من الطراز الغربي . لم أر زوجا واحدا من السراويل الكردية الفضفاضة او حتى عمامة . كانت شهرزاد تستشيط غضبا في المقعد الامامي عندما ترجل هوشنغ وبدأ بالحديث مع زمرة من الرجال . قررنا انا وجيرد ان نخرج أيضا ، ونلقي نظرة على تلك الانحاء .

حالما خرجنا من السيارة ، اندفع بقية المتجمهرين

باتجاهنا ليمعنوا النظر فينا عن كذب . القت الشمس التي كادت تأفل
بسرعة بظلالها الوارفة على المشهد بشمولية تامة ، جاعلة وجوه
الرجال الملوحة بالشمس تبدو أكثر سمرة . بينما كانوا يحدقون
فينا ، شعرت بعداء قاهر موجه للباسنا النظيف غير الممزق ، ولوجوهنا
الشاحبة المحمية ، ولفضولنا غير المخفي . وفجأة قال جبرد :

— الا تلاحظين شيئا غريبا في هذا المكان ؟

صدمت بسمه الاكتشاف المميزة في صوته وتجهمت ملامحي لذلك . من
الواضح أن المكان كله كان غريبا جدا ، لقد كنا محاطين بمجموعة
من الرجال الاتراك الفقراء مقراء مدقعا والعدائيين ، حيث كانوا
يلقفون في الطريق يحدقون في زوجين غربيين عنهم .

في الجانب الآخر من هذه الساحة الدائرية الطينية المحاطة
بطريق مفترش الحصى كانت هناك مجموعة صغيرة من المخازن الشبيهة
بالأكواخ تباع الفاكهة والخضار وبعضا من البضائع الجافة المعبرة ،
هتف جبرد قائلا :

— لاتوجد سيارات هنا . انهم ينشئون هذا الشارع المشجر
وهذه الساحة الدائرية السخيفة في مكان لاهمية له . فلا احد ممن
هو لاء الناس يقدر على شراء سيارة . ان الحكومة تنشئ طريقا
لن يعود عليهم بفائدة .

وقبل ان يمضي جبرد في تفصيلاته اكثر ، رأينا هوشنغ
يرجع ويدخل سيارته . أسرعنا نحن أيضا بالدخول ووبختنغ
شهرزاد بعدد قائلة : أن الرجال هنا ليسوا معتادين على
روية النساء . اقترح هوشنغ في محاولة منه لتلطيف الجو ، أن
نقوم برحلة جانبية الى واد آخر لروية بعض من البقايا الاثرية
المتنعة ، وتجادل الاثنان لبضع دقائق ، وبعد ذلك اقر هوشنغ أن
القيادة لن تكون مأمونة الجانب حول الجبال في الظلام . لقد بدأ
أن الطائرات العراقية كانت تحلق على مقربة دانية ، من الروءوس ،

تقصف القرى الكردية في الجانب الايراني وكذلك في الجانب العراقي من الحدود . وقد فحك هوشنغ كما لو أن هذه كانت نكتة بارعة . عند هذا شعرت بقشعريرة تسري في بدني .

اليوم الذي تلى رحلتنا الى مهاباد ، احتفل فيه بالعيد ، اشارة الى انتهاء رمضان ، بعد فترة صيام المسلمين لمدة شهر . سمعت اصوات الضيوف في يوم العطلة هذه ، بينما كنت أمر بباب الجعفريين نصف المفتوح . فعرفتني على ابن عمها الذي كان يعمل في مهاباد كمراقب على التبغ .

- مهاباد مكان بغيض .

قال ذلك استجابة لآخبار ذهابي الى هناك منذ فترة قريبة جداً . أوماً بقية الاثراك الموجودين في الغرفة بالموافقة على ذلك ، والتحت شهرزاد في كلامها قائللة :

- لكن مارغريت تحب مهاباد ، اليس كذلك ، يامارغريت ؟

- نعم .

قلت ذلك بينما كان يحدق في الجميع .

بعدئذ انفجرت شهرزاد قائللة :

- كما تعرفون ، ان مارغريت تحب الاكراد ، وتريد أن تتعلم الكردية .

عند ذلك جعلت عينا ابن عمها ولم يصف احد آخر اي شيء . ابتسمت شهرزاد وهي تقول موضحة :

- الغرباء يهتمون بمثل هذه الاشياء .

ومن ثم غيّر ادهم موضوع المحادثة .

بعد رحلتنا الى مهاباد ، نظرت الى قطعة الورق المصممة

المكتوب عليها رقم هاتف الرجل الذي ادعى انه اخو حسن عندما كنا في مهاباد . كان يلح علينا ان نهتف له حالما نتمكن من ذلك . ولكن كيف ؟ لقد ترددت في طلب الهاتف من شهرزاد لاستخدمه بعدد اخبرني اقدم ان الهواتف في مهاباد لم توصل بعد بتلك التي توجد في مدن ريغيه اخرى . لم اعرف ما الذي سأصدق ؟

كنت على وشك استخلاص هذا الدرس في ايران : انه عندما يرفض اقدم ان يعطيك معلومات عن كيفية الوصول من النقطة " أ " الى النقطة " ب " - كما حصل معنا في محطة الحافلة عندما حاولنا للمرة الاولى ان نذهب الى مهاباد - او عندما يقول : انه من الممكن الاستطيع الاتصال من مدينة باخري ، فانه يحاول قول شيء مفاسر . وعندها قالت شهرزاد لنا في مهاباد : انها لاتعرف أي مكان آخر لتأخذنا اليه سوى دكان التذكارات لصاحبه التركي ، فقد كانت تخبرنا بأنه علينا ان نكون في أي مكان آخر سواه . لقد كانت هي وهوشغ يحاولان بحذر ان يحصرا زيارتنا هناك داخل سيارتهما فقط ، وفندق مامون سراي ، الحكومي وكان يقتنيه تركي . عندما اخترقنا الحواجز التي وضعوها لنا مصريين على روعة حسن ، وذاهبين قسبي جولات قصيرة ، وخارجين من السيارة في الساحة المستديرة ، كان من الطبيعي لهم ان يضطربوا لذلك . مع انهما يغرفان اكثر منا أيمن كاني مكان تواجدنا .

كل امرئ في ايران له مكانه ، فالخدم والعمال لهم اماكنهم في حافلات المدينة التي يكلف الركوب فيها ثلاث سنتان فقط . الموظفون وممال آخرون ذوو الياقات البيضاء ، لهم اماكنهم في حافلة هيئة الاساتذة ، التابعة للكلية ، او الحافلات المزودة من قبل مكاتب الكلية . هذه الحافلات حرة . والمشتغلون بمهن تقتضي ثقافة مثلنا ، من المفروض عليهم ان يقتنوا سيارات ، حيث كانت اجرة الركوب في زمن اقامتنا مايربو على ٥٠٠ر من الدولار . ان هذا الحس بالمكانة قوي جدا ، لدرجة انه عندما افطر زميل لنا لبيع سيارته تحت ضغط ظروف مادية ، كان يمشي عدة اميال بدلا من أخذ حافلة

المساعدين .

للاكراد مكانهم ، خارج مدينة ريزاي . كان ذلك جزءاً من الامور المزعجة جدا عن اللاجئين . لقد كانوا يصرون على كونهم اكراد على نحو علني في مدينة تركية . اما مهباد ، فقد كانت العكس تماما . فهناك لا ينتمي اليها الاتراك . ربما كان ذلك هو السبب في أن الحكومة كانت تنشيء مدينة صناعية ، في ضواحي مهباد لتجلب اليها الاتراك والفرس وتجعل المنطقة أقل كردية على نحو فعلي ، فكلما اصبحت كردستان اكثر اختلاطاً ، فان سكانها سيجدون صعوبة اكثر في الانفصال عن الحكومة المركزية شانية . لقد كانت الحكومة العراقية تستخدم هذا الاسلوب لسنوات ، لتقلص من مساحة كردستان التابعة لها .

كان الزمن ينقضي على نحو غير معروف لحكومة الشاه ، وكان قد تأكد بشكل قاطع ان المجندين في الجيش من كردستان ، أوفسي الحقيقة ، من أي من المناطق العرقية المكثفة ، لن يركزوا بين الشعب المنتمي اليه . كانت الحكومة قد ارسلت حكاما ومخافطين مهيشين في طهران ، وموثوق فيهم بانعدام اي قاسم مشترك كاللغة والشعور بالتعاطف بينهم وبين هؤلاء الناس الذين تحسنت ادارتهم ، وكانت قد اغرت رؤساء القبائل واستخدمتهم لقماء مبلغ من المال . لكن حلم الجمهورية والاسماء سوج بــــــــــــــــــولاق وچارچرا تواصلت بين الاكراد ، على الرغم من جهود الساتك القصوى لاجتثاثها .

الفصل الرابع

كنت مضطجعة على اريكة طويلة باتجاه بعض الستائر الفينيسية نصف المفتوحة ، محاولة النظر الى الوجه العريض و الودود للـسيد جوهر خانه ، اكثر من خطوط النور المضطربة وراءه . لكن بقيت الحجرة ، كانت تغشاها ضبابية اما بسبب عدم تجميعي الاشعة مني بوءرة واحدة او بسبب عصيتي . لم استطع ان احدد ذلك . كان يراقبني ثلاثون طالبا وأنا اواظب على اخذ درسي الكردي ثلاث مرات في الاسبوع . وكمتخصصة في مجال اللغويات فقد اعتدت على تحميل مسؤولية تنظيم وتمثيل وتركيب أي لغة يمكن ان احتاجها حرفيا . اما في محطة الاذاعة فقد كنت اشعر غالبا كما لو أنني كنت اسحب الكردية من فم استاذي اكثر مما لاحد ما أن يقتلع سنا . كانت هذه الدروس المتعبة جدا تعطى في مكتب مدير اذاعة ريزاي - الشبي بالاضافة الى برامجها الرئيسية بالفارسية - كانت ، تذيع برامج اذاعية اخرى بالآزرية التركية ، والكرمانجية والتركية ، والآشورية . وعلى الرغم من أن هذه البرامج كانت تستلزم ضمنا المصادقة عليها لتثبت تسامح طهران تجاه اقلبياتها العرقية ، فان بعض الناس كانوا يحتجون على ان اللغات غير القياسية كانت تحول الى فارسية على نحو مدروس في الاذاعات . حتى الناس الذين لم تكن لهم علاقة بالمسائل اللغوية ، ميزوا ذلك الجانب من الموسيقى ، فالبرامج الكردية كانت وعلى نحو رئيسي وسيلة للدعاية التي يستخدمها الشاه .

في أسفل التسلسل الهرمي لمحطة الاذاعة كان الرجل الذي يقدم الشاي يقف منتصبا وساكنا في أبعد نقطة من جوهرخانة فسي الحجرة ، منتظرا الفرصة ليتقدم نحو المقعد حاملا أكوابا كانت تطلق فوق أطباقها . أعطى جوهرخانة تعليماته بأن يقدم الشاي الي أولا مع الوجهاء الاخرين في الغرفة وهم يأخذون الشاي بانتظام

حسب أهميتهم ، كان على معظمهم الذهاب بدونهم ولكنهم لم يشعروا بالخيبة لذلك بما أنهم كانوا قد اتوا للتسلية وليس لشرب الشاي . كنت أنا نفس المرأة التي كانت قد ذهبت الى المحطة في الاسبوع الماضي مع رسالة تعريف من مدرس ايراني في الكلية . كان السيد جوهرخانة قد اثار بقوة هيئة المساعدين باعلانه انني يجب ان أعلم اللغة الكردية . لذلك توقفت اقسام اخرى وفي اوقات محددة في ايام السبت ، الثلاثاء ، والخميس وذهب كل واحد الى مكتب مدير المحطة ليراقب ويمضي ويبدى الملاحظات بهمس .

وجدت نفسي ثانية بين الاتراك اللاحق دراستي للكردية ، ولو انه كان يوجد بعض الاكراد . كان السيد اسياهي ، رئيس مجموع المساعدين للبرامج الاداعية الكردية هو نفسه نصف كردي ونصف تركي . لقد كان رجلا قويا ، معتدا بنفسه ، وذا تسريحة ممعنة في القدم . كان يفضل الكنزات الضيقة ، ذوات العنق الطويل . كان من الواضح انه يستمتع بدور المعلم امام جمهور كهذا . كان يرد اجوبته الدقيقة على كل اسئلتي السمة من صيغ الفعل وترجمات مواد المفردات بصوت عال . لقد كان مغرورا جدا وكان يركز على نحو واتجح على مايقوم به اكثر من كونه ينقل معلومات ، حيث بدأت مباشرة بالشك بالكردية التي يعلمني اياها . أما السيد جوهرخانة ، مدير المحطة فلو لم يكن تركيا ، لكان معلما أفضل بكثير من السيد اسياهي . في حين أن اسياهي كان ينزع الى الفجر والسفسة ، فان السيد جوهرخانة ، كان مباشرا ومتحمسا ، متحمسا جدا لدرجة انه في الحقيقة كان يشجع طموحي لتعلم الكردية . وكم لك لمحطة الاداعة فقد اشرف على دروسي ، وكان يبدي تعليقاته لدرجة انه خلص الى نتيجة اني ذكية جدا ، وكان يلفظها " زكية " . كان متأكدا من انني سأكون قادرة على تعلم كل شيء يمكن تعلمه من الكرمانجية ، اللهجة الشمالية الكردية في أقل من شهرين ، في أي وقت ، وكان يرمي الى أنني استطيع ان استمر لاصل الى شيء اكثر تعقيدا وفائدة . وانا من جهتي شككت بأنني سأتعلم اللغة يوما ما وأنا اعمل في ميدان كهذا .

في احد الايام انشغل السيد اسيابي ببعض الاعمال الاخرى فحدد لي السيد جوهر خانة درسا لآخذه مع اخت السيد اسيابي وهي الشخصية الثانية في التسلسل الهرمي للبرنامج الاذاعي الكرمانجي . كانت حاملا وكان حملها يبد وضعا ، وهي امرأة ذات عينيْن د اكنتين وقد بدت قدرتها على التحدث بالكردي وكأنها قد ضمرت من قلة الاستعمال بسبب من السأم المفرط ، وهي مثل السيد اسيابي نصف كردي ، وما انها كانت متزوجة من فارسي لذلك لم تكن تستخدم الكردي وفي المرة التالية التي اتيت فيها الى المحطة نقلوني الى السيد جاهي وقد كان ذا مظهر افضل واكثر كياسة من السيد اسيابي . لقد كان السيد جاهي سريع الحركة ، وحسن الفهم ان تعليم الكردي لم يكن في قمة قائمة الاولويات لديه ولكن بما ان السيد جوهر خانة كان قد كلفه بذلك ، فقد بذل جهدا للاجابة على اسئلتني . كان السيد جاهي ، الرجل الكردي الاكثر فقرا . ذو ثقافة فرنسية وسيلا لها اكثر من أي رجل آخر التقيته في الكلية وبدون فوائد الثقافة والتعليم الفرنسي أو " البيجو " كان السيد جاهي يحاول ان يخلف حياته الريفية الماضية وراءه . وكان يحتال ليخدعني بقصصه عن الشرب وهو يحوم ثلا حول المدينة وحيد او من المحتمل انه لن يخدع احدا آخر . جلس في مقعده طوال اليوم يقرب الهاتف صارخا " قرباناته " في سماعه التلفون ، وتعني حرقيا اموت من اجلك ، ولكن السيد جاهي يستخدمها على نحو طليق ليظهر لسامعيه كم كان رجلا رائعا ، رحب الصدر .

وأخيرا أعاد علي صبري بالفائدة ، فقد التقيت في المحطة بالشخص الوحيد المهم بالكردي . وعندما وجد السيد جاهي نشاطات اخرى في المحطة ليشغل وقته بها حولت الى السيد خليلي السذي كان يرغب دائما في ان يكون مدرسي . اقترح مباشرة بأن نفساد مكتب مدير المحطة وان نعمل لوحدا في الغرفة المجاورة .

لقد اثبت السيد خليلي انه مدرس مذهل بالمقارنة مع الذين سبقوه . فهو لم يكن يهتم فيما اذا تعلمت شيئا صحيحا فحسب ، بل انه كان يحب لغته . كان قد جمع كل انواع الآثار الادبية السريية التي طبعت بالكردية . وموخر علمت انه كان يقرض الشعر بالكردية . على الرغم من أن الكردية لم تكن قد ميزت على انها لغة رسمية في ايران او تركيا ، فان عدد الاعمال التي طبعت سرياً هناك كانت مثيرة للاعجاب . والكتب الكردية المطبوعة في العراق على نحو قانوني ، كانت تهرب ايضاً عبر الحدود ويحرص عليها بغيرة فـ في القرى الايرانية . كان السيد خليلي قد نجح في احراز نسخة لسي من ممورين باخبار احد القرويين بأنه قد فقد النسخة الخاصة به . كان راديو ريزاي يذيع على نحو دوري اشعاراً غنائية من هذه الملحمة الكردية العظيمة مع موسيقا مرافقة لها ولكن وكما اشار السيد خليلي لم يكن هناك مجال للتفكير في وضع السمات القومية الخارجية بوضوح وبدون تحفظ . أن ملحمة ممورين ، هي قصة عاشقين فُرق بينهما على نحو مأساوي كروميو وجولبيت ، وهي حقيقة ، قصة رمزية تعبر عن مصير الاكراد المأساوي ، ووحدهم الممزقة والمستنكرة من قبل الاتراك والفرس وغيرهم ، وكذلك تعبر عن اقتتالهم القبلي الداخلي ايضاً . كتب ملحمة ممورين احمد خاني في القرن السابع عشر وقد اعيد طبعها عدة مرات في كردستان التركية والعراقية والسوفيتية . والكتاب الذين اتوا بعده عالجوا مواضيع تتراوح بين جمال الحب وجمال الجبال الكردية . لكن احدا منهم لم يكف عن ذكر الطموحات القومية الكردية . والكتابة بالكردية هي نفسها عمل يجسد التحدي . فقاموس موسى عنترالكردى - التركي مرفوض من قبل الحكومة التركية ، مثل كتابة "برينا رش" الجرح الاسود ، وهو مسرحية تعرض مرض وموت العديد من القرويين بسبب آخذهم بذورا قسماً عولجت كيمياوا سلمتها لهم الحكومة .

حاول السيد خليلي ان يعلمني الكردية الاساسية وقد اثارنسي ذلك في البداية ، ولكنني شعرت بالاحباط تدريجياً ، لاني لم استطع

ان اتقدم على نحو كاف لاجاريه . لقد ارادني ان اكون قادرة على قراءة الشعر وعلى فهم الكنايات الشعرية العميقة ، بينما كنت لازال اعمل بجد لتعلم تصريف الافعال . لقد درست بعض الكردية في الولايات المتحدة ، ولكن بما انه ليس لكردستان لغتها القياسية الوحيدة ، فهي مقسمة بين اختلافات عديدة في اللهجات ، فكل ماتعلمته من قبل كان عليه ان يحول الى اللفظ المحلي ، وكان لايزال هناك الكثير من الكلمات التي لم اكن اعرفها . كنت اخشى احيانا من أن الصيغ التي علمني اياها السيد خليلي هي ادبية بحتة وانها معرفة مكتسبة من الكتاب أكثر مما ينبغي بالنسبة للغة كالكردية . ان اللغة الكردية وعلى نحو اساسي ، هي لغة شفوية وليست لغسة مكتوبة ، يتداولها القرويون ، الذين يعبرون بها عن حياتهم اليومية ويستخدمونها على نحو متسم بالابداع في قول النكست ، وتأدية الاغاني ، وسردالحكايات الطويلة . ان الكلمات العربية والتركيبية والفارسية الدخيلة على اللغة الكردية هي جزء اساسي من اللغة ، تماما كما هي الكلمات اللاتينية والفرنسية بالنسبة للانكليزية لكن السيد خليلي الكردي الوطني كان يحاول دائما ان ينقي لغته التي يعلمني اياها . فهو يستبدل جذور كلمات كردية اصيلة ليعرفها احد سواه بالكلمات الفارسية والعربية التي يستخدمها الآخرون . كنت قد بدأت ادرك انني لو اردت لغة كردية حقيقية وواقعية ، فانه علي الذهاب الى قرية ما والتحدث مع اناسها هناك . اقترحت هذا على السيد خليلي ولكنه اثناني عنه قائلا اني لست مهية لذلك بعد .

بعد ذلك بفترة ليست بطويلة ، قرر السيد خليلي فجأة أن يأخذني الى قرية ما . والآخرون من مساعدي معدي البرامج في ريزاي ، جلسوا يسجلون البرامج ويختسون الشاي . ويذهبون لمنازلهم في فترة ما بعد الظهر ، لأخذ وجبات الغذاء المتبومة بسنات من النوم . كان مطلوبا من السيد خليلي من جهة اخرى ولكونه الرجل الادنى درجة في هيئة المعدين ، ان يقضي كل يوم

في قرية يجمع المزارعين في جلسات منعقدة في الهواء الطلق يتداولون فيها مسائل الزراعة وشؤونها اسبوعيا . بعد أن طلب مني ان اسرع في المجيء ، سألتني مشيرا فيما اذا كان جيردا سيحضر هو ايضا ، وقد اقلقتني نبرة صوته وتساءلت عما يجب - في رآية - ان افعله . فانا والسيد خليلي كنا مسبقا نتعرض لنظرات غريبة في المحطة لأن دروسي كانت تعقد في مكان منعزل . عندما عرفت اكثر ، تأكدت انه لم يقض وقتا لوحده مع امرأة ابدا سوى زوجاته .

لقد كان جيرد متفرغا ، حيث لم تكن لديه دروس في الكلية في اليوم الذي حدد فيه موعد هذه البعثة ، لذلك احضرته معي ، بموافقة السيد خليلي المسبقة . كان السيد خليلي وهو فرند كالمصنوع بذلته السوداء ، وقميصه الابيض مع ربطة عنق سوداء ينتظرننا برفقة اخي السيد جاهي ، السائق الرسمي . ولدى ملاحظتي لهيئة السائق العابثة ، سررت لكوني لست وحيدة .

اتخذنا طريقا غربيا خارج المدينة ، طريقا لم نسالكه ابدا ، ابعد من قرية باند ، ويمكن الوصول الى مدينه مهاباد التي تقع الى الجنوب منه بوساطة شارع مريض تكتنفه الاشجار حيث يتحول الى طريقين فرعيين ، يتفرعان من طريق لاخري . امسكنا الطريق في الجهة الغربية ، فهو مختلف تماما . مررنا عبر وادي باند الخصب ، ولكن مشهد الطبيعة كان مجدبا وشبهها بالمحراة ، وذلك لاننا كنا في تشرين الاول ، النهاية الاخيرة لفصل الجفاف .

فكما نظرت الى الخارج الى الهضبة المطوقة بالجبال شعرت وكأننا نسافر على وجه القمر ، لهذه الدرجة كان هذا المشهد مختلفا وغريبا عن أي منظر رأيت من قبل . مررنا برعاة اكراد ، كانوا السى جانب الطريق ، يحدقون بالتناوب في سيارتنا الجيب وقطعان ماشيتهم . عبرنا عائلات محتشدة ، منتظرة الحافلة الريفية ، وتقريبا لم نعبّر شيئا آخر سوى صخور ، تاركين غيمة ضخمة من الغبار وراء السيارة .

وعندما نظرت الى الخلف تساءلت ، كيف يمكن لنا ان نجد طريق العودة عبر هذا السهل المجذب بصخوره المتناثرة .

حالما انحرفنا الى الطريق الثانية ، خلال الجبال التي تفصل سهل ميرغاوار المنحني الاول عن سهل تيرغاوار المنحني الثاني ، لاحظت زيادة طفيفة في حجم الخضرة هناك . كانت قرى تيرغاوار الحجرية قد سكنتها قبائل مسيحية لوقت مضي ، حيث كانت قد تقاسمت الجبال والسهول مع الاكراد لفترة من الزمن . كانت تلك هي القبائل الاشورية . وهؤلاء الاشوريون الى جانب الارمن ، كانوا قد اعتنقوا الديانة المسيحية قبل بقية معظم العالم المسيحي بفترة طويلة . لقد عاش الاشوريون في وضع متقلقل مع الاكراد ، لسنوات عديدة ، ولكن الاحداث العالمية - كاهتمامات الجيش الروسي الذي احتل ازربيجان تقريبا في فترة الحرب العالمية الاولى والبعثات التبشيرية الغربية - قلبت غضب جيرانهم المسلمين على رؤوسهم . لا يزال قاطنوا بعض القرى الواقعة الى الغرب والجنوب من ريزاي اغلبهم من الاشوريين ، اما سهل تيرغاوار فقد رحل عنه الاشوريون واجبروا على الخروج منه أوذهبوا بطريقة وحشية ، بينما استولى الاكراد على الاشجار والكنائس .

لقد سيطرت قبيلة الهركيين على تيرغاوار ، وهي واحدة من اضعف القبائل في كردستان اليوم وتتألف من حوالي ٣٠,٠٠٠ فرد متوزعين في ايران والعراق . ويقطن جزء من القبيلة هنا في القرى المسيحية القديمة ، بينما يقطن جزء آخر في العراق ، قرب مدينة اربيل " هولير " كما يسميها الاكراد . ولكن وعلى الرغم من انفصالهم الجغرافي ، فقد ظلت المجموعتان متحدتين الى حد بعيد . وفي كل السنوات التي تواجه فيها الجيش العراقي والایراني ، على طول حدودهما المشتركة ، كان قد سمح للهركيين - نوما - أن يعبروا الحدود ، ليعبروا قطاعاتهم في جبال ايران ، كل صيف . بينما كانت قبائل اخرى قد اضطرت الى ان تختار احد البلدين ، او أن تظل

منفصلة الى الابد ، وكان قد سمح للهركيين بالعيش مثل اسلافهم ،
يعسكرون في قرى مستقرة في الشتاء ، وفي الخيم فوق قمم الجبال
في الصيف ، غافلين عن الحدود القومية بابتهاج . وقد شهدت تلك السنة
التي اتيت فيها الى كردستان انتهاء هذا النمط من الحياة ، حتى
بالنسبة للهركيين المتمتعين بالامتيازات ايضا . لقد كان مقدرا على
المتمركزين على طول الحدود ، ان ينتظروا بدون جدوى الربيع القادم
ذاك المنتظر كـبـيـنة اولى للقبيلة وقطعائها لتقوم برحلة طويلة ،
شاقة من العراق .

على الرغم من أن جميع الاكراد ، كانوا قرويين منذ قـرن
تقريبا حصلت بعض القبائل على امتياز العيش مثل الهركيين ، فـي
الوقت الذي وصلت فيه الى كردستان ، كان معظمهم قد حـجزوا في القرى
مع بعض المحظوظين ، دائمي الاستقرار في المدن ، حيث استطاعوا ،
بفضل تعلمهم ، او حنكتهم ، ان يوفرؤا لاولادهم مستقبلا أفضل مما
قد توفره حياة القرية . غالبا مايتوقف هؤلاء الاكراد ، واحفادهم
عن التفكير بانفسهم ، عندما يتعلق الامر باصولهم القبلية ، ولكن
في القرى الايرانية ، لاتزال هذه القبائل كلية القوة ، حيث تهيمن
بولاؤها وتكتلها القبلي اكثر من هيمنة الحكومة الايرانية . بـوجود
في ايران فقط ، مايقدر بستين قبيلة ، ويتراوح عدد عائلات كل
قبيلة بين ٥٠٠ الى ٣٠٠٠ عائلة ، وتتفرغ بعض القبائل الاكثر
ضخامة الى طوائف او عشائر والعائلة بامتدادها ، هي الوحدة
الاجتماعية الاصغر في كردستان والسائدة اكثر من الفرد الواحد .
وبعض من القرويين القليلين جدا يعتبرون غير منتمين الى قبائل ،
ويدعون بالكرمانج وعندما يحط من قدرهم اكثر يطلق عليهم " دودي
بودي " وهي مرادفة الى حد ما لما يدعي عندنا بـ " هوي بولـوي"
" أي " الرعاع " وهؤلاء " الكرمانج " ملازمون للقرى ولـمالـكي
الاراضي كـفـلاحين او كـأقـنان . وعلى الرغم من انهم قد يقاتلون من
أجل قبيلة معينة فهم لا يرتدون اللباس الخاص الذي يميز قبيلة عن
اخرى مثل العمامـم الحمراء او البيضاء التي تميز البرزانيين
أو الاحزمة الخضراء المميزة " للسياد " المنتمين لآل البيت .

ان " الشيخ " في كردستان ، هو اللقب الذي يتفرد به رئيس القرية أو العشيرة ، أو القبيلة ، على الرغم من أنه يمكن أن يستخدم بمعناه الاسلامي المألوف على نحو أكبر لقائد ديني . وهناك ألقاب أخرى يستخدمها وجهاء الاكراد مثل : " البك " و " الآغا " و أصل كلا الكلمتين تركي ، وكذلك اللقب المنغولي " خان " وقد فقد كل من كلمتي " بك " و " آغا " بعضا من صفاتهما المميزة خسارج كردستان ، بما أن كلمة " آغا " في ايران وكلمة " بي " في تركيا هما اللقبان المألوفان للرجال ، مثل كلمة " السيد " . وقد حرم رضا شاه ، والد الشاه الأخير لقب " الخان " لأنه أراد ان يكون الخان الوحيد في البلاد . ويبدو ان الاكراد قد تجاهلوا ذلك المرسوم من بين آخرين عديدين ، وهم لا يدعون بعضا من قوادهم خانا فحسب بل وعلى نحو مغاير للشعوب الاسلامية الاخرى يلحقونه بأسماء نساء ورجال مميزين أيضا . لم ابصر سوى المشاهد الصخرية المنتعشة بجدول صعبير هنا ، او بقرية او رقعة ارض مشجرة هناك وذلك لجهلي التام بماضي ومستقبل تيرغاوار وكذلك لمعرفتي القليلة بالتسلسل الهرمي للقرى والقبائل الكردية . حتى اني لم اقدر بدقة تفوق القرية التي كنا ماضين اليها . لقد كانت قرية مانوا ، مركز القيادة الرئيسي لرشيد بك العظيم ، وهو واحد من القواد الهركيين ، في الوقت الذي لعبت فيه هذه القبيلة دورا غريبا ومتناقضا فسي تأسيس وحل جمهورية مهاباد . وبالطبع فان السيد خليلي لم يذكر لي شيئا من هذا ابدا . كان قد احبرنا فقط اننا نسافر الى قرية كردية نموذجية حيث سأشاهد للمرة الاولى كيف يعيش سكان القرى " الاكراد الحقيقيون " وكيف سيكون باستطاعتي التحدث مع النساء وفهم شيء ما عن حياتهن . كنت قد اغرقت في القلق لتخليتي كيفية ردود فعل هؤلاء النساء الكرديات اللواتي تصورتهن طوبلا وهن امامي . كما اغرقت في التساؤلات حتى عن كيفية فهمهن لي ، بكرديتي الفضولية المكسرة ، ولم يخطر ببالي التفكير بما كان اخو السيد جاهي والسيد خليلي سيفعلانه ببذلتيهما القاشمتين ، وبربطتي عنقهما السوداوين في قرية " نموذجية " مغبرة " . حتى السفوف المعدنية

البراقة للمستوصف والمدرسة الواقعين خارج مائوا تماما ، لـم ينبتني كم كان مُنمما على هذه القرية على نحو غير مألوف . فكل ظني ان اسباب الراحة هذه متوفرة في جميع القرى . اصاب مفيغونا بالهلع لخلو فناء الدار الذي استقبلنا ونحن نندفع نحو الطريق الدائري الخاص المودي الى مضافة رشيد بك الواسعة والمعتممة والسـ جناح الحريم ، تملكني شعور متنام بالخوف والقلق حول حشد من الاطفال الرشي الملابس حيث كانوا قد تجمعوا ليحدثوا فينا اثـنا نزولنا من السيارة . لقد بدوا فقراء وغريبين جدا . لم اكن أمرف انه حتى اطفال القواد القبليين الاكثر ثراء يتجولون فـي شياـب رثة كصبية مهملين ، تملو وجوههم المغيرة الملوكة بالشمس طبقة داكنة من الاوساخ . ومن السخريـة ان اول ما ادهشني كان فقر وقذارة مائوا التي تعد واحدة من اغنى القرى في كردستان الشماليـة . وتحدث الي السيد خليلي بلطف ولكن بصرامة قائلا :

ـ عليك ان تذهبي مع النساء .

نظرت حولي وتساءلت اين يمكن ان يكون مكانهن . وعندما رأيت فتاتين يافعتين مرتديتين بذلتين من الطراز الكردي ، انيقتيتين وجدينتين الى حد ما ، تقتربان مني وهما خارجتان من احدى البنايات ذات الطابق الوحيد والمواجهة لي . راح السيد خليلي والسيدجاهـي يأخذان جيرد بسرمة في اتجاه آخر ، وثـركت لوحدي وقلبي يخفق بشدة . كررتا عبارة " توخير هاتي به " ـ قدومك سعيد ـ عدة مرات لكي اعرف انه قد رحب بي في منزلهما . ومن ثم اشارتا الي ان اتبعهما الى الداخل ، ومعدنا درجات صخرية خشنة الى الطابق الثاني واخرجت احدهما مفتاحا هيكليا ضخما وفتحت بابا خشبيا غـيـر متقن المنع .

كانت الحجرة في الداخل مضطربة بالانحوائـ على نحو متباين مع القاعة الخالية القدرة . وقد ذكرتني الوسادات ومعلقة الجـدار واغطية الاسره بالادوات المصنوعة يدويا التي رأيتها في مهـابـادـ ولم تترك حتى واجهة واحدة خالية . وكان لكل من ذراع تدوير آلة

الخيطة والمذياع المسجل الموضوعين فوق الرفوف على نحو متقاطع مع الحائط اغطية مدروزة . وكان يقبع في احدى جهات الحجرة سريــــر مزدوج عال مع كومة من اغطية الاسرة المصنعة يدويا ، وفي الجهة الاخرى كانت طاولة زينة منخفضة مغطاة بقوارير عطرية مزخرفة وكانت امرأتان مستنتان بشعرهما الاسود القاتم وبملايسهما الزرقاء مع صداراتهما السوداء جالستين على سجادة بجانب الطاولة . وقد نهضتا عندما دخلت مع الفتاتين وكان قد جرى وراءنا حشد من الاطفال من فناء الدار .

" توخير هاتي به " قالها الجميع ، وبسرعة قدموا لي صحناً من التفاح الصغير وكان يبدو مسوسا . ولشعوري بوجوب تناول بعض منها التقطت واحدة ونزعت قشرتها واكلتها بينما كن جميعهــــن يراقبنني . وحالما انتهيت من أكلها احضرت احداهن كومة من اللباس وبدون ان ينبهنني ، تجمعن حولي ، وبدون وساطة للغة استوعبت الفكرة نوعا ما ، لقد كن يردن ان ارتدي زي امرأة كردية فتساءلت بقلق للحظة فيما اذا كان علي ان اخلع بنطالي المخملي الفضفاض وكنزتي ، اللذين ارتديتهما خصيصا للقرية . اقلت احداهن الفستان الاول الابيض الحريري المذهب فوق رأسي ، كما لو أنه كان جوابا على تساؤلي ، واتبعته ببقية اجزاء البذلة بسرعة . وفي غضون دقيقتين اثنتين كان جسدي قد لف بكاملة بزي كردي . و بعدئذ رفعت المرأة قلادة ذات سلاسل ذهبية وحلي صغيرة من حــــول عنق احدى الفتاتين اللتين رحبنا بهن ووضعتها حول عنقي . نظرت الى الاسفل ، الى الذهب متسائلة فيما اذا كانت السلسلة ذهبا حقيقيا ، فقد كان هنالك الكثير منها . وبعد ذلك لففن رأسي بكوفية مزينة الحواف وقد علق بها خصلات من شعري ، واخيرا حاولن ان ينزمن نظارتي ليكحلن عيني بتلك المادة السوداء المستخدمة على نحو تقليدي في كل انحاء الشرق الاوسط كقلم للعين . عند هذا صددتهن ورفضت ان يجملنني ووضعت نظارتي ثانية ، وقد تنهدن عندما اخبرتهن اني لا استعمل مساحيق التجميل ابدا . واني لا امضي بسدون

نظارتني ابدا . بعدئذ ادرنني صوب مرآة طاولة الزينة وهن يراقبنني بتلهف ليرين رده فعلي على ذلك .

حدقت في صورتي المنعكسة في المرآة ، شاعرة وكأنني فـي حلم . فمئذ لحظة كنت واقفة في الباحة المغبرة يتفحصني حشد من الاطفال . والآن بدوت كما لو اني قد انضممت الى مهرجان من القرون الوسطى ، بالاكمام الطويلة ذات النهايات الدقيقة ، الملفوفة حول رسفي والاعطية الثقيلة التي لف بها رأسي . ولكن وقبـسـل ان اعلق بسخرية حول مطهري ، اخذتني مضيقاتي الى مكان آخر . فامسكت بالاجزاء السفلية من الفستان باحكام لاتجنب التعثر عند نزولنا فوق الدرجات المخربة . وتحت الشمس المشرقة في الخارج تراجعت الفتاتان الى الورا . وهما تمسكان باوشحة رأسيهما وتسحبان جزءا منه لتضعاه فوق فميهما ، بينما بدأت أنا بالمشي باتجاه جبرد ، حيث كان جالسا على طاولة لعب ورق مع الرجال تحت الاشجار في الفناء .

انحنى لي الرجال احتراما عندما تقدمت نحوهم ، ولكنهم لم ينهضوا . ففي القرى لا يقف الرجال للنساء الا اذا كن نساء مهمات جدا والرجال غير مهمين . نظر الي " السيد خليلي مستحسنا لباسي وقد اخبرني جبرد موعرا ان الرجال كانوا يلمحون له ان مفاجأة قد اعدت له .

كان ذلك من ضمن طقوس ادخالنا الى واحدة من قواعم الضيافة التي يقدمها الاكراد للنساء الغربيات اللواتي يأتين لزيارتهم . حتى النساء الفارسيات من طهران اللواتي كن يقضين عطلتهم في ريزاي كان يكمن لهن من قبل اصدقائي الاكراد فـي البازار ويؤخذن الى المنزل ويلبسن الالبسة الكردية ومن ثم توءخذ لهن صور . لم استطع ان احدد بالضبط الطرف الذي كان يتسلى اكثر ، الملبسات ام الملابس . وبما ان الصور كانت عنصرا اساسيا في هذا التقليد ، فقد اعطيت آلة التصوير لجبرد ليلتقط بعض

المصور ، ولكنه عندما دنا من المنزل ، حيث كانت تقف الفتيات ،
ابتعدن على نحو عفوي عن آلة التصوير واشتحن فوق افواههن .
ففلت عائدة الى الرجال ، وسألني السيد خليلي :

— هل تقضين وقتا ممتعا ؟

نظرت اليه ومن ثم الى جيرد وبعدئذ الى الرجال الآخرين . هـل
كنت اقضي وقتا ممتعا ؟ ببساطة كان من المستحيل تقييم أي
نوع من الوقت كنت اقضيه . فقد كان كل شيء يحدث على نحو
سريع جدا ، وكل ما استطيت ان افعله هو اني اتساءل عما سيفعلونه
لي في الخطوة التالية . ولكنني بالطبع اخبرت السيد خليلي انسي
كنت اقضي وقتا رائعا . فابتسم لي بابتهاج . عند ذاك نظر الي
جيرد بغرابة ، وتساءلت من كيفية قضاء وقته . واكتشفت موعرا
ان الرجال كانوا يحاولون اقناعه باتخاذ زوجة اخرى له . وقد
حدث العرض حماسا اكثر عندما اخبرهم عن رغبته الشديدة في تعلمي
الكردية . فأجابوه برد منطقي الى حد ما وقالوا :

— اذا كنت تريد زوجة تتحدث الكردية ، لم لاتأخذ واحدة
تعرف اللغة حقيقية ؟ فبامكانك ان تتخذ احدى فتياتنا كزوجة
شأنه لك .

بعد ذلك اوضح لهم جيرد انه من المهم ان تعرف زوجته
الانكليزية . واخيرا قال جيرد : انه يجب أن يتصادق مع زوجته
قبل ان يتزوجها . وقد اربكهم ذلك ، فالزوجات والازواج الاكبراد
لايتصادقون ، وخاصة ليس قبل أن يتزوجوا .

في غضون ذلك قررت مفيفاتي اخذي في جولة في القرية ،
فأمسكت بآلة التصوير بيد والاجزاء السفلية الطويلة من الفستان
بالاخرى على الرغم من انهن كي يمنحنني باستمرار بافلات حاششية
الثوب وترك حواف اللباس لتتجر على الارض . تجاهلت ما اعتقدت انه
مرض مهذب وبقيت ممسكة بالحريز الابيض المذهب ولم اتركه ينسحب

على الأرض . لم اتصور ان اترك مثل هذه الملابس الجميلة تغطى بالتراب . كان علي أيضا أن امهم جيدا حقيبة ان هؤلاء النساء يرتدين مثل هذه الالبسة كل يوم وانه ليس لديهن الوقت للقلق من هذا التراب القليل . فلا عجب فالقرية برمتها بدت كأنها مغطاة بالطين . ومرة اخرى اشار الفقر والغربة دهشتي عندما تمشي بنا خلف المباني الغرميدية الضخمة . حيث تسكن مضيفاتي . هنا في الممرات الملتوية رأيت الاكواخ الطينية المخروطية السطوح ، وافنية دور عميقة وتراعت لي دزينات من العيون تحديق في من وجوه ملوحة بالشمس .

انتشرت الاكواخ المخروطية الشكل بسقوفها القشية على مقربة منا بشكل غير واضح ، وقد رفعت الاجزاء السفلية من اللباس الى اعلى قليلا لأعبر جدولا صغيرا في طريقنا وقادتني مرافقتي المرتديتان على نحو افضل من كل من كان في الحشد ، قادتانني الى امرأة مسنة فقدت اسنانها ، كانت تنسج على نول غير متقن في الغناء امام كوخها . توقفت امامها وتفحصت تشكيلة الصوف الاسود الخشن وسألت عما يمكن ان يكون .

- انه شادر .

جفلت ونظرت حولي . هل أنا لاشرقية لدرجة ان افشل في ملاحظة القرويات وهن يرتدين الاغطية ؟ كانت رءوس معظم النساء الواقفات على طول الممر مغطاة بالوشح فقط ، وليس بينهن من تفتح الخمار بطوله الطبيعي الكامل .

- شادر ؟

كررت ذلك بصيغة سواء . رمقتني المرأة بنظرة ، وبدون شمسك متسائلة فيما اذا فهمت لغتها وازافت :

- انه للجبال .

بعدئذ فهمت ماكانت تريد توضيحه . انه الشادر بمعناه الودييم
" خيمة " وليس بالمعنى الشائع في المدينة كعباءة .

ان الشيء الوحيد الاسود في كردستان دبالاضافة الى صدارات
بعض النساء > هو الخيم التي تنصب فوق قمم الجبال عندما يصبح الجو
دافئا بشكل كاف في الربيع ، لاخذ الحيوانات الى هناك للرعي .

في طريق عودتنا الى منزل مضيفتي رأيت امرأة حبلــــى
تغزل قطناً فوق مغزل مدلى . لم ترغب في التقاط صورتها ولكن
مضيفتي تغلبتاً عليها . لقد استفدت من معرفتي القليلة
جدا للكردية ، ولكوني جاهلة تماما عادات القرية ، لم أشعر بالذنب
حول الفوز بموافقتها المكروهة . ولكن بعد هذا لن اقدر انصور
نساء غريبات في القرى بهذه السهولة .

على مقربة من المنزل ، مررنا برجل اصلع يقطع الخشب
بفأس. كان سعيدا بالتقاط صورة له اثناء مروري واخذي صورة لهذه
الشخصيات الغريبة - النساجة العديمة الاسنان ، والمرأة الحبلى التي
كانت تغزل ، والحطاب الاصلع، لم استطع التغلب على شعوري بأننسي
كنت في حكاية من حكايات الجن . صور جميلة ونقوش صغيرة لحياة
غريبة أو مضتها أنا ولكن كيف لي أن اعرف اي شيء عن طريقــــة
معيشة هؤلاء الناس ؟ لقد كنت برفقة اميرتي القرية ، وكــــان
بيتهما غريبا الى حد بعيد ، ولكنه كان يحتوي على اشياء مالوفة ،
مثل الاسرة وآلات الخياطة ونوافذ قد وضعت على زوايا مستقيمة .
ماذا يكمن خلف عتبة الباب الطينية لمنزل تلك المرأة النساجة ؟

بعد جولتنا الى ابعد من اكواخ القرية الطينية ، نظرت الى
المنزل الذي كانت مضيفتاي تقطنانه بنظرة جديدة ، فالقرميد الاصفر
المصنع ، واطارات النوافذ المعدنية والطابق الثاني ، كلها كانت
عادية جدا عندما رأيتها لأول مره . فهناك الآلاف من مثل هذه
البنائيات في ريزاي ، والعديد منها في حالة أفضل . اما في مانوا

فقد كانت توجد هناك اثنتان فقط وكانت كل قطعة قرميد أو حديد
قد نقلت عبر الممرات الجبلية في طريق ترابية . كان رشيد بك
قد بنى هذه المنازل واسكنها بذريه زوجاته وزوجات ابنه
أمير خان .

دلفنا الى داخل المنزل من باب الخلفي ، مارات بزيبسة
الحيوانات في الطابق السفلي ، وكان من الصعب علي أن أرى أي شيء
الى أن رجعنا الى مدخل الدرج حيث توجد فيه نافذة في أعلى الجدار
خلعت ملابس المستعارة بسرعة داخل الحجرة التي كنا فيها من قبل
واسترحنا من قلق توسيخها ثانية . ومن ثم اخذنا اماكننا في
الجلوس متقابلات واخيرا حفظت اسماءهن عن ظهر قلب وبشكل صحيح .
كان اسم الفتاة السمراء الممتلئة الجسم شيرين أو "خلوة" بينما
كانت بروانه " فراشة " مثل اسمها تماما ، فقد كانت
شعراء وبالفة الرقة . بادرت شيرين اصغر الاثنتين بالسؤال قائلا :

— هل عندك اولاد ؟

— لا .

— ولم لا ؟

— آه ، لم يمض على زواجي وقت طويل .

— اذا سيكون لديك طفل في وقت قريب ؟

سألت وهي تنظر الى بطني .

— لا ، لا أظن ذلك .

— وكيف تعرفين ؟

جلست متعجبة من كيفية سير المحادثة وبهذه السرعة ، كم
كان عمر هاتين الفتاتين ؟ الى أي درجة من التفاصيل تتوقعان
ان اعطيتهما عن شكل منع الحمل الذي اتبعه ؟ صرت بدقة الحجاب
الحاجز وهي حيلة غير معروفة في كردستان الايرانية وحاولت
ان استجمع الكلمات لاصفها . واخيرا قالت بروانه وهي تحثني
على الكلام :

- هل تأخذين حبوبا ؟

فأجبتها بالفارسية :

- تقريبا .

وتقريبا تعني حرفيا " على نحو تقريبي " وهي كلمة عربية تفيد في اعطاء اجوبة غامضة في كل ارجاء الشــــــــــــرق الاوسط .

والآن جاء دوري لتوجيه الاسئلة . ولكوني متحفظة فسي السوال عن الاشياء الخصوصية جدا فقد اقتصرت مواضيعي في الحجرة على الاسماء الكردية فقط . ولعبنا هذه اللعبة لفترة قصيرة بنجاحات متفاوتة . لقد كنت افهم القليل من الكردية ، على الرغم من تأكيدهما بأدب ولباقة اني اتكلم لغتهما بطلاقة ، وكانتنا تواصلان التحول الى الفارسية . وبما انهما تابعتا الدراسة حتى الصف الخامس فقد كانتا تعرفان القليل جدا عن اللغة القياسية وقد افترضنا انه بما انني عربية متعلمة ، فأنني سأعرف بالطبــــــــع اللغة الفارسية أفضل بكثير من لغتهما غير المدونة . وقد بدا انني لم استطع ان أفهمهما ان اللغة التي ادرسها في الولايات المتحدة هي تلك اللغة الكردية عديمة القواعد وغير المعتمدة وانهما ليست الفارسية .

مضت مضيفتي بدون أي توضيح للتحدث مع الخادمة في الرواق ، وبعد ذلك دخلت الاخيرة الى الحجرة وهي تحمل طستا معدنيا وابريقها بلاستيكيها ذا مصب ضيق . واخرجت احداهن قطعة مستطيلة من الصابون من الخزانة وناولتني اياها وعلى نحو غير بارع مددت يدي الى الامام قليلا ، بينما صبت عليهما الخادمة الماء . بعدئذ ارغيت يدي بالصابون وغسلتهما برفق مع مزيد من الماء المصبوب . ومن ثم جففتهما بالمنشفة .

بينما كانت الفتاتان تغسلان ايديهما ، اوضحت لي بروانه

ثالثة :

• لدى والدي العديد من هذه •

فحدثت فيها متسائلة : العديد من ماذا ؟ الطمسوت
والاباريق ؟ قطع الصابون ؟ ولكنها عندما اشارت الى الفتاة التي
تنصب الماء ، فهمت قصدها . فلدى والدها العديد ممن
الخدامات .

كانت خادمة والدة بروانه هي الاولى من بين العديد من الخادمت اللواتي التقيتهن في البيوت الكردية . ومنذ البدايئة تماما لم أكن استطيع تحديد كيفية تعاملتي مع الخادمت . فقد كان يزعجني ان يكون هناك من يقوم بدور الابريق والحنفيه أمامي . والخادمت كذلك كن يقضين ساعات في غسل الملابس يدويا ، وينظفن المواد الغذائية ، يخبزن الخبز ، ويقمن بأعمال روتينية مستهلكة . والشئ الذي كان يضايقني لم يكن قساوة حياتهن او عبودية اعمالهن الروتينية فقط ، بل أيضا عدم قدرتي على تمييز الخدم . فقد كانت هذه أيضا مشكلة . ان الخدمة ضمن نظام اقتصادي ، اقطاعي جزئيا وليس ماليا هو شئ جار . وعلى الرغم من ان بروانه قالت ان والدها " يملك " الخدم فقد رأيت فسي قرى أخرى انه يمكن ان يدعى أي شخص للخدمة في أي وقت ، حسب اقتضاء الموقف والمكانة الاجتماعية للناس المخدمين . فالفلاحين غالبا ماكانوا يقومون على خدمة مالكي الاراضي وعائلاتهم معتبرين ذلك امرا طبيعيا ، وبدون اي اجر نظامي . اما القرويون الذين كانوا يأتون الى المدينة من فترة لأخرى في رحلات قصيرة للقيام بأعمال معينة وكانوا يبقون في منزل الشيخ ، كانوا يخدمون أهل الدار على نحو روتيني . والاكراد الذين كانوا خدما داشمين غالبا ماكانوا يبدون لي كأنهم اعضاء من العائلة ، فقد كانوا يقيمون احيانا في منازل مستخدميهم وكان لباسهم على الاغلب لا يختلف عن لباس الذين هم في حالة أفضل منهم . وعلى العكس فان افراد العائلة الحقيقيين كانوا يبدون كالخدم احيانا . وزوجات الابناء كن يقمن على خدمة امهات الأزواج والاخوات والاخوة ، والاخوات

الا صفر سنا كن يقمن على خدمة الاخوات الاكبر منهن . وحتى
الشيخ الرجل الذي يمثل اعلى درجة في القرية ، يمكن ان يقوم على
خدمة اى شخص ، اذا كان ذلك مناسباً . والرجال الاكبر
الارستقراطيين المدللون منذ الصفر من قبل النساء والخدم حولهم
كانوا يتحولون الى مضيفين محترمين جداً ومراعين لرغبات ضيوفهم اذا
لم يكن هناك احد غيرهم ممن يقوم على خدمة الضيف ، ولكن الخدمة
في كردستان هي على نحو رئيسي " ضمن العائلة فقط " . لأنني عندما
حاولت ان اجد امرأة كردية مفضلة اياها على امرأة تركية لتعمل في
بيتي ، أخبرت ان الكرديات لا يعملن لدى الغرباء .

بعنا انني لم اقم بزيارة الى قرية من قبل لم استطع ان اقدر كسم
كانت الوجبة متازة وسخية عندما اعد لنا الغذاء . وحتى لم يخطر
ببالي ان اتساءل كيف تتناول مضيفاتي اللحم غالباً ، وما يتعلق بها
من القيام بعمل الرعاة وعمليات ذبح الماشية ومشكلة التخزين في
مكان ليس فيه ثلاجات وكل ذلك دون ان نذكر مسألة التقطيع
والتنظيف . لم يكن طعامنا المطهو يحتوي على لحم الضأن فقط بل
أيضاً على خضروات منتجة منزلياً . وكان هناك ايضاً رقاقات بطايس
مقلية على نار غير مكثفة ولا غازية . واخيراً كان الخبز ، حيث كن يبدلن
جهداً في خبزه كل صباح ، وكان مصنوعاً من الدقيق المطحون في
الطاحونه ، التي سمعتها تهمهم عندما تجولت خارج القرية وبالطبع
لم يكن لدى العديد من القرى طواحينها الخاصة بها .

بعد اخذ وجبة الطعام حاولت شيرين وبروانه ان تونحيا الي أنسي
تعباً ، وانه علي ان اضطجع قليلاً وأخذ قسطاً من النوم . ولكنني
شعرت انني متيقظه تماماً . وبالإضافة الى ذلك لم ادر كيف سأسدد
قدمي بلهافة امامهما ، بعد ان كنت قد قرأت في كتاب انه من المعيب
جداً في الشرق الاوسط ان توجه قدميك صوب احداً . وبينما
جلسنا جميعاً القرفصاء على الارض . احداً منا مقابل الآخر ، فهمت
انهما تتسائلان كيف ستقصد مكان

على تسليتي . لقد اصبح الحاجز اللغوي مضجرا اكثر فاكشـر .
واخيرا لمعت عندها فكرة تعليمي الرقص . وقفزت برواـنـه
وانزلت المسجلة من فوق الرفءازاحت غطاءها ووضعت فيها شريط
تسجيل . وبينما بدأت المسجلة المحدثـة صريرا بالعزف ، شبكت
الفتاتان ايديهما وببطء بدأتا بالدوران في الحجرة في آداـة
رائع من الرقص التقليدي الشرق اوسطي ، والذي يشكل صفا طوليا .
لقد كانتا تتوازيان اولا على قدم واحدة وبعدئذ ترتكزان على
الاخرى ، ومن ثم تجران القدمين معا على الارض جانبيا .
ونزولا عند الحاجهما نهضت وحاولت ان اتبعهما . وبعد بضـع
دقائق من الرقص غير المتقن جلسنا جميعا ثانية . وتساءلت
فيما اذا كان ذلك كل مافي الرقص الكردي . بعدئذ بحثنا
عن شيء آخر ، فأخرجتا دفتر صورالعائلة ونظرت في الواحدة تلو
الاخرى من صور الاكراد العنيددين العبوسين . قلبت الاوراق بادب
محاولة ان اكون مفهوما ماعن جميع هؤلاء الغرباء ، ولكنني
كنت افشل . بعد ذلك سألتني شيرين :

ـ هل ستأتين الى حفلة زفاف بروانه ؟

نظرت اليها بفضول محاولة ألا ازيد من آمالي ، فقد كنت
قد سمعت عن الاعراس الكردية الخرافية والمبالغ فيها وكنت
اتحرق شوقا لأن ادعى الى حفلة منها . ولكنني لاحظت أن بروانـة
قد احمرت خجلا وتجهمت ملامحها .

ـ أنا لست مقدمة على الزواج .

قالت الفتاة الشقراء وهي تحديق بغضب بقريبـتها .

ـ بلى ، ستتزوج .

أكدت لي شيرين .

نقلت نظري من واحدة لأخرى ، وأنا لا زال آمل نوعا
ما في ان هذه الدعوة حقيقية لعرس كردي حقيقي ، ولكنني في

نفس الوقت شعرت بأنه من المحتمل الا يكون هناك عرس اذا رفضت العروس المزعومة ذلك . لربما كان ذلك طقسا آخر من الطقوس والعبادات مثل تزييني . كأن يدعون ضيوفا ا جانب على سبيل الدعابة الى اعراس لم تدرج في موعد ما للقيام بها .

- كم عمرك ؟

سألت الفتاة معتقدة ان ذلك يمكن ان يزودني بمفتاح اللغز فيما اذا كانت بروانه مقدمة على الزواج فعلا أم لا .

- أربعة عشر عاما .

كشّرت بروانه ، بينما حثتني شيرين قائلة :

- اذا ، ستأتين ؟

فقلت متشككة :

- لا اعرف .

في تلك اللحظة ظهرت الخادمة عند مدخل الباب ، فنهضت كلتا هما لدى سماعهما الاخبار بأن السيد خليفي قد دعاني . فبعد كل هذا العناء معي ستقدرا ان على اخذ قيلولتهما لفترة بعد الغداء . وبعد ان شكرتهما وصافحتهما ، كتبت لهما عنواني في ريزاي على نحو سريع وحشثتهما على زيارتي عندما تأتبان الى المدينة . وكانتا قد اخبرتاني في سياق الحديث انهما غالبا ماتأتيان الى ريزاي . وقد تخيلت ببساطة انهما كانتا حرتين في مفادرة مكان اقامتهما اينما كان ، وبالتجول أو اخذ سيارة اجرة الى منزلي .

قادتني الخادمة لدى نزولي عبر الدرج الصخري ومن ثم اشارت الي ان اذهب الى الرجال . ومرة اخرى تفحصتني العديد من العيون الرجالية الجسورة . شعرت بالعدوانية والاحتقار في

تحديقهم ، على الرغم من اني لم اكن اعرف بعد انهم قد
عرضوا زوجة اخرى على حيرد . وسألني السيد خليلي مرة ثانية
فيما اذا قضيت وقتا طيبا . وقفت متوقعة لكل واحد منهم
ان ينهض لكي يغادر ، لكن احدا لم يتحرك : فسألت جييرد
بالانكليزية :

- ألن يغادر ؟

- لاأظن . فالسيد خليلي اراد فقط ان يرى كيف كان
الحال معك .

حدثت الى الخلف الى مدخل دار الحريم ، الخالي من
الاطفال والفتيات في شمس الخريف الحارة . والآن كان علي أن
اعود ، لاني لم استطع الاستمرار في الوقوف ، وهؤلاء الرجال
يحدثون بي . وببطء مضيت بعيدا صاعدة الدرج لوحدي ، الى أن
فتحت شيرين الباب فجأة ناظرة الي بفزع ، فالفيوف في القرية
من المفترض ألا يتركوا لوحدهم أبدا .

ويتودد استعدت شيرين وبروانه لتكونا مضيقتي حتى
ساعة اخرى أيضا . احتسينا كوكوس الشاي الواحدة تلو الاخرى
وحاولنا ان نبقي الحديث متواصلا ، لكن كل واحدة منا شعرت
بالراحة ، عندما حضرا خيرا طفل واخبرنا انه قد حان موعد
رحيلي . ودعنا بعضنا ثانية ولكن في هذه المرة ، رافقتني
الفتاتان طول الطريق نزولا على الدرجات وحتى الخارج لتأكدنا
من مغادرتي فعليا . لدى عودتي الى سيارة الجيب التي كانت
تلفها غيمة من الغبار تحت أشعة الشمس المحرقة لفترة بعد
الظهر تماما ، علمت ان مسجلة السيد خليلي السويسرية المنوع
الفاخرة لم تكن تعمل جيدا لتسجيل أي شيء ، فبالنسبة له
كان اليوم مجرد لهو وتسلية . سألت جييرد .

- لماذا بقينا طويلا هكذا ؟

فأجابني :

ـ لقد بقينا لأجلك .

قال السيد خليلي مبتسما :

ـ تعرفين الآن شيئا عن حياة القرية .

أومات برآسي بلباقة موافقة على ذلك .

كانت مشاهد اليوم قد تجمدت في ذاكرتي مثل صور سينمائية غير مترابطة في فيلم سينمائي غريب . الغبار ، اللبسة البراقة ، المغازل المتدلية ، الاكواخ الطينية ، الوجوه الملوحة بالشمس ، اللبن اللاذع المذاق ، والغبار والغبار والمزيد من الغبار . كنت قد جلست حتى آلمني ردفاي ، محاولة التحدث مع الفتاتين . ماذا كانتا تفعلان في غياي ؟ ليست لـسدي ادنى فكرة عن ذلك . لم يخطر ببالي ان اتساءل ، لماذا كانوا يجعلونني اتسلى مع فتاتين في الرابعة عشرة والخامسة عشرة من عمرهما . وقد افترضت انه لابد ان والدتيهمـ كانا تقومان بأشياء مفيدة اكثر من تسلية ضيوف اجانب . ولكن اين كانتا ؟ كانت نظرياتي حول مايفعله الناسـ وخاصة النساء ـ في اوقاتهم لاتزال وعلى نحو ميئوس منه مرتبطة بالولايات المتحدة وببيضة لاتحمل اي صلة بهذه القرية . سألت السيد خليلي في المرة التالية التي رأيته فيها :

ـ هل فعلا بروانه مقدمه على الزواج ؟

نظر الي السيد جاهي الذي لم يكن يتحدث في الهاتف هذه المرة .
ضحك بصوت مرتفع للنظرة المندهشة على وجهي وقال :

ـ لقد تزوجت ، في الثلاثاء الماضي . بروانه رمت نفسها في النار .

تصورت العادة الهندية لحرق الزوجة عند المحرقة الجنائزية لزوجها واتضح اني لم اكن بعيدة جدا عن الحقيقة . ووضح السيد خليلي :

- نقول : انها القت بنفسها في النار لأنها تزوجت
من رجل عجوز . واضاف السيد جاهي مع ضحكة خافته :
- رجل عجوز وله زوجتان .

واصلت الوقوف هناك ، مدركة لحقيقة انني كنت ابدو متجهمة
جدا وان الرجلين قد كونا مفهوما عني ، على انني نموذج
المرأة الغربية الشائرة . والآن عرفت لماذا احمروجه بروانه
لهذه الدرجة وقلت :

- لقد اخبرتني شيرين ان بروانه مقبلة على
الزواج ولكن بروانه نفت ذلك . فقال السيد خليلي:

- نعم ، هذه هي العادة . فعلى عرائسنا ان يكن
خجولات .

كان والدها هو الذي نظم العرس ، وكان ذلك هو السبب في
عدم وجود احد في القرية في اليوم الذي ذهبت اليها ، لقد
كانت جميع النساء قد اتين الى ريزاي للتحضير للحفلة .

حدقت فيهم ، متعجبة كيف اني كنت غافلة لهذه الدرجة .
لماذا اختار السيد خليلي الذهاب الى مانوا ؟ من كان والـ
شيرين وبروانه ؟ ولماذا اختار ان يزوج ابنته لرجل عجوز
اطرش وله زوجتان ؟

كان ذلك غريبا جدا ، وقاسيا جدا . لم اتصور
کردستان مهباد على هذه الشاكلة ابدا . لقد ظننت أن
الاکراد مختلفون ، فנסاؤهم لايفغن الاغطية ، ويعملن جنبا
الى جنب مع رجالهن . اين هي المفاهيم الديمقراطية
لجمهورية مهباد ؟ .

عدت الى روتين محطة الاذاعة لأدرس مع السيد خليلي حسب
البرنامج الذي كنا قد اتفقنا عليه . كان احيانا يذهب
طوال اليوم في رحلة يقوم فيها بتحقيقات ميدانية ، وكنت اما

ان اتساءل من سبب عدم اخباره لي او كنت انزع الى الانزعاج
اكثر بسبب عدم دعوتي للذهاب معه أنا ايضا . كان يعطيني
المواعيد الضاممة ولكنني كنت متأكدة من انه لن يأخذني
ابدا ثانية لأجلس مع النساء . هل حصل ان اربكته او ازعجت
مضيفاتي في مانوا ؟ فكرت مليا في احداث ذلك اليــــــــــــــــوم
وراجعتها في ذهني متسائلة عن انطباعات شيرين وبيروانه عني
ورأيهما في .

كانت تصل اكوام من الرسائل الى محطة الاذاعة كل اسبوع.
رأيتها متراكمة فوق مقعد السيد اسياي . سألت عما تكون
تلك . انها اسئلة وتعليقات من المستمعين في القرية . وكلما
كانت تتطور كرديتي اكثر ، كنت اصبح اكثر قدرة على متابعة
برامج الاذاعة وقد تحققت ان جزءا مهما من البرامج كان
ترجمة للاخبار تحضر وتختصر الى العناصر الاساسية خصيصا
للكراد : " ان الشاه هو حاكم عظيم ومجيد " ان الجيش
الايرواني قادر على غزو كل الاعداء " " ان البترول سيعني
افقر قروي في كردستان " " ابق جهازك مو لفا على الاذاعة
الكردية واستمع للموسيقا الكردية " وكان العديد من القرويين
يضطرون اجهزتهم على الاذاعة ويحتشدون حول اجهزة الاستقبال
العاملة بالبطارية التي كانت تعتبر وسيلة اتصالهم الوحيدة
بالعالم الخارجي . تساءلت : كم من الاخبار يصدقون ؟ وماذا
فعل السيد اسياي بهذه الرسائل ، ماذا خرج السيد خليلي
من تلك المحادثات صحفية ؟ رية .

كلما كنت اقضي وقتا اطول مع السيد خليلي ، كنت
ادرك أن غموضا ما يحيط به . كان رجلا يبدو عليه الاسى
على نحو لافت للنظر فقد تراءى على التوالي حزينا ومعتسلا
الصحة اكثر من ذي قبل وخلال السنة التي قضيتها في ايران .
وقد اخبر جيرد مرة انه لم ينم طوال الليل وانه قد فقد
الكثير من وزنه لانه فقد شهيته للطعام ، وبدت البسته واسعة

عليه وفي بعض الايام بدا جلده شاحبا كشحوب الموتى . كان في بعض الاحيان يقرأ الشعر ويحكى القصص ويسجلها في مسجلتي ولكي اجعله يتحدث بدون رسميات ، سألته ذات مرة ان يسرد لي حدثا تعرض فيه للموت . وعندما سمع هذا الطلب شحب لونه اكثر مما كان مألوفنا وقال : انه لو اذعن لطلبي ، فانه سيضطر الى ان يحيي ثانية تجربة رهيبة لن تدعه ينام لأسابيع .

كان السيد خليلي جادا في مجال عمله . لو انه فقط قد ر على قبول اعادة معالجة الدعاية الحكومية وتحويلها الى الكردية . ولو انه فقط استطاع اعتبار رحلاته الى الاريصاف كنزهات حيث يمكن فيها ان يبسط اهميته على القرويين ليحوز على عطفهم وعربون محبتهم .

علمت اخيرا من كثرة اصغائي للبرامج الليلية ان السيد خليلي كان من المفترض انه ينشر تعليمات حول الزراعة بواسطة جلسات المناقشة والمداولة التي كان يسجلها على اشرطة تسجيل في مساجد ومدارس القرى . لكن هذه الحملات كانت مثل ذر البذور في تربة الجبال الصخرية والجافة والقاحلة . لم يفكر احد من المسؤولين الحكوميين تفكييرا جادا فعليا ، اوفسي توظيف النقود في مسألة كيفية التأثير في هؤلاء الفقراء ليغيروا من اساليبهم الزراعية وينتجوا اكثر . ببساطة كان السيد خليلي الحلقة الاخيرة في سلسلة تنتهي الى لامكان - اضحكة هابطة لسياسات الشاه الزراعية الغامضة . وقد حكى لي انه عندما قبل هذا العمل في البداية ، كانت لديه آمال كبيرة لعمل شيء ما لأبناء بلده . ومجرد التفكير في مفاهيمه السابقة كان يجعله يضحك بمرارة . لقد اشبع غروري ذلك المدى الذي اختاره للبوح عن مشاعره في فترة يكون فيها المرء وبمثل هذه المشاعر قد وقع في موقف خطر جدا . ولكن ربما أن السيد خليلي قد واجه الخطر مسبقا . وربما انه كان قد اعتقل وعذب من قبل . ان تجربة كهذه كانت من الممكن أن

توضح قلقه المرعب . ولكنني لم أسأله ابداً ، فقد كان حديثنا مقتصرًا على ماهو جار وعلى ماهو محتمل حدوثه في الحسب برب الكردية الحالية لسنة ١٩٧٤ ، التي تثير التفاؤل .

كلما تحدثت مع الناس في الكلية ، كنت ادرك اكثـر ان كل شخص في ايران كان مفعما بالخوف . وكان من النادر ان تجد من يرغب في تداول السياسة . منذ ان فكرت - ولاول مرة - في الذهاب الى محطة الاذاعة ادركت اني سأعرض نفسي على نحو صارخ للبوليس السري . كان هناك رجل شرطة يحرس باب المحطة وكان واضحا من الاصغاء الى الاخبار المسائية انه لم يكن هناك تفريق بين مؤسسة الصحافة والاعلام وبين الحكومة ؛ لقد عرضت نفسي لخطر السوءال عن نوع الرخصة والمصادقة التي قد حازت عليها لدراسة هذه اللغة شبه المحظورة او الا سواً من ذلك لخطر اعتباري جاسوسه او عميلة قد جاءت لتثير المشاعر القومية بين الاكراد في ايران وكامرأة تعلم الانكليزية في الكلية فقد بدوت غير موءذية بما فيه الكفاية ، ولكن لم يكن هناك ما يدل على ذلك . افترض اني قد خلقت لنفسني مدوا . افترض أن السيد جوهر خان ، التركي ، تهايق جديسا مني كأجنبية ارادت تعلم الكردية بدلا من التركية افترض وافترض . لم يكن هناك شيئا محسوسا لاصاب بالقلق بسببه ولكنه سيكون بهد حين .

الفصل الخامس

لقد احتجت الى وقت طويل كي ادرك مدى وضوح كآجنبية في ريزاي . كنت قد اعتدت على العيش على نحو غير منظم في مدن كبيرة مثل نيويورك . ولكن حتى اقامتي المؤقتة لم تهيجني للتفحص الذي ساقاسيه كآجنبية في ايران . ان عدد سكان ريزاي الذي يبلغ حوالي ١٥٠.٠٠٠ نسمة قد ازداد خلال فترة اقامتي بسبب تدفق الاكراد اللاجئين من العراق . وسط هذه الكثافة من السكان الاصليين كان هناك عدد ضئيل من الاجانب - لربما خمسون من الالمان والامريكان والفرنسيين والبولنديين وكذلك بعض الاتراك والمصريين ، الاجانب الاقل لفتنا للانتظار ، بالإضافة الى عدد من الاجنبيات كن زوجات للايرانيين الذين كانوا قد درسوا في اوربا وامريكا ، وقد لاحظت مباشرة ان جميعهن تقريبا كن يلتزمن البقاء في منازلهن بالقدر الذي يستطعن ذلك ، معتمدات على الخدم او الأزواج لتسويق حاجتهن .

ان امكانية البقاء في المنزل لم تخطر ببالي ، على الاقل لبس خلال الشهور الاولى القليلة في ريزاي . لم تكن لدينا سيارة ، لذلك كنت اذهب كل يوم الى الشارع الرئيسي وانا في مستوقفة سيارات برنقالية ، واذهب الى سوق الفاكهة ، والبازار ومحطة الاذاعة والكلية . وحالما كنت اسير من الزقاق الخالي نسبيا والذي يقع فيه منزلنا الى الشارع الرئيسي ، كانت النداءات تبدأ " مرحبا هيسوز ، كيف حالوك " حيث يرحع صداها خلفي حتى بعد ابتعادي لمسافة ليست بقليلة ومضيبي في الشارع . في البدايات كنت انظر الى الناس ، وكان معظم الذين يصرخون بي ممن

الرجال والاطفال . كانت ادناي يقطتين لترحيبات محتمله من
اصدقاء حقيقيين وحتى النبرات الاقل قريبا من الانكليزية وكذلك
النظرات الغرامية كان يمكن أن تلفت انتباهي . وبأناة تعلمت
المشي بثبات وبدون أن ابتسم أبدا حيث كنت اتغاضى
من سماع أي شيء ، لقد احتلت بأحفاء نفسي داخل فضاء
نفساني كثيف جدا لدرجة انه اذا سلم علي صديق ما فسنبي
الشارع ، وكانت الفرصة متاحة كنت اتجاهله ، واتحقق من
انه كان شخصا ما ، اعرفه ، فقط عندما تفوتني الفرصة . وقد
حزم مهندس بولندي كان يعمل في احد المكاتب الحكومية فسنبي
المدينة اني شخصية غير ودودة ابدا ، لانه كان قد القى علي
السلام ثلاث مرات في الشارع واني كنت قد تجاهلته في المناسبات
الثلاث كلها . لم يكن تجاهل اتصالات غير مريحة متسمة بالطابع
الشخصي مع الايرانيين سهلا كتجاهل مضايقات الشارع . فلم نكن
من قبل - ابدا - قد خفنا تجربة نُسأل فيها بصراحة من قبل
اجانب فعليين :

— كم من المال تكسبون ؟ لماذا ليس لديكم اطفال ؟

فالكثير من الايرانيين الذين تعرفنا عليهم ، كانوا يسألوننا
هذه الاسئلة في احاديثنا الاولى معهم . لقد كانوا يطرحون
الاسئلة ببساطة لم نكن نعرف فيها كيف سنفهم الناس ان ذلك
ليس من شأنهم دون أن تبدو فظيين على نحو لا يصدق . وبدون
أي معرفة تهدينا ، افترضنا انه لابد ان الايرانيين يسألون
بعضهم البعض نفس الاسئلة وانهم يجيبون على بعض منها . ان
الفارسية هي لغة متطورة جيدا لمعالجة الفروق الضئيلة التي
تكاد لاتدرك لكل التفاعلات الاجتماعية . ولسوء الحظ ، اننا
لم نكن نعرفها المعرفة اللازمة لاستخدامها لصالحنا ، لذلك
فقد كنا نترك معقودي الألسن دائما ، او كنا نفشي بمعلومات
اكثر مما ينبغي بحيث لاتضمن لنا الراحة ، او كنا نهين

سامعينا على نحو سخيـف بجهودنا غير الفعالة لننتهـرب مـن اسئلتهم .

ذكرت هذه المشكلة مرة لزوجـة المدرس الذي كان قد ساعدنا في ايجاد شقتنا . وقد ادركت مباشرة ماكنت اتحدث عنه وقالت :

— نعم الناس هنا " فزوليون " فضوليون جدا .

ان الاتراك بغضون لأسلوبهم الذي يتحدثون به ويتدخلون في شؤون الآخرين بالطريقة التي يسألونك بها عن أي شيء لا تنم عن اخلاق حميدة على الاطلاق . لقد جاءت من مشهد ، وهي مدينة تقع بعيدا في الشمال الشرقي من ايران ، وكل الناس الذين تحدثت معهم ممن لم يكونوا من السكان الاصليين بسـل مضطرين للقامة فيها ، كانت تكره هذا المكان . فسألتهـا محاولة ان اتعلم الكلمة الجديدة .

— تسمين الناس فزولييين عندما يسألون مثل هـذه الاسئلة ، فأجبتني :

— نعم .

— هل هي كلمة مهذبة ، اعني ، هل يمكنك ان تسمي الناس بتلك الكلمة بدون ان نضايقهم ؟

كنت قد بدأت احذر من قوة معاني الصفات في ايران ، فالاجابة يمكن أن تكون محيرة بالنسبة لأمريكية قد اعتادت على قول وتلقي الالهانات العريضة . وقالت :

— اذا كان الناس فزولييين ، اذا سامكانك ان تسميهم بذلك . كتبت الكلمة وحفظتها لاستخدام مستقبلي وكررت تلك اللفظ المحاذة كلها لحرد .

" فزول " كرر حيرد مع نفسه ، متعلما تلك الكلمة التي
تمف بعضا من سلوك الايرانيين الاقل استحسانا لدينا .

كنا احيانا نحد نفسينا سرفقة ايرانيين كانوا يريدون
الحصول على معلومات منا ، وكانوا يعرفون كيف يحصلون عليها
بأساليب اكثر دقة واحكاما . لم نكن قد انجمنا مع
السمات الاجتماعية المقبولة والضرورية من اجل البقاء في
دولة البوليس . ويدرك بعض الايرانيين جيدا مدى بساطة وجهل
الاجانب - خاصة الامريكان - في مجتمعهم المعقد ، والكثيرون
منهم قادرون على استخدامهم هذا الادراك والمعرفة لصالحهم
الخاص .

في احد الايام كنا جالسين حول طاولة ، في محفل
حلويات محلي عندما انضم اليينا كردي . قائلا : انه كان
صديق حسن ، صديقنا من مهلباد . بطريفة او بأخرى اخبرنا
هذا الغريب بذلك بأسلوب لم يخطر فيه ببالنا ان نتساءل
مباشرة كيف عرف اننا نعرف حسن . وقادنا صديق الطاولة
الجديد الى محادثة استغرقت حوالي عشرين دقيقة ، حيث توجهت
بدعوة لمرافقته الى منزله . في تلك الايام التي كنا نتلقى
فيها القليل من الدعوات وكنا نعرف القليل جدا عن فئس
المجاملة الايرانية كان حافزنا الاول والغامر هو القبول دائما .

وجدنا نفسينا واقعين في مطبخ منزله الصغير حيث كانت
زوجته تعد الشاي واذا به يسألنا مباشرة كل انواع الاسئلة
حول حسن . كان كما لو انه قد خدرنا حتى هذه اللحظة -
حيث هدأنا وتدرج بنا لمطامعته على نحو غير مشكوك فيه
وذلك بدعوته الكريمة ومناورات الكلامية البارة . وبعد
ان استدركنا نفسينا نجحنا في التخلص من هذه المحنة بعد
شرب كأس الشاي المقدم لنا . بعد ذلك اندهشنا لاستغراقنا

هذا الوقت الطويل لكي ندرك ان هذا الرجل هو بدون شك عميل للبوليس السري ، ربما لأنه كان كرديا واننا لم نتوقع أن نجد كرديا في السافاك . ولم نكن نعلم ان فرع ريزاي كان يترأسه كردي من كرمشاه كان يُظن انه على علاقات طيبة مع استغرابي مانوا .

جيراننا الجعفريون هم الوحيدون الذين لم يزعجوننا بأسئلتهم ولكنهم كانوا يبدون فضولهم حول مقدار المال الذي نكسبه ، ولكن كان من الواضح انهم يكسبون اكثر مما نكسب بكثير ، بحيث ان هذه المسألة لم تكن محرجة عندهم . مهما يكن ، فلوانهم طرحوا علينا اسئلة ، قمنا الطبيعى اننا كنا نشعر بالراحة تماما عندما نسألهم بالمثل . فقد بسدت العلاقة على قدم المساواة . مرت فترة قصيرة قبل أن ألاحظ انهم ينتبهون الى كل شيء نقوم به . فقد لاحظوا ونقدوا تكرار مجيء وذهاب الناس الذين كانوا يقومون بزيارتنا . ونقدوا حتى النبذة الصوتية المشددة بجرسها المختلف التي كنت اكتبها في لغتي الفارسية . وفي أحد الايام انفجرت شهرزاد بالضحك عندما لفظت كلمة فارسية عامية . فقالت على نحو متسم بالاتهام :

— تخلفين انطباعا لدى المرء بأنك كردية .

لقد كان ذلك صحيحا ، فالكردية والفارسية لغتان قريبتان من بعضهما البعض لدرجة أنه كان من الصعب جدا علي أن افصل بينهما ، وخاصة عندما كنت احاول تعلم كليهما في نفس الوقت . وضحت ذلك شهرزاد ولغشها لم تبد أي تأثير لذلك . كان المغري من ذلك ان النبذة الامريكية مفضلة على النبذة الكردية عند التحدث بالفارسية . وقد جعلني ذلك اشعر بضرورة الانتباه اكثر اثناء التحدث اليها ، ولكنني مازلت على عدم شك في الشعور الودي الذي يكنه الجعفريون نحونا . لم اقدر تقديرا

صحيحاً ، وبدقة كم كانوا يوجهون نشاطاتي من كتب ، لأنني لم
استطع ان اتخيل انهم مهتمون بي بهذا القدر . لقد كان مجرد
وهم من اوهامي انني كنت امضي في ريزاي كشخصية منعزلة في
عمل خاص ، غير ملحوظه ولايسخر منها السكان المحليون .

لقد كنت في طريقي لأن اصبح مشهداً غير جدير بالملاحظة
في محطة الاذاعة ، حيث ان الشرطي الذي يحرس عند الباب كان
يكاد لا يرفع رأسه لدى دخولي . وبما اني الآن لست تحت
المراقبة المشددة ، فقد وفرلي ذلك الفرصة للانتباه اكثر
للزوار الآخرين . لم تكن الرسائل هي وحدها التي تصل المحطة من
القرى الكردية ، بل كان يحضر اليها اناس ومعظمهم من الرجال
أيضاً . كانوا يتسكعون حول الغرفة التي يجلس فيها أعضاء هيئة
معدّي البرامج الكردانية على مقاعدهم المعدنية ، واعتمدوا
على اهميتهم الواضحة من لباسهم ، اما انهم كانوا يتجاهلون
دوماً او يقدم لهم الشاي مراعاة لهم . وبدأ ان بعض الرجال
المسنين ، بملابسهم الرثة كانوا ينتظرون لساعات واقفين امام
السيد اسيايبي كي يرفع بصره عن المكرفون او الاوراق ليسمع
النمسا ما . وآخرون ذوو البسة حسنة ، قواد قبليون متوسطوا
الاعمار ، كانوا يحتكرون محادثة هيئة المعدين لساعات فسي
وقت واحد ، ولكن لغتي الكردية لم تكن جيدة بعد بما فيه
الكفاية كي اتابع كلمة كلمة عما تدور حوله هذه الاحاديث .
وقد تمسرت من وجهة نظر ريفية ان لا بد ان السيد اسيايبي
وحسب السيد جاهي والسيد خليلي انهم يبدون مثل الرجال
المهمين قادرين على تقديم كل انواع الخدمات التي لا يمكن
تصورها .

في احد الايام رأيت رجلاً ببذلة رمادية ذات لمعان وعمامة
سوداء ، والعديد من التيجان الذهبية فوق اسنانه يجلس في
المحطة . وقد تعرفنا الى بعضنا بكلمات مختصرة ومن ثم عاد

الى حديثه الخصومي مع السيد اسياى . وموئرا التقبت بسنه
صدفة مرة ثانية عندما قام السيد جاهي بتوصيلي الى الكلية
بسيارته . وقد بدا أن كلا الرجلين قد التها كثيرا لكونهم
وحيدين في سيارة مع امرأة اجنبية ، وقد سمعت الرجل ذا البذلة
الرمادية يسأل جاهي كل انواع الاسئلة عني . وعندما قاطعته
واجبته بالكردية كان قد اندهش لذلك . فأخبر السيد جاهي
وكما لو اني استطعت التحدث ، ولا اسمع :

- اذا فهي تتكلم الكردية . اين تعلمتها ؟

واجابه جاهي :-

- لقد علمها اللغة في امريكا ، كردي من تركيا .

وبدا عقل الغريب يعمل على نحو سريع وسأله :

- هل كان شابا ام فتاة ؟

توقف جاهي ونظر الي . وبما ان الكردية ليس فيها الجنس من
حيث التذكير والتأنيث وحيث أن " هو " و " هي " تؤديان بضمير
واحد ليس بمذكر ولا مؤنث ، لم يكن هناك سبيل لدى السيد
جاهي لمعرفة ذلك ، لأنني لم اذكر اسم معلمي ابدا .

ولتلهفي للمشاركة بفعالية في المحادثة فقد اخبرتهم
بسرعة وبدون تفكير :

- لقد كان شابا .

- آه . !

واوياً بأسيهما ايماءة ذات مغزى ، لم ادركها فسي
حينها ، ولكن صورة سمعتي كانت قد ثبتت الآن في فكر السيد
شيخ زادة ، حيث كان ذلك هو اسم الغريب المتعجرف - شيخ زاده ،
انه من ذرية الشيوخ ، واتضح مباشرة انه كان قد اتى لمحطة

الاذاعة هذا اليوم. ليدعوا هيئة معدي البرامج الكرمانجية الى مأدبة في قريته . وقد ضمنى الآن الى هذه الدعوة بحسن ذوق مني . وقبل ان احبيه ، اقحم السيد جاهي كلامه بلطف مفصحا اني متزوجة . وشمل شيخ زادة جبردا ايضا ، على الرغم من أنه لم يصدق اني كنت متزوجة حقاً كما علمت مؤخراً . وقد قبلت على الرغم من نظراته الخبيثة ، وبعد صمت السيد خليلي المبهم حول هذه النقطة كان علي ان اقبل دعوة من أي شخص كان تقريبا لأقوم فيها بزيارة قرية كردية .

بزغ فجر نهار يوم الولاية مشمسا وجافا ، تقريبا مثل كل الايام منذ مجيئنا الى ريزاي في ذلك الخريف . وعندما اتجهنا انا وجبردا ناحية محطة الاذاعة ، رأينا العديد من الناس يتنزهون على طول الطريق ، على الرغم من أنه كان رسميا يوم حداد " وفاة " علي، وهو ولي شهيد من المسلمين الشيعة ، فقد بدا أن كل شخص يستمتع بوفته . لاحظت في المحطة أن السيد اسياي ينظر الى لباسي نظرة ناقدة ويفهم لجاهي قاطلا :

— انظر ، انها تلبس فستانا للقرية ، بينما ترتدي سروالا في المدينة .

بعد تجربتي في مانوا ، حاولت ان احتذي نموذج الملابس الكردية قدر استطاعتي مع ملابس المصنوعة على عجل وبدون اتقان نسبي . وقد جمعت بذلتي الكردية المزيفة مع جزء سفلي من فستان طويل وثقيل مطرز الحواف ، وقميص خارجي فضفاض وصدرية محبوكة .

غادرت بنا سيارتان من المحطة الى قرية شيخ زاده ، لأنه بالإضافة الى الهيئة النظامية الموءلفة من ثلاثة رجال كسان هنالك قريب لاسياي واخو السيد جاهي . ولكوننا ضيوفا اجانب فقد دهمنا مباشرة ولباقة للركوب في سيارة اسياي الاجنبية

الصنع ، بينما كان على الباقيين ان يتحملوا المدمات في سيارة الجيب . انطلقنا هابطين في احد الطرق الرئيسية في المدينة الى أن بدأ الطريق وكأنه اختفى في واد مستو غير محروث ، او مرض ترتع فيه الاغنام . وبدون التوقف عند هذا المنعطف المتعسدر اجتيازه على ما يبدو ، انحرف السيد اسياي الى اليمين وبدأنا بالسير على طول ممر ترابي بجانب بعض الاشجار . ولو اننا لم نسر عليه لما عرفت ابدا انه كان طريقنا .

في اطراف المدينة كانت اشجار البساتين تتساقط اوراقها ، وحدائق محروثة قد تركت بدون زراعة لاراحتها ، داخل حدود جدران صخرية منخفضة على جانبي طريقنا . بعد ذلك ظهرت قرية بكاملها ، بيوت طينية محاطة بجدران طينية .

بانت قرية شيخ زاده بعد أقل من ستة كيلومترات من المدينة عبر طريق مستقيم منحدر ومفروش بالحصى على نحو لافت للنظر ، حيث كان يعدُ بشيء أكثر من القرية الصغيرة ذات الطين الجاف التي التقت بها اعيننا عندما انحرف السيد اسياي بسيارته الى الطريق الترابي المحدد ، الذي يقع بين الجدران المحيطة بالمنازل .

ظهر كلب الراعي الضخم ، لينبح صوبنا ، وبعدئذ رأينا السيد شيخ زاده نفسه في ممر الباب يبتسم ابتسامته العريضة التي تكشف عن اسنان ذهبية . كان مرتديا على نحو رسمي كما كان في اليوم الذي رأيته في المدينة ببذلته الرمادية ذات اللعان والقاتمة اللون ، وتوقفت سيارة الجيب الممتلئة بالضيوف الآخرين خلف سيارة السيد اسياي مباشرة . وعندما ترحل الجميع بدأنا محنة عبور ممر الباب بالترتيب المناسب .

وبما اني كنت المرأة الوحيدة الحاضرة بينهم فقد ادخلت اننا أولا . كان جيرد المدعو الثاني للدخول ، لكونه فيفـ

أجنبيا، ولكنه رفض متذعرا بسلوك تقليدي تماما ، فبعد وصولنا مباشرة الى ريزاي ، كان جيرد قد أدرك النظام الايراني لفنن المجاملة المعروفة بـ " التعارف " أى الشكليات والرسميات وقد وجد في طريقة عدم تقدم طلابه عليه أبدا عبر ممر الباب شيئا مسلما للغاية ، وكان يسر في دفعهم أمامه أولا ليزيد في ارباكهم . كان جيرد قد استوعب بسهولة واحدا من المبادئ الأولية لنظام الشكليات : انه ليس ذا أهمية كم أنت رجل مهم ، وكم هو واضح لكل امرئ انه ولهذا السبب عليك أن تكون الأول فواجبك دوما أن تدعن لارادة الذين من حولك . ولسوء الحظ لم يكن جيرد قد تفهم المبدأ الثاني لنظام الشكليات . وهو أنه على كل امرئ في النهاية أن يذهب بالترتيب المناسب . وكان قد فشل أيضا في ادراك الأمور الأساسية والخطيرة لهذا التقليد الفارسي الغريب . فبالنسبة لجيرد كان كل ذلك مجرد لعبة ، أما بالنسبة للايرانيين فنظام الشكليات هذا هو أسلوب فسي الحياة . وقد كان جيرد هذه المرة وبخلاف ما كان أثناء تواجده مع طلابه ، قليل الخبرة بين ايرانيين اكبر سنا وأكثر خبرة منه وبعد مقاومة ودية قصيرة كان قد أجبر أن يمضي وفق ما يريدون ، فجاء بعدي عبر ممر الباب ، وتلاه اسياي ، الذى تبعه جاهي مع البقية وهم يدخلون في نظام ثابت معروف لديهم فقط . ولكن السيد شيخ زاده هو المضيف فقد كان آخر من مشى .

سرنا كرتل ونحن لازلنا في نفس الترتيب عبر الحديقة صعودا على الدرجات الاسمنتية حتى دخلنا منزلا قرميديا . وداخـل الرواق المركزي خلعنا أحديثنا واحدا تلو الآخر وبعدد مررنا عبر ممر آخر موعدا الى الحجرة الواقعة على يمين المدخل . جلسنا جميعنا هناك فوق سجادة فارسية مزهرة ذات أرضية حمراء ، ومن ثم جلت بنظري في أثاث الحجرة . وقد دهشت لدى رؤيتي تلفزيونا وسألت فيما اذا كان في القرية كهرباء . وبما أنهنا كانت تقع على بعد ستة كيلومترات فقط من ريزاي ، لم يكن

وجودها شيئا غامضا ، ولكنني كنت قد سمعت ان سياسة الحكومة كانت تمنع الكهرباء عن كل القرى واشتت قرية شيخ زادة انها ليست استثناء بعد أن اتضح ان تلفزيونه كان يعمل بقوة بطارية سيارة . كان منزله في الشتاء يدها بمدفأة تعمل على النفط مع انبوب يرتفع ممتدا الى روافد المنزل المكشوفة . وقد علفت على الحائط صورة عفى عليها الزمن للشاه وزوجته اخت الملك فاروق ملك مصر . وكان هنالك أيضا صورة اكثر حداثة بكثير للشاه يقدم فيها ما يشبه المكافأة لمضيفنا . تساءلت في نفسي : ماذا كان قد فعل ليستحق عليه ذلك ؟

جلسنا انا وجيرد في احد جوانب الحجرة بينما جلس السيد شيخ زاده وهيئة المساعدين في الجانب الاخر في مواجهتنا . لم تظهر نساء او اعضاء من العائلة عدا فتاة ممتلئة الجسم ، ذات خدين ورديين ، علمت موءخر انها ابنة السيد شيخ زادة . كانت تدحل وتخرج على نحو نشيط ، تقدم الشاي بنظرات مسدلة نحو الارض وبدون ان تتفوه بكلمة امام كل هؤلاء الرجال .

كرس السيد شيخ زاده اهتمامه بي في البداية ، وقد انار شعاعا من ضياء الشمس البقعة التي كنت اجلس فيها وكنت احقق فيه بعينين نصف مغمضتين ، بينما كان يمتحنني بالسؤال عن المفردات الكردية الواحدة تلو الاخرى . وقد اكتشفت حالا أنه يعمل كناظر مدرسة القرية ، وهو عمل غير عادي لأي كردي قروي . كان يدبر معظم مدارس القرى جنود في الجيش ، ما يدعى بسلك تعليم القراءة والكتابة ، المؤلف من جنود شبان . ان التعليم الجامعي اوحى تعلم المدارس الثانوية احيانا كان كافيا لتأهيلهم لتعليم اطفال القرية الكتابة والقراءة . ان الفكرة من حيث المبدأ ربما لم يكن يعيها شيء ، ولكنني لم اسمع ابدا ان احدا من الاكراد المهتمين بأمور التربية والتعليم يقدرها . وبما ان المجندين الجدد كانوا قد ارسلوا على نحو مدروس ومقصود الى اجزاء من ايران بعيدة عن المكان الذي نشؤوا

فيه ، لم يكن أحد من الذين عينوا في كردستان يتحدث الكردية وبالطبع لم يكونوا مدرسين مدربين . لقد بدا ان القروبين كانوا يحتملونهم تسامحا معهم وليس ترحيبا بهم . وحتى انهم كانوا يقتلون في بعض الاجزاء من ايران . تصورت ان طلاب قرية شيخ زاده يشعرون بأنفسهم كأنهم محظوظون لوجود شخص ذي خبرة مع الميل الواضح نحو علم اصول التدريس لديهم . ولكنني تساءلت فيما اذا كان يستخدم الكردية في صفه ام لا .

قططنا السيد اسياي فجأة على نحو نفذ فيه صبره وسقط جلسة الاسئلة والاجوبة وقال شيئا بالتركية . ومنذ ذلك الحين استمرت المحادثة كلها بالتركية . كان اسياي ، شيخ زاده جاهي واخو جاهي ، وقريب اسياي كلهم يتحدثون بحيوية بلغة لا جيرد ولا أنا كنا نقدر على فهمهم . وبدا ان احدا لم يلاحظ ذلك سوى السيد خليلي الذي لم يكن يتفوه بشيء هو الآخر . وكما شعرت بدا متضايقا ، ماذا كنا نفعل في قرية كردية مع مجموعة من الاكراد يتحدثون بالتركية مع بعضهم البعض ؟

وبعد ان تجاهلونا لبضع دقائق ، ادركت فجأة انهم قد شملونا ثانية وتحول السيد اسياي هذه المرة الى الفارسية ليخاطب جيرد بطريقة بدا فيها متعجرفا وقال :

— كم تعطى في كل شهر ؟

اضطربنا انا وجيرد للحظة . اذا كانت المسألة نتعلق بالرواتب ، فالأفعال في الفارسية تقلب مضامينها عما تتوقعه من مفاهيمها في الانكليزية ، فالفعل " يعطي " - يعني " يحصل " والعكس بالعكس . وقد صغقت عندما ادركت ما كان يريد معرفته . لماذا كان يريدنا أسياي ان نحدد رواتبنا امام هيئة الاداعة كلها في قرية نحن غرباء فيها ؟ شرحت السوء لجيرد بسرعة وخيم الصمت على الحجرة بينما حدق فينا الجميع ، يستطرون ردا .

نظرنا انا وجيرد الى بعضنا . ماهو الشيء المتوجب قوله ؟ نهـصـ
جيرد معترضاً ، معبراً عن فكرة فظة على نحو غير سوي بقدر ما
كانت تسمح له لغته الفارسية غير المتقنة وسأل :

ـ ماذا تعني كلمة " فزول " ؟

نظرت الى اسيابي وميزت رد الفعل الذي رأيته على وجه موظفـف
الغندق الذي حاول وعلى نحو يعوزه الذوق ان يخدمنا في أول يوم
لنا في ريزاي . وكان جيرد قد اجاب على اكاذيب الموظف بهذا
فارسية معتدلة تعلمها من بعض الطلاب الايرانيين في الولايات
المتحدة . وقد شحب وجه اسيابي مثل الموظف تماماً . جذبت الي
نظر جيرد وعبت في وجهه : لماذا علمته كلمة " فزول ؟ نظـرـ
جيرد متحيراً للتعبير المرسوم على وجهي . كان بمقدوره أن يقرأ
الغضب عليه ، ولكنه لم يلحظ اي تغيير على وجه اسيابيـيـ
لماذا كنت اجهم ملامحي ؟ خيم الصمت المربك للحظات وشـعـر
اسيابي بنظرات مرافقيه الاقل مكانة اجتماعية منسبة عليه ،
انه ملزم بالمواجهة بتحد . فقال لجيرد :

ـ أنا متأكد اني اكسب مالا اكثر مما تكسبونه بكثيرـ.

فأجابه جيرد موافقاً :

ـ وأنا أيضا متأكد من ذلك .

وبعد ذلك غيـر اسيابي جلسته بحيث لم يعد يواجهنيـا
وعادت المحادثة الى مجراها الطبيعي الى حد ما . طنت اذنـاي
ولم اعد اعرف فيما اذا كانت المحادثة تجري بالتركيـة أو
الفارسية . لو أن جيرد كان قد استوعب لعبة " التعارف " اسـرـع
مني ، لكان ادرك مقدار الاهانة بعجلة اكبر . لقد احسست
بطريقة مامند اللحظة التي دخلنا فيها ايران ان الناس يهـبـدون
كأنهم ينتظرون ان يتخذوا موقف الهجوم . فلو انك اهملت إلقاء
السلام على البقال عند دخولك المخزن ، فانك تعرض نفسك لعمـدـم

تلبية طلبك . واذا لم تسأل عن صحة احد مافقد يظن من الناس انك كنت تعاملهم بازدراء . لقد اصبحت اعتبر العديد من الاشياء اللطيفة اسوأ حالا مما هي عليه ولكنني تأكدت من شسبي واحد منذ اللحظة التي رأيت فيها ملامح وجه موظف الفندق وهو أن الاهانة لايجنب احراجها بالضحك في هذا البلد .

كان رد الفعل في هذه الحجرة بيّنا بالنسبة لي - كان كما لو ان كل شخص حاضر قد احتبس في نفسه . ويتساءل : من اين جاء هؤلاء الامريكان لكي يظنوا انهم يقدرّون ان يتحدّثوا بهذه الصراحة مع رجل مهم مثل اسياي ؟ لقد سبق كل امرئ عبر المدخل عدا الفيواف الاجنب . والآن اهانه هؤلاء الفيواف الذين شرفهم . لم نكن نعرف بعد اصل وتاريخ كلمة فضول . ولكن ذلك هو مجرد نقطة تفصيلية . وفي وقت متأخر سيكتشف جيسرد ان إخطار خادمته بأن كلماتها هراء وباكثير الكلمات اعتدالا، سيعطيها مبررا لأن تغادر منزلك حالا وبدون ان تعود اليه ابدا .

استمرت المأدبة بطريقة ما ، وبدى بتقديم الطعام ،حيث وضعت الابنة طبقا ، ومن ثم تلتته بآخر ذي رائحة ذكية فوق الغطاء البلاستيكي الذي كانت قد فرشته وسط ارضية الحجرة . بقيت استرجع في ذاكرتي رد فعل السيد اسياي على كلمات جيسرد . ربما كان ذلك في خيالي المفرط الحساسية فقط . وربما ان غضبه قد زال ، فعلامحه لم تكن تسجل شيئا عندما نظرت اليه .

كان من الواضح ان واحدة مامنهن ، ربما (الابنة ؟ الزوجة اونساء لم ارهن ؟) كانت قد امضت وقتا طويلا في تحضير وجبة غنية ومنوعة كهذه . وقد نسيت تقريبا الجو غير المريح عندما حدثت في الدجاج والخضرة المحشوة بالارز المعشب، و اللبن المصفى و المخللات ، " والبيلاف " ، وقد توقفت المحادثة

عندما شرع كل شخص محاولاً أن يملأ طبقه . عندما بدأت بنزع قطع
من اللحم من الفروج المخصص لي وجدت أنني قد نزعمت عظم
الترقوة . وفي محاولة لتلطيف الجو خطر ببالي أن أسأل عن لعبة
كردية كنت قد قرأت عنها . هلا فعلاً يلعبها الناس ، أم أنها
كانت شيئاً مختلفاً من خيال أحد المغامرين البريطانيين؟ سأعرف
ذلك جالاً .

لمعت عينا السيد اسيابي عندما رفعت العظمة . . جناح
سمى اللعبة العديد من الموجودين في الحجرة حالا . وقال السيد
اسيابي :

— أنا سألعب . بماذا سنعد بعضنا البعض ؟

لم أفهم أنه كان يحاول أن يحدد شيئاً نراهن عليه . ولكن
طلب اسيابي مضي غير ملحوظ في فوضى اخباري عن قواعد اللعبة
من قبل كل الحاضرين وبدأنا اللعب بدون أن نعرف ماذا سيربح
الفاوز . ان غرض اللعبة الذي يقدر بمجرد كسر عظم الترقوة من
قبل كلا اللاعبين هو أن يناول أحد الشخصين الشخص الآخر شيئاً ما
وعلى هذا ان يقبله . التقط السيد اسيابي مباشرة قلمـي ذا
الرأس الكروي الذي كنت استخدمه في تدوين كلمات كردية وحاول أن
يناولني اياه . كنت سأقبل ، وبذلك أخسر اللعبة ولكن السيد
خليلي ذكرني . وقد أهملت اللعبة بعد محاولات عديدة قام بها
السيد اسيابي . حضرت الابنة وقادتني الى بيت الخلاء الخارجي
ومن ثم أرجعتني الى الداخل الى الحجرة الواقعة في الجانب
الآخر من المنزل . في غضون ذلك بدأ السيد اسيابي بممارسة لعبة
جديدة أكثر خبثاً مع جيرد . لم تكن هذه لعبة كردية . بل
لعبة ممعنة في القدم كانت تمارس في ايران لقرون عدة . ومما
لا شك فيه أن لعبها مع أجنبي مبتدئ مثل جيرد فيها من
المتعة المزيد بالنسبة لاسيابي .

بينما شرعت ابنة مضيبي باخراج مجموعة من ملابسها لكي ارتدي شيئا منها ، بقي معظم الرجال في الحجرة الاخرى عدا السيد خليلي . وتساءلت مؤخرا فيما اذا كانت المناقشة ستكون هسي نفسها فيما لو ان السيد خليلي لم يقرر الذهاب في جولة حينذاك حيث بدأ السيد اسياي بالتحدث وسأل جيرد بدون أي مناسبة للموضوع حالما غادر السيد خليلي :

- هل تود المجيء الى منزلي لتدخن بعضا من " الترياق".
حدق فيه جيرد مفكرا : في البدء سأل عن رواتبنا والآن يعرض علينا المخدرات . ان نظريات السيد اسياي عن الامريكان بدت مقولبة ونمطية كآراء واحد من القرويين الاكثر جهلا وفضاضة .
هز جيرد رأسه . قائلا :

- لا ، شكرا ، أنا لاهتم بتعاطي المخدرات .
فواصل السيد اسياي باستمرار :
- لم لا ؟

تأمل جيرد متخائفا . وكان الرجال الآخرون يراقبون كل شيء من كذب . واجاب ببساطة :
- لأن البوليس يمكن ان يأتي .
فقال اسياي على نحو هادف :
- ان البوليس لا يأتي الى منزلي ابدا .
تأمل جيرد اسياي بقلق ، عندما سحب هذا الاخير بطاقة مبن جيبه وعرضها امام الامريكي ليراها . لقد كانت ضربا من " ID " واصل اسياي قائلا :

- أنا ضابط في السافاك .

لم ينبس احد بهبت شفة عندما اتضح لجيرد بأن امر ما يجري بطريقة خاطئة ، كان السيد اسياي يعرفه بأعنف طريقة ممكنة انه عنصر من البوليس السري الايراني المرهوب الجانب . ماذا سيحدث بعد ذلك ؟ تمنع جيرد بوجوه كل الحاضرين . لقد

كانوا ذوي شخصيات غير واضحة او مميزة الملامح . ماذا كان من المفروض عليه ان يقوله ؟ . لقد بدا ان الموضوع تلاشى بنفس السرعة التي اثير فيها ولكن لو اننا كنا نعرف التحديث بالتركية لربما قضوا بقية مترة الظهيرة وهم يعسلقون بطريقة ساخرة منا وكم كنا مغفلين .

خرج الرجال من الحجرة جملة وكان قد انضم اليهم السيد خليلي . حكى لي جيرد بسرعة ما حدث . حينذاك كنت قد لبست بذلتي المستعارة التي لم تكن جميلة مثل البذلة التي اعطوني اياها لارتديها في مانوا . كان ينقصها الجزء الاعلى من مثنز ذهبي والسترة المصنوعة بالماكنة بدلا من صدرية صوفية سوداء . وعلى الرغم من ان شبخ زادة كان الاكثر ثقافة وثراء من أي شخص آخر شاهدته في قريته ، لم يكن على نفس مستوى رشيد بك .

تجولنا على طول الجدار الطيني المهيأ للانهيبار ، الذي يحيط بملكية شيخ زادة وقد كانت قطعة ارض جرداء وجافة في هذا الوقت من السنة . وعلى بعد مسافة كنا نستطيع رؤية ريزاي كواحة ممتدة ، وخضرة اشجارها وحدائقها المروية تتلاشى في زرقة البحيرة الواقعة خلفها . لدى تحوّلنا في حقل شيخ زاده مررنا بنساء يغسلن الالبسة بايديهن في جدول ماء . هبت الريح على تنورتي بحركة خاطفة ، بينما اخذ جيرد صورا لكل الحاضرين ، وقد اراد السيد اسياي ان يظهر في جميع الصور واندفع شيخ زادة بانتباه الى الامام الى جانب رئيس البرنامج الاذاعي الكرمانجي . كان اسياي يتصرف بطريقة يعامل فيها مضبنا بتنازل ، ولكنني بعد ذلك لم اشهد يعامل الناس حوله بدون تفضل . ولكنه لم ينجح في جعل جيرد يلتزم بهذه القاعدة التزاما شديدا . فقد حاول اسياي ان يهين الاجنبي بطلبه معرفة راتبه امام مجموعة من الغرباء

وانتهى الى ارباك نفسه . وبالنسبة لرجل مثل اسيايي كان هذا شيئا لا يطاق وتساءلت عن المدى الذي من الممكن ان يمتد فيه ليسوي هذا الموقف الجارح .

شعر الرجال بالبرودة حالا ببذلاتهم الغربية الطراز وهم في الخارج في مهب الريح . فذهبنا الى الداخل ، التقط أسيايي فنجانا من الشاي من فوق الطبق وحاول ان يناولني ايماه . ولكنني رفضت ، فلوانسي ربحت لعبة " الجناح " فاني سأربح هذا اليوم كله ايضا من اسيايي . ومن ثم اتخذت المناقشة منحى آخر يوجهه أسيايي . فقد قرر هذه المرة أن يناقش مسألة " التعارف " أي الشكليات والرسميات .

إن التعارف ، ذلك النظام الذي قاد كل واحد وفق الترشيح الذي كان عليه ان يطبقه اثناء مروره في الرواق ، هو كلمة فارسية مقتبسة من الفعل العربي " عرف " ان صيغة " تعارف " في العربية تعني شيئا مثل " المعرفة " او " الادراك " بينما اتخذت في الفارسية مضمونا مختلفا نوعا ما ، على الرغم من انها ما تزال تتعلق بمسألة المعرفة بمعنى من المعاني . ان التعارف في الثقافة الايرانية ينتظم كل التفاعلات الاجتماعية عدا تلك التي بين اصدقاء حميمين جدا وبين العائلة . وحتى في هذه العلاقات الاخيرة فباستطاعتك دوما ان تبعدها عن نفسك بالارتداد الى الشكليات . ان التعارف هو طريقة لتنظيم الناس والمواقف مع الحد الاقصى من الكياسة والحد الادنى من التعرض للتجريح والانتقاد وحيانا يشبه الرقص ، في لحظة باردة الى حد اقصى لا يتلامس فيها المشاركون أبدا ، ولكن كسل شخص منهم يوذي مهمته على احسن وجه ، على الاقل من على بعد . ونزولا عند قواعد " التعارف " عليك ان تعرض كل شيء على الملأ حتى حياتك الخاصة . وبذلك فان اللزوم التي يتقولاها جاهي في الهاتف في مكتبه باطراد ، هي عبارة

مأثورة في الشكليات . وكذلك كلمة " بفرمايبيد " أي تفضلوا ، هي العبارة التي كانت تستخدمها شهرزاد عندما كانت توجه لي الدعوة للدخول الى شقتها . وفي افضل معانيه يمكن " للتعارف " ان يكون كرم ضيافة غامر ، وعروض لانهاية لها من الشاي والحلويات وطاولات تشن تحت عرض مجتهد فيه لمزيد من الغذاء الغني . وحسن ضيافة يستمر حتى ساعة متأخرة من الليل طالما ان الضيوف قد اختاروا البقاء . ولا مضياف يتشاعب ابدا . والمنعشات لاتنتهي حتى لو ان الخدم واعضاء العائلة اضطروا الى التسلل من خلفية المنزل في بحث صامت عن الغذاء والشراب ليستكملوا نقص ماتم استهلاكه .

ولكن هناك جانب آخر للشكليات وهو الثقل الذي تتضمنه كنتيجة للتلقني . فكل امرئ يريد في ان يقدم ولا أحد يرغب في القبول . فاذا قال لك احدهم " قرباناته " من الممكن أن تومئ " رأسك بأدب وتقدم نفسك قربانا له بينما ليس لدى احد منكم الشعور الواهي او أي اعتبار للآخر . ففي المبالغة القصوى لمفهوم " التعارف " لاالمقدم نفسه ولا الرفض يعنيان مايفولانه على الاطلاق ، عدا ماتحتسوييه من مجرد مجاملة بحتة . ربما يقدم لك احدهم وليمة عظيمة بينما لا يوجد في بيته سوى الخبز التفة المذاق . وبالطبع ستجيب بأنك قد اكلت لتوك حتى لو أنك تشعر بالجوع وتعوزك النقود لشراء الغذاء .

كان الايرانيون الشباب قد ادعوا ونحن في امريكا أن الشكليات هي مظهر كاذب مهجور ، وانه عائق لل صداقة . وقد اخبرنا الاكراد ان عادة الشكليات هذه غير سائدة بينهم . ولكن كان علينا أن نكتشف بأنفسنا الى أي مدي وبأيية أساليب ومواقف يمارس الناس نظام الشكليات في ايران .

احيانا كان نفس الذين يستنكرون نظام الشكليات هذا ، هم أنفسهم الاكثر اعتمادا عليه . وعلى ذكر التعارف علق جبرد مباشرة :

ـ لا يوجد نظام شكليات في امريكا .

وكان يعني بذلك انه ليس مهما من يسبقك عبر الباب ، أن الناس عادة يقبلون الدعوة من المرة الاولى ، لان الامريكان بشكل عام يعنون دعواتهم التي يقدمونها لتواريخ محددة وانهم لا يتصرفون بطريقة ايجائية . وفي وقت متأخر وبتقييم صادق من ثقافتنا الخاصة كان علينا ان نعترف بوجود مؤسسه لنظام الشكليات في امريكا . وفي المرة الثانية سمعنا امريكيين يقولون :

ـ ببساطة علينا أن ندعوك للغداء .

وعندما عرفنا انهم لم يكونوا عازمين على دعوتنا ادركنا أن الامريكان أيضا قادرون على ممارسة الشكليات ان تعليق جبرد بعدد عدم وجود شكليات في امريكا كان تماما ما يريد السيد اسياي ان يسمعه . ومنذ ذلك الحين بدأ اسياي وعلى نحو يتفاخر فيه يسبق جبرد خلال السرواق، يأخذ الشاي قبله وبشكل عام يتصرف بنفسه على نحو يبسط فيه كأنه ايراني استثنائي . وفي كل مرة يتجاوز فيها احدى القواعد ، يعذر نفسه بقوله :

ـ لا يوجد نظام شكليات في امريكا .

واخيرا وعلى نحو لطيف شارفت نزعات النهار على نهايتها . وقف السيد شيخ زاده في مدخل الباب ليودعنا بامنياته الطيبة بينما اثنى عليه المتحدثون من ابناء بلده لحسن ضيافته ، وقد سمح لي اسياي ان امر عبر الباب أولا ، ولكنه حرص فيما بعد على ان يسبق جبرد ، ومرة أخيرة

وجدنا انفسنا في سيارة اسيايي وبما انه كان يقود السيارة فقد نجحت في ان اناوله سيجارة مشتعلة وبذلك ربحنا لعبة الجناح هذه المرة .

سأل اسيايي ابن عمه الجالس معه في المقدمة :

- ماذا اعطيها ؟

- لربما فستانا أو شيئا ما .

ولدى سماعي ذلك ظننت ان الخصومات قد انتهت .

عندما عدنا الى المدينة دعونا كل الحاضرين لتناول الشاي ، وقد قبل اسيايي الدعوة مباشرة واشقا من انه "لا توجد شكليات بين الامريكان " ولكن تحت تأثير مسحة ايرانية . وقادنا اولا الى دكان معجنات ليقدّم لنا الهدية اللزامية لكونه حل ضيفا علينا للمرة الاولى .

كان اسيايي في منزلنا لطيفا وحتى ودودا ولكنّه ايضا بدا مرهوبا بنفسه وفظا أكثر من العادة . فقد مكث يردد :

- لاتوحد شكليات في امريكا . ومن ثم لا يأخذ مسائل الشكليات بعين الاعتبار . وبالنسبة للمعايير الامريكية لم يكن يعتبر غير مهذب ولكنه كان يعتبر فظا للغاية حسب المعايير الايرانية . بقدر ما يمكن ان يسعفني التعبّر فان اسيايي كان ايرانيا بسلوكه اكثر بكثير من أن يكون امريكي . ومع ذلك فقد بدا ان اليوم سينتهي على نحو أفضل بكثير مما توقعت ، حيث تقبل اسيايي حسن ضيافتنا وحتى انه جلب لنا علبه من كعك محلى . لم استطع أن أدرك انني كنت لازال افسر سلوكه حسب ثقافتي الخاصة . وكان الكعك المحلى مجرد ايماءة عن الشكليات . فلربما كان لدى

اسبابي اسبابه الخاصة ليأتي الى منزلنا الذي لا يوقع في النفس شعورا بالرضا والابتهاج . ففي ايران يقبع الشكل على السطح مثل الاغطية التي رأيتها في مطار طهران . أما ما يكمن في الداخل فليس سهلا على الاجنبي رؤيته أبدا .

في المرة التالية التي قدمت نفسي فيها في محطة الإذاعة أو ما الشرطي برأسه كالعادة ومُشيت نحو الحجرة التي جلس فيها مجموع معدي البرنامج الكرمانجي . الشيء الاول الذي لاحظته هو كيفية انشغال كل شخص بعملية تنويع للبرنامج كانوا يقومون بها لدفع السأم ، فالسيد اسبابي والسيد خليلي كانا قد عُمرنا بالاوراق التي تخصهما ، بينما كان السيد جاهي قد انشغل باستخدام الهاتف . لدرجة ان أحد لم يلاحظ انني كنت واقفة هناك واخيرا انصرف اهتمام السيد جاهي عن الهاتف وقال :

- أنا آسف مارغريت خانم ، ولكن السيد خليلي مشغول جدا ولا يستطيع العمل معك هذا اليوم .

وفي تلك اللحظة نهض استاذي الكردي النحيف ، ذو النظرات القلقة واندفع خارج الغرفة ، وبصعوبة لمحني عند ما مر بي . تجهد قلبي وحاولت أن الفت نظر السيد اسبابي ولكنه كان مشغول اكثر من الجميع بترجمة اخبار اليوم الفارغة " التي لا أخبار فيها " حيث كان قد اعدّها خبراء الدعاية والاعلان في طهران وارسلوها الى ريزاي . من الواضح ان هذا ، كان العمل الاكثر اهمية لدى الهيئة الكرمانجية . فقد كان اسبابي يجلس على مقعده وينقل الترجمة شفويا الى المذيع المسجل الضخم ومن ثم ينسخ ترجمته لترسل الى طهران ولتدقق من قبل السلطات .

واصلت الوقوف في المكتب ، غير واثقة مما سأفعله

في الخطوة التالية . وقد كان وجودي هناك وبدون ان يلاحظه أحد تجربة جديدة عليّ . قبل ذلك كان يتواجد دائما صصف من الناس المنتظرين الذين يرغبون في لفت انتباهي او يرغبون أن يسألوا سوءا ما عن الانكليزية أو عن الولايات المتحدة ، يريدون أن يظهروا انفسهم انهم موجودون ، والآن صسرت أنا الشخص غير المتواجد والموجود . لم اسمع مداعبة او مغازلة أو ترحيبا . اكتسب وجهي حمرة من الارتباك وشهرت بالدموع تسع جفوني . فبدأت بالمشي صوب الباب ولكن السيد خليلي الذي كان قد عاد من مهمته العاجلة لبفع دقائق مضت ، قال لي :

ـ تفضلي بالجلوس مارغريت خانم .

بعد ذلك قدم لي الخادم كأسا من الشاي . ومربي رجسـل عبر مهم وحيائي . عندما انتهيت من احتساء الشاي نهضت وفادرت الحجرة دون أن ينتبه الي أحد أو حتى يرفع أحد بصره لينظر الي .

قررت أن اقوم بزيارة اخرى الى المحطة ، لأنني كنت مرتابة من قدرتي على فهم الاشياء في ايران ، انتظرت عدة أيام لأستجمع شجاعتي وبعدد عدت ثانية . ربما كانوا فعلا مشغولين يوم زيارتي لهم . ربما أن بعض التوجيهات قد اصدرت اليهم من طهران اضطرتهم فعلا الى تبني سرسمة مكثفة في سير العمل . ربما كنت حساسة جدا . ربما أن كل شخص منهم قد ألفني ولم اعد مركز الانتباه ، فليس باستطاعتي أن ابقي مركز ميدان. ثلاثي الحلقات الى الابد .

وفي المرة الثانية لم اخطئ في حكمي على ماكان يجري فقد اخبرتني شخصية ليست أقل أهمية من السيد جوهر خسائه أن السيد اسياي قال ان الهيئة الكرمانجية مشغولة بحيث

لاستطيع أن تقدم لي المساعدة في عملي في الكردية . وكان السيد جوهر خاـنه نفسه ودودا ولكنه كان مشغولا . وبسببـا انه لا يحمل أي ضغينة صدي ، ولكن موقفه كان : انه اذا اعتقد السيد آسيابي أنني غير مستحقة لوقت أي شخص أكثر من ذلـسك ، فمن المحتمل انه مخق في ذلك . على أية حال ، مهما كانت مشاعر جوهرخاـنه تجاه آسيابي ، فانها لم تكن تستحق لديـسه لحظة يقع فيها في مجابهة معه لأجل امرأة اجنبية تريد تعلم الكردية . ومرة أخرى بدا وكأنه قد قدّر علي الأتعلم هذه اللغة التي اتيت من أجل دراستها من على بعد خمسة آلاف ميل .

بدأت الكتابة والشعور بالاضطهاد بـسيطران علي حسالا فصبت جام غضبي على جـيرد حيث اتهمته بالاغراق في الانانية على نحو لا يمكن تسامحه في رد فعله لسوء الـسيابي . وبما أن القاء مسـؤولية اختلاق الموقف كله على آسيابي كانت بلا جدوى فقد ألقيت اللوم على زوجي وتساءلت فيما اذا كان سيتعلم التكيف مع الاعراف الاجتماعية الايرانية يوما . والشيء الذي لم اكن اعرفه ، هو أن العضوين الآخرين في هيئة معدي البرنامج الكرمانجي الاداعي في الحجرة كانا يلقيان باللائمة على آسيابي فقط . وانهما كانا وأساليـبهما الخاصة ينتظران الدقيقة الملائمة عندما لا يكون فيها آسيابي على مقربة منهما لأخباري من شعورهما الحقيقي .

كان لقائنا الاول مع جـاهي ، حيث كان يركـن

سيارته في الشارع قرب منزلنا في احد ايام الجمع وقد لمحني مصادفة . صاح ملقيا النحبة بصوت عال ولوحت له بيدي وواصلت السير في طريقي عائدة من عند البقال الواقع في الزاوية . ولكن جاهي صاح ثانية :

- لماذا لاتأتين لتتناولي الغداء معي ؟

- لا ، شكرا .

صحت مجيبة عليه ، متأكدة من أن الدعوة هي مجرد شكليات ، وانها ليست حقيقية . فسألني :

- هل تناولت غداك ؟

فأقتربت منه لأجيبه :

- لا .

- اذا لماذا لا تأتيني ؟

سألني وقد بدا وكأنه يعني دعوته حديثا .

- ماذا عن جيرد ؟

- دعينا نذهب ونحضره .

اجاب جاهي بذلك ، تاركا باب مقعد السيارة الامامي مفتوحا . سرنا حول صف من السيوت لنأخذ جيرد ، وتأكدت انه قد عنسى دعوته فعلا .

أخذنا السيد جاهي الى النادي الليلي الايراني وقد كان في قمة فتنته وسط تجمع العائلة في وقت الاصيل، حيث بينناول افرادها الكباب والارز مع البيض النيء وفي النهاية أصر على دفع الفاتورة وهذا أمر مقضي في ايران بما انه هو صاحب الدعسوة . لقد اشار عدة مرات قائلًا : انه قد احب جيرد جيرد كثيرًا وذلك خلال الوحبة وشانية عندما رجع بنا الى مسكننا . لقد كانت الرسالة حاذمة ، كما تنزع كل الرسائل الفارسية المسمى أن تكون كذلك . فيدون ذكر اسبابي ابدا او الاشارة الى الحوادث

في قرية شيخ زادة ، عرفنا الآن ان السيد جاهي قد أخذ جانبنا .

كان السيد خليلي بالانسجام مع طبيعته أقل حذقا . فقد التقيت به مرة وأنا امشي هابطة نحو الشارع المشجر حيث كانت تقع المحطة . ناداني كي انتظره ، وقال بلبين بعد ان لحق بي وبعد ان تبادلنا التحيات المطلوبة :

— السيد جيرد يقول الحقيقة .

تبادلنا النظرات ، حتى ان السيد خليلي كانت له حدوده فهو لم يكن ينوي أن يصرح برأيه بشكل مباشر بأن اسيايي كان " فزوليا " فضوليا . وانتهزت الفرصة مع السيد خليلي وحاولت توضيح ماحدث في قرية شيخ زادة . فقلت :

— لقد انزعج -اسيايي حقيقة من جيرد لماحدث في القرية وفي الحقيقة لايزال منزعجا حتى الآن . فنظر الي السيد خليلي على نحو بدا فيه متضايقا وقال بهدوء :

— لاليس غاضبا منكيم .

— بالطبع هو كذلك ، فقد دعاه جيرد فضوليا .

وقد عرفنا مؤخرا ان كلمة " فضول " التي تعني " نوسي " بالفارسية قد اقتبست من كلمة عربية ترادف كلمة " شيسيت " عندنا وهي كلمة تفيد في التحقير .

ولكن السيد خليلي تجاهل مسألة عدم ملائمة استخدام الكلمة وركز على شيء آخر .

— لايقدر أن يتضايق ، طالما انه جاء الى منزلكم واحتمى الشاي معكم .

كان السيد خليلي يشير الى قاعدة كردية من قواعد حسن

الوفادة : ضيف في بيتك لايمكن ان يكون عدوك .

مع ان السيد خليلي كان قد امضى عدة سنوات فسي
المدينة فقد كان عقله لايزال في القرية ، مع مجموعة القواعد
الكردية التقليدية واسياي من الجهة الثانية كان قد ولد
وتربى في المدينة ، لقد كان تركيا اكثر منه كرديا .

لم استطع التوقف عن التفكير في اسياي على الرغم من
تأكيدات جاهي وخليلي . لماذا تطرق لنقطة مثل هذه ،
كالدعاء انه عنصر من السافاك ؟ . لنفترض انه ملزم برفع
تقرير يقول فيه اني جاسوسة وانني دخلت ايران واقيم في
ريزي تحت ذرائع مزيفة ؟ لقد حدد عقدي مع الحكومة الايرانية
انه يمكن اقالتي من الكلية مباشرة عند تعاطي عملا منظما
ضمن أي نشاط مهني غير تعليم الانكليزية ، ولن يكون هناك
سبيل قانوني أو أي أيضاحات حول ذلك .

بدأنا تدريجيا بالتماس آراء الناس الآخرين فسألنا
زملاءنا :

— هل من الادب واللباقة ان تسأل احد كم يكسب من
المال ؟

— لا . . .

كان ذلك الجواب الاشمل تقريبا .

— اذا لماذا يسأل عنه العديد من الناس ؟

— لأنهم لا يدركون اكثر من ذلك . انهم فيم
متعلمين .

كان يأتني هذا الجواب مرتبكا قليلا . من الواضح انه لم يكن
السبب الحقيقي ، لأن بعضا من هؤلاء الناس المثقفين ، جيدا
هم انفسهم كانوا قد سألونا عن رواتبنا . وعلى كل وافقنا

الناس الذين سألتهم على نقطة وحيدة : ان على المرء ان لا يستخدم كلمة فضول ابدأ لعنصر من السافاك . و النتيجة الطبيعية الواضحة التي لم يقلق احد نفسه بتوضيحها بتعابير لا ليس فيها كانت : لا تستخدم كلمة فضول لأي كان ، لأن اي شخص يمكن ان يكون من السافاك .

بعد البحث مباشرة في مسألة اسيايي ، نزل جيرد وتحدث طويلاً مع هوشنخ الجعفري . وقد استنبط كلاهما بعد جهد جهيد اعتذاراً رسمياً للسيد اسيايي وقد كان تقريرا شبيهاً بهذا : أستسمحك عذراً . تعرف اني لا اعرف الفارسية جيداً ، واحياناً لا اعرف ما تعنيه الكلمات ، فقد خلطت الكلمة التي استخدمتها بكلمة اخرى اعترفت استعمالها ، ولكن اذا كانت قد بدرت مني الاساءة فأرجو ان تسامحني .

أكد جيرد لهوشنخ انه كان يعرف الكلمة ، وقصد عيني استخدمها ، ولكن هوشنخ اخبره بحزم ان اي اعتذار آخر غير وارد . وطبعاً عرف اسيايي جيداً انه لم تكن غلطة ، ولكن تلك لم تكن هي النقطة المهمة ، بل ان الاسلوب والشكليات كانت هي المهمة . ولحسن الحظ ، ولا احترام الذات النابع من ثقافتنا لم تتح الفرصة التي تمكن جيرد من تقديم هذا الاعتذار بسهولة . لم اذهب الى محطة الاذاعة بعد ذلك ابدأ ، ولم نصادف اسيايي على الطريق ابدأ . وبدأت ادرك ان الاعتذار لن يفيدني في شيء . فقبل الحادث كانت دروسي الكردية قد اصبحت مضللة اكثر مما تكون مرضية ، حتى مع السيد خليلي في غرفة الادارة . فقالبا ما كان السيد خليلي يتغيب على الرغم من تأكيده انه سيحضر في موعده حسب اتفاقنا ، واتضح لي انه كان متعباً من مسلسل تقدمي البطيء نسبياً . وقد ازدادت رغبتي في التحدث مع النساء الكرديات كثيراً . نساء لم تتغير لغتهن الكردية بنظريات مزيفة من التعدل . لقد حثت الى كردستان معتقدة أنني سأكون الاولى التي تتحدث الكردية ، فبالنسبة لأي شخص مطلع ، من الجائز ان يلاحظ

ان النساء الكرد يات يتحدثن بلغة مختلفة تماما عن لغة الرجال . ففي قبيلة هندية أمريكية ، يستخدم الرجال و النساء أشكال نحوية مختلفة وقد صرحت - محددة في اطروحتي المفترضة - اني كنت مقدمة على المقارنة بين كلام الرجال و النساء . ولكني لم اتحدث مع امرأة عسدا اخت السيد اسبابي حيث لم اعد انظر اليها ككردية حقيقية تماما كنظرتي الي اخيها .

كنت قد بدأت - وحتى قبل رحلتنا القصيرة الى مأدبة القرية - بطلب المساعدة من السيد خليلي ليجد امرأة متكلمة لاتحدث معها . ولكن جوابه كان اقل ما وعد به . فقد قال :

- انا لا أعرف نساء كرد يات . ربما كان ذلك الشيء اللبق المحتم ان يقوله في مجتمع كهذا يفصل بين الجنسين ، ولكن ، كلانا عرفنا ان ذلك شيء مضحك . فالرجل لديه زوجتان والعديد من القريبات . وقد تعجبت اين خبأهن جميعا .

النساء الكرد يات يظهرن في الشارع ولأنهن كرد يات ، فهن أكثر النساء ظهورا في الشارع . والعديد من القروبات واللاجات كن يخرجن سافرات الوجوه ، ولكن حتى هؤلاء كن يظهرن محتشمات ولم يكن يتأنقن على نحو يتفاخرن به . راقبتهم تواقا اليهن أكثر مسن أي وقت مضى . لن أشعربا لارتياح ابدأ في الجلوس في حجرة يملأها الرجال ، وانما في مطبخ احدى هؤلاء النساء . تصورت نفسي جالسة ببساطة ود فتر الملاحظات في يدي ، اتعلم أشياء كثيرة وليس فقط أشياء عن اللغة . نظرت ثانية الى العائلة اللاجئة التي كانت قد انتقلت الى جوارنا ولكن كانت تملو وجوههم تغابير كتومة ، لا يمكن الوصول اليها . حيث كانوا يسرعون ذهابا وايابا في الشارع المشجر بسيارتهم اللاندروفر المضروبة . وكنت أخشى التحدث اليهم .

اتكلت مرة على حسن ضيافة جيراننا الجعفرين . كان هناك امريكيون آخرون في المدينة ، ولكنهم كانوا قد فصلوا رأيهم فينا بأننا منبذون لأننا لم تكن نقضي ليلنا في مركز قيادة الجيش التابع للولايات المتحدة ، نشرب ونشاهد الافلام السينمائية الامريكية . كنا

على الاغلب نمكث وحيدين في الليل نسام من بعضنا البعض و مسن
فشلنا ، ولكننا كنا نأبى الذهاب الى الامريكيين و اظهار عدم نجاحنا
اما مهم . وكان الجميع قد اخبرونا انهم قد سقموا من المحاولات
الكثيرة لتكوين صداقات مع الايرانيين . وعند ما لم يكن البرنامج
الكرمانحي ذو الستون دقيقة يُبث ، كنت احاول ان اضبط المذياع
على اذاعة (السبي . سبي . سبي) . وكل الروايات ذات الاغلفة
الورقية التي احضرتها معي كانت قد قرئت .

ما كنا نحتاجه هو الاصدقاء . ولكننا كنا لا نزال نلقى صعوبة
بسبب المشكلات و ما هو أسوأ من ذلك . اردنا ان نناقش انطباعاتنا
و شعورنا عن ايران . وقد بلغنا حداً يائساً بحيث احتجنا السبي
استرجاع كل ما كنا نقوم به و النظر فيه من جديد .

كنا نتلقى الدعوات و الابتسامات من الجعفرين . و من الايرانيين
في الكلية كنا نتلقى الابتسامات ، وقد صعب علينا كثيراً استرجاع
ذكرياتنا مع شخص كنا نشق به و نستطيع التحدث معه بحرية ، حيث كنا
قد التقينا به منذ مطلع اقامتنا في ريزاي في شهر ايلول و كسان
يصغي اليها باندماج اكثر من مجرد توزيع ابتسامة ، شخص عرفناه
بعيدا عن الجعفرين ، وعن المدرسين في الكلية . و الوقت الذي
امضيناه معه كان بعيدا عن اجواء ايران . كان في عالم خاص بنا ،
لأننا لم نكن نشعر بالمل مع أمير لمجرد انه بصحبتنا ، ولم نكن
نعزل بعيدا كما كان الحال مع معظم الايرانيين الذين عرفناهم .
و على الاصح كينا قد سُحرنا من قبل صبي كان قد حُبك
حولنا رقبة سحرية كردية .

الفصل السادس

كان امير ، الشاب الفارع الطول ، النحيف الذي اتى من بؤكان هو املنا لبلوغ كردستان اكثر من الجعفريين، اكثر من السيد خليلي واكثر من أي شخص آخر كنا قد التقينا به منذ مجيئنا الى ايران . كان امير واقفا قريبا مع الطلاب الآخرين عندما تحدثوا عن كيفية قتل السافاك أخا صديقي المهابادي في امريكا . وكان واثقا من انه قد اغتيل ولكنه لم ينسحب بعيدا عني مثل الآخرين . بدلا من ذلك وعندما استعد جميع الطلاب وهم يتحدثون بنبرة هادئة ويعبرون عن شكوكهم لبعضهم البعض كان امير قد تبعني الى مكتبي وعرض علي تعلم الكردية ، لهجته السورانية الاصلية (الكردية الجنوبية) ولكنها مع ذلك تبقى كردية . وقد اخبرني انه يعرف قلبا من الكرمانجية (الكردية الشمالية) وانه سيكون قادرا على تعليمي الاختلاف بين اللهجتين . لقد جاء امير من مدينة كردية تقع جنوب مهاباد واقترح مباشرة انسه علي ان اسافر اليها معه والتقي بعائلته . لم يستطع امير التوقف عن الحديث عما سنفعله معا ، كيف سيعلمني الكردية وكيف سيأخذني الى اماكن في كردستان . حدثت فيه متعجبة ، كيف كان لطالب في السنة الدراسية الاولى من مدينة كردية صغيرة ان يتعلم التحدث بالانكليزية بهذه الطلاقة ؟ ولماذا سمى هو الي بينما تراجع الطلاب الآخرون ؟ .

عندما ارنا امير في بيتنا للمرة الاولى كان ذلك يوم الجمعة ، يوم عطلتنا الاسبوعية . وقد عرض علينا أن يرافقنا الى مهاباد ولكنني كنت مصابة بالتهاب القصبات الهوائية واخبرنا قائلًا :

ـ أعرف مهاباد تقريبا مثلما أعرف بؤكان .
شعرت بسعادة وأسا افكر بالذهاب حالما اسماثل للشعساء .
ولكن أمير لم بعدم عرضه ثانية اسدا وذهنا الى مهاساد
برفقة الحفريين .

اعتاد أمير المجيء الى مكسي ، وهو حجرة معتمدة
بمقعد ذي غطاء مطاطي ومدفأة داكنة بلون الرماد نعمل على
النفط ، قابعة في الزاوية . لم يطرق بابي احد من الطلاب
الآخرين ابدا الا عندما كانت تعطى الدرجات ، كانوا بتجاهلون
اعلاناتي المتكررة عن ساعات التواجد في المكتب . ولكن امير لم
يكن مثل البقية منذ البداية . لقد كانوا بعدين واحيانا
عدوانيين بينما كان هو ودودا ومتحمسا . لم تكن انكليزيتهم
تنفع لمحادثة حقيقية بينما كان امير يتحدث بانكليزية لم
تكن عامية تماما ولكنها كانت تنزلق بسهولة من فمه . وعلاوة
على ذلك كان امير كرديا . كان قد جعل من نفسه مزارى
المتعدد الالوان لكردستان ، يوما بعد يوم قادني الى مقربة
منها وهو يرقص فوق طريق منشور بورود خيالية ويخبرني عن
جمال بؤكان وعن الشهور الودي لعائلة تجاه الآخرين ، والاروع
من ذلك انه كان يحدثني عن الافكار والتطلعات السياسية
للا كراد . اصبح امير جزءا من حياتنا دون أن ندرك كيف
حدث هذا . فبالاضافة الى عرضه لتعليمي الكردية ، كرس نفسه
لمساعدتنا في معالجة تعقيدات الاستقرار في ايران . فاذا
احتجنا للحصول على شيء من البازار كان يقول انه مستعد
للذهاب معنا . انه يستطيع أن يترجم لنا ويشرح لنا ، ولكن
الاهم من هذا وذاك انه بإمكانه أن يقضي وقتنا معنا ، ذلك
الوقت الذي كان يمضي احيانا على نحو متعاقب بسرعة شديدة
ومن ثم ببطء شديد .

فالاسبوع الذي تعلمنا فيه تسوق الغذاء والحاجات

المنزلية قضى على كل وقت فراغنا . لم يكن صاحب الدكان احيانا ، ونحن أيضا لم نكن نفدر احيانا على مهمه . وعلى كل حال فان الوقت الذي أمضيته في تمحص الاشياء وعسدد المشتريات التي قمنا بها كان قلبلا . اعددنا جداول ولوائح لأواني التنظيف ، التوال ، الصابون ، واشياء اعبرناها من الاساسيات - ولكننا لم نستطع أن نجد نصفها . كنا نجد انفسنا فجأة في أيام الجمع عندما كان البارار ومعظم الدكاكين تغلق ، بدون أي شيء نقوم به ، لاجد نزوره او نتحدث اليه . جعل أمير أيام الجمع محتمله او حتى مسليه . فقد تجولنا معه مرة أو مرتين في مركز المدينة ، ولكنه وعلى نحو مألوف كان يجلس ببساطة في منزلنا لساعات ، يفقد في مواجهةنا عن قصد على المنضدة المعدنية ويقشر بعصية بذور عبساده الشمس والبطيخ ولب الفستق ، ويتكلم ويتكلم وكنا نحن أيضا نستجيب لاحاديثه . كان يريد معرفة كل شيء عن امريكا ، وكنا نحن نريد معرفة كل شيء عن كردستان . ماذا يعمل والده ؟ ومثل ماذا كانت مدينته ؟ كم لديه من الاخوة والاخوات ؟ هل هناك مدارس ثانوية في مدينته ؟ ماذا يفعل الناس فسي الشتاء ؟ ماذا يأمل الناس في مدينته عن الحرب الكردية فسي العراق ؟

جعلنا نشعر اننا نستطيع ان نسأله عن أي شيء والفرق بين اجوبته - حيث كان بعضها صريحا ودقيقا وبعضها ملتبسا فيه وغامضا - كان قد اصبح ضبابيا بسبب افتتاننا بأي شيء يختاره للقول - وكان يسر لقلول اشياء متطرفة ومبالغ فيها فقد وصف لنا مدينة في الربيع والجبال مكسوة بالزهور ، وقد توقعنا ان نذهب معه الى هناك اما في الخريف أو في الشتاء واكد لنا ان الحرب الكردية هناك لم تكن على الاطلاق مثلما كنا نفكر فيها . فقد قال :

- ان الاكراد لا يقتلون العرب . ان الاكراد

بماتلون الاكراد .

كان يدعو السرزاني ، الشيخ القبلي والفائد العسكري الذي دافع دات يوم عن مهباد بالاميربالي ، الماشسستى الذي ساع شعبة للحكومة الامربكة بنعديمه البنرول للامريكان، معلّـه بلقى الدعم للقضية الكردية . فال أمير :

— أن الاكراد الحقيقين بماتلون على الجبهة الثانية واخبرنا انه كان يستمع الى كل محطات الاذاعة التي تدبّع بالكردية من ابران والعراق والاتحاد السوفياتي . لقد كان مفتتنا بالاتحاد السوفياتي .

اخبرناه بما كنا قد سمعناه عن الاكراد في امريكا ، فقد قلت له انه حالما يبجلني صندوق كنبي الذي ارسلناه بالشحن الجوي من سوسطن ، سأريه ماذا طبع عن الاكراد والكردية في بلدي . بدا أن الساعات كانت تضيّق بنا بحيث لم تكن تكفي للتحدث معه بينما كان الآخرون الذين التقيناهم مقلين فسيي الحديث عن السياسة وعن الاكراد ، صامتين في استجابتهم للمشاعر التي كنا نعبر فيها عن كوننا اجانباً ، فقد كان أمير مصدرا للمعلومات ، وردود الفعل والمشاعر . كان يبقي لتناول وجبات غذاء في منزلنا حيث كنت قد بيّست من أن احدا من الايرانيين سيحل ضيفا علينا يوما ماعدا زيارة الجعفريين . انتقصد طعامنا بصراحة وعلى نحو ظريف . لم اشعر بالاهانة . كيف يمكن أن اشعر بذلك ؟ فاسلوب امير في طرح الاشياء كان رائعا جدا .

— كأنك تمفخ ملكة ، اليس كذلك ؟

ادلى بملاحظة ، بينما كان يجهد نفسه في طحن قطعة من اللحم المسلوق حيث كنت قد طبختها فقط لثلاث ساعات بدلا من الساعات السبع التي كانت تتطلبها . ضحكنا لذلك ، واخبرنا أن طبخ والدته مشهور ، وسنكون قادرين على تذوقه بأنفسنا بعد أجل قصير .

كنا ندعو كل إيراني التقينا به عدا هوشنغ وشهرزاد بلقب ، بالإضافة الى اسمهم الأخير . حتى طلابنا ، كنا ندعوهم بالسيد فلان والسيدة فلانة . عندما كنا نتحدث بالفارسية كنسنا نستخدم الصيغة اللقمة " انتم " مثل الفرنسية " VOUS " وبما أن امير كان طالبنا - وحسب فن المجاملة الايرانية - كان ممن غير الوارد ان بسمينا باسمنا الاول . ولكن عندما التقينا للمرة الاولى لم نكن نعرف ذلك وقد اختار هو ان يتجاهل ذلك فقد بدأ مباشرة بمناداتي بـ " دادا مارغريت " مستخدماً اللقب الكردي الجنوبي للاخت ، وكان يخاطب جيرد بـ " كسك " أو الاخ الأكبر . وكنا نحن نناديه باسمه الاول دائماً .

لقد بدأت علاقتنا مع امير ضمن شرنقة ، فقسد اميننا وقتاً معه لوحده بعبددين عن الايرانيين الآخرين . لايمكن ان نقارن احداً مع امير في حميميته ، ربما عدا الجعريين فقط . كان هذا الشاب يطفح بالحيوية و الحماس برأسه الكبير اكثر من المعتاد وعينه البنيتين الواسعتين الموءطرتين بأهداب طويلة وكثيفة . اخبرته ذات يوم قائلة :
- اهداك حميلة .

فأحاسني بحدة مزيلة نظارته عن عينيه لاستطبع روءيتهم بشكل أفضل ؛

- اوه ، نعم انا مشهور بعيني في مدينتي .

كانت امه مشهورة بطبخها ، أما هو فقد كان مشهوراً بجمال عينيه . لقد كان من وجهة نظر امير ، كل شيء وكل شخص في عائلته هو مدينته مشهور . لقد كانت كردستان مكاناً سحريراً ولم يكن عليه ان يقنعني بذلك . ألم آت من على بعد ٥٠٠ ميل لأنني اعتقدت نفس الشيء ؟

في استعادة اللاحداث نحد صعوبة في تحديد سبب وقوعنا تحت سحر أمير وكيفبة حدوث ذلك ، فقد كان عادياً في الكثير

من النواحي ، ومراهمنا غير محبوب ، مفعما بالغرور والافكار المحنونة . كنا نعرف انه ببالغ ، وبدأنا ندرك انه كان يتهرب من العديد من اسئلتنا . ماذا يعمل والده ؟ لا يجيبنا بالخفيقة ابدا . كيف تعلم الانكليزية بهذه الجودة ؟ بدا انه شيء غير وارد ان يكون قد النقطها من سياح امريكيين يمرون من بوكان على نحو عرصى ، كما كان يدعي . اين كان يسكن امر عندما كان يحضر الى الكلية ؟ لم تتوضح لنا هذه الامور ابدا . ولكن محادثتنا لم تتخللها فجوات مربكة . كان الفرق بين امير والجعفرين لغويا وعاطفيا أيضا . فبينما كنا نجهد مع حيراننا بفارسية مكلفة ، كان امير قادرا على ان يصب كل مافي قلبه لنا بالانكليزية . وكنا نحن أيضا بدورنا نفعل ذلك . اخبرناه عن كل شيء عن حياتنا في امريكا عن آمالنا وخيبة آمالنا في ايران ، عن مشاعرنا في البعد والغربة المطلقة عن المشهد الايراني الاجتماعي . وعندما تجولنا معا في الشارع ادبنا شكواي من كيفية تحديق الرجال في النظرات العدوانية المزعجة و الجربشة تلوح في عيونهم . شعرت وكأنهم سيسلبونني ويقتلونني اذا سنحت لهم الفرصة . قال امير انه يفهم ذلك . وتحدث عن الانحراف في الاخلاق بين جماهير الطلبة والطريقة التي تهتف بها الفتيات للشبان في المهاج ليل ، وهن يتوسلن اليهم ان يخرجوا معهن .

قال امير مرة :

— انه لشيء مشير للاشمئزاز . أليس لهؤلاء الفتيان اخوة ليقوموا بحمايتهم واخبارهن عما هو صحيح ؟
كنا انا وجيرد نتسلى بذلك . فليس هناك ادنى شك في أن امير كان جنسياً ولكن كان فيه شيء مايسمه بالبراءة والعنف الى حد بعيد . حتى انه صرح انه مشتمز من " غوغوش" المغنيه الاكثر شعبية في ايران التي كانت قد ابهجست الآخرين جميعا :

- انها فتاة سيئة بالسلوك الذي ننهجه .
كان ذلك حكمه عليها . تساءلنا انا وجيرد فيما اذا كان كل
الشباب الاكراد على هذا النحو من التزمت ؟ .

كان امير شخصا غريب الاطوار ، في وسط الفسق الكامن
داخل المظهر الخارجي لكل اللقاءات بين الرجال والنساء ففي
ابران . فقد كان برفض البقاء معي ولو للحظة لوحدها في منزلنا .
فاذا توجب على جيرد ان يخرج من البيت فامير أيضا سيغادر
المنزل . ولكن في وقت لاحق وعندما ازداد ادراكي للامور
بدأت مناداته لي باسمي الاول تبدو كعلامة على العلاقة الخاصة
التي ستوجه اليها الانتقادات في الكلية . واخيرا بدأت النظرات
المحرجة تستقر على علاقتنا مع امير . واولها كانت من حانب
مدرس في الكلية كان يسكن على مسافة منا في نفس الزقاق
وسأل بعد أن رأى امير معنا وهو يخرج من منزلنا :

- انتم أصدقاء هذا الشاب ؟

فقال جيرد :

- نعم ، نحبه كثيرا .

تفحص المدرس وجه جيرد للحظة وقال :

- ان أمثال هؤلاء الشبان خطرون .

فسأله جيرد :

- ولماذا ؟

فقال المدرس وهو يلقي نظرة عجل وغامضة علي :

- لأنهم يربدون الكثير من الحب . اعرف هذا الطالب
انه يريد كل شخص ان يحبه . مثل هؤلاء الشبان خطرون على
النساء .

تخلصنا انا وجيرد من شعورنا بعدم الراحة الذي هاجمنا
للحظات بالضحك . عرفنا منذ ذلك الحين ان لا أحد من المدرسين

الآخرين يحلم بأخذ أي من طلابهم الى منازلهم . كان الحاجز
الاجتماعي بس الطلاب والمدرسين في الكليات الايرانية فائما .

واخيرا عندما وصل الصندوق المشحون من امريكا وكان
جاهزا لأحذه من الجمارك بعد وصولنا الى ريزاي بحمسة أسابيع
توجهت كالعادة ، الى امير . عزمنا على مغادرة الكلية
والذهاب لاحضار الشحنة ~ وقبل ان نغادر اخبرت اميرا أن جميع
كتبي عن الكردية وكردستان كانت داخل الصندوق . نظر السـ
وخوف غامض يتسلل من نظراته :

— لكن السافاك سيصادرون جميع كتبك .
— لماذا ، فأنا امريكية ، وبالإضافة الى ذلك لسن
يعرفوا ماهية هذه الكتب . انها بالانكليزية .

كان امير يشك في ذلك ولكنه اتى معي كما كان فسد
وعدني بينما كنت انتظر في الخارج ، أدار احد السائقين
سيارته البرتقالية في وسط الطريق امام الكلية واتى مباشرة
وبأقصى سرعة باتجاهي . قفزت متقهقرة لابتعد عن طريقه
وقدماي تتحركان بخوف وعلى نحو يعوزها الرشاقة في الحركة .
ظل امير متمسرا في مكانه . واصر التاكسي صوتا طويلا
وحادا عندما توقف على بعد انشين من المكان الذي كنت فيه .
قال وهو يضحك مني :

— ما الامر ، دادا مارغريت ؟ هل خفت من محرد تاكسي
يجب الاتخافي من الموت . أنا لاخافه ابدا .
انتظر امير معي في مكتب الانتظار ، بينما قسام
موظفو التفتيش بفتح غطاء الصندوق ، وقد بدت على وجوههم
الخيبة عند رؤيتهم ثمانية ازواج من جوارب جيرد وقد حشرت
في اعلى الصندوق . وبسرعة تفحصوا مادونها من الكتب .
وبدؤوا بالحديث مع بعضهم بانفعال ، عندئذ تدخل أمير
فهدؤوا بعد ذلك مباشرة ، وسلموني قطعة من الورق لأوقع

عليها ثم اعيد الي الصندوق شانه . فسألت أميرا :

- ماذا حدث ؟

- ارادوا أن يبعثوا الكتب الى مكتب السافسك
ليتفحصوها ولكنني احسرتهم انها تخص عملك في الجامعة ،
وبذلك فقدوا اهتمامهم بها .

تساوم أمير مع سائق سيارة لنقل الصندوق الثقيل
الى منزلنا وقد ساعده السائق على حمله على السلالم عندما وصلنا.
كان أمير قد اسر على دفع الاجرة عند ذهابنا ورجو عنا من
الحمارك . وعندما غادرنا سائق التاكسي تعقبت أمير وهو ينزل
فوق الدرج محاولا ان اصع في يده المبلغ الذي دفعه للسائق .
واخبرا نجحت في وضعه تماما في جيب قميصه . حدثت فيسه
متعجة من كرمه الزائد هذا . كان امير قد قال لي انه يريد
ان يستعير بعضا من كتبتي ولكي عندما قدمتها له ، ردها
الي قائلا انه بخش ان تشاهد معه .

ذات يوم وبعد ان جلبنا معا الصندوق بفترة قصيرة،
سمعت امير في مكتب رئيس القسم الانكليزي يوضح : انه لن
يحضر الى الصل لشهر او اثنين . ماذا كان ذلك ؟ اصغيت اليهم
ولكني لم استطع ان اكتشف سبب ذلك . وفي وقت لاحق جابهته
بكيفية قدرته على ترك الجامعة بعد مجرد سنة اسابيع مسن
الدوام في سنته الاولى في الكلية ؟ نظر الي بغموض وقد بدت
عيناه الواسعتان اكثر اتساعا بكثير لجديته .

- لاستطيع اخبارك ، دادا مارغريت .

- لم لا ؟

- لاريدك ان تقلقي .

تناقشنا انا وجيرد حول الموضوع لعدة ايام . ووضعت
تصورا بأن امير كان ماضيا للانضمام الى المقاتلين فسي
العراق . الم يتحدث في احيان كثيرة عن كيفية تحقيق رغبته

فيان يكون في المكان الذي يريد ؟ . سألته :

- هل انت ذاهب الى العراق يا امير ؟

نظر امير الى الارض يحزن وقال :

- لا استطيع ان اخبرك ، يجب الا تعرفي .

ولعدة ايام وكلما كنت اشاهده كنت أسأله عن سبب مغادرته وكان دائما يضحك يحزن ويرفض التحدث عن ذلك . وقد رفض رئيس القسم الانكليزي وهو امريكي معتد بنفسه كان قد نبهني عدة مرات بأن امير " ودود جدا " ، رفض هو أيضا أن يخبرني قائلًا بأن امير قد وضع له السبب ولايجوز الافضاء به لكونه مسألة شخصية بحته . تألمت لعدم ثقة امير بي ولكني كنت أيضا مهتمة وقلقة على نحو فظيع . اعتقدت أن امير كان رومانسيا وعنيذا بما فيه الكفايه ليقوم بشيء خطير بالفعل . وفي الحقيقة اقنعت نفسي بأنه ماضٍ للقتال حقا مع " الاكراد اليساريين " ضد البرزاني في العراق .

اخيرا كشف لي عن السبب في مكثي . لقد كان ذاهبا الى طهران لاجراء عملية في مستشفى ما . فقد كان يعاني من وجود حصي في كليته . سمحت لنفسه هذه المرة ببعض من الشك والارتياب . ولماذا ضخم الموضوع لهذا الحد ؟ لماذا تصرف بهذا الفموض ؟ لقد كان امير قادرا حتى على جعل حصي الكلية تبدو كمأساة سوداء . وصرح لنا في المرة الاخيرة التي قُام فيها بزيارتنا قبل ان يرحل :

- لا اعرف ماسيحدث لي ، وماذا ستكون نتيجة هذه العملية ؟ فأكدنا له من غير تكلف :

- سيكون كل شيء على مايرام .

بدا متألما من ردة فعلنا الخالية من الهم وقال :

- انتم لاتعرفون المشافي الايرانية . لاتعرفون

الاطباء الايرانيين . فهذه ليست امريكا .

بعد ان غادرنا تلك الامسية كان قد نجح في افزاعنا نحن أيضا
وتساءلنا فيما اذا كنا سنراه ثانية يوما ما .

حصلت لنا اشياء واشياء في غيباب امير ، ولكن
أي منها لم يبد حقيقيا تماما . لأنه لم يكن معنا لشناقشها
معه . وكما بقولون بالفارسية ، فقدنا طعم الحياة والسدة
المحاذة ونشوة الافكار . فهو لم يكن موجودا عندما رجعنا من
مانوا او عندما نذتني هيثة الاذاعة . واخيرا اصبح فقيدان
امير ذا اهمية بالغة بسبب عدم وجود احد من الاكراد على
الاطلاق ليتحدثوا معي . في الوقت الذي غادرنا فيه أمير، كنا
قد اقتنينا اسرة ، ومنضدة ، كراسيا ، شلاجة ومدفأة ، بالاضافة
الى السجادات التي اعارنا اباها هوشنغ . ولكننا كنا لانزال
نبحث عن بعض الاغراض في المخازن . لقد كان التسوق بالنسيئة
لنا حديا متقدما باستمرار ، حيث كنت اتوفى اليه فلفظ عندما
اكون في مزاجي الاكثر استرخاءا للتحدث بالفارسية . وحتى بعد
ذلك لم يكن من الهزل التواجد لوحدي بين الحشود . فالمسألة
الذكور كانوا يحدقون في باطراد ، وكانوا سيلمسونني اذا سحت
لهم الفرصة . ولم اغادر دكانا تقريبا دون أن يخامرني
شعور بأنني قد غششت لأنني اجنبية من قبل الناجر هناك . وعندما
كانت للمشتريات قيمة اكبر حاولت دائما ان أجد احدا ما من
المحليين ليرافقني .

تصرفت زوجة جارنا الذي كان قد حذر جيرد من اميسر
بودمعي . لذلك سألتها يوما فيما اذا كانت ستذهب معي
الى البازار لتساعدني في شراء بساط صغير لمناسبة عيد ميلاد
جيرد . وقد وافقتني على ذلك . وفي اليوم المحدد للسوق مضيت
مبتهجة الى منزلها ، متشوقة للتجول في البازار برفقة شخص
ما يعرف ماذا يجري فيه . كنت في مزاج صاف حتى اني لم اكلم

الاحظ ان نازي لم تكن قد ارتدت ملابسها بعد ، حين وصولي .
لعبت مع طفلها وابدت اعجابي بسجاداتها الحميلة بينمسا
كنت انتظرها لتجهز نفسها . واخيرا ارتدت ثوبا خاصا
بالشارع وسترة غليظة . وسلمت الطفل للخادمة وخرجنا من الدار .
وبينما كنا نمشي نحو الشارع اخبرتها عن رغبة جبرد الملحمة
في اقتناء واحدة من هذه السحادات وأي مفاجاة ستكون لـه
عندما يراها . اوقعت سيارة اجرة فجأة وبدون ان تتفوه بشيء
بينما كنا في منتصف الطريق الى ساحة المدينة . توقعت السيارة
ومعدتها و اوصحت من خلال النافذة ان لبس لديها الوقت لتساعدني
بعد كل ذلك . بعدئذ سارت السيارة باتجاه البارار وتركنتني
معهوقة الى جانب قناة صرف مكشوفة . لم استطع تخيل ماحدث
سوى اننا وقبل ان يغادر كما نتلقى المصايفات المألوفة من
جميع الذكور المتسكعين في الشارع . فشر ناري المصيوغ بالاحمر
وعيناها الخضراوان الطبيعيتان بالاضافة الى فستانها القصير
والمقور الصدر على نحو مثير كانوا قد اعدوها لنبدو غريبة
على نحو مطابق للزي الحديث . من المحتمل ان الرجال حسبوها
اجنبية هي أيضا وقد سألتني متهمة ، تماما قبل أن تفر هاربة:
- هل يفعلون ذلك معك دائما ؟

توصلت الى انطباع غير مشكوك فيه انها قد اعتقدت
أنها غلطتي ، وانني قد قمت بشيء مالاشارة المضايقة التي اضطرت
 للمشاركة فيها .

كنت لازال افكر بفظافة نازي خانم عندما بدأ
الجغريون بالتحدث معنا عن حفلة زفاف يمكن أن تقام ضمن
عائلتهم ، فقد كان اخو هوشنغ ، وهو مهندس متوسط العمر ،
قد انتقى فتاة تبلغ ثمانية عشر عاما من بلده لتكون عروسا
له قبل ان يمضي في رحلة عمل الى اليابان . وانشاء غيبته
ظننت شهرزاد ان محمود الاخ سيفسخ الخطوبة عند هودته ، مدركا
انه يمكن ان يجد أفضل من هذه الفتاة القليلة الاشارة التي

من بلده ، وقد لَمَحْتُ لي 'شهرزاد' انها مميزة في الدرجة الاولى
بشعرها الاشقر فقط . مهما يكن فقد قرر محمود وبمعنويات
نعوزها الحبوبة ان بمضي في اقامة مراسيم الزواج وكما قال
كان نعبا من المكوث وحيدا في رجزاي . وحالما حدد تاريسخ
العرس اكد لنا الجعفرىون بأننا سنستمتع كثيرا بروءيلة
عرس ابراني ونحن بدورنا عبرنا عن فرحتنا بالدعوة . وقد
تمنيت على نحو خاص ألا ينهي موقف العريس الاحتفالات .

على كل حال ، انضح ان كل شيء بهيج جدا واوربي على
نحو مدهش ، ابتداء من حمام منزل والد العريس الذي يتفاخر
بوجود مرحاض وحوض اسنحمام افرنجي فيه ، وصولا الى كميات
الجن المحظورة والغالية الثمن والتي كانت تسكب بسخاء فسي
كؤوس طويلة لمعظم الذكور وبعض الاناث الحاضرات . بسدت
العروس الساحرة في ثوب زفافها الاوربي بحواشيه الطويلة ،
مستمنعة تماما بحفلة عرسها وقد ادت رقصة هز البطن اللطيفة
امام الصيوف المجمعين .

وفي آخر المساء ، اخرج رجل ثمل جبيرد ، فقد طلب
منه باشزعاج ان يعرف :

- كم تدفع لكم الحكومة الايرانية مقابل عملكم
هنا ؟ انتم امريكيون اغنياء . نحن لانحتاج اليكم .
بقي الرجل ممسكا بمرفق جبيرد الى أن اتى هوشنغ واجبره على
أن يقدم اعتذاره . ووضح قائلا :
- لم يكن يعرف مايقوله .

أومأنا برأسنا بالموافقة على ذلك ، وقد ابدينا اللباقة ظاهريا
ولكننا كنا مرتابين في داخلنا . فهذه حالة من غياب الوعي
والشمال الحقيقية .

حتى تلك اللحظة كنا نشعر بالترحاب في حفلة الزفاف
فكل شخص كان يعنني بنا بافراط ، يقدم لنا الغذاء و الشراب ،

بأتي لتحدث معنا ، وبينسم لنا باستمرار ، فهيجان الرجل
الشم لم يفسد آمستنا ولكنه جعلنا ننساءل عما كان يدور
في فكر هؤلاء المبتسمين جميعا . فكلما طال بقاؤنا في
ايران كنا نعلم النظر الى ماوراء الانسمات اكثر . ولكن
لم يكن امير هناك لنناقش معه هذه الحوادث التي شبر الكآسة
في النفس . لم يكن هناك مجال للنظر في امر احتمال ارسال
السيد اسابي بغيرا عني للسماك ، لم تكن لدينا وسيلة
اختبار ما او موته صوت ، ولا طريقة نشرح فيها صدورنا من
تراكم اضطراباتنا واحرانا وسوء فهمنا . فقد كنا أننا
وحيرد قد حرضا في رنزانة نفسية مع بعضنا البعض ، ولم تكن
علاقتنا تنمو ضمن عزلتنا هذه .

في نهاية احد الشهور ارسل البنا امر رسالة حارة
من منزل لاماربه في طهران . وقد اجبت عليها مباشرة ، واخبرته
عن مدى افتقارنا له ، وعن الاشياء التي حدثت لنا ، وعن
حاجتنا للتحدث معه . وبعد عدة اسابيع وقبل حلول الشتاء
والمطر كان امير ينف تحت ضوء الشمس عند مدخل ساحة دارنا .

" امير " صرخت وعانفته وانا اعرف ولكن بدون أن
اهتم بأن الرجال والنساء لا ينعانقون امام الناس ابدا في
ايران ولا ينعانقون في أي مكان آخر اذا لم تكن بينهم صلة
قريبة جدا ، أما بالدم او بالزواج . نزل حيرد على
السلام وعانقه هو أيضا .

كان اجتماعنا الثاني في فترة الغداء ولكن لم يكن
لدينا الوقت الكافي لنتفوه بكل شيء كان يجول بفكرنا . فقد
كان علينا جميعا ان نعود الى الكلية لنراه فيها . والآن وقد
عاد امير ، شعرت بأن كردستان بكل رومانستها وامكانياتها
يمكن أن تغنح صدرها لي .

بعد انقضاء ليلتي على عودة امير من طهران . جاء

ليتناول الطعام معنا . كان اللحم هذه المرة قد نضج تمامًا .
كان كل شيء معدا حسب الذوق الإيراني لأننا في غياب أمير كنا
قد استأجرنا رجلا تركيا ممتازا لطبخ لنا ثلاث مرات في الأسبوع
فقد اعتقدنا بأننا بهذه الطريقة يمكن لنا ان نستقبل ضيوفنا
إيرانيين بدون ان نحاط بخيبة روعة الغذاء دون ان يمسسه احد .
بينما بدأنا انا وعزيز نضع الاطباق فوق الطاولة اتى امير
الينا وسأل :

— هل سينناول عزيز الغذاء معنا ؟

نظرت الى عزيز مضطربة وقد بدأ الشعور بالاثم بالنفاذ الى
قلبي المتسامح .

— لا ، انه لا يفعل ذلك ابدا .

— اذا سأطلب منه ذلك . هل انت موافقة على ذلك ؟
ذلك ما قاله طالبي وهو يذهب الى المطبخ خلف عزيز بدون
أن ينتظر ردي .

— طبعاً أحبته بفتور .

جلس عزيز المضطرب والخجول معنا على الطاولة وتظاهـر
بتناول شريحة من اللحم والسلطة . انه يعرف أمير من الكلية
حيث عمل عزيز لايام في مطعم الطلاب ، حسب القواعد الإيرانية
لنظام الشكليات كان من غير المقبول أبدا أن يجلس طالب
ومدرسه متماثلين ، ولكن الشيء الذي لا يصدق مطلقا هو أن
يتناول طالب جامعة إيراني ومدرسه والخادم طعامهم معا على
نفس الطاولة .

حتى أنا كأجنبية أحسست بذلك ، ومع ذلك فان أمير وكما هو
دائما كان قادرا على أن يجعلنا ننزل عند رغبته حتى لمجرد
ابداء اقتراحه ، فقد أعلن أن نظاما اجتماعيا جديدا هو على
شك الولادة في إيران ، ولثقته بتأثيره علينا كان قد قرر أن
يدشنه في منزلنا .

شعرنا أنا وجيرد بالغرابة . فقد اندفع عزيز بعيدا عن الطاولة وأمير يحاول أن يتحدث معه قبل أن يقدم الشاي . لا أعرف حتى فيما اذا كان أمير قد لاحظ كم كان عزيز متضايقا .

دخلنا مرة أخرى في علاقة نمطية مع أمير . فغالبا ما كان يقوم بزيارة قصيرة الى منزلنا عند المساء وفي نهاية الأسبوع . وشأنية كنا نجلس نحن الثلاثة لساعات ونحدث . ولكن الامور كانت قد تغيرت نوعا ما ، ليس مع أمير ، بل معنا فبعدما يقارب ثلاثة أشهر من وجودنا في ايران كنا قد أصبحنا أقل بساطة وأكثر تشككا . ولم نكن متفائلين جدا حول توقعاتنا في خلق أصدقاء جدد لنا . وكنا قد بدأنا نغير انتباهنا أكثر للفروق الدقيقة لما نقوله نحن للناس الآخرين وما يقولونه هم لنا . مع ان أمير ذاته لم يتغير وكان احد اصدقائنا الاولين والوحيدين . كانت انكليزيته قد وهنت قليلا في طهران ، ولكنها قوية حالا بتأثير المحادثات . لم يعلمني الكردية ابدا على الرغم من أن هذا كان السبب الأصلي للقائنا كنا ثلاثتنا احيانا نتحدث بالفارسية ، ولكننا كنا ندرك أن اميرا قليل الصبر مع جهودنا . وقد اتهمه جيرد مرة بعدم رغبته بتعليمي الكردية ، فارتسمت على وجه أمير تعابير الألم المميزة عنده ، حيث برزت شفته الى الامام واطالت عيناه التفكير . وبالطبع كان يعتزم تعليمي الكردية ولكن ، كان من المهم جدا له ان يتعلم الانكليزية . كل شيء سيأتي في وقته المناسب . ولشعورنا بألم اللوم في عينيهِ تراجعنا عما قلناه اضافة الى ذلك ، فثمة مسألة اخرى ، وهي زيارة مدينة أمير بوكان . متى سيأخذنا اليها ؟ لقد انتظرناه طويلا ببساطة لكي يقترح علينا وقتا مناسباً لذلك . ومن ثم وبعد عودته من طهران اشرنا الموضوع نحن بأنفسنا . ولكن أمير كان يوءجل ذلك دائما . الآن ليس الوقت المناسب . ستكون الجبال مغطاة بالثلوج ولكن أمير اخذ الحافلة هو نفسه الى هناك مرة او مرتين ، وكان طلاب آخرون من بوكان يذهبون الى بلدهم بين الفينيسية

والأخرى . لماذا لانقدر على الذهاب الى هناك نحن ايضا ؟
ولماذا فقد امير اهتمامه بالذهاب معنا الى مهاباد ؟ فقد كنا
قد اخبرناه عما حدث لنا مع الجعفرين وعن رغبتنا في
الذهاب ثانية برفقة كردي ، ولكن امير اوضح لنا بأسلوبه
المراوغ بأنه لن يأخذنا أبدا . ويعد عدة اسابيع أعلن اميرا
أن والده سيأتي في زيارة الى ريزاي . وعندما رأى الاهتمام
على وجهي ، اضاف مباشرة :

— اريده ان يلتقي بك . لقد اخبرته كل شيء عن

مدرسي ، كاك جيرد ودادا مارغريت .

واخيرا رتب الامر على أن اميرا سيعد لنا طبخة إيرانية في
منزله واننا سنذهب لتناول الغداء مع والده . وفي اليوم الذي
دعانا فيه امير وصل الى دارنا قبل الوقت بثلاث ساعات ، فسألته
محدقة في أسفل الدرج لأرى فيما اذا كان احد ما واقفا هناك :

— ماذا فعلت مع ابيك ؟

فقال امير :

— اوه ، لقد ذهب الى البيت توا .

— ولكن ماذا عن الغداء الذي كنت ستعده ؟

— اوه الطعام ، هل همهم لك ؟ سأعده هنا في منزلك .

نظرت الى امير ببرود . ما الذي كان يشغله ؟ بالتأكيد لقد ادرك
انني ماكنت اهتم به هو مقابلة والده وليس تناول الطعام .
فسأله جيرد :

— ما الامر ؟ الا تريد ان نأتي الى مسكنك .

— حسنا . انه ليس مكاناً لطيفاً ، ليس لطيفاً بالقدر

الذي يليق بمدرسي .

لم يمكث امير طويلا ذلك اليوم ، بعد ان شعر وبدون
شك بالاسئلة التي تجول في فكرنا . فجأة بدأت المراوغات
حول تعليمي الكردية وزيارة مدينته ، وكل الاسئلة فيسر

المجابهة من والده ، من يكون وماذا يعمل ؟ حتى الاسلوب الذي كان يتبعه امير في تجنبه اخبارنا اين يسكن ، كل ذلك بدأ يظهر الى الوجود وبشفل حيزا من تفكيرنا . لم يكن قد قام بأي اجراءات لتعليمي الكردية . والآن كان قد عرض علينا ان يقدمنا الى والده وبعدئذ وبدون أي توضيح سحب الدعوة . سألت جيرد :

— لماذا تظن انه لا يرغب في ان نرى والده ؟

فأجابني :

— لا أظن ابدا ان والده قد اتى الى ريزاي .
— اذا لماذا اخبرنا انه قد جاء ولماذا اصر على

دعوتنا ؟

فأشار جيرد :

— لقد دعينا الى اماكن عديدة قبل هذا ولم يكن الناس يهتفون اخذنا فعليا .

ذلك صحيح . فالشكليات كانت ترفع رأسها المنافق في كل مرة كنا نقدم فيها دعوة او نتلقاها . لقد كنا قد توصلنا الى النقطة التي لن نسمح فيها لأنفسنا بأن نظهر لهفتنا لأي دعوة ، مهما تكن مغرية ولم نقدر ان نشأكد ابدا فيمما اذا كان الناس الذين ندعوهم سيلبون الدعوة أم لا . كان موقفنا هو الانتظار ومشاهدة ماسيجري عندما كانت الساعة المحددة تقترب . كان امير على الاقل يأتي دائما الى منزلنا عندما كان يقبول انه سيأتي وكان ذلك ، قياسا مع الناس الآخرين ، أفضل بكثير بما فيهم الجعفريين . كان الجعفريون يفضلون ان يكونوا الى جانب تقديم الدعوات اكثر من أن يكونوا الى جانب هدف تلقي حسن الوفادة من جانبنا . اما امير فقد بدا على العكس من ذلك .

ان سلوك امير الغامض نزع اعترافا من جيرد . فقد اخبرني ان الكآبة والحزن كانا قد أخذنا من نفسه موقعا في الفترة

الآخيرة ، لأن واحدا من تلامذته المفضلين في الكلية ، وهو زميل
لأمير ، كان قد أخبر جيرد بأنه سيعلمه الكتابة المسمارية
وبعدئذ وبعد ان أخذ درسا ممتعا رفض الطالب أن يلتقي معه
ثانية . والسبب في ذلك هو أنه سيفقد كل اصدقائه اذا شوهده
يتسكع مع مدرس امريكي . وقد اقر جيرد احتمال ان امير
قد شعر بنفس الشيء . وبعد ان فكرنا قليلا تذكرنا انه على
الرغم من عروضه فان امير كان قد تجول معنا في الطريق فقط
لعدة مرات في بداية علاقتنا . ومنذ ذلك الحين كان ينكث
بعهده اويتجنب كل الدعوات والعروض لروءيتنا في أي مكان
سوى داخل منزلنا وعادة في الليل .

لم يقم أمير بزيارتنا لمدة اسبوع تقريبا وبعدئذ
ظهر فجأة في احدى الامسيات في الساعة التاسعة ، فسأله جيرد
بفضاضة :

— أين كنت ؟

لقد كنت مشغولا جدا بالبحث عن مسكن جديد ، عن مكان
افضل بحيث يكون مناسباً اكثر لدعوتكما الى الغداء .
فقال جيرد :

— هاه . .

بدا امير متضايقا من ذلك . وتابع جيرد قائلا :

— انت لا تريدنا أن نأتي الى منزلك لتناول الغداء
أو بالاحرى ، لماذا تتردد علينا ؟ هل أنت من السافسك ؟
شحب وجهه أخيرا ، ولم يتفوه أحد منا بكلمة لمدة دقيقة
فشعرت بقوة خارجية تحثني على تغيير الموضوع ، كيف وصلنا
الى هذه الدرجة من عدم الثقة ؟ . ماذا جرى لكل ذلك الحسب
والدفع ؟

حدقت في امير الذي لم يقل شيئا يدافع به عن نفسه أو شيئا
يعيد الطمأنينة اليه . فتركت جيرد يواصل ذلك .

— لماذا دعوتنا لمقابلة والدك بينما لم يكن هنا ؟

- أنا اسف جدا لذلك ، فقد كان عليه ان يعود
فجأة الى البيت . ولاكون صادقا معكم فأنا ووالدي لسنا على
مايرام في علاقتنا معا لقد تخاصمنا فقرر المغادرة . فقال
جيرد :

- لاأصدقك .

اخفض أمير نظره الى الاسفل وقال ببساطة :

- لاامدحك هي عبارة قاسية اينما كانت .

في ايران حيث يلوث الكذب عجلات التفامل الاجتماعي على
نحو روتيني يكون السوء ال الصريح عن صحة اقوال احد مـ
شيء غير وارد ابدا .

التمع في ذهني تصور كان يفكر فيه امير فقلت :

- لاأظن أن امير يصدق ماقلوه نحن أيضا .

فسأله جيرد .

- هل هذا صحيح .

- انت لاتصدق اني فعلا قد اثبت الى ايران

لاكتب رساله الدكتوراه عن الكردية اليس كذلك ياأمير ؟

نظر الينا امير وقال وهو مغمم بالامل تقريبا :

- حسنا انت صغيرة جدا لتحطلي على شهادة

الدكتوراه .

- لقد اخبرتك ان عمري خمسة وعشرون عاما .

فقال أمير بثقة :

- عمرك لم يبلغ خمسة وعشرين عاما . فلا أحد من

الطلاب يصدق انك في سن الخامسة والعشرين تهدين أمـ

بكثير .

فسألته بالحاح :

- ولماذا اكذب ؟ ولماذا اتظاهر بأنني أكبر

مما أنا عليه ؟ رفض أمير ان يجيب على سوء الي او حتى

أن ينظر الي .

- انت لاتصدق اني ادرس الكردية أيضا اليس

كذلك ؟ .

- لا، حسنا لربما تدرسين الكردية تقولين انك تهتمين بالكردية ولكن هل يمكنك أن تقومي ببحث وانت بعيدة عن جامعتك ؟ ان الطلاب يقومون بالبحوث في احدى الجامعات وانت الآن في ايران . لذلك من غير معقول انك تعديس بحشا .

دار في خلدي احتمال تقبل امير حكابتنا مؤقتا كنت قد توقعت أن اشك فيها بعض الشيء ولكني بدلا من ذلك وجدت عدم تصديق كلي وانكارا لكل ماكنت قد وضحته عن نفسي ، عن كل شيء كنت قد ابديت اهتمامي به على مدى الاشهر الثلاثة الاخيره واخبرته عنه . كنت قد حدثته على نحو متواصل عن عملي الاكاديمي ، عن خططي للبحث ، وقبل كل شيء عن اسباب رغبتني في المجيء الى ايران . كل حديثنا ذاك ، كل كلمة منه حاكمها هذا الشاب ابن المدينة الصغيرة ، ومن الواضح انسه رفضها بعد دراستها في عقله . قاومت دافعا يملني علي تلمس وجهي لا طمئن على حقيقة وجودي . لقد بدا امير في تلك اللحظة قبيحا وحتى مرعبا . فكيف لي أن استمر بالحديث معه ؟

سأله جيرد بهدوء :

- هل تظن اننا من عناصر ال (سي . آي . اي) ؟

فقال امير :

- لا ، لا اظنكم منهم .

- اذا ماذا نحن ؟ ماذا تظن ؟

نظر اليها امير وقال مدافعا عن نفسه :

- لم يمر وقت طويل على معرفتي بكم . لا اعرف مسن

انتم . ان التعرف على شخص ما والثقة به يتطلب وقتا طويلا .

- ولكن كيف لك ان تعرفنا اذا كنت لاتصدق شيئا مما

نقوله ؟

لم يجبه امير على ذلك . ولم ينصرف مباشرة على

الرغم من اننا ، انا وجيرد شعرنا - ودون ان نقول شيئا - باننا نكاد لانستطيع البقاء جالسين وننظر في العينين الواسعتين

المتألمتين والشفة السفلى البارزة للحظة اخرى . كان كما لسو
اننا كنا قد اتخمننا انفسنا بالفستق وحتى ان مجرد روعيته
تجعلنا نمرض . لم يكن أمير ، ذلك الذي كنا نراه امامنا ،
بل بساطتنا المجسدة وسهولة انخداعنا ، وقابلتنا للتجريح
والتضليل . لم يكن شك أمير وارتياحه فقط ، قد ولد فينا
ذلك الشعور ، بل ايضا تخلص نازي مني بالمكر واهانات الرجل
الشملي ، وغضب السيد اسياي وتحفظ السيد خليلي . كان الاكرا
والاتراك قد قابلونا على نحو مماثل . واطلقوا علينا حكما
ولفظونا ، مغرقين في ذلك . وهأنذا اتفحص خيطا محلولا
بعناية اكثر ، الخيط الاخير علما لعله . ذلك الذي سيفودنسي
الى كردستان .

استمر أمير في الجلوس على طاولتنا ، يحدق فسي
احدنا ثم في الآخر . لم يصدق حقيقة اننا قد تحولنا ضده
على هذا النحو الكلي . كان قد احتفظ بشكوكه لنفسه ، جالسا
بصمت كل هذه الساعات ، وكل هذه الاسابيع التي افشينا له
فيها عن مكنونات قلبينا . لماذا اجبرناه على قول ما كان
يفكر فيه ؟ فقد كان كل شيء مبهما جدا . لقد كان يتعلم
الكثير من الانكليزية . لماذا كان الامريكيون متبلدي الذهن ،
مديمي الحس وحاسمين لهذه الدرجة ؟ نظرنا اليه بوجوه خاليه
من التعبير وأخيرا نهض ليفادر والدموع تلتصع وراء نظارته .
كنا أنا وجيرد ننقاش بين الفينة والاخرى احتمالية كون
أمير عنصرا من السافاك الذي كان قد عين ليكتشف ماذا كنا
نفعل في ايران وكدفاع اخير ضد غضبنا أوحى الينا أن ثقته
قد تداعت ضد رغبته ، وأنه كان قد خاض تجارب رهيبه كانت
قد ظهرت الى حيز الوجود في بوكان واننا كأمركييين
لنستطيع تصورها .

- ماذا ؟ ماذا ؟

عاجلته بالسوءال هذه المرة ، ولم يقدر ان يبقى غامضا . قال
انه كان قد استدعى من قبل البوليس السري لنشره جريسة

طلابية في مدرسة ثانوية . وكان والده قد استدعى من المنسزل
ليقف معه ويستجوب هو أيضا . وسألته دون أن أبدى أى تعاطف
معه : - هل عذبت ؟ هل سجت ؟
فأجاب معترفا :

- لا ، لا شيء من هذا القبيل . ولكنني روعت حتى
الموت . لكن اعتراف امير جاء متأخرا جدا وفي نهاية جلسات
اعترافات عديدة اخرى . لم اعرف ماذا اصدق . لقد كان
كرديا ، كان يتجول مع الطلاب الاخرين ، وكان يتكلم الكرديية
هذا كل ما عرفته ولم اقدر أن ادرك اكثر من ذلك . من الذي
كان قد ظفر باخلاصه المتذبذب ؟ هل هي النقود التي حملته على
ذلك أم الخوف ام الحس الوطني الكردي ؟ اذا كان لايشق بنا
فلماذا كان يرغب باصرار في مناقشة الامور السياسية ؟ لقد
كانت تلك علامة سيئة في ايران ، حيث كان من المعروف ان عناصر
السافات فقط يتحدثون عن مثل هذه الامور .

بقبنا الآن لوحدنا ومعزولين حقا . فلم تكن هذه
مثل الحادثة التي جرت مع السيد اسبابي . لاننا لانستطيع
الاعتراف للناس عن نوع العلاقة التي كانت تربطنا بهذا الشاب
فمثل هذا الاعتراف سيسبب ضررا اكثر . لم نستطع أن
نناقشه مع امير صديقنا الحميم سابقا . لمت في نفسي
الناس الذين طلبت منهم افكار تمهيدية عن الاكراد . فكرت
في الجعفرين ، بهيئة الاداعة ، في المدرسين في الكلية ،
واقصبتهم جميعا عن تفكيري . كان من السهل في أمريكا الاتحال
بالاكراد القلائل الذين كانوا يقيمون هناك قبل ان اغادرها
فقد هتفت لهم ببساطة وقدمت نفسي لهم . ولكن في ايران التي
لم تكن فيها الهوائف عمومية ، لن يجدي ان اذهب الى منازل
الناس واقول لهم انني ادرس الكرديية . فبدون الاتصالات المناسبة
وبدون الاعتماد على سنوات من تعزيز الثقة ، كانت وسيلة
الاتصال وجها لوجه بغير معنى . كان مثل محاولة صرف شيك
في مصرف في مدينة امريكية بدون " ID " .

كان انعدام الثقة بيننا وبين امير مثل حدوث تصدع في الحقيقة . فمنذ الآن وصاعداً ، اصبحت لكل كلمة وكل فعل معنى مضاعف وخفي . اصبحت الآن اكثر يقظة لملاحظات الناس بكثير مما كنت عليه في أي وقت مضى . فعندما اخذنا احدهم من الكلية الى المنزل بسيارته وقال في نهاية الرحلة : متى ستشترى سيارة ؟ ادركت من كلامه ان كل عنصر في الكلية يمتلك سيارة سوانا نحن ، وان اعضاء الكلية الآخرين يمتعضون من توصيلنا وفي نفس الوقت يشعرون بأننا خائنون لمنزلتنا الاجتماعية لأننا ركبنا حافلة المدينة مع العمال والطلبة .

لم أعد متشوقة الى قبول أي دعوات ، لأنني لم استطع ان اميز بين الدعوات الحقيقية وتلك التي كانت مجرد حركات ايمائية وفي الحقيقة بدأ ينتابني احساس ، كلما عرض احدهم شيئاً ما علي بأنه مقصور علينا فقط بقصد الازعاج . فقد كانت تلك الدعوات والابتسامات والترحيبات التي لاتعني شيئاً تبدو لي مثل مضايقات بحتة .

ظهرت حواجز غير مرئية في كل الجهات ، وبدأت افقد القدرة على رؤية الاشياء وفقاً لعلاقتها واهميتها الصحيحة والنسبية وأيضا الثقة التي كنت املكها يوماً في مجتمع كنيت اعرف كيف اتصرف فيه وكيف اجد المعلومات عندما كنت اريدها . بدأت امطار الشتاء بالهطول ، فبدت السماء والجبال اكثر قرباً ، ما جعلني اشعر وكأنني مطوقة بداخلها . ايمن كانت كردستان ؟ نظرت باتجاه الجبال حيث كان الثلج المنساقط مبكراً قد حول القمم الى اشكال مخروطية بيضاء . هل الاكراد موجودون في الجانب الآخر فقط من هذه الجبال في العراق وتركيا ؟ لا بل انهم هنا بالقرب مني تماماً ، تحت السماء ذاتها . ينظرون الى الجبال نفسها . دأبت في البحث عن الشخص المناسب الذي سيعرفني بالناس المناسبين وعن الكلمات السحرية لأقولها والتي ستجعل الجن يظهرون .

الجزء الثاني
على تحفوم كردستان

الفصل السابع

ان تكون وحيدا في ايران ، فهذا يعني انه قد حلت عليك اللعنه . في البداية سيفتق عليك الناس ولكنهم اذا ظنوا انك تتجنب اناسا آخرين عن قصد فانهم سيصبحون شكاكين حالا . على النساء - على نحو خصوصي - الا يبقين وحيدات . فكلما كان يذهب جيرد ليمارس التحدث بالفارسية مع الجيران ولم اكن معه ، كانوا يبحثونه على العودة الى منزلنا لأخذي . وبعد ان اوضحت لهم اني اعمل في فترات المساء فانهم وللتحقق من هذه المعلومات ، كانوا يحددون من نوافذهم باندهال ، يراقبون المرأة الامريكية المجنونة والمنعزلة وهي تعمل على الآلة الكاتبة الخاصة بها .

وكغرباء فقد علمنا حالا بأنه لايمكن لنا توقع قضاء وقت مع الناس وهم مرادى . وفي كل مناسبة تقريبا كنا ندعوا فيها شخصا للذهاب معنا الى مكان ما فقد كان يظهر شخص آخر اضافة الى الشخص المدعو على الاقل . كان ذلك من الاسباب التي حدثت بي للمضي لرومية النساء الكرديات - حيث قابلتهن اخيرا - والذي كان يثير اعصابي . لقد كن دائعا على شكل مجموعات بينما كنت انا لوحدي وماكنا نقدر ان نحدد مواعيد للقاء في محل عام او مطعم . ما لتناول الشاي والطعام . فالنساء لا يرين ابدا في المحلات العامة ، وقد كن يذهبن الى المطاعم فقط برفقة ازواجهن أو آبائهن . لذلك كان امامي خياران : أما أن اقدر على الذهاب الى منازل هؤلاء النسوة أو أن اتعامل معهن جملة ، او الا اراهن على الاطلاق .

بالإضافة الى عدم وجود والدتي او أي شخص آخر من اقاربي

ليشكل مصدا دفاعيا اجتماعيا ، كانت شمة حقيقة مذهشة أيضا وهي انه لم تكن بيني وبين جيرد صلة قرابة قبل أن نتزوج كان الاكراد دائما يسألون عن هذا ، متعجبين من كيفية لقائنا كان يجب على الأقل ان نكون اقرباء بحكم الزواج وبذلك فسان قريبا لنا يمكن ان يكون قد ذكرني لام جيرد ، حتى قدرنا على اللقاء ضمن هذا التقليد الاجتماعي اللائق معتمدين على العلاقات العائلية على وجه الخصوص . وبدلا من ذلك فقد التقينا لوحدهنا ، بعيدبن عن عائلتنا ، وفي جامعة ذات اجواء موضوعية تماما حيث لا يمكن لأحد ان يعرف كيف كان سلوكنا قبل أن نتزوج .

بعد طول انتظار ، قرر السيد خليلي ان يعرفني السى امرأة كردية . فقد هتف الى مكتبي في الكلية لينبئني بالآخبار وليحدد موعدا لنا لنذهب الى منزلها سوية . صبرت على الانتظار بصعوبة . درست صوفي واسرعت في القيام برحلات قصيرة السى البازار ، ومضيت الى النوم ومكثت افكر طوال تلك الليلة بالمرأة الكردية هذه .

عندما ظهرت عند مدخل غرفة الهيئة الكرمانجية فسسى اليوم التالي التقط السيد خليلي الهاتف وطلب رقما واخبر شخصا في النهاية الأخرى اننا في طريقنا اليه . لم يقل السيد خليلي شيئا عن المنزل الذي كنا ذاهبين اليه . وكل ماكنت اعرفه كان اسم المرأة التي تكلم معها على الهاتف وهو مريم اوبلباقا اكثر ، مريم خانم ، السيدة مريم .

دخلنا الى شارع بهلوي وقد كنت اعرفه ، وهو أحسن الطرق العاقبة الرئيسية في المدينة . قادني السيد خليلي الى منزل يقع خلف بقالية غالبا ماكنت اتعامل معها ، ومعدنا السسى الاعلى حتى وصلنا الى باب معدني ازرق باهت ودق جرسه . اجابتنا امرأة ذات وجه وردي وخصلات من شعرا شقر قد فرت من تحسنت وشاحها البرتقالي الزاهي . وبعد ان اخبر السيد خليلي المرأة

ذات الوجه الوردي من اكون ودعنا وهم بالمفادرة . حدثت بفزع
في شخص ذي بذلة سوداء يتمشى بعيدا في الشارع . مــــن
سيقدمني لمريم خانم ؟ فقد احسست ان المرأة التي بالسباب
ليست مضيفتي ، ولكن من تكون ؟

قبل ان تتاح لي فسحة من الوقت لاماب بالذعر امسكت
المرأة ذات الوجه الوردي المبتسم بيدي وقادتني الى الداخل .
اغلق الباب المعدني بصوت مكتوم ومن خلال ضوء خافت ميّزت
قاعة خالية من الاثاث ومعتمة وفي داخلها زوجان من الحمامات
الرمادية الاليفة تطوفان ارجاء الغرفة ذات الارضبة المكسوة
برقاقات الفلين وهما تهدلان . وبرشاقة مدت المرأة يدها
ورفعت حقيبتني وآلة التسجيل الثقيلة عن كتفي . ماكنت قد
سجلت بعد شيئا منذ محيئي الى ايران وفي الحقيقة كنت قد
سنتت لنفسي مبدأ يأتي لن احاول ان اسجل لأحد الى أن يعرفني
ويثق بي ، مع ذلك ، حملت الالة معي وكنت قد بدأت اخشى
الا يعرفني احد او يثق بي . ربما كان علي ان ابدأ التسجيل
كلما سنحت لي الفرصة .

وحالا اشارت الي المرأة الكردية ذات الوجه الــــوردي
بلباسها الكردي المتألق ان اتبعها الى الاعلى . وقد كانت
الدرجات هي ايضا جرداء وكانت تكسوها رقاقات فليزية وسخه.
مثل ارضية الرواق ، وكان يغطي زجاج النوافذ الخشن خطوط
من الوحل وقد كانت مظه على الشارع على طول بيت الســــدرج .
وصلنا رواقا آخر عند نهاية الدرجات وكان يحتوي على ثلاجة
ضخمة . ومن ثم وجدت نفسي واقفة فجأة في مدخل حجرة حيث
كانت قد وضعت مجموعة من الاجذية والخفاف المطاطية فســــوق
حصير . سمعت هسهسة فتيات ودمدمة اصوات ، وبدون أي انذار
وجدت نفسي وجها لوجه امام حجرة ممتلئة بالنساء الكرديات .
لقد كن جميعهن واقفات ينتظرنني كي ادخل . وبحركة غير
رشيقة انحيت لأفك رباط حذاثي الطويل ، فصاحت العديداً منهن

كى لا اخلعه ولكني لم ارواحدة اخرى قد ابقت حذائها حتى داخل
الحجرة وعندما دخلت بقدمي المكسوتين بالجوارب ، لاحظت ان
الحجرة كانت قد دثرت وزينت كأنها عليه جواهر . ركضت احداهن
الى الزاوية لتحضر كرسيها مطويا ولكني رفضت هذا ايضا فلم تكسن
أى منهن جالسة على كرسي .

كنت اقف وسط حلقة من السيدات - سيدات حقيقيات بملابسهن
الظاهرة الفضاضة وطبقات من الاثواب والسراويل والجوارب القصيرة
المحاكة يدويا . وفي مخدع مستلئ بالالوان المميزة ، وكل جهة
منه مزينة بمناديل معبوكه واقمشة مصنعة آليا مزدانه بالرسوم
والصور . كانت مرايا وقوارير عطور متقنه الصنع ، متلثة بسوائل
مختلفة الالوان قد احتلت مكانها فوق طاولة زينة قابعة فني
الزاوية . بهرني كل ذلك . كانت احداهن تدفعني الى مقعد
تحت الخافذه ، واندفعت واحدة اخرى الى عدة من صناديق
اللابس وانتزعت من فوقها وسادة مغطاة باطلس واقمحتها خلف
ظهري عندما حاولت الجلوس . رغبت بشدة في النزول لاجلس
على الارض ، عندها ادركت ان كل الانتباه كان موجها نحو
وفي النهاية رتبت وضعي وفق رضاهن وبقيت احاول تغطية ركبتني
الحاريتين بقميصي البني القصير . كان لزاما علي الان ان افتح
فمى واتحدث . فساد الحجرة صمت منطوق على توقع للحدث

قدمت المرأة الجالسة بجانبى ، المرتدة ثوبا خارجيا باهتا
بلون الماء مع طبقات من ظلال اخرى من البسة زرقاء كانت تلسوح
من تحته ، قدمت نفسها بصوت خافت واحد على انها مريم
وببطء وهدهد شديد من شعرت انهن سيفقدون صبرهن فاجبتهن
على اسئلتهم ، من اكون وماذا افعل في ايران ، الو ، اى درجة
احببتها وفيما ادا كانت ايران اسهل ام امريكا . لم استلسع
ان ازيل نظرى عمن مريم ففقدت كالمها عده . ان ذهبيمة

في مقدمة فمها . كان شعرها احمر . ربما بسبب الحناء ، ولكنـه كان يناسب بشرتها الشاحبة تماما . كانت عيناها اصفى وأكثر زرقة من أي الوان زرقاء في لباسها ، وكان حنكها يبرز الى الامام ، فيسم وجهها بمظهر رجالي متناسب مع هيئتها الصارخة وصوتها المنخفض . ربما انها كانت مضيفتي فقد افترضت انها صاحبة المنزل . سيقدم لنا الشاي الآن ، فالمرأة ذات الوجه الوردي آتية عبر المدخل وهي تحمل طبقا عليه كؤوس صغيرة ممتلئة بشاي أحمر بني شديد التركيز وشمرة امرأة أخرى مرتدية ثوبا حريريا رقيقا احمر اللون مزركشا بفراشات مزينة بنشاز معدني لماع كانت فسد ذهبت الى خزانة الثياب الخشبية القابعة في الراوية واخرجت اربع علب صينية خزفية ووزعتها في ارجاء الغرفة فوق البساط . كانت العلب تحتوي على قطع من "القاند " السكر لتوضع بين الاسنان عند رشف الشاي . حدثت في كتل السكر ، محاولة ان الثقط المقسـدار المطلوب . وفي عجلة شديدة اخترت قطعة ضخمة وحاولت بعد ذلك وبحركة غير بارعة ان اقطعها الى اثنتين . استمرت النسـوة بمراقبتي وفي ثوان قليلة صرخت احدهن للخادم كي يحضر ملعقة ، فاعترضت على ذلك بحماس والحاج لدرجة ان الملعقة لم تجلب .

حال السكر اساسي نصر عندما شربت الشاي ، الكأس تـلـو الآخر فالحلما كـلـل انهي كأسا كانت الخادمة أو المرأة ذات الفستان الاحمر سأتي و.ملوءة ثانية .

— هذه عروسي .

قالت مريم هذا وهي تضع يدها حول خصر المرأة ذات الرداء الاصفر التي كانت قد نهجت لي الشاي للتو . تحدثت فيها متسائلة عما كنـسـخان يعني ذلك . كنت اظن ان كلمة " بولك " تعني العروس ، ولكن كيف يمكن أن تكون عروس مريم ؟ لم اكن اعرف بعد أن العرائس في كردستان لسن — ولدقة الحديث — خاصة ازواجهن ، بل ايضا خاصية عائلة ازواجهن وعلى نحو خصوصي امهات ازواجهن .

كنت قد قرأت أن أكثر الانماط شيوعاً للزواج في كردستان هو الذي يحدث بين أولاد اخيين ، ما يدعى بزواج الـ " فابرودا " وهذه العادة مناسبة من وجهتي نظر : أنها تحتفظ بالأرض لتبقى ضمن العائلة وتهدف إلى تخفيض مهر العروس الذي يمكن أن يكون مبالغاً باهظاً . تساءلت وأنا أمعن النظر في مريم وخديجة فيما إذا كانت بينهما صلة قرابة قبل زواج خديجة من ابن مريم . لقد بدت من الناحية الجسدية مختلفين تماماً ، وكان من المستحيل بالنسبة لي أن أخلق حكماً عن ماهية شعور أحدهما تجاه الأخرى في هذا الموقف المتمسم بالوسميات البالغة . ولكنني كنت قد أحسست مسبقاً بشباب خديجة المتمثلة بحماسة وحيوية بالمقارنة مع صرامة مريم المسيطرة .

اعتبرت مريم أنه من الأساسيات اخباري أن خديجة ، كنتها وهي ايها ستسعدني في تعلم الكردية ، فقد بدت مريم متحمسة تماماً لعزمي على تعلم لغتها . بينما سألتني النساء الأخريات بشغف عن حياتي الشخصية ، هل أنت متزوجة ؟ ابن هو زوجك ؟ هل لديك أطفال ؟ ولم لا ؟ كانت مريم قد أعدت نفسها مباشرة لمهمة التأكد من أنني عرفت الأسماء الكردية لكل الأشياء الموجودة في الحجرة.

أن مدني عدم براعتي في الكردية بلغ حد سمعي . وقد كانت مريم مهذبة ولبقة جداً معي ، تنتظرنني بصبر حتى أصبح أجوبتي وتكرر الأشياء إذا بدت مرتبكة . ولكنني استغرقت من الوقت دقيقة أو دقيقتين إضافيتين لكي أعالج بسلسلة من التكرار حتى أبسط الجمل . وسيكون متحدثاً نادراً في أي لغة ذلك الذي يستطيع أن يهمد مع هذا طويلاً . فانا نفسي كنت قد أخبرت طلابي في الكلية بأنني لن أبطئ في كلامي اليهم لأن ذلك لن يكون انكليزية حقيقية .

ولكن هو لاء النساء الكرديات - ولا أظن أن أي منهن كانت قد خاضت ليوم واحد تجربة تدريس رسمي في حياتها - كن

صابرات بما فيه الكفاية ليتحدثن لي بكردية دقيقة .

كنت استخدم الرموز اللفظية لأنسخ كل الكلمات التي علمتني اباهـا مريم ، وآلة تسجيلي تقبـع عاطلة عن العمل . ارادت احدى النساء الحاضرات أن تعرف اذا كان بمقدوري فعلا أن انطق الكلمات الكردية تلك بنفس الطريقة التي من المفترض ان تلفظ بها . قرأت عليهن الكلمات التي كنت قد دونتها واحده تلو الاخرى . دمدت النسوة فيما بينهن فغد لاحظن أنني لم أكن استخدم الالف باء الفارسية . كيف كان لللفاظ ان تخرج بهذه الدقة بأحرف أجنبية غربية ؟ لقد كنا قد شاهدنا آلات التسجيل من قبل ، لقد كانت الكتابة كتدوين ورسم للصوت هي التي ادهشتهم . فبقدر ماكن يعرفنه هو أن لغتهن لايمكن أن تكتب . فهي لم تكن تستخدم في المدارس ، ولم يكن ثمة قواميس قياسية للتهجئة . بدأت النساء تدريجيا بتقليل الحديث معي والتحدث مع بعضهن البعض أكثر . كنا قد ارهقنا انفسنا ببذل الجهد للابقاء على التواصل . لم يكن هناك الحاجز اللغوي فقط لنقاومه ، بل ايضا كان الحاجز الثقافي موجودا فحتى هذه اللحظة كان بمقدورنا فقط ان نجلس ونطرح على بعضنا البعض الاسئلة . كان قد هالني ضخامة عددهن لذلك لم أسالهن عن شيء سوى لغتهن . ولكن على الرغم من فتسرات الصمت الذي سأقبله على انه امر سوي عندما نعرف بعضنا على نحو أفضل فقد استمر التواصل . لقد سمح الوقت لهن أن ينظرن الي بانتباه ويبتسمن ولكن خديجة كنة مريم كانت تبتسم لسي ابتسامة عريضة باستمرار تقريبا . تخيلت حماسا مسليا في هاتين العينين الرماديتين المطوقتين بالكحل الاسود ، وتمنيت لو أنني مع خديجة لوحدا ، لم تكن صعبة مثل مريم ، وحنكها لم يكن يبرز الى الامام ولم تكن تلفت النظر ببشرتها المكسوة بالبشرات وأنفها المعقوف . وقد بدت لي أكثر الموجودات ودا وأكثرهن امكانية في الوصول اليها ممن في الحجرة . وبطريقة ما وبدون أن أعرف ، خالطني شعور بالرباط المشترك بيننا . فقد كانت خديجة الهروس الجديدة لا تزال غريبة مثلي في هذه الحجرة .

مضى بنا الوقت والشاي لا يزال يقدم ، ولم تكن لدي أدنى فكرة عن كيفية وقت التدفق الذي كان ينصب في كأسى . أبصرت اشعاعات ضوء الشمس تميل بشدة أكثر فأكثر صوب الحجرة جاعلة نثار الألوان أعمق وأكثر تنوعا عندما بدأت أتأمل الساعة الضخمة التي تعمل بقوة البطاريات وهي تدق على الحائط ، لقد مضت ساعتان فقط منذ وصولي . ولكن التعب قد أنهكني ورأسي يضيغ بمغمفات مختلطة بسبب الكافيين الموجود في الشاي . كيف يمكن لي أن استأذن الرخيل ؟ بدأت أشعر بالقلق حول الكلمات التي سأحتاجها لاخلص نفسي بأدب من هذه الحجرة التي بدأت تعتمس وترتفع حرارتها وتحبس الانفاس أكثر ، وعلى نحو غير بارع اندفعت واقفة بعجلة فسألت مريم متوقفة في منتصف محادثة أخرى كانت قد بدأتها .

— ماذا تفعلين مارغريت خانم ؟

— على أن أذهب الى المنزل الآن .

قلت ذلك بطريقة غير متقنة ، مدركة على نحو متأخر بأنه لن يكون لي ثمة مخرج لبق . ببساطة لم أكن أعرف كيف أجد لي مخرجا . وصاحت بعض النسوة الأخريات :

— ابق ، ابق .

وكررت مريم قائله :

— نعم يجب ان تبقي .

فقلت :

— ولكن علي أن اذهب الى المنزل لاجهز الطعام .

فأجابت مريم :

— تناولني غداك معنا .

— ان زوجي ينتظرني

— اذهبي وأحضري زوجك لتناول الغدا .

هل كن جادات في دعوتهن رجلا ؟ ابين سينتهي تفهيمـه هذه الدعوات ؟ لم تهد الدعوات وكأنها من ضمن نظام الشكليات

ولكن ماذا اعرف من ذلك ؟ وككل مرة أغريت بالقبول . ولكنني كنت قد تعلمت اخيرا واخذت درسا لن اقبل أي دعوة اخرى ثانية أبدا بمعناها الظاهري .

ـ شكرا جزيلا . ولكن علي أن اذهب .

قلت ذلك شاعرة بالابتسامة وقد ارتسمت على وجهي ، عرفت انهن قد قبلن رفاضي ، لان جميع النساء قد نهضن الآن في دمدمة وصخب عظيمين . اجلت بنظري باهتياج شديد في ارجاء الحجرة راغبة في اخذ آلة التسجيل والذهاب بسرعة كي لأيمضين في الوقوف أكثر . ارجعت خديجه جهازي الي قبل ان اصله ومن ثم تبعتنني الى خارج الحجرة . وقبل ان نقدر على النزول عاكذتين معا فوق الدرجات حتى الباب الامامي ، كان علي ان انحني ثانيا عند ربط حذائي الطويل الذي كنت قد تركته فوق الحصير . جميع النساء الموجودات في الحجرة لبشن واقفات يودعنني مرات عديدة قبل ان اعتدل في وقفتي وعند الباب في الطابق السفلي ناولتنني خديجة حقيبتني ومسجلتي وودعنني بأمنيات طيبة .

خرجت الى ظلمة اول الليل الكئيبة . كان الرجال بهذلاتهم الغامقة الرثة يسرعون الى المنزل بعد عودتهم من العمل ، بينهم كانت النساء المحجوبات من النظر بأعطينهن السوداء ينتقلن من دكان غداة صغير الى آخر ، وهن يدسن سلالهن تحت عبائتهن . كانت الالوان الحيوية لفترة بعد الظهيرة قد تلاشت ولكني عندما التفت ورائي ونظرت ، رأيت خديجة بفستانها الاحمر ولغامها البرتقالي تنكس خارج مدخل المنزل مثل جنية وقد انبثق نصفها من المصباح .

اكدت لي مريم ، اجابة على اسئلتي الخرقاء أنها سعيدة لمساعدتي في الكردية . فعرفت انه علي العودة الى منزلها حالا لكي احملها على المشروع في تنفيذ عرضها ولكنني ترددت. كانت هذه هي اتصالاتي بالمجموعة الاولى والحقيقية للنساء الكرديات ، اللواتي

كن يقيم على بعد نصف دزينة من المباني من منزلي ، وقد كن ودودات ومرحبات بي كأى مجموعة من الناس كنت قد القيت بهما ، ومع ذلك فقد كنت أخشاهن . لربما انهن قد ابدین اللباقة فقط . فمن المؤكد أن لديهن اشياء افضل للقيام بها بدلا من الجلوس طوال فترة بعد الظهر يحتسين الشاي ويعلمن الكردية لأجنيبة . لقد كانت الفكرة الاخيرة هي التي اوقفتني واستمرت في توقيفي لأشهر ، الى ان ادركت ماذا تفعل نساء الطبقة العليا الكردية حقيقة في ايامهن ، مع او بدون امرأة غربية تراقبهن .

وبقليل من التشجيع من جيرد ، قررت ان احمل نفسي الى المنزل في شارع بهلوي بعد عدة ايام ، حيث وجدت مريم جالسه مع امرأتين اكبر سنا منها في مهباد . لم تكن الحجرة محتشدة مثلما كانت في يوم الاول ، فبالاضافة الي والى خديجة كانت هناك اربع نساء اخريات . كان لباس النساء المهباديات يختلف عن لباس مضيفاتي . فقد كن يرتدين سترات قصيرة واحزمة عريضة ملتفة عدة مرات حول خصرهن مما تجعل اجسادهن تبدو ممتلئة اكثر مما هي عليه .

بالاضافة الى الاختلافات الواضحة في اللهجة بين الكرمانجية الشمالية والاورانية الجنوبية ، يمكن التمييز بين الاكراد بسهولة في لباسهم وخصوصا النساء . ان التقسيم الشمالي والجنوبي للعادات واللغة الكردية ينقسم في جزئي العراق وايران بينما يتكلم جميع اكراد تركيا ، سوريا ، الاتحاد السوفياتي الكرمانجية . وعلى الرغم من أن القوميين الاكراد يرغبون في قول أن هذه الاختلافات تنافه فقد ابدى العديد من الاكراد الشماليين ملاحظاتهم لشيء بوضوح ، وهي ان لباس النساء الكرديات الشماليات هو اكثر جاذبية لان النساء الكرمانجيات لايفعلن الاحزمة الضخمة حول خصورهن ، وزيهن يعطينهم مظهر ساعة رملية جذاب . ولكن حتى ولو ان الاكراد الشماليين يأتون في المقدمة في اسلوب زيهم ومن الناحية اللغوية فقد لحقهم الضرر في العراق على الاقل ، فعلى الاطفال جميعهم في كردستان العراق ان يتعلموا القراءة بالاورانية على الرغم من

حقيقة انها بالنسبة للبعض مختلفة جدا عن الكردية الشمالية المحكية في المنزل . لقد بذلت جهدا بالغاً لفترة ، لفهم نبرات هؤلاء النساء المهاديات . هذه المرة قامت خديجة الجالسة بجانبني بأشياء أكثر من مجرد الابتسام بصمت . فقد التقطت خصلات من شعري وابتدت اعجابها بها . و ثم امعنت النظر في وجهي واعلنت بصوت عال :

— اليست مارغريت جميلة ؟

كنت صامته ولكن بدا أن خديجة كانت غير منتبهة الى ارتباكي على الاطلاق ، واستمرت — في شروء ذهني — تتلمس شعري وتنظر الي كما لو أنني طفلة . لم تبد مريم والمرأتان المهادياتان متحمسات جدا ، بعد اسراف خديجة في التعبير عن عاطفتها . ولكنهن لم يكن غير ودودات ايضا . ارادت المرأتان المهادياتان مثل كل ضيفات مريم ، ان تعرفنا التفاصيل الاساسية : ماذا كنت افعل هناك ، الى أي درجة احببت ايران وفيما اذا كنت متزوجة أم لا ، وما ان تحول الموضوع عني هذه المرة وكنت قد شربت ثلاث او اربع كؤوس من الشاي ، قررت المغادرة . احثتني مريم على البقاء ولكن ليس بالاصرار الذي عهدته في المرة الاولى . مضيت بعيدا متسائلة من حقيقة شعورها تجاه زيارتي غير المتوقعة . تركت اسبوما أو أكثر يمضي قبل أن اذهب الى منزل مريم للمرة الثالثة . رحبت بي خديجة كثة مريم في عصر اليوم الذي عدت فيه اخيرا الى المنزل الواقع في شارع بهلوي . تمنيت أن تكون خديجة لوحدها لنقضي فترة العصر في الحديث لوحدها لدى وصولي الى مدخل حجرة جلوس النساء في الطابق الثاني . فقد كانت الحجرة محتشدة بالضيفات . ترددت في الدخول ولكن خديجة كانت وراعي تدفعني برفق لداخل الحجرة . وعندما انحنيت بحركة غير رشيفة لأفك رباط حذائي الطويل ، نهضن جميعهن هذا امرأة ذات مكان خشبي كان الى جانبها .

— " تسه خير هاتي يسه " قدومك سعيد ،

رحبت بي جميعهن في انسجام فاسرمت في الجلوس في المكان الذي

اشرن اليه ليجلسن هن أيضا . كانت جارتى هي المرأة المقعدة .
كنا انا وهي الوحيدتين المزودنتين بالبطانيات والوسائد ،
والاخرىات جميعهن كن يجلسن على البساط المجرد من أي اثاث .

عرفتني مريم الى كل امرأة باسمها ، وحاولت ان تذكرهن
من لباسهن وملامحهن ولكن كان من الصعب التركيز على أي شيء وأنا
اعرف بأن جميعهن كن يحدثن ويتهامن مع بعضهن البعض بأحاديث
عني . قُدم لنا الشاي ، وبعد ان سألت الاسئلة المألوفة عما اذا
كنت قد احببت ايران ام لا ، وهل لدي زوج واطفال ام لا . عادت
المحادثة الى مجراها الطبيعي . كان العديد من النساء حاضرات بحيث
لم يكن باستطاعتهن الجلوس بصمت بينما تلقي احداهن علي الاسئلة .

بينما كنت احتسي الشاي بصمت محاولة ان التلظت كلمة
من هنا وهناك دخلت الى الحجرة امرأة نحيفة ذات بشرة شاحبة
جدا وشعر اسود .

- مارغريت هذه زينب . لقد عادت لتوها من طهران
بعد ان عالجت اسنانها .

ابتسمت لي المرأة ، فلمحت لمعان الذهب في فمها . وحالما
بدأت مريم بالحديث مع امرأة اخرى التفت الى جارتى وسألتها :

- من هي زينب ؟ هل هي اخت مريم ؟

فنظرت الي المرأة ذات العكان الخشبي غير مستوعبة ومن ثم بسدت
بالضحك وقالت :

- انها زوجة الحاج .

فرمت لدى ملاحظتي ان ضحك المرأة المقعدة كان قد ركز انتباه
جميع الضيفات على محادثتي . فكررت باندھاش :

- الحاج ؟

الحاج هو اللقب الذي يطلق على الرجال الذين أدوا فريضة

الحج . " رحلة الحج الى مكة " . صاحبت امرأة جالسة في نهاية
الحجرة :

— حاج اسماعيل طبعاً .

كانت النساء جميعاً يراقبنني في هذه اللحظة . كن قد عرفن ان هنالك
غريبة في وسطهن ولكنهن ماكن يعرفن كم كنت جاهلة . سألتني
احداهن :

— الا تعرفين من هي زينب ومريم وسوس ؟

هزرت رأسي منفية ذلك . وقالت اخرى :

— انهن ضرائر " هشي " .

لاحظت أن النساء الثلاث المسميات كن صامتات وقد تركن الإخريات
يوضحن . كتبت كلمة " هشي " في دفتر ملاحظاتي ورفعــــــــــــــــت
رأسي . قالت احداهن :

— جميعهن متزوجات من الحاج .

فضحكت النساء باضطراب هذه المرة كما لو أنه لم يكن من الصواب
تماماً التحدث من الحاج . سألت زينب :

— الا يتخذ الرجال في امريكا اكثر من زوجة ؟

فأجبتها :

— هناك قانون يمنعهم من ذلك .

وشرعن في الحديث معاً مرة أخرى . وسمعت المرأة المعقدة ثقــــــــــــــــول
لجارتها :

— لقد اخبرتك أن امريكا مكان جيد .

كنت لا ازال افكر بما اخبرتني به . من كان الحساج
اسماعيل؟ كنت قد لمحت اليوم مجموعة من الرجال يمرون بجانب
الباب ولكنهم بدوا مابرين وكأنهم ليسوا مقيمين هنا .

اعتقدت اني عدت الى كوني غير منظورة ، ولكن احداهن

بدأت بالتحدث معي وقالت :

- مارغريت هل صحيح انك تريدان تعلم لغتنا ؟

اجبتها :

- نعم .

وعلمت احداهن :

- لقد زارت عائشة انكلترا .

سألته بلهفه :

- هل تتحدثين الانكليزية ؟

فأجابت :

- لبس تماما ولكني اريد تعلمها وسأعلمك الكردية .

تعالى الى منزلي اي يوم .

- شكرا .

اجبت بذلك متسائلة فيما اذا كانت تعني ماتقوله فهي

لم تعطني عنوانها . بدأت بالنظر الى عائشة بتفحص اكثر عندما شرعت بالحديث مع امرأة اخرى . كان فستانها الاخضر الفاتح ذو القماش الشفاف المزين بخيوط فضية وخاتمها الزمردى واقراطها الذهبية الفخمة المتدللية ، كلها كانت رائعة . لم تبد الالوان المبهرجة والنظارات الملونة الموطرة بالذهب الحقيقي زبيها المعتاد . سألتني المرأة المعقدة :

- هل ستذهبن الى منزل عائشة ؟

لم أكن أعرف أن هذه أم عائشة .

- لا أعرف .

قلت ذلك على نحو غير بارع . فأكدت لي عائشة :

- تعالى رجاء فاننا لست مشغولة جدا . انا مثلك

لبس لدي اطفال .

فسألته وقد تملكنتني فكرة اني لا استطيع ان اطلب منها ببساطة ان تتحدث معي الكردية ولا اعطيها شيئا بالمقابل :

– هل بإمكانني ان اعلمك الانكليزية ؟

– حسنا .

قالت عائشة ذلك ، فقهقهت النساء المحيطات بها ، وقالت احداهن بصوت ساخر :

– لايمكن ابدا ان اتعلم الانكليزية . ولكن طبعاً زوج

عائشة رجل متعلم جداً . انه دكتور .

فسألت المرأة :

– ماهي اللغات التي تتكلمينها .

فأجابت :

– الكردية ، طبعاً والتركية والفارسية .

فقلت مبدية اعجابي :

– انت تتكلمين ثلاث لغات . بالتأكيد تستطيعين تعلم

الانكليزية .

فاعترفت المرأة وهي مرتبكة :

– لا ، لا اعرف الكتابة .

بدا هذا التجمع ضخماً على نحو غير مألوف وقد بدأت مريم غريبة في سترة مراء قديمة فوق لباسها الكردي ، وعندما خطر ببالي ان أسال عن المناسبة اكتشفت ان مريم كانت تستعد لمغادرة المدينة لتقضي الشتاء في قريتها . شعرت بالخيبة على نحو فظيع فمريم ستمضي الى قرية ما ، ولن اقدر على رؤيتها ثانية ، وكل ذلك لا يحصل الا عندما بدأت اعرفها . راقبت المرأة التي زودتني بهذه المعلومات ردة فعلي بانتباه فسألتني :

– تظنين انه على مريم الاتذهب الى القرية ، اليس كذلك .

نظرت اليها مجفلة ، كيف كان لها ان تعرف مايدور بخلدي ؟

بعدئذ ابدت المرأة اقتراحاً :

– اذا ذهبت مريم الى القرية فان زوجها سيبدأ بالبحث

عن زوجة اخرى .

عندئذ غمر الضحك معظم الموجودات في الحجرة ، ولكنني كنت قد اضطربت ، ماذا كانت النكتة ؟ من هو زوج مريم ، وهل صحيح انها ستغامر بفقدانسه بذهابها الى القرية ؟ اين سسكن ؟ قالت لي مريم عند نهاية فترة الظهيرة تقريبا :

- اود أن تعلمي ابني الانكليزية هذا الشتاء .

أومأت برأسي متحمسة . فالآن ستتوفر لدي حجة جيدة للعودة ، لأن ابن مريم كان طالبا في الثانوية وسقضي الشتاء في المدينة . وفضلت فكرة مفايضة الانكليزية بالكردية معه ومع عائشة على غموض الزيارة من أجل الشاي . وعندما علمت ان رحما ، الابن سيكون في المنزل خلال ساعة انتظرت واحتسيت ثلاث كؤوس من الشاي وبعد الكأس الثالثة وضعت كأسي على جنبها ، فعلت ذلك ، كما فعلت النساء الاخريات تماما . وعندما قامت زينب لتملأ كأسي شائبة ضحكت ، فلفتت انتباه صاحباتها لكأسي المقلوبة وبعد ذلك ولتقدير مزاحي سوت الكأس وصبت لي المزيد من الشاي . تركته هذه المرة ببساطة وبعد مضي فترة على صحبتي مع الاكراد عولمت كأس المفلوبيشة كالبقية تماما .

عندما غادرثنا بقبة الضيفات ، قادتني مريم الى حجرة النوم التي كنا قد جلسنا فيها خلال زيارتي السابقة للمنزلها . نهض صبيان وسيمان بعيون زرقاء وحنكين بشبهان حنك امهما اثناء دخولي. صافحني طه ، الولد الاكبر ونظر في عيني تماما عندما تعرفنا على بعضنا ، ولكن رحيم اهدق في الارض رافضا أن يسلم بوجودي . وبما ان رحيم لن يكلمني فلم تكن هناك وسيلة حتى لتحديد موعد لأخذ الدرس . بعدئذ التفت الى طه سائلة اياه فيما اذا كان يرغب في مبادلة الدروس الانكليزية بدروس في الكردية ، ولكنه ضحك وكما لو اني قلت سكتة .

بعد ذلك تكلمت مريم مع رحيم بسرعة وقد استمر بتجنب نظراتي . في وسط ارتباكنا المتبادل سمعت صوت جلسة في خارج الحجرة .

فقد كان جرس الباب قد رن في الطابق السفلي ويعد ذلك بدقيقة رأيت جيرد يدخل الى الغرفة . وفجأة اندفعت كل النساء اللواتي كن قد بقين واقفات الى غرفة اخرى ، وهن يقهقهن وقد رفعن لفاحاتهن فوق افواههن . ولكن مريم بقيت مسمرة في مكانها ولم تبرحه ، عرفت جيرد عليها ، وبعد ذلك حان وقت الرحيل . تمنيت لمريم قضاء شتاء طيب ، واجابتنني هي بدعوتي لزيارة قريتها ، ولكن لم يكن لدي اي فكرة عن موقع تلك القرية ولم يكن هنالك متسع من الوقت لأسألها عن ذلك .

مع رحيل مريم شككت في الترحيب بي اكثر من أي وقت مضى ، وقد فكرت في نفسي مليا وناقشت مع جيرد امر المصواب العسودة في هذا اليوم او ذاك . وكالعادة نجحت في ايجاد عمل اشغل نفسي به . واخيرا وبعد أن تخلصت من كل الاعذار بطردها ، وجدت نفسي في مواجهة الباب المعدني الازرق .

هذه المرة ، لم تكن مريم وحدها هي التي ذهبت بل خديجة ايضا كانت قد اختفت ، والمرأتان اللتان وجدتهما - زينب ، فسرة مريم ، وناديا كنة مريم الثانية - كانتا تضحكان ضحكا نصف مكتوم عندما اخبرتاني ان مريم قد اخذت خديجة على مضض الى القريسة ، لتقوم بعمل ما ، كما قالتا . لم استطع التخلص من الانطباع الذي حدث لدي انهما كانتا تهزآن مني ومن خديجة أيضا . وعندما جلست معهما ، ادارت زينب عجلة آلة الخياطة اليدوية بينما ارفعت ناديا ولدها ذا السنة الواحدة ، القبيح الى حد لفت للنظر ، حيث كان ذا رأس ضخم حليق . كانتا تتحدثان الى بعضهما بسرعة وكان من الصعب علي ان التقط أي شيء مما كانتا تقولانه ونادرا ما تنتظران الي . وبين حين وآخر كنت ابذل جهدي لكي انضم الي محادثتهما ، فكانتا تنظران الي وكما لو انهما تحاولان كسح ضحكة . اردادت شكوكي المضطربة وتنامت الى حد لم اعد استطيع معه ايقافها اكثر ، فمضيت الى المنزل ببطء ، وكنت اقفل لأنظروا في نوافذ الدكاكين دون أن ارى حقيقة أي من البشائع المعروضة محاولة ان اجد معنى لهذا اللقاء الاخير المحير .

كنت قد احسست بالانقسامات والولاءات في عائلة مريــــــــم
قبل ان اعرف عنها أي شيء بوقت طويل . فكنتا مريم ، كلستاهمـــــــــا
كانتا دخيلتين . فهما لم تكونا من نفس العائلة كمريم وزوجها فقط ،
بل أيضا لم نكون من نفس القبيلة . لقد كان اختيار خديجة مستحسنا
فقد كانت هنالك مصاهرة مسبقة بين عمها وابنة زوج مريم ، قد
مهدت الطريق للدخول في مفاوضات الزواج بين عائلتها وعائلة طه ؛
اما زواج ناديا فكانت له قصة مغايرة تماما .

بالرغم من أن الخطيفة هي اسلوب مقبول للزواج في كردستان
فان ذلك لم يسعد مريم عندما هربت ناديا مع ولدها الثاني الاكبر
مسعود . لم تكن هنالك مفاوضات ولا احتفالات ولا موافقة الوالدين
المسبقة . لقد كان ذلك من خيار العروسين نفسيهما ولكن كان على
ناديا اكثر من مسعود أن تتعايش مع هذا الخبر . وقد سمعت مريم
تعلق مرة وبعدم رضى بأن مسعود لم يبنه دراسة الثانوية ابدا بسبب
هذا الزواج المبكر ، فقد كان لايزال في السن السادسة عشر بعد
وبما انه ترك المدرسة فقد اضطر للعيش على نحو دائم في القرية
مع زوجته الجديدة . هذا يعني ان ناديا كانت خادمة مريم على نحو
رئيسي ، بشكل مغاير عن خديجة حين التقيتها . كانت تقوم باعداد
كل الوجبات ، تجثم لساعات بالقرب من مراجل معدنية ضخمة موضوعة
على نار حامية . تكس اوراق العنب بين الملح لحفظها في قدور ضخمة ،
وتخلل تشكيلة من الخضار للشتاء . وبالإضافة الى كل اعمالها
الروتينية التي كانت تقوم بها لحمايتها فقد انجبت أربعة صبيان على
نحو متتال وسريع . لقد كانت ناديا معروفة بلسانها السليــــــــط
وذكائها الحاد بالإضافة الى جمالها . كانت تشير اعصابي عندما
لم آكن اتحدث الكردية جيدا لأجوبتها السريعة والبارعة وضحكها
الساخر . ولكنني موءخرا تمنيت لو انه كان بمقدوري ان اعرفها
اكثر .

على الرغم من اني كنت اشعر انه لا اصدقاء لي ، فقد كان

بعض افراد عائلة مريم يوجهون لي الدعوات للقيام بزيارتهم فسي ذلك الحين . لقد كانت خديجة الكنة المختارة ، زوجة الاخ الاكبر ، وناديا كانت الهاربة . كانت مريم الزوجة الثانية للحاج ، وزينب كانت الثالثة . هؤلاء النسوة كن يقضين الالبام والاسباع وحتى الشهور معا في نفس المنزل في المدينة . اما في القرية - وكما علمت فقد كانت كل واحدة منهن الشريكة الرئيسية للآخرى . ومع ذلك فقد كن دائما بتنافسن ، ويحاولن ان يحصلن على النصب الاكبر لأنفسهن ولأولادهن . وكن يحرمن بشدة على ممتلكاتهن وصدقاتهن ، وحتى المعارف الامريكان الغرباء . وبالنتيجة لم يعد لدي صديقات مع رحيل مريم وخديجة . كانت هنالك مشكلة الحضور الدائم للمجموعة مثلما كان الحال في محطة الاذاعة . فقد بدأ أن أي واحدة لاتفعل شيئا بمفردها ولكن كيف يمكن لأحد ان يتعلم الكلام في ميدان كهذا سوى طفل صغير ؟ لقد ترسخت لدي قناعة بأنني محتاجة لأن اجد شخصا واحدا كمدرس ، لأجلس معه كل يوم وادرس معه الكلمات والقواعد الكردية على نحو ابدل فيه كل جهدي .

كان علي أن ادرك الدور الذي لعبته ثقافتي الخاصة في هذا القرار . فقد كنت محتاجة الى بنية معينة . احتجت لأن اعرف وفق أي نظام كان يعمل الآخرون ، ببساطة لم اقدر أن افهم ماذا كانت تفعل النساء الكرديات في حياتهن ، ومتى كانت ساعات الفراغ وساعات العمل لديهن ، متى كن مستعدات لاستقبال الضيفات باهتمام ومتى كن يرغبن في المكوث لوحدهن . ولشعوري بالتطفل عليهن بطريقة ما ، وبوقف سير حياتهن الطبيعية فقد كانت تنتابني نوبات انزعاج لدى وجودي معهن . اتمنى لو أن لي عرابة كردية . جنية لتأتي وتخبرني ان معظم العالم لايعيش وفق برنامج ثابت . ولكن حتى في القصة الكردية المتكافئة مع " سندريلا " ليس هناك عرابة جنية بل مجرد بقرة حمراء . ولم تكن لدي بقرة حمراء بل فقط مفاهيمي الخاصة المسبقة ، لذلك واكبت بحثي " وفي النهاية نجحت في ايجاد كردي يعمل وفق برنامج محدد ، وقد شغل مكانا مناسباً في جنب من جنبات هذا العالم ، مثلما كان الامر معي تماما .

الفصل الثامن

كنت قد اندفعت عبر بوابة الساحة الواقعة امام الكلية ، وكانت هذه هي المرة الثانية التي أصل فيها متأخرة ، فقد كان مدرسي المتوقع دارا احمدي قد حضر ليبري العميد هذه المرة شخصيا ولكنه كان قد ابعد .

علق الحارس وهو ينظر الي غير مصدق :

— قال ذلك الصبي انه قد جاء ليعلمك الكردية .

ظهر دارا ثانية بعد برهة قصيرة عند البوابة وقد ادخله الحارس على مضض الى حرم الكلية ، "فقط هذه المرة " . كان العميد قد اوضح تماما انه لا يريد ان يرى دارا هنا ، ولم يكن يُسمح لاحد منهما ان يهتما ان يتجاوز البوليس عند البوابة بالدخول دون ان العميد .

هل كان لزاما على دارا ان يخبر الحارس انه قد اتى ليعلمني الكردية ؟ ماكنت سأفكر مرتين بتصريح كهذا في امريكا ، ولكن في امريكا لم يكن لديهم بوليس مسلح لصد الجواسيس والمشكوك في كونهم شوارا عند بوابة كل كلية وجامعة .

لم يظهر معلمي اي انطباعات سيئة عن زيارته القصيرة للعميد . لقد مشى بمرح يدل على التصميم وقد بدا اكثر حزما بهنطاله ذي النقوش المربعة والمكوي بشكل جيد ، وسترته القطنية الزرقاء الاليفة وقد ارتداها فوق كنزة جيسيه صفراء ذات ياقة ضيقة . لم أكن اتوقع ان تكون له مثل هذه الخدود القرمزية او مثل هاتين العينين

البنيتين الهادشتين . لم يكن يشبه ابن اخته على الاطلاق ، السيد حق زاده الجدير بالاعتماد عليه بابتسامته العريضة بافراط والتسي تكشف عن اسنان بارزة وعينين ضيقتين متحركتين باستمرار في جميع الاتجاهات . اما عينا دارا فقد كانتا واسعتين ، وكانت تعابير وجهه يقطعة وهادئة . وطبعاً فكرت في نفسي انه لا يمكن لنظراته ان تكون مخادعة مثل نظرات ابن اخته . فالسيد حقق زادة ، لم يكن مخادعاً البتة . كان ابن اخت دارا اكبر من خالسه بخمس سنوات وكان واحداً من تلاميذنا القلائل المهتمين فعلياً بتعلم الانكليزية . كان السيد حق زاده قد ألزم نفسه طوعاً وبالحث لي عن متحدث باللهجة الكردية الشمالية . فمن بين جميع الناس الذين سألتهم كان هو وحده قد اثبت نجاحه في ايجاد شخص . وقد اشار ذلك دهشتي لانه كان تركياً وليس كردياً . في عزلة في مكتبي عرفت نفسي بكتابة اسمي فوق اللوح الاسود . وقدم دارا نفسه بدوره على انه السيد احمدي بأن كتب اسمه الاخير فقط على اللوح بجانب اسمي الكامل . لا يقدم الناس في ابـرر انفسهم باللقاب ، فاضافة اللقب الى الاسم الاخير يقع على عاتق الشخص الآخر . كنت مسبقاً قد ناديت معلمي بدارا واشرت الى نفسي بمارغريت ولأنني قد اعتزمت الا بوجه الي اتهام بأنني اتصرف بلطف ولكن بطريقة اظهر فيها شعوري بالتفوق تجاه الشباب الاكراد بعدد حد طابع واتجاه دروسنا - لقد كان ذلك السيد احمدي . وعندما اثرت مسألة النقود ، فقط لاحظت مسحة ضئيلة من الارتباك على وجه دارا ولاشيء من ذلك المشهد الذي كابدناه لدى تسوية مسألة راتب طباخنا عزيز ، فقد تبادلنا آنذاك الآراء وناقشناها - وعزيز يصبر خجلاً انه لا يستطيع مناقشة المسألة معنا . فاعطاه جيرد النقود ، لكن عزيز حاول ان يرجعها لنا بالحاح شديد . وكان ذلك يشير فقط الى العادات الشكلية السائدة على نحو حاسم . أما مع دارا فقد سويت مسألة النقود ببساطة اكثر ، فهو لم يناقش السعر الذي حددته وهو دولار ونصف الدولار عن كل ساعة ، ويقدر ذلك

بحوالي نصف ما يتقاضاه عامل بناء في ريزاي لمدة عشر ساعات من العمل في اليوم . اوما برأسه موافقا ببساطة وابتسم ابتسامة خفيفة وبعد ذلك بوقت طويل ابلغني عن مدى اهمية تلك النقود له ولألمه الارملة ، التي تقيم في قرية يتعذر بلوغها ، بعيدة عن أي فرصة لكسب ايراد نقدي .

قضيت ساعتني الاولى مع السيد احمدي في مكتبي ونحن نسجل حكاية خرافية ذات مغزى عن شيخ كان يعد صيمايه قبل ان تفقس او على نحو ادق كان يحسب مقدار سمته قبل أن تمخض . وفي كل يوم ولاسابيع متتالية كان على دارا ان يحكي لي قصة جديدة لأعمل فيها او اترجمها . وعندما شعر بخطر نفاذ القصص عاد الى قريته وحمل على المزيد منها من والدته . وقد ادركت مباشرة كم كانت القيمة التي ادفعها رخيصة - ليس فقط لمعلم دقيق ومنتظم يجلس بأناة ويجيب على كل اسفلاتي عن طريقة استعمال الالفاظ الكردية ولكن ايضا للحكايات الشعبية الكردية وحكايات الجان جميعها التي لا تقدر بثمن .

انتهيت مع دارا في ذلك اليوم ، وانا اشعر بابتهاج غامر ولكن ساورني شعور بالخشية من تلاشي هذا بطريقة ما . حددنا موعدا للقاء المقبل . ومشى دارا بخطى واسعة نحو البوابة وممر بالحارس الذي كان يحدد فينا بينما كنت واقفة خارج مبنى حجرة الدراسة والآن حان الوقت لمواجهة العميد بسلوكه المستبد . وبعد المكوث لفترة كافية لاشارة الاعصاب . في حجرة الانتظار ، ادخلت الى مكتبه . نظر الي العميد من خلف واجهة مقعد ذي جلد اسود اصطناعي مزغب وقد التوت ملامحه المنغولية البارزة باتجاه الاعلى بقدر ماتستطيع لتبدو ودبة . من الواضح أنه لم تكن لديه فكرة عن سبب مجيئي ، وعندما اخبرته ، عقد حاجبيه وقال بحذر وحرص :

- لانستطيع السماح للمدرسين في هذه الكلية ان يستغلوا

اوقاتهم بتعلم لغات مثل " البركية " .

فصححت له :

ـ الكردية .

سدا العميد وكان صبره قد نفذ . لقد جاء من الجزء الشمالي الشرقي من ايران قرب مشهد . البعيدة عن ريسان واختلافاتها العرقية الخاصة . ولكونه منحدثا بارعا بالفارسية ومتوسط الجودة بالانكليزية فلم يكن بسنح له وقته لادراك الفرق بين لغة غير مميزة وواضحة واخرى . وكما هو واضح تماما لبس لديه الوقت ليبالى باهتمامى بها . مضيفا في الحديث ومقلا احيانا ، واخبرته بأنني لغوية ولذلك فان اللغات الاجنبية بالنسبة لي هي كالمواد الكيميائية والمخير بالنسبة للكيميائي ، ولكنه لم يفتتنع بشيء من هذا كله . فالدور الذي يتعلق به هو ان اقتصر على تدريس الانكليزية فقط . على الرغم من اني ادركت اني قد غلبت ، فقد اجبرته على اعادة تأدية رقصة الشكليات العشوائية المتسمة بالاعادة من جديد وذلك بأن يعطي الاسبقبة لشيء ثانوي بينما يبقى العنوان ببدا المرء دائما .

واخيرا وبعد أن تعب من تأكيداتى وحججى الدفاعية المصرة قال على نحو خال من المنطق وبشكل مدهش :

ـ اذا سمحنا لك بتعلم الكردية وقت الدوام في الكلية ، اذا فعلينا ان نسمح للجميع بتعلم هذه اللغة ، وبذلك سنخلق لنا مشكلة .

فتحت فمي مندهشة واغلقته محاولا ان اتخيل كسل الفرس والأتراك يركضون الى مكتب العميد ، وهم يطالبون بصرف وحلقات دراسية كردية . واضاف العميد موضحا :

ـ أنا لأسالك عما تفعلينه بعيدا عن الكلية .

عرفت انه كان يشير بحذق الى العبارة الواردة في عقدي،
والتي تقول محددة انه يمكن أن افعل من الطبيعة فوراً في حال
تعاطي نشاطات مهنية تفتفي شغافة بالاضافة الى تعليم الانكليزية
خلال فترة اقامتي في ايران .

نهضت ونهض العميد أيضا خلف مقدمة مقعده ذي الجلسد
المزغب بازراره اللدائنية الخشنة . انتهت المقابلة ولطف ملامحه
ذات المطهر الجنكيزخاني وحوّلها الى شيء كان من المعترض ان يكون
مسراً تماما . ابتسمت انا ايضا الى أن غادرت مكتبه ، واذ ذاك
توقفت عن الابتسام .

واخيرا عندما رأيت السيد حق زاده اعتذرت بسبب المشكلة
التي تجشم عاءها خاله ، لدى استدعائه الى مكتب العميد . أجاب
السيد حق زاده على اعتذارى بعجلة وانصرف . كيف يمكن لوقت صبي
بعمر حق زاده ان يكون اكثر اهمية من وقتي ووقت العميد ؟

وددت لو اواظب على دروسي الكردية مع السيد احمدي في
الكلية لأنها المكان الانسب لكلينا ، لأنها موقع اكثر رسمية ، ومناسب
لدراسة جدية . ولكن الاهم من ذلك كله انها لائقة و مناسبة
اجتماعيا . عندما التفتيت به عند البوابة وقلت له اننا سندهب
الى منزلي من الآن فصاعدا ، تقبل السيد دي الاخبار بدون تعليق .
لسوء الحظ ، لم يتقبل احد غيره الموقف ، ان ببدي تعليقا ما .

في كل يوم عدا يوم الجمعة يظهر السيد احمدي عند فناء
منزلنا . فيتوقف عمل البنائين العاملين في المسكن الجديد فـي
الجانب الآخر من الطريق فجأة ، فيلتفت كل واحد منهم ليحـدق
في المرأة الاجنبية وهي ترافق شابا الى شقتها دون حضور زوجها .
وفي النهاية كنت اسوّغ كل الاشاعات التي كانت تحوم - وبدون شك -
منذ ان اكتشف الحي ان امرأة اجنبية تقيم في الزقاق . ان افكار

الرجال عن المرأة في هذا القسم من العالم هي علي وجه الحصر جنسية بحتة ، لدرجة أن جيرد نفسه بدأ يقلق من وجود السيد احمدي في المنزل وحده معي . ولم اسمع ابدا رأي الجعفرين بزاعري الذي يزورني على نحو منتظم ولكنني متأكدة انهم قد انتبهوا الى ذلك.

بدأ جيرد بالمجيء الى المنزل خلال فترة الدروس ، كان يندفع بالدخول عبر بوابة غرفة الجلوس فيجدنا جالسين بلباقسة واحتشام حول طاولة حجرة الطعام عند الابواب الفرنسية تماما باتجاه الشرفة المكشوفة كليا امام الحي بأحجمه . بعدئذ ينظر حوله كما لو انه غير قادر على تصديق اننا كنا جالسين بكامل لباسنا وندرس الكردية .

وعندما اعترف لي جيرد اخيرا بأنه كانت تشكل لديه ضروب من التصورات حول ما كنا انا والسيد احمدي منهمكين فيه لوحدهما في المنزل ، شعرت لذلك بالاشمئزاز ، فوجودك لوحدهم مع رجل في ايران لهو دليل على نحو تقليدي على انكما قد مارستما الجنس و احتمالية التحفظ او اللامبالاة او الظروف المخففة لذلك بعيدة تماما . ودون أن اشعر بأي تعاطف مع جيرد فقد تركتله يخلق مخاوعة على هواه بينما مضيت انا لرواية السيد احمدي في المنزل . وبفضل جهود العميد لم يكن لدينا مكان آخر لنذهب اليه . بدأت اتساءل كثيرا من أين جاء السيد احمدي ، وفي كل مرة يظهر فيها كانت تبدو على سرواله ذي النقوش المربعة جودة حديثة كما لو أنه كان قد خرج لتوه من محل لتنظيف الملابس . وعندما كان الجو يتغير ويصبح باردا ومائلا كان مع ذلك يخضر دوما في موعده وبنفس البذلة ، بينما بدأت انا بارتداء معطف من جلد الخروف لأحتفظ بالدفء ، بقي السيد احمدي ملازما لسترتة القطنية الفضفاضة . وقد موجئت به عدة مرات بتمشي في الزقاق عندما كنت اندفع مسرعة للعودة من الكلية في سبارة اجرة لكي ادرك الموعد

المحدد لدروسنا . سألته فيما اذا كان يمشي دائما ام انه كان يأخذ سيارة اجرة احيانا فأجاب انه قد يأتي مشيا اذا كان لديه الوقت . قدرت ان المسافة لابد انها تقارب ميلين من قرب البازار حيث يقيم . ولكن الخمسين سنتا وهي اجرة السيارة كانت تعني له الشيء الكثير اكثر مما تعنيه لي .

لقد كانت ريزاي هي مدينة السيد احمدي على الرغم من انه قد ولد في القرية . كان يعرف اين والى أي مدى يتمشى . كان يتحدث اللغة المشتركة والتركية بطلاقة . كان من المفروض أن تكون ريزاي مدينة شهرزاد ولكنني اشك فيما اذا كانت تسلم بها وتعتبرها حتمية كما كانت بالنسبة للسيد احمدي ، فهو كرجل لم يكن يحتاج الى غطاء او الى ملابس اخرى للنستر . وبسبب لعننه التركية المميزة لم يكن يُفَيز على انه كردي ان لم يكن يرغب في أن يكون كذلك . كان السيد احمدي في طريقه للارتقاء في هذا العالم .

من المحتمل انه الشاب الوحيد في قريته ، الذي يتابع دراسته الثانوية في الوقت الحاضر ، ومع ذلك فانكار السيد احمدي للمبادئ السلوكية الصارمة التي نشأ عليها او التخلي عنها ، احتمال بعيد جدا . لقد كان مساعدا في القواعد التركية ولكنني حاولت أن اتحدث معه عن اشياء اخرى اذ كنت احيانا اجد نفسي في محادثات سخيفة لاتفيد في شيء سوى انها تشعرني بالغباء . فقد ابدت شكواي في احدى المرات للمعلمي عن احدى النساء المغطيات في البنك ، حيث كانت قد اقتربت مني وحدقت في على بعد ستة انشات من انفي ، وقلت :

- لابد ان النساء المحجبات يظنن انفسهن غير مرئيات .
- لا أعرف .

اجاب السيد احمدي على نحو ملتبس بحيث لم يدل جوابه على موقفه وشعوره . فسألته :

— هل تظن أن فكرة الحجاب جيدة ؟

فقال :

— لأعرف . ربما لا .

فقلت ملحّة :

— هل تظن أنك عندما تتزوج ستضع زوجتك الغطاء ؟

— محتمل .

شدت على اسناني حتى صرّت وعدت الى القواعد . كانت مثل هذه الاوضاع تجعلني مدركة اكثر من أي وقت مضى ما فعله امير في تلك الايام التي لم نكن نعرف ما يفكر فيها ، فقد كان قد تركنا ننفس عن مشاعرنا ، ننتقد ، نشكو ، نصاب بالخيبة والاحباط والاهم من ذلك كله ان نعيد النظر في امور كثيرة .

بدأت انتزع بصعوبة من السيد احمدي ، بعض التفاصيل عن حياته الشخصية ، والشيء المهم الذي عرفته عنه في مطلع عملنا معا هو أنه كان لديه اخت تبلغ من العمر خمسين سنة . اشار ذلك اهتمامي ، على الرغم من اني واصلت التفكير في انني بطريفة ما قد اسأت الفهم . وكان السيد حق زاده اصلاً قد فكر أنني سأرحب بالعمل مع هذه الاخت المتزوجة من جد حق زاده . كنت قد دهشت كثيراً لدى ذكر ذلك — ان هذا الجد قد تزوج من كردية — لأن حق زاده لم يكن كردياً بل تركياً . فهو لم يحضر مع طلابي الآخرين في مهاباد والنهاية الجنوبية من البحيرة ، ليخبرني انه بتكلم الكردية . ومع ذلك فقد ابدى اهتماماً منذ المرة الاولى التي سمع فيها انني ادرس الكردية . لقد بدت رغبته في المساعده غريبة بالنسبة لتركي . ما القاسم المشترك بين حق زاده والاكراد؟ فجد حق زاده نفسه كان تركياً ، اذا لماذا اتخذ جده التركي امرأة كردية زوجة شالته له ؟

اكتشفت أن السيد حق زاده كان ينتمي الى مجموعة من
 السنيين الاتراك القاطنين في اذربيجان . بينما الغالبية العظمى
 من الاتراك الآزريين هم من المسلمين الشيعة مثل غالبية السكان
 في ايران ، بالإضافة الى مجموعة صغيرة من الاتراك السنيين . أن
 الاختلاف بين السنية والشيعة ليس دينيا بقدر ما هو عاطفي وتاريخي .
 ان جميع الحكومات في العالم الاسلامي عدا - ايران - في الوقت
 الراهن ، تنضوي تحت لواء السنية وتقبل نظام الخلافة الاسلامية ،
 وتتبع قوانين واركاز وسنن الاسلام بدون ان تشغل نفسها على نحو
 غير مناسب بتاريخه المبكر القاسي . ولكن في جميع هذه البلاد
 وطوال نمو وانتشار الاسلام وُجد خارجون على هذا الدين وانفصلت
 طوائف عن جسد معتنقيه الاساسي . وفي ايران فقط كان هؤلاء الخارجون
 كثيرين ومنظمين الى حد مكنهم من تأسيس سلالة حاكمة وبالنتيجة
 اصبح التيار الاساسي في ايران شيعيا بينما بقي الاكراد المعزولون
 والمحميون بجبالهم سنيون مثلما بقي العرب . وعلى نحو مشوش
 تماما ، ومغاير لاتراك ايران بقي غالبية الاتراك في تركيا
 سنيين . وقد قدر للاكراد أن يبقوا منفصلين عن جميع الشعوب
 المحيطة بهم . منفصلين من ناحية اللغة والثقافة عن الاتراك
 والعرب ومن ناحية الدين مغايرين لليرانيين . والاكراد دائما
 تقريبا يدعون الاتراك بـ ' العجم ' كنعته مهين وهي كلمة
 مقتبسة من العربية ، حيث تعني " بربري " أو غير عربي " . أما
 الاتراك السنيون فهم ليسوا بعجم بالنسبة للاكراد . لم استطع
 ان احول دون التساؤل عما اذا كان هؤلاء الاتراك السنيون اكرادا
 من قبل وانهم اتخذوا اللغة التركية يوما لغة لهم ولكنهم احتفظوا
 بعقيدتهم السنية .

كان شارع السيد احمدي يدعى بشارع السنيين على نحو
 متوافق مع الموجودين فيه تماما، والبيت الذي يسكن فيه يخص زوج
 اخته ، جد السيد حق زاده المقيم مع زوجته وبناتها . كانت لغتهم
 اليومية التركية وليس الكردية . وفي الحقيقة فان الفتيات لم يكن

يستطيعن التحدث بلغتھن الام مطلقا . كانت والدۃ السيد احمدي تعيش مع بناتها الصغيرات في قرية تقع الى الشمال من ريزاي حيث لا أحد فيها يتحدث بأي لغة اخرى سوى الكردية . عندما كان السيد احمدي في السن السابعة تقرر أن يجيء الى المدينة ويقيم فيها بمعزل عن بقية عائلته لكي يحضر المدرسة . لم تكن توجد مدرسة فسي قريته في ذلك الوقت ، حتى ولا واحدة من تلك التي يديرها سلك تعليم القراءة والكتابة وبسبب حياته المنزلية كان السيد احمدي قد اصبح طليفا تماما بالتركية وبسبب حياته المدرسية كان قد اصبح جيدا جدا بالفارسية أيضا . لايستعني الا أن اقدر غالبا انجاز السيد احمدي ، بعد بحثي عن متحدثين بالكردية في الكلية ، كانت لهجته الاصلية هي الكرمانجية " الكردية الشمالية " وهو منحدر من عائلة ريفية فقيرة . ومع ذلك وبمساعدة منحة تعليمية من مدرسة ثانوية محلية وبعلامات جيدة كان في طريقه الى الكلية ، ربما كلية ريزاي . فاذا ذهب فانه سيكون واحدا من الطلاب الاكراد الاوائل في كلية ريزاي في منطقة ريزاي . لقد نجح في التغلب على الحواجز التي قد ابقت الالاف من الاكراد الشماليين الآخرين بعيدين عن المدارس الثانوية والكلية التابعة لمنطقتهم . فقط بقوة ارادته وبذل جهده وطبعه برجولته . ففي كلية ريزاي حيث أتى جميع الطلاب الاكراد القلائل نسبيا من مدن واقعة الى الجنوب من ريزاي كان غياب الاكراد الشماليين المحليين بشكل خاص ملحوظا . أن الاكراد ، ان لم يكونوا غير عاديين الى حد بعيد مثل السيد احمدي او اغنياء جدا مثل طه فانهم لا يملكون حرية الوصول الى المدارس الثانوية .

كان تحفظ السيد احمدي ورباطة حاشه واساليبه المنتظمة . تشير فضولي . فقد اردت ان اراه وهو ضمن البيئة التي انحدر منها واصلت اسئلتي عن قريته . ولكن القرية قد انقطعت عن ريزاي بسبب الثلوج التي راح انخفاضها يزداد بشكل يومي في المنحدرات الجبلية

حوالي المدينة . وبما أنني لم اجد الوسائل لأصل الى هناك ، فـقـد بدأت أسأله عن اخته وعن شارع السنيين كان يجيب على كل اسئلتي ولكنه يتطوع بالقليل من عنده . واخيرا الحث عليه ليقدمني الى اخته ، فقد قلت له اني احتاج الى تسجيلات لأحاديث نساء كرديسات فأخذ طلبني هذا على محمل الجد مثل كل طلباتي للمعلومات وأخبرني حالا انه يمكنني المجيء الى المنزل في الخميس التالي .

اتى السيد احمدي الى منزلنا اولا وسرنا بسيارة اجرة الى السوق . كان علينا أن نتغلب على الوحل الذي يمتد على طول الطريق من الشارع الرئيسي حتى البوابة الخشبية غير المتقنة قبل ان نتمكن من الوصول الى الفناء . واخيرا وصلت الى منطقة ريزاي التي تشبه الجزء القديم من مهاباديشبكة ازقتها الموحلة والمعقدة وجدرانها المبينة يدويا . كان الجو باردا وماطرا لذلك لم نلفت أنا والسيد احمدي الانتباه كما كان جاثرا ان يحدث في يوم صحو . اسرعت في المشي الى جانب السيد احمدي ممسكة المظلة في يدي وآلة التسجيل في اليد الاخرى محاولة ان اجاري خطي السيد احمدي . بدا الناس الذين مررنا بهم فقراء ، رجال بثديلات عتيقة ونساء باغطينتهن ، وكان لدى القليل منهم مظلات او ملابس دافئة الى حد يتناسب مع قساوة الجو .

كان علي ان اخفض رأسي لأدخل من خلال المدخل المنخفض يدويا لمنزل السيد حق زاده - بدا كل شيء غريبا في الحجرة ، عدا خزانة التلغزيون ، حيث قابل فيها السيد احمدي اخته الكسرى وابنتيهما ، واحدى كنائهم . جلسنا وقدم لنا الشاي واحضر طبق فيه برتقالات كبيرة الى جانب كعك حلو مشتري من محل حلويات مملوءة بالكريما المخفوقة . كانت اخت السيد احمدي وبناتها وعروس ابنتها يبتسمن ويرخين بي مرة تلو الاخرى ويدفعن بالطعام السنن طبقي بينما لم يأكلن شيئا . لقد كنت مدركة لحقيقة انهن لم يدعوني ، بل انا التي دعت نفسها . لاأظن انهن قد استوضحن

ابداً عن سبب وجودي في منزلهن . وبالنتيجة فان القلق والتوتر في الجو لم يتلاش ابداً على الرغم من كلمات الترحيب التقليدية وابتسامات الاحتفاء بي .

لقد كان ذلك مشروعي وكان السيد احمدي هو القائم على الادارة . ولذلك عندما اقترحت عليه ان تتحدث اخته عن تاريخ القبائل الكردية المحلية ، وخصوصاً قبيلة الشكاك التي ينتمي اليها والدهما ، وافقني السيد احمدي على ذلك مباشرة ، فواصلت مسجلتي بالقباس الكهربائي المرتفع حتى الخمس المستخدم عادة للتلفزيون وبدأ السيد احمدي يحدث اخته عن تاريخ منطقة ريزاي . وموئراً عندما اصغيت بعناية لهذا التسجيل اندهشت لقلة المعلومات التي قدمتها في كلماتها . فقد كان هناك قائمة من الاسماء وعبارات غامضة عن عظمة بعض من قواد القبائل ولكن معظم التسجيل كان قد كرس لممدح حكومة ايران الحالية ، وهو موضوع غريب بالنسبة لكردية تتحدث عنه . فقد مجدت الشاه ووالد الشاه لجعل الطرق آمنة ، فقد سهلها وجعل السفر عليها ممكناً من جهة معينة في اذربيجان الى اخرى دون الخوف من أن يُذبح المرء أو يُسلب منه كل شيء يحمله . لقد كان صحيحاً أن الجيش الايراني وقوى الدرك قد جعلوا الطرق اكثر اماناً ولكني لم اسمع ابداً اي كردي يذكر أن المصالح والفوائد التي جنتها هذه السلطة من كردستان قد فاقت الاضرار التي لحقتها بها اكثر بكثير .

في نهاية جلسة التسجيل شكرت الاخت لحسن ضيافتها واتحنت احتراماً لكل فرد في الغرفة وبعدد لبست حذائي خارج الباب . وفي الخارج رافقني السيد احمدي بعيداً حتى بلغا الشارع الرئيسي حيث ناديت مستوقفة سيارة اجرة وتمنيت لو انه يوجد مكان آخر اذهب اليه أبعد من هدوء شقتي الخالية من الاثاث . لقد فضلت دفع سيارة الاجرة وراحتها ولكني وبسرعة وجدت نفسي عائدة وفي بداية الزقاق وأنا امر بصبي يحمل بندقيته . لقد

كان على المشي الاسبوع تلو الآخر بجانب ابن صديق هوشنغ الذي استمر في التسكع في الزقاق مع رفاقه . ولم تفشل البندقية أبدا في اشارة اعصابي .

بلغ حنيني مبلغا في الاسبوع التالية . وقد احتفلنا بعيد الشكر بصحبة الامريكيين الآخرين في مقر الجيش الأمريكي وقد راودني احساس بأنني سجين في حقبة بلاستيكية ضخمة وسط عشاء تركي فخم وكان شعوري مفعما بالكآبة لدرجة اني بدوت غير قادره على سماع ماكان يقوله الامريكيون من حولي . هـل نسيت لغتي الام ؟ وعندما اقترب عبد الميلاد اكثر اشد حنيني الى الوطن اكثر . واصلتنا رسائل من العديد من افراد العائلة يسألون فيها عن عطلة الميلاد وكان اخو جيرد قد اقترح أن نقابله في مكان ما في اوروبا خلال العطلة . ألم بدرك احد منهم أننا لانقيم في بلد مسيحي وانه ليست هناك عطلة ميلاد ؟ أو لـم نوضح لهم ذلك في رسائلنا ؟ .

قمنا أنا وجيرد بجولات منفصلة للبازار في محاولة لايجاد هدايا الما جي " المجوس " . لقد كان من المفترض أن تكون رهبزاي هي نقطة البداية للملوك الذين تبعوا النجم الى بيت لحم . انشدنا ترنيمة " نحن الملوك الثلاثة " مرات كثيرة لنخلق لأنفسنا حو عيد الميلاد الحبوي . ولكن كلما كنا نحاول اكشـر كنا ندرك كم كنا غير منسجمين مع المكان الذي نقيم فيه . كان جيرد قد اوصى خفية على صنع خاتم ذهبي لي في سوق الجواهر، وعندما مررت في نفس المحل اندفع الصاعـغ ممسكا بالخاتم وقد رفعه ليبريني كم انفق زوجي علي من النقود، وقد تفحصته عن بعد .

كان من غير الممكن أن يكتشف جيرد ما سأقدمه له ولكن بالمعدل الذي كانت تسير عليه الخيـاطة الارمنية في عمل تطريـز

للقمصان التي أخذتها دون علم جبرد من محل كي للملابس ، شككت أنه سيرها في عيد الميلاد . فقد مضيت في الذهاب والاياب بين منزلي ومنزلها الذي يبعد ربع ميل في فناء كنيسة ارمنية مرسوم فسوق جدرانها الخارجية مخلوقات مجنحة رائعة . لقد سررت أن ارى احدا ما يعرف عن عيد الميلاد ، حتى ولو انها احتفلت به في كاتولون الثاني بدلا من كانون الاول . ولانها أدركت كم كان يعني لي فقد تدبرت امرها لانها في اليوم السابق لعيد الميلاد .

في عصر ذلك اليوم البارد والملبء بالغيوم ، كنت أمشي عائدة بمحاذاة الجدران المصمتة للزقاق المؤدي الى منزلنا عندما اصابني في جيبيني زجاج مصباح كهربائي وقد اخطأ عيني اليميني بقليل تماما وقبل أن استشعر شظايا الزجاج في شعري حكمت عليها بتجربتي الخاصة انها مجرد انفجار ، ظانة ان الصبي صاحب البندقية ذات الرصاصات الصغيرة قد اطلق النار علي أخيرا . حدثت بهذا الصبي الواقف امامي وقد بدأت ملامحي بالتفضن . كان كما لو أن احدا ما قد استهدف ان يفعل ذلك في يوم عيد الميلاد نفسه واطلقها علي من السماء . اسقطت سلة التسوق البلاستيكية المملئة بالقمصان المطرزة حديثا والمغلقة بورق الجرائد ونظرت حولي.

كان الاولاد يراقبونني بحذر . فقد كان هنالك اثنان آخران بالاضافة الى صاحب البندقية . ماذا كان ذلك ؟ سألت بصوت مرتعش . اشار احدهم الى الزجاج عند قدمي وبعد ذلك الى صوت الشارع فوق رأسي . فسألت :

- من أين انت ؟

نظرا الصبية حولهم و اشاروا الى زقاق في الجهة اليسرى . لمست رأسي وهزته بهدوء . لقد كان اقرب منزل في ذلك الزقاق يبعد عدة ياردات عن المكان الذي اقف فيه . على كل حال كنت اعرف مسبقا انه من المفروض أن يكون الزجاج قد اتى من اليمين . لقد كان في هذا الجانب من الزقاق منزل واحد فقط ، وهو منزل اغنى رجل في الجوار ، ذلك الرجل الذي سميت بأسمه جميع هذه الازقة - السيد أمير فلاح .

عندما مشيت متجاوزة الاولاد بدأت الدموع تسيل فوق وجهي وبعدئذ بدأت بالركض وعندما رأيت جيرد بدأت بالنشيج . كنت اغص بالبكاء لألتقط انفاسي وانا اروي له ماحدث ، فكرنا مليا بالحادث ليفع دقائق ، لم أتأذى منه ولكن الزجاج كان قد اصاب مكانا قريبا جدا من عيني . وكان من الممكن ان اصاب بأذى بالغ . فقرر جيرد أخذ نصيحة هوشنغ والشيء الاول الذى فعله جارنا هو محاولــــة تهدئتنا فقال :

— هذه الاشياء تحدث ، فهذه ليست امريكا . احيانا عندما ينتهي الناس من الاستفادة من المصباح الكهربائي وبدلا من رميه في النفاية ، يرمونه من خلال النافذه . لا يدركون انه من الممكن أن يوءذى احدا . فسألته :

— اذأ لماذا حدث واصاب رأسي بالذات لحظة مـروري، لماذا لم يصب الشارع .

أقنعنا هوشنغ الراغب عن الخروج معنا لنذهب الى الشارع ونتقصى عن الحادث . رن هوشنغ جرس أمير فلاح وبعد مضي مابدا وقت طويل اتى خادم شاب مرتد سروالا فضفاضا الى البوابة وهو يبتسم ابتسامة عريضة . فسأله هوشنغ فيما اذا كان سيده موجودا في البيت وعندما اجابه الخادم بالنفي ، اخبره هوشنغ عن سبب مجيئنا . وعند ذلك استطاع الخادم بمعوبة ان يسيطر على نفسه، وعندما نظرت الى هذا الخادم وهو يركب ضحكة تأكدت من أنه هو الذي كان قد القى بالزجاج . ولكنه طبعاً انكر حتى معرفته ماكننا نتحدث عنه . وبعدئذ وقفنا مباشرة بواجهة بوابة مغلقة ثانية . اقنعنا هوشنغ الذي تضايق اكثر بعد هذا التقصي ، أن يقرع جرس منزل صديقه ، والد شاهدنا المغير على الحادث ، الذي نتمنى له أن لا يرى شرا . لم يجيئنا أحد . وخلال فترة العشر دقائق الاخيرة كانت ساحة الارقة المحلية المتشابكة قد خلت من الناس ، وهو شيء غير مألوف في فترة العصر تماما .

عاد هوشنغ معنا الى منزلنا وقال لي :

- فقط انسي ذلك .

- لا استطيع . افترض أن هذا حدث ثانية .

- كانت شهرزاد تمشي مرة في الزقاق هنا مع ابننسا ،
لحقها الصبي وامسك بها من خصرها ، وكان ولدنا قد تضايق كثيرا ،
ولكن ماذا نستطيع ان نفعل ؟
فقال جيرد مشيرا :

- ولكن ذلك لم يكن امساكا بالحصر ، لقد كان ذلك

القاء زجاج مصباح على رأسك .

فهز هوشنغ كتفيه غير مبال . وقلت :

- اريد أن استدعي البوليس .

التفت هوشنغ وقال ونبرة حادة في صوته :

- يجب الا تفعل ذلك ، فالسيد امر فلاح رجل جيد .

فتسائلت ، اذا كان رجلا جيدا كما يقول ، اذا ماذا لديه ليخاف
عليه من البوليس ؟ وقلت بصوت مرتفع :

- لا يمكن لخدنه ان يمشوا في القاء المصابيح على الناس .

فقال هوشنغ مجيبا بصراحة :

- البوليس لن يحل المشكلة .

وكننا قد وصلنا الباب الامامي لشقة هوشنغ ، فقال جيرد وهويصاحبه

- شكرا لمساعدتك .

بعد ذلك مشينا انا وجيرد عبر الزقاق الذي كان مابزال

خاليا واستوقفنا سيارة اجرة لنذهب الى مخفر الشرطة المدنية .

روينا قصتنا لرحل شرطة متحهم الوجه ، حيث لم يبد أي تعاطف

نحونا ابدا . ولكنه رجع معنا بسيارة اجرة الى مكان الحادثة .

ووقفنا نحن الثلاثة خارج بوابة امير فلاح ننظر الخادم أن يستجيب

لقرع الباب ، كان اكثر تحفظا في قهقهته هذه المرة ، ولكنه احتفظ

بنفس الانكار وبنفس النظرة الضاحكة .

وبعد ان وصل البوليس واصبح الموضوع رسميا اكثر . تجمهر الناس حولنا في الزقاق وكانوا يبتسمون ويتفاحكون وهم يوضحون لبعضهم البعض ما حدث .

حضر فتى في طور المراهقة وتطوع للترجمة ، لم تكن لغته الانكليزية سيئة ، وعلى نحو مفاير عن الآخرين جميعا بدا مهتما اكثر من أن يتسلى . كان شيئا مثيرا للاعصاب ان يضحك جميعا هؤلاء الناس وهم بشيرون الينا . كان ذلك زقاق امير فلاح وهو من المناطق المأهولة بالطبقات الوسطى والعلبا الاكثر تأصلا في المدينة . لم يكن الاختلاف الطبقي هنا هو الذي يضيف علينا هذه العزلة ، فالناس المجتمعون حولنا كانوا يضحكون كما لو اننا لسنا بشرا .

- اخبروني ماذا حدث ؟

طلب منا الشرطي ذلك للمرة الثانية او الثالثة . وظهر في تلك اللحظة صديق هوشنغ الذي الذي يقتني ابنه البندقية عند طرف الجمهور مذهبته اليه وقلت :

- كان ابنك متواجدا عندما اصابني المصباح ، ربما يستطيع

رواية ما حدث . ؟

فقال الرجل بهدوء :

- ولدي لايعرف شيئا .

وسألنا الشرطي انا وجيرد :

- ما اسمكما ؟

فاخبرناه .

- ماذا تفعلان في ايران ؟

واجبناه ثانية .

- نعم ولكن لماذا جئتما الى هنا ؟

فانفجرت في وجه جيرد قائله :

- انه يوجه الينا اسئلة بدلا من توجيهها الى أي شخص

آخر من هؤلاء الناس . والشيء الثاني الذي سيرغب في معرفته هو

كم نكسب من المال ولماذا ليس لدينا اطفال ؟ وعندما هممنسا

انا وجيرد بمغادرة هذا الميدان ، سارت سيارة جيب الى الزقاق
وخرج منها السيد امير فلاح ، المهيب ذو الشعر الابيض ، صاحب المنزل
الذي من المفترض ان المصباح قد القى منه .

اخبر الخادم السيد امير فلاح ماحدث بسرعة . فتقدم
نحونا قائلنا انه متأسف لعلمه بوقوعنا في هذه المشكلة ، ولكنه
ابدى ارتياحه كثيرا حول ان هذه المشكلة يمكن ان يكون من
منشأها وقرر الشرطي لدى حضور هذه . مهمة انه الوقت
المناسب لانهاء المشكلة برمتها .

اقترح ان يتصافح جيرد وامير فلاح ، رفض جيرد ذلك ، ثم
ابتعدنا عن الحشد وجيرد يحتاج غضبا . لم يناسب ذلك امير فلاح
والشرطي الذي طلب منا بعد ذلك أن نرافقه هو والسيد امير فلاح
في سيارة الجيب في جولة اخرى الى مخفر الشرطة وقد حضر مسرعاً
معنا مترجمنا ايضا .

قابلنا هذه المرة في المخفر ملازما ، وقد اصغى البنس
بتركيز عندما شرحنا له مرة اخرى مجمل ماحدث . التفت الملازم
الى امير فلاح وسأله فيما اذا كان عازما على التأكد من أن خدمه
لن يفعلوا شيئا من هذا القبيل ثانية وبدون أن يعترف امير فلاح
ان هذا التصرف قد ارتكبه خادم من خدمه وعدان بلوي اذن المصباح
الخادم المذنب . فهمست في اذن جيرد متذمرا :

— ولكن لا احد يعترف بالخطأ ، لا أحد يهتم باكتشاف
من قام بالحادثه حقا .

سجل محضر بالحادثه ، ولارضا * الايرانيين الحاضرين تصافح
جيرد وامير فلاح . ولكوني مجرد امرأة تخص جيرد ، فقد ضعت في
هذا الخلط . بعد ذلك عدنا جميعا لزقاقنا ، حيث تصافح جيرد وامير
فلاح ثانية .

بعد يوم من ذلك ، وفي ليلة عيد الميلاد وبينما كنا

جالسين في حجرة الجلوس ، رن جرس الباب ، هناك في الاسفل ، فسي
الزقاق كان يقف ستة من الصبيان والصبايا ، وكانت احدى الصبايا
تحمل غلبة من السلوفان ممتلئة بالورد والقرنفل ودفعتها الى يدي.
دعوتهم ليمعدوا الى الاعلى لاحتساء الشاي واكتشفت انهم كانوا
اخوات واحوة مترجمنا في ذلك اليوم . وكانت ابنة امير فلاح أيضا
قد حضرت معهم لتقدم لنا امنباتها بقضاء عطلة سعيدة . كانوا
يعرفون انه يوم عيدالميلاد فقط لأنني ذكرته عدة مرات خلال
المباحثات في اليوم الفائت . وتحدث الصبي ذو الشعر الاجعد الذي كان
قد ترجم لنا قائلًا :

– والدتي تريد ان تعرف متى ستحضران لتناول العشاء

• عندنا .

شكرناهم على الورد وعلى الدعوة وقال جبرد :

– ولكن لاداعي لدعوتنا لتناول الغذاء .

فقال مترجمنا :

والدتي نرغب في أن تأتيا الينا لتناول الغذاء .

– هل أنت متأكد ؟

قلت ذلك كارهة سرّة الشك القاسية في صوبي فقد كنت
اشعر كأنني متأكدة تقريبا من أن الدعوة ليس حقيقية . ممن
كانت امهم ؟ ولماذا لم توجه الدعوة الي هي بنفسها ؟ من عيّر
ربب ان هو ؟ الاطفال كانوا يقومون بالامعاءات المهدبة النبي
كانوا قد تلقنوها .

ولكن ولدهشتي ، اصروا على الدعوة ، لذلك فقد حددنا
موعد للذهاب الى منزلهم على مضض . ولدى مغادرتهم التفت الى جبرد
وسألته فيما اذا كان يعتقد ان الدعوة حقيقية . فأجاب :

– لا أعرف .

في تلك اللحظات لم تكن لدي رغبة في قبول أي دعوة .

حتى اني لم ارجب في مغادرة منزلي . لقد كان واضحا ان عائلتي مترجمنا لم تكن تنتظرنا فحسب ، بل كانت تتلهف لمقابلتنا . ولكن وعلى الرغم من كل ابتساماتهم وترحيباتهم الصادقة فقد شعرت بالقلق^{وأتا} محاطة بالورود البلاستيكية والحلي الرخيصة المذهبة اضافة الى صور عديدة للشاه كانت قد زخرفت حجرة جلوسهم . وتمنيت لو اني قابلت هؤلاء الناس قبل أن يلقى علي المصباح او بالاحرى لو أن الضوء لم يلق ابدا . وتمنيت أيضا لو أن هؤلاء الناس لم يزينوا منزلهم بهذا الاسلوب المويد للشاه .

بدانهم يحبوننا لكوننا امريكيين بغدو ما يبدو أن اناسا آخرين في ريزاي يكرهوننا لنفس السبب .

لم يبدو لنا بعيدا جدا مصير احد المدرسين الامريكيين في كلية ريزاي الذي كان قد لقي حتفه في عشية عيد الميلاد قبل ست سنوات . وحتى الشهر الثاني كلما كنت اخرج من المنزل كنت انظر خلفي . وقد قللت من عدد المرات التي اذهب فيها لوحدي الى مركز المدينة كثيرا جدا . على الرغم من انني كنت اتسوق لساعات لوحدي في عشيات قبل الميلاد . الا انه لم تعد لي رغبة في مواجهة لمسات وتحديق زمر الرجال والعصبة الذين يملؤون أرضة مركز مدينة ريزاي . كنت أتحمس الآن أكثر من أي وقت آخر الحقد والاحتقار اللذين كانا يكمنان في ذلك اللمس والتحديق ومنذ اللحظة التي هبطت فيها مطار طهران ورأيت الحجاب للمرة الأولى أدركت أنني سأكون عرضة للهجوم في ايران كامرأة والآن فهمت أن كوني اجنبية قد وضعني أيضا في خطر مضاعف .

أما بالنسبة للاكراد فقد تراجع فكري عنهم وقد استغربت عدم ظهور أحد اللاجئين بين الحشد في الزقاق . واصلت تأجيل زيارة منزل مريم وكان من النادر أن أرى السيد خليلي في أيام الشتاء الطويلة المظلمة هذه . لم يبد الايرانيون الذين أخبرتهم عن هذه الحادثة تعاطفهم معي . وقد أبدى هوشغ وشهرزاد على نحو خصوصي دهشتهم لاستدعائنا الشرطة للسيد أمير فلاح وقد كانوا يكررون "رجل طيب مثله" .

لم أذكر ما حدث للسيد أحمدى أبدا . فبطريقة ما اعتقدت أنه لا يوءيدنا على الإطلاق . وموءخرا عندما حصلت حادثة كريمة في نفس رفاقهم عرفت أن ظني كان في محله . لقد كنت أعتبر بالنسبة للسيد أحمدى " الأخرى " حتى نهاية اقامتي في ايران تقريبا . حتى عندما فهمنا كبشر وكأصدقاء فقد كان يظن دائما أننا أغنى بكثير مما نحن عليه ، أو على الأقل مما نشعر به . كان بروده هذا موءديا ومع ذلك فقد كان بإمكانه أن اعتبره دفاعا . لقد كان أحمدى يتصرف مثل رجل راشد بينما كان لا يزال طفلا .

واصلنا أنا والسيد أحمدى لقاءاتنا وكان قد تكون لسدي احساس بتعلم اللغة بطريقة آلية ، وفي آخر الأمر ، افترضت أنها ستساعدني على اتمام بحثي ، ولكن ما نفع ذلك ؟ فكلما كنت أتعلم الكردية والفارسية أكثر ، كانتا تبدوان لي بغير فائدة أكثر . ربما ستجعلني قادرة على أن أكون مهذبة أكثر ، أو ربما مشوشة أكثر عندما يطرح الناس علي أسئلة ، ولكن هل سأقدر على معرفة أي امرى ؟ على نحو أفضل ؟ وقطعا يوجد أناس آخرون يتواصلون مع بعضهم البعض بالفارسية والكردية ولكن اتضح لي أن فعالية كهذه لن توءثر علي بهذا القدر ولن تفيدني في حياتي اليومية اطلاقا .

أقبلت عشية السنة الجديدة ومضت . لقد كانت كثيفة حتى أكثر من عيد الميلاد . وبما أن العطلات كانت بعيدة فقد بدأنا نفكر في الخروج من ريزاي لفترة . لقد كانت عطلة منتصف الشتاء التي تتقدم عطلة الشيعة الكبيرة - في محرم ، فترة الحداد على الامامين الشهيدين ، الحسن والحسين . قررنا الطيران الى طهران وان نأخذ القطار راجعين الى تبريز وبعدئذ نستقل الباص الى ريزاي .

ذهبت الى طهران وأنا أتفجر بالانطباعات والاسئلة حول الأربعة أشهر الأولى من اقامتي في ايران . ولكني كنت أصد من قبل الطلاب الأمريكان الباحثين الذين يتابعون دراستهم بمنح تعليمية فسي

العاصمة، لم يبد أي منهم احساسهم الحقيقي ورأيهم في السياسة الإيرانية . لقد كان معظمهم يحتفرون ايران والایرانیین ببساطة . وبعد التحدث مع هؤلاء الناس عرفت كم سيكون من السهل لسي أن أكتب بسرعة ويغير تردد عن جميع الإيرانيين ، على أنهم يعانون من رهبة الأجانب على نحو ميوءوس منه . لم تقدر تعليقات ————— الأمريکیین أن تساعدني في معالجة احساسی الخامة ، بل كانت تزيد في ألمها وتشيرها أكثر .

ولكوني عائدة الى شوارع طهران حديثا وخائفة من الضجة وحركة المرور فقد بدأت أكون روعية عن الأوضاع في ريزای وفقا لعلاقاتها الصحيحة وأهميتها النسبية . بدا واضحا أن هناك أمكنة أسوأ على الأرض أكثر من العاصمة الصغيرة النظيفة الهادئة بريفها ذي المشاهد الطبيعية الخلابة التي كنا ندعوها بالوطن، عدت بعد مدة أسبوع بروح جديدة واختفت تعابيري الساخرة . وعندما رأيت السيد أحمدی ثانية ، أكرهت على التحقق من أنني قد تعلمت الكثير من الكردية منه . لقد كنت مستعدة للخوض في مجازفات جديدة ، ولأغامر وأن أحاول التواصل مع الناس .

الفصل التاسع

كان يندر أن تجد كرديا في المرحلة الثانوية في ريزاي .
لذلك لم اكن متأكدة من ان ماسمعه صحيح لدى بدء السيد خليلي
بالحديث عن دكتور كردي شهير ، قد حصل على الدكتوراه في الفلسفة
وهو رجل لا يتحدث لهجة المدن الجنوبية مثل مهباد او سننداج ، بل
هو متحدث حقيقي بالكرمانجية مثل السيد خليلي . وانه لا تحدث
الكرمانجية فحسب ، بل العربية ، الفارسية ، التركية - كلاستانبوليه
والآزرية - الروسية ، والانكليزية وربما شيئا من الالمانية . لقد
بدا هذا شيئا لا يصدق ، ان يقيم رجل مثله في ريزاي وألا تكون له
صلة بالكلية . المؤسسة الوحيدة في المدينة والتي من المفترض أن
تكون لها علاقة مع الدراسات العليا .

لقد ذكره السيد خليلي عرضيا وبحذر شديد بنفس الاسلوب
الذي كان يقول فيه معظم الاشياء لي :
- هناك دكتور كردي .

قال مقديما ملاحظته على نحو متردد ، بالاستجابة الى تساؤلاتي
الملحة عن ايجاد نساء كرديات . جرى ذلك قبل ان يودعني عند
درج منزل مريم لبضعة ايام وكان آنشد بزعم دائما انه بريء من
معرفة أي نساء كرديات . على الرغم من أن الدكتور كان رجلا
مهما جدا فانه ربما يوافق على أن يقدم لي المساعدة في الكرديّة
إذا كنت محظوظة جدا .

بساطة كان من المستحيل للسيد خليلي ان يصدق انني حقاً
كنت ابحث من نساء كرديات عاديات . فمن وجهة نظره كنت دخلة
الى حد بالغ - امرأة اجنبية عالية الثقافة تبحث في القواعد الكردية،

حتى شعر اني كغربية موءهله فقط لأن اكون مڈرسة . محبقة أن
الدكتور يعرف الانكليزية ستكون ذات فائدة عظيمة في
خليلي . لم يكن لدى السيد خليلي الصبر والوقت ليعلمني الكرديه .
ولكنه يعتقد انني لا اتقدم كفاية بسبب العائق اللغوي الذي بيننا
وليس لأي نقص في الممارسة والتعليمات . وحسب اعتقاد السيد
خليلي فان الترجمة ستحل المسألة برمتها واني سأقدر على تعلم
الكردية في فترة قصيرة .

لم يكن تمكيري يمتقر الى الشك في أن أي شخص حائز على
دكتوراه في الفلسفة سيتكلم لغة الريف النموجية التي أردت دراستها.
ان شخصا كهذا من الموءكد انه سيكون متأثرا بمصادر غير كريدية
اكثر من السيد خليلي . ولكن حتى لو فكرت اني لا احتاج مدرسا يتحدث
الانكليزية فقد اردت ان التقى بهذا الدكتور الغامض وكما الحجت على
السيد خليلي فقد اردت ان اقابل زوجته على وجه الخصوص . وقد
قادتني افتراضاتي غير المشكوك فيها الى تصور انها ستتكلم الروسية
والانكليزية .

عندما استيقظت آمالي لتجاري فضولي ، عند ذلك فقط
اصبح السيد خليلي غامضا اكثر فاكثر حول فكرة ان يعلمني الدكتور،
الى ان انقطع عن مناقشتها ثانية كليا . هل كان الدكتور مسغولا
جدا من مقابليتي ؟ هل كان شكاكنا جدا ؟ وهل ذكرني السيد
خليلي له يوما ما ؟ ولكن بما اني قد اطلعت على وجود دكتور
كردي ، فلم استطع أن انسى امره ، وذكر السيد خليلي انه كان
قد درس في جامعة روسية ، وقد تساءلت الى ما لا نهاية عن موضوع
شهادته .

كنت قد مرت برفقة السيد خليلي ودون علم منسي ،
بمنزل هذا الدكتور نفسه مرات عديدة . الفى اثنان من الرجال
التحية على السيد خليلي وهما ينظفان سيارة اللاندروفر فى الخارج

وقد حدثنا فيج بفضل ولكن ليس بطريقة غير ودية . كانا يعملان أمام المنزل السحري نفسه الذي كنت قد لاحظته خلال اسابيعي الاولى في المدينة - ذلك المنزل القابع خلف الابواب المعدنية الزرقاء . أمام هذه الابواب كانت تقف عادة سيارة اللاندروفر الطويلة والرجلان ببذلتيهما الخاكيتين وعمامتيهما وهما ينظران الي خلسة بعد مارأياني برققة السيد خليلي . وبعد ذلك بأسبوع كنا نتجول معا شانية قريبا منه عندما استأذنتني السيد خليلي ليذهب الى الدكتور ويقدم احتراماته له . كان قد اضطر اخيرا ان يفشي سر صاحب هذه الدار . ولكنه لم يدعني للدخول معه .

بعد عودتنا من طهران بعد ايام وبينما كنت اتفحص برتقالا في كشك فواكه في شارع بهلوي ظهرت امرأة ، وقد وضعت غطاء ، على مقربة مني . ولاعتقادي انها وقفت هناك لتحقق في فقط بدأت بالانصراف ولكنها امسكت بيدي والقت علي سلاما حارا قبل ان اتمكن من المغادرة . وعندما نظرت الى لباسها البراق بكامله تحت غطاءها الاسود المخرم ، ادركت انها كردية . بسدا وجهها الوردي مألوا جدا ، ولكنني لم استطع تذكر فيما اذا كنت قد التقيت بها أم لا .

وسألت :

- اين كنت ، خانم ؟ قلوبنا مشتاقة اليك .

بدأت اشعر بالارتباك لعدم قدرتي على تمييز هذه المرأة ، وبعد ذلك تذكرت انها كانت الخادمة التي رحبت بي عند الباب في المرة الاولى التي ذهبت فيها لمنزل مريم . ابتسمت لها معبرة عن شكري لودها .

- متى ستحضرين لرويتنا شانية ؟

قالت ذلك وكانت لاتزال ممسكة بيدي بعدما انتهينا من المصافحة بوقت طويل .

راودني احساس بأن اكون غامضة . وكان ذلك فعلا

منعكسا كنت قد اكتسبته اخيرا بالاستجابة لأسئلة من هذا القبيل
كانت تطرح علي بالفارسية . ولكنني سيطرت على نفسي بعد ذلك . ألم
تكن هذه المرأة رقيقة وودودة معي على وجه الخصوص ؟ ألا تتكلم
الكردية وليس الفارسية ؟ وبالإضافة الى ذلك كنت قد وعدت نفسي
بأن اعود الى منزل مريم في نفس هذا الاسبوع . فأجبتها
بأندفاع :

— سأحضر عصر هذا اليوم . هل هذا حسن ؟

فقلت :

— حسن جدا ، اذا سنراك .

بينما راقبتها تمشي مبتعدة عبر الشارع بالخطى غير
السريعة المتعثرة التي تميز مرتديات الحجاب تساءلت فيما اذا كنت
قد ارتكبت خطأ ما . افترض انها كانت تعني بهذه الدعوة الشكليات
فقط ؟ افترض ان لاحد في المنزل الواقع في شارع بهلوي يريد أن
يراني ؟ افترض انها لن تخبرهن بأنني ذاهبة اليهن ؟

هدأت مخاومي لتوها عندما قرعت جرس الباب ، بعد ذلك
بعده ساعات . وقفت خديجة بنفسها في المدخل تبسم ابتسامه
عريضه وهي تصافحني وتسالني عن سبب غيابتي طوال هذا الوقت .
اوضحت لها اني كنت في طهران ، ولكنني شعرت بالذنب لأنني كنت
قد بقيت في طهران لمدة اسبوع فقط بينما غبت عن منزل مريم
لأكثر من شهر . وقد اخبرتني خديجة بأنها قد بقيت في القرية
لمدة اسبوعين فقط وعندما عادت كانت تنتظرني وتترقب قدومي
كثيرا . وعندما قادتني الى الطابق الثاني الى حجرة النوم منارة
بالحمامات حملت حقيبتي بيد وامسكت بيدي بالآخرى . وحالما
جلست ، جلست هي ايضا بجانبني على الارض وهتفت قائلة :

— مارغريت ، ان لك اسما جميلا .

فابتسمت لها . وقالت لي :

- هل تعرفين مارغريت الثانية ؟

اعتقدت ان مارغريت اسم مسيحي في ايران ، مقصور فقط
على الآشوريين والارمن .

- هل هناك مارغريت كردية ؟

- سآرييك .

ففسزت خديجة وذهبت الى الخزانه واخرجت من داخلها دفتر
ضمما ذا غطاء بلاستيكي .

- دفتر صور العائلة .

في البداية بدأنا بتقليب صفحات من الصور لأكبر
متجهمين ، كانوا جميعا افراد عائلة الحاج اسماعيل وعائلة
مريم ، وقد كانوا مصطفىين بنفس الطريقة مثلما كانوا في الصور
التي اظهرتها شيرين وبروانه لي في مانوا . في حوالي منتصف
دفتر الصور وفي صفحة لوحدها وجدت صورة لفتاة متمرسه ، محترفة
للقتال، آشورية سمراء ، صغيرة ، تدعى مارغريت . كنت قد رأيت
هذه الصورة في كتاب عن الحرب الكردية في الستينات . كانت مارغريت
هذه قد قاتلت مع الشوار الاكراد في العراق . ومع انها كانت
مسيحية فقد قاتلت هي وآشوريون آخرون مع جيرانهم الاكراد ضد
سياسات الاضطهاد التي كانت تمارسها الحكومة العراقية . قالت
خديجة :

- اسمك مارغريت ، تماما مثل اسمها .

كنت ارغب في الاطلاع على المزيد وسماع الاكثر عنهما
ولكن بدأ أن خديجة كانت تعرف عنها فقط بقدر معرفتي وربما
أقل . بالنسبة لخديجة كانت كردية وليست آشورية . على الرغم
من انه لم تكن لدي نوايا في الوقت الراهن لحمل السلاح مع الاكراد
فقد كنت سعيدة لأن اعتبر من ضمن جماعة تحمله .

بعد تقليب صفحات من الالبوم وصلنا الى صورة عرو س .
كانت تلك صورة عائشة نفسها التي قابلتها في اليوم الذي سافرت
فيه مريم الى قريتها . فأخبرتني خديجة قائلة :
- لقد درس زوج عائشة في بلدك ، مارغريت . انه
دكتور .

تمثل في ذهني مباشرة ماكنت اعلمه عندما قابلت عائشة
ذات النظرات الملوكية لأول مرة وما اخبرتني اياه خديجة الآن مع
وصف السيد خليلي البعيد العهد . هل يمكن ان يكون هنالك دكتورا ن
كرديان في ريزاي - وأن يكون احدهما قد درس في امريكا والآخر
في روسيا ؟ فكرت في احتمال ان احساس خديجة الغامض بالجغرافية
قد دمج الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي في مكان واحد بعيـد
على نحو متساو ، فسألتها :

- هل انت متأكدة من انه لم يدرس في روسيا ؟
فبدت عليها الحيرة وقالت متضايقة :
- بلدك ، اظن انه كان بلدك ، مارغريت .

ان من أهم صفات خديجة واكثرها ابهاجا كانت اساليبها
الريفية ، وسلوكها الودي الصادر من القلب ، والطريقة التي تفـرب
فيها على ركبتيك او تمسك فيها صدرك . وترددها على نافلة
منزل مريم وعندها احاديث طويلة مع الجيران عبر الزقاق . أن
هذا الفرب من السلوك من غير الممكن ان يليق بسيدات متمدنيات
ولكن خديجة كانت قادمة جديدة الى المدينة قليلة التجربة
عندما قابلتها في المرة الاولى . كانت قد تزوجت منذ عدة شهور
فقط وهذه هي المرة الاولى التي تزور فيها ريزاي في حياتها
لم تذهب الى المدرسة اطلاقا ولم تتعلم القراءة والكتابة أبدا
ومؤخرا لاحظت انزعاجها لجهلها القراءة والكتابة عندما لفتت
سلفتها النظر الى ذلك في حضوري .

ان عدم معرفة خديجة لمواقع البلدان لم تكن غلطة من

صنعها . كان اخوتها الاصغر منها ببضع سنوات قد ارسلوا الى المدرسة الثانوية في ريزاي . ولكن خديجة كانت خجلة لافتقارها للتعليم كما لو أنها الملوثة في ذلك . لم استمر في سوءها عن المكان الذي درس فيه زوج عائشة . فخديجة المتحمسة والغالية لم تكن واحدة اريد مضايقتها .

قبل ان اغادر سألتني فيما اذا كنت قد ذهبت لرومية

عائشة :

— انها تنتظرك يامارغريت .

عند ذلك شعرت بوخر من الندم والخجل . فطوال هذه المدة كنت افترض ان مسألة الذهاب الى منزل هؤلاء النسوة مهم بالنسبة لي فقط ولم يخطر ببالي قط انهن ايضا يمكن ان يكن قد جلسن يتسألن عن سبب عدم قدومي . وانه من الممكن انهن يتشوقن لوصولي . في طريق نزولي الى الطابق السفلي شعرت برغبة فسي تقبيل الخادمة ذات الوشاح البرتقالي والوجه الوردي وقد وقفست خديجة في ردهة الطابق الاول تحديق في عيني وقالت :

— انت مثل اختي يامارغريت ، تعالي الى منزلنا

ثانية ودون تأخير .

لقد كنت مسحورة بزوجه لدرجة اني في البداية لستم افكر كم كانت رائعة هي نفسها — ربما اكثر روعة ، لأنها لستم تتمتع بالمزايا التي يتمتع بها زوجها بصفته ذكرا . فهي لستم تكن قد تعلمت في كلية في بغداد ولم تسافر الى الاتحاد السوفياتي لدراسة التاريخ الكردي . ووالدها لم يسمح لأطفاله الاناث الذهاب الى المدرسة مقصرا تعليمهن على الدروس الخاطفة والسريعة التنسي يلقنها الملالي في المنزل .

عندما ذهبت الى منزل عائشة لأول مرة شعرت به مختلفا

تماما عن منزل مريم . فقد بدا اوسع واكثر تهوية ، من جهة
لأن عدد الافراد فيه كان اقل - حيث لم يكن لدى عائشة اطفال -
ومن جهة اخرى انه كان ذا ارضية نظيفة وسقف عالية . لقد كانت
حجرة الجلوس ، المكان الذي استقبلني فيه في الطابق الثاني ، مغطاة
بسجادتين كبيرتين عجميتين ، راعيتين برسوم الحيوانات والورود
المنسوجة داخل تصميمها الفني الاجمى . كانت اصص المزروعات بأحجامها
واشكالها المختلفة تكتظ على طول الرف الطويل في اسفل النوافذ
المتدة من الارض حتى السقف في واجهة المنزل كلها . ففي إحدى
النهايات كانت توجد شجرة تحمل ثمر الليمون وفي النهاية الاخرى
كانت شجرة الفوشية السهلة الكسر ولوحات مطرزة وموءطرة كانت
معلقة على الحائط . وفي الزاوية كانت تقف خزانة تلفزيون مع ابن
عرس محنط فوقها والشيء الأكثر غرابة في الغرفة كان خزانة الكتب
الخشبية الضخمة المصنوعة من الزجاج والخشب . فحتى الجعفريون
المتمدنون على طريقتهم لم تكن لديهم رفوف للكتب في منزلهم
ذي الاثاث الفخم .

لدى بقائي لوحدي وجها لوجه مع عائشة جالسة في كرسي
معدني موضوع على نحو غير مريح قريبا في وسع حجرة الجلوس تلك ،
خامرني شعور بأن شخصا ما يلاحظني ويحكم على تصرفاتي بطريقة لم
احس فيها بهذا الشعور وأنا مع مريم وخديجة . فعائشة لم
تأخذ رفاي للكرسي على محمل الجد ، ولم تهمل امدادي بملعقة
عندما أمرت باحضار الشاي وبدلا منه شربت ماء دافئا قدمته
الي بلباقة عندما سألتها ماذا كان ذلك ، جلسنا ببساطة نحقق
بعضنا وقد كانت كراسينا قريبة جدا من بعضها لدرجة أن ركبتينا
كانتا تتلامسان تقريبا . بدا أن عائشة كانت تنتظرني لبعد
حديث ما . كنت اظن دوما ان رغبتي الملحة هي ان امكث لوحدي
مع امرأة كردية دون جمهرة تصرف انتباهي عنها ولكني الآن
لست متأكدة جدا من ذلك . نظرت الى عائشة وابتهامة مسلية

تكاد تكون ساخرة تلوح على شفيتها .

- هل تريدان ان اعلمك الانكليزية .

سألتها دون ان اعرف ماذا اقول غير ذلك . فأجابت بنعم
بجرس اقل حماسة بكثير مما كانت عليه من قبل عندما سألتها السوء ال
نفسه في منزل مريم . حاولت اعطاؤها كلمات وعبارات ولكنها
بدت فاترة الحماس ومرتيكة لدى تكرارها اياها ، لذلك توقفت
عن ذلك . فسألتني وبدون مناسبة تتعلق بهذا السوء ال :

- الا تفتقدين اهلك يا مارغريت ؟

فأوضحت لها مفصلة :

- بلى افتقدتهم ولكن ليس كثيرا فايران بلد ممتنع

جدا وأنا سعيدة بوجودي هنا .

وفجأة انفجرت بضحكات مدوية . محدقت فيها متضايقه .

- ماذا قلت ؟

فأجابت معلقة وهي تلمح عينيها :

- ان لغتك الكردية مضحكة جدا .

بعد ذلك مضت محادثتنا على نحو اخرق ، وقد تكلمت
بهذوء وبغير تواصل لأنني خشيت ان تجد لغتي الكردية مثيرة للضحك
ثانية . وقد واصلت تفحصها لي بقساوة . بعد ذلك لفترة قصيرة
دخلت امرأة . ممتلئة الجسم ، تفاحية الخدين الى الحجرة وجلست على
الارض بينما مكثنا انا وعائشة على الكراسي ، تكلمت هي وعائشة
بسرعة وبلهجة مختلفة قليلا لم اقدر على فهمها . ولكن عائشة
لم تنس وجودي وكانت تقمصني في الحديث قدر استطاعتها . لاحظت
أن عائشة وصديقتها تقفان فجأة على قدميهما حتى قبل أن ارى الرجل
الطويل عند مدخل الباب ، فوقفت انا أيضا . هل كان هذا الرجل
الضخم الواقف عند مدخل حجرة الجلوس هو الدكتور المشهور ؟

نقدم الى الامام وعيناه تلمعان وقال بانكليزية دقيقة :

- كيف حالك سيدة مارغريت ؟ اهلا بك في منزلنا .
أومأت برأسي واجبته ببعض الكلمات لقد اوقع في نفسي رهبة ليس
لضخامته فحسب - فقد كان واسع الصدر طويل القامة - بل ايضا
بانكليزيته وبالطريقة التي كانت تقف فيها هاتان المرأتان وهما
صامتتان وتظهران فيها الاحترام البالغ في حضوره بما في ذلك
زوجته نفسها . بدا انه احس بعدم الراحة التي سببها ، لذلك
فقد انحنى احتراما وخرج لتوه من الحجرة متمنيا لي اقامه سعيدة
في ايران . دار في خلدي تساؤل فيما اذا كنت سأراه ثانية
أم لا . لقد تصرف كما لو انه زائر في هذا المنزل ولكن من المؤكد
انه يقيم هنا .

اجلت بنظري في حجرة الجلوس على الابواب المغلقة المؤدية
للحجرات الاخرى وتمنيت لو اني استطعت رؤيتها جميعا واعرف
ما يدور في هذا المنزل الغامض . وعندما اخفت عائشة لمدة عشر
دقائق دون ان تخبرني عن ذهابها تساءلت فيما اذا كانت تنوّه
بذلك انه علي المغادرة . لربما انها كانت مسغولة جدا ولم
ترغب في ان تخبرني بذلك . وعندما عادت اخيرا وقفت بسرعة
وقلت انه قد حان وقت الرحيل .

فلو كان ضحك عائشة من لغتي الكردية مقرونا بغيابها
الغريب غير المفهوم من الحجرة قد حدث قبل زيارتي لخديجة لشكل
ذلك دافعا لي لتجنب زيارتها في المستقبل وذلك اعتقادا مني
بأنها في الحقيقة لا تريد رؤيتي ، ولكني والسبب ما اعتقدت انها
تريد ان تراني وانها قد وجدتني مسلية ومثيرة للاهتمام مثلما
وجدتها انا ايضا كذلك . دعمتني الى زيارتها ثانية متى شئت
والا أتاخر في ذلك . لقد جعلني منزلها اشعر براحة اكبر للقيام
بزيارته وذلك لأنه لم يكن لديها اطفال مثلي ولأن منزلها
كان خاليا نسبيا .

في المرة التالية التي قمت فيها بزيارة منزلها
اكتشفت ما كانت تفعله عائشة اثناء اختفاؤها المفاجيء خلال
زيارتي الاولى لها . فهذه المرة ادت صلاتها امامي ، حيث مضت
الى احدى زوايا حجرة الجلوس وخلعت سروالها الطويل تاركة اياها في
كومة صغيرة بجانبها لم ار من قبل ابدا أي من النساء غير
الكرديات يخلعن سراويلهن قبل الصلاة ولكن بقية الطقوس من الترتيل
والركوع والسجود نحو الجنوب صوب مكة كان عملا مكررا ودقيقا
لسلوك يتكرر خمس مرات في اليوم في جميع انحاء الشرق الاوسط .
لقد قامت بأداء كل ذلك بحضوري وحضور المرأة القصيرة الممتلئة
ذات الخدين التفاحيين ، التي بدت على انها رفيقتها الدائمة .
جلسنا كلانا في صمت ، بينما تأملت أنا الصورة المزدانة المصنعة
آليا والمعلقة قرب خزانة الكتب وكان قد رسم في هذه الصورة
رجلان معتمران طاقيتين نسيجيتين وهما يقفان الى جانب بعض
الشنايا والطيات السوداء يمعنان النظر في شكل بيضوي اسود .
وقد علمت انها تمثل الكعبة ، البيت الحرام في مكة المكرمة . وقد
كانت فترات العصر في منزل عائشة تفعم بالنشاط جراء تحديفي
في هذه الصورة المثيرة للفضول . لقد استوقفني امر هو : ان الاكراد
يميلون الى تعليق صور مصنعة مبهجة على الحائط ، بينما يتكون
السجاجيد المصنوعة يدويا التي لاتقدر بثمن على الارض ، بعد أن
وجدت هذه النماذج من الصور في اكثر من منزل كردي . أن الايرانيين
المؤمنين الاثرياء الذين كانت لهم القدرة اللامحدودة للوصول الى
المحلات التي تفيض بالبضائع المصنعة كانوا قد بدأوا يثمنون الصناعات
الييدوية القديمة أكثر فأكثر ، بينما كان الاكراد المعزولون في
قراهم لا يزالون يعتبرون المنتجات الجديدة لايهان (العصور
البلاستيكي) على انها جميلة .

تطور ت العلاقة بيني وبين عائشة حالما بدأت بزيارتها
بانتهام وقد توسعت اكثر بكثير من علاقتي مع النساء في منزل

مريم . وقد سألتني عائشة لمرة واحدة فقط ، فيما اذا اجبست
ايران اكثر ام امريكا بدلا من كل مرة اقوم فيها بزيارتها . وبعد
ذلك سألتني بالتفصيل عن عائلتي ، عن حياتي ، عن ردود فعلي
اتجاه عملي في الكلية ، وعن السياسة الامريكية ، وقداردت أن
تعرف لماذا رضي والدي بابتين فقط ودون أولاد، ارادت ان تعرف
ماذا تفعل امي الان حيث لم بعد اطفالها في البيت ، ارادت ان تعرف
لماذا استقال ريتشارد نيكسون عن منصبه (وكانت الصحف الايرانية
قد اوردت ان اليهود قد اضطروه الى تقديم استقالاته) . ارادت أن
تعرف رأي الامريكان بالمخدرات . ماكنت سأصدق ابدا ان محادثتي
مع عائشة هي ممكنة . وذلك لسببين اولهما هو انني اعتقد
اني لا اعرف اللغة جيدا وبما فيه الكفاية . وثانيهما هو انني
ولبساطه مني شككت في امكانية درايتها واهتمامها بأشياء
خارج المجتمع الكردي . وعلاوة على ذلك كانت عائشة تطلق احكاما
اخلاقية ، فقد سمعت - وذلك بعد مضي ثلاث سنوات من بعض افراد
عائلتها - انها قد اوضحت رأيها فيّ وهو انني شخصية تتمتع
بصفات جيدة . ولكني لم استغرق ثلاث سنين لاكتشاف كم يقدر
بعض هؤلاء النسوة الاخباريات آراء عائشة عاليا او ان اسمع
عائشة وهي تخبرني عن شؤن تخص عائلتها والتي لم يرد احد
غيرها الاشارة اليها .

ولكن من كانت عائلة عائشة ؟ لقد بدا أنها قريبة
مريم ولكني لم افهم لفترة صلة القرابة هذه على وجه التحديد .
وقد سألتني يوما فيما اذا كنت ارغب في زيارة منزل والبتها
في وقت قريب فأجبت مندهشة

- منزل والدك ؟ من هو والد عائشة .

فأضافت عائشة :

- المنزل في شارع بهلوي .

فصححت لها :

- منزل مريم .

فقالـ متسامحة :

— نعم منزل مريم .

لابد أن عائشة قد بذلت جهدا في محاولتها لتقبل فهمي الخاطيء بأن المنزل كان يخص مريم . ولكن عائشة كانت تتفهم اكثر بكثير من اخواتها وزوجات اخوتها اني اجنبية لاتعرف الكثير عن العادات والاعراف الكردية .

ولأن عائشة نفسها قد اقامت في بلدان لايعرف فيها سكانها شيئا عن الاكراد ، فقد ادركت امكانية عدم استيعابي لتربيته ابداء ، بأنها قد انشئت على كره مريم والشعور بالغيره لما كان قد اعطي لها ولأطفالها . وادركت تدريجيا فقط ، أن والدة عائشة ومريم كانتا صرتين عند والد عائشة . لقد كانت عائشة الاخت الثانية ، الاكبر سنا من بين اطفال والدها الكثيرين جدا ، ولكنها في عمر اولاد مريم تقريبا . وبينما كان لـدى والدة عائشة بنات فقط ،ولدت مريم للحاج اربعة اولاد اقوياء . وهذا الشيء لم يجعل المنافسة المألوفة بين الزوجتين اسهل على ام عائشة لتحملها . ولكن وعلى الرغم من كون الاولاد ذوي فائدة عظيمة لمريم فانهم لم يوءهلوها لأن تكون مالكة المنزل في شارع بهلـسـوي اكثر مما كان لوالدة عائشة ، فالملكية كانت متبقية للحاج . لقد كان لعائشة مكانة خاصة عزيزة علي ، وذلك بسبب ذكائها وحساسيتها ولكنها كانت عزيزة ايضا على اناس آخرين بسبب منزلتها الاجتماعية وليس بسبب شخصيتها . وقد كنت اتساءل قبل أن افهم هذا الوضع عن سبب ارتدائها البسة رائعة وفخمة وسبب تزيينها بالذهب اكثر من اية امرأة كردية عرفتـها ،وسبب تحدثها بالفارسية الفصحى لكثير من غيرها ، وسبب سفرها لوحدها الى انكلترة واوروبا .

كانت عائشة في سن الثامنة عشر عندما زوجت من اخي مريم الابن الاكبر لعم والدها وبذلك فان مريم لم تعد زوجة ابيها فقط ،

بل ايضا .اخت زوجها . ومنذ زواجها ، ذلك الزواج الذي اخبرتنني عائشة بأنها قد خشته واشتكت منه امر الشكوى وانها لم تغفّر لأمها أبدا لأنها قد سمحت به ، فان عائشة قد ارتفعت الى مكانة ما كان لها ان تحلم بها بغير ذلك . على الرغم من اهمية والدها ، ذلك الملاك الكبير والشيخ المشهور في كردستان ، فهو لم يبد أي اهتمام ببناته اكثر من صيانة عفافهن . لقد كان قد ترك عائشة حبيسة القرية ، حيث لا يعرفها احد سوى افراد اسرتها من الاناث . والآن هي زوجة رجل اكبر سنا واكثر اهمية من والدها وهو وكما اتضح رجلا - وبلاساها - لم يمنحها أي طفل . ان مكانة عائشة كزوجة للشيخ عبد الله وبدون اطفال يحومون حولها ، ولاضرائه لتتنافس معهن ، وباقامتها في منزل جميل مع العديد من الخدم والجواهر قد جعلها اميرة حقيقية . ان لديها نفودا تحت تصرفها ، وايضا قدرا مذهلا من الحرية بالمقارنة مع والدتها ، وزوجة ابيها واخواتها لقد كان زوجها رجلا مثقفا ، وكان واضحا من الحديث مع عائشة انه قد امضى بعض الوقت في تعليم عروسه الشابة . وقد راودنسي تساؤل فيما اذا كانت دائما معترزة وواثقة من نفسها كما بدت لي الان .

اتيحت لي الفرصة كي ارى عائشة وهي تقوم بدور المضيفة الكريمة للاجئين العراقيين الاكراد الذين كانوا يترددون على منزلهما ، وقد اخرجت في احد الايام جدولا مدونا فيه شجرة عائلة الشيخ عبد الله . وذلك لكي تسلي اما وابنتها كانتا تقومان بزيارتها . وقد كان اساس الشجرة هو النبي محمد (ص) نفسه ، وبسبب ذلك ، فان العائلة تتمتع بحق لقب " سيد " وقد قدم جميع افراد العائلة على الشجرة بدوائر خضراء مرسومة بدقة وبداخلها اسماء مدونه بخط حسن . وقد انطلق الجذع نحو الاعلى متضمنا الشيخ عبد القادر ، وهو مؤسس طريقة صوفيه في بغداد في القرن الثاني عشر وتفرعت منه عقد ورقية محتوية على دوائر بداخلها اسماء للعديد من الشخصيات القيادية في كردستان في القرنين التاسع عشر والعشرين .

وكان من بينهم الشيخ عبيد الله ، الذي كان قد هدد بالسيطرة على معظم منطقة ريزاي وبسط السيادة الكردية عليها الى ان خدعه مبشر امريكي ومن ثم نفى الى مكة حيث وافته المنية هناك . ومن ضمن الاسماء المدونة كان اسم زوج عائشة نفسه ، الشيخ عبد الله ، ذلك الرجل الذي كتب تاريخا منهجيا عن الثورة الكردية باللغة الروسية .

سألت عائشة :

— ولكن اين انت ؟ وأين اسمك ؟

فأجابتنني وهي تنظر الي وكما لو ان بي مسا من الجنون :

— لاتوجد نساء هنا .

ومنذ هذه اللحظة كنت اتحرق شوقا للتحدث مع الشيخ عبد الله ولكنني لم اره ابدا عندما كنت ازور زوجته . فقد كانت حجرة الجلوس في الطابق العلوي مخصصة للضيوف الاناث . وقد افترضت أن هؤلاء الرجال الذين يأتون مع هؤلاء النسوة لابد انهم يمكنشون مع الشيخ في الطابق السفلي وعلى الرغم من اني لم أرهم ابدا فقد اشار جميع هؤلاء العراقيين الذين يقومون بزيارتهم تساؤلاني .

كنت اعرف ان الشيخ قد عاش جزءا من حياته في العراق ، ولكنني لم اكن اعلم متى وفي اية ظروف . وقد كانت اخته مريم قد عاشت هي ايضا في العراق . وكانت قادرة على القراءة بالعربية جيدا ، ولكنها كانت تقيم في ايران منذ فترة طويلة كما كسان والد الشيخ . وتساءلت لماذا بقي زوج عائشة في العراق كل هذه المدة ، ولماذا ياتي اللاجئين لروءيتة ؟ .

لمحت في احد الايام اضافة جديدة لتزيينات منزل عائشة فقد رأيت تقويما معلقا على الحائط وقد كتب عليه عنوان " تقويم الثورة الكردية العراقية " بالانكليزية والكردية والعربية . وقد كان الشهر الجاري — كانون الثاني — قد زود بصورة للملا مصطفى البرزاني و رسم وجهه على نحو انطباعي بظلال زرقاء مع عمامة

حمراء • ولدى تقليبي اوراق الشهور الاخرى تأملت صور نسساء
باكيات مطبوعات بالطباعة الحجرية بألوان زاهية ، وصور جنود
وحمامة بجرح ينزف وصورة فتاة معلقة بمسئقة معنونه ب " ليلي "
وكان قد دُون في كل شهر العديد من التواريخ الهامة في الكفاح القومي
الكردي - منها اعدام قواد عديدين ، الانتصارات والهزائم الرئيسية
في ايران ، العراق ، وتركيا خلال القرن الاخير . تاريخ معاهدة
سيفر وتاريخ معاهدة لوزان التي تلتها ، والتي اسقط فيها كل
ذكر ممكن للدولة الكردية •

وقد قالت عائشة في اجابتها على اسئلي : انها لاتعرف
ايين تجد تقويما آخر • وقد ابدت اعجابي به عدة مرات وقبل أن
اغادر اهدته الي • ولم يكن من ضمن الشكليات بل هدية حقيقية •
وقد عرفت ذلك لأن عائشة كانت قد تجاوزت اعتراضاتي الشكلية
والمجاملة مسبقا باعطائي هدايا عديدة غير التقويم ، اشياء رائعة
مصنعة يدويا من خزانة النفائس القابعة في الزاوية . كانت خديجة
ايضا قد اعطتني زوجين من الجوارب الكردية المصنعة يدويا • وقد
خلصت من ذلك الى نتيجة ، وهي انك اذا ابدت اعجابك بشيء فني
منزل كردي فانك ستجد هذا الشيء يقدم اليك كهدية •

لم تكن طريقة الاهداء هذه شائعة بين الايرانيين ففي
حين يفسطر صاحب شيء ما لأن يقدم هذا الشيء لك فعليا ، فانك ملزم
بالمقابل ان تجاري الشكليات وترفضه • وقد تعلمت مؤخرا ألا ابدى
اعجابي بالاشياء التي اراها في كردستان • ولكنني ففعت امام هذا
التقويم ومثل طفلة صغيرة ، بريشة ضممته الى صدري عندما هرولت
الى المنزل لاشته على حائط منزلي وقد طلبت مني عائشة ان امسكه
بطريقة ، بحيث لايمكن لأحد في الشارع ان يعرف ماذا يكون •

اعتدت على القيام بزيارات قصيرة لمنزل عائشة فني
طريق عودتي من الكلية الى المنزل اناقش معها احداث اليوم • وفي

احدى المرات زرتها في منتصف النهار ، فدعنتني لتناول الغذاء معها
رفضت دعوتها وهممت بالمغادرة بسرعة خشبة ان اكون قد دعوت نفسي
بطريقة ما ، فدروس نظام الشكليات والمجاوله الايرانية قد ترسخت
لدي بثبات . ولكنني قبلت في المرة الثانية التي دعنتني فيها وحسنتني
على دعوة جيرد ايضا . واتتني الفرصة التي كنت انتظرها منذ اسابيع
دون أن ادرك ذلك فقد سألتني عندما وصل جيرد :

— هل تحبين تناول الغذاء مع زوجك ام معي في الطابق

العلوي ؟

لقد كنا جالستين في الاسفل في حجرة جلوس الشيخ لأن المطبخ
ايضا كان هناك وكانت عائشة تتناوب في دروسها كمشرفة على
الطباخين وكمضيفة . كان الشيخ عبد الله يستند بظهره على احد
الكراسي الفخمة المريحة المصفوفة على طول جدران حجرة جلوسهم
يتكلم القليل بلغة انكليزية رسمية جدا ومهملة . وقد اجلسيت
بنظري ونقلت بين الشيخ وعائشة عندما اتى جيرد الى مدخل الحجرة .
ها هو جيرد ، وقد شرع في لقاء الشيخ عبد الله في زيارته الاولى لهذا
المنزل ، وقد كانت فرصة انتظرتها اسابيع عديدة . ولكن لواخترت
البقاء مع الرجال ، فماذا ستفعل عائشة ؟ ان عليها ان تتناول
الغذاء لوحدها . وعلى نحو غير بارع ناشدت ادراكات الشيخ عبد الله
الغريبة وسألته :

— الانستطيع تناول الغذاء كلنا معا ؟

— طبعا نستطيع .

اجاب بلطف واخبر عائشة ان تتناول الغذاء معنا . لقد
كان ذلك سهلا بالنسبة للشيخ عبد الله . اما بالنسبة لعائشة فلم
يكن سهلا مطلقا . فهي لم تلمس الطعام تقريبا ، فشعرت بالاسف
لأن " فضولي " فاق مشاعر آخذها بعين الاعتبار . ولكنني لم استطع
ان ابدي أسفي فعليا . اخيرا وخلال هذه الوجبة عرفت سبب قيام
العديد من اللاجئين العراقيين بزيارة الشيخ عبد الله . واخييرا

اتخذت المقالات والفصول التي قرأتها عن التاريخ الكردي في الولايات المتحدة والدوائر الخفراء والاسماء المدونة في شجرة العائلة شكل وجه بشري. فهنا كانت اسطورة حية للثورة الكردية .

ولد الشيخ في تركيا منذ اكثر من نصف قرن مضى . لقد رأى وهو لا يزال فتى يانعا اعمامه واحداه يعدمون من قبل الحكومة التركية كعقاب لاحدى ثورات الاكراد التي تلت استلام مصطفى كمال انتتورك مقاليد الحكم . ولكن ، ماكان لعائلة عبد الله وهى احدى العائلات الرئيسية في كردستان ، ان تتخلى عن كل شيء تملكه لكي تلوذ بالفرار من الاضطهاد المستمر الذي كانت تمارسه الحكومة التركية الجديدة . فقد ذهبوا ببساطة واستقروا في بلد آخر يملكون فيه ارضا . يمكن ان تصادر الحكومة قراهم ولكن كان لديهم العديد من القرى الاخرى في العراق وايران .

نشأ عبد الله في العراق . وعلى الرغم من كونه كرديا فقد منح امتياز حضور كلية الضباط في بغداد ، وذلك لأنه سليل اسرة ذات شأن عظيم . وبعد التخرج عين ضابطا في الجيش العراقي . ولأسباب معينة غير واضحة لي ، اتى والده ، وهو شيخ موقر مع عدد ضخم من الاتباع ، ليستقر في ايران ، بينما بقي عبد الله في العراق ومن ثم وعندما اصبحت العراق غير آمنة بالنسبة للاكراد النزاعين الى الحربة ، تبع عبد الله الشاب الملا مصطفى البرزاني الى مهاباد ، حيث اصبح عضوا في الجيش الذي دافع عن تلك الجمهورية . ولدى سقوط الجمهورية ذهب عبد الله وآخرون مع البرزاني عندما فر الى روسيا . وقد تبعثر الاكراد اللاجئين الذين رافقوا البرزاني حالا في اصقاع الاتحاد السوفياتي ، وقد قدر لهم ان يكابدوا نصيبهم من جنون العظمى والارهاب عند ستالين . وقد قضى عبد الله نفسه سنتين في سيبيريا وجزءا منها قضاها مضربا عن الطعام . وقد عمل لفترة في مصنع احدى المقاطعات الشرقية ، حيث اتخذ زوجة روسية وانجبت له بنتا . واخيرا وكما وعدة بعض الموظفين السوفييت

العاملين في اذربيجان الايرانية تمكن من الدراسة في جامعة لينينغراد . وقد بدت الاحداث في العراق مواتية مرة ثانية لعبد الله والاكرد الآخرين بعد مضي احدى عشرة سنة من وصولهم الى الاتحاد السوفياتي . ففي سنة ١٩٥٨ قام عبدالكريم قاسم بانقلاب في بغداد ودعا الاكراد الى ان يمارسوا حقهم الشرعي في القوى الاقتصادية والسياسية في العراق . وقد جعل الملا مصطفى البرزاني العودة المنتصرة من الاتحاد السوفياتي كيوم جديد للتقدم وكان من المفترض ان تنبثق معاهدة صداقة عرقية متبادلة في العراق . والتحق عبد الله فوراً برجال البرزاني للعودة الى بغداد تاركاً وراءه زوجته الروسية وابنته .

وفي سنة ١٩٦٠ عمت الفوضى العراق ثانية فقد كان الشيوعيون يقاتلون القوميين العرب . ولم يبد احد اهتمامه عدا الاكراد بقضية الحكم الذاتي الكردي . وعندما انتفض ان قاسم لن ينفذ ما وعد الاكراد به ، بدأ الاكراد المشاركون في حرب العصابات بالقتال في الجبال . وقد رد عليهم قاسم بالحرب الشاملة . وتحت ضغط هذا الانكار الجسدي لحقوقهم بدأ الاكراد بتشكيل حركة موحدة .

لقد كان الملا مصطفى - وهو رجل قبيلة البرزانيين القوي الشكيمة والجنرال من ايام مهاباد - قائدا عسكريا لاجدال في ذلك ، وقد كان هنالك ايضا قواد سياسيون آخرون في ح . د . ك وهسه الا حرف ترمز اصلا الى الحزب الديمقراطي الكردي ، الى ان تغير الاسم الى الحزب الديمقراطي الكردستاني ليمثل كل المجموعات المضطهدة في كردستان العراق بما فيهم - الآشوريون ، والتركمان ، والعرب ، وأيضا الاكراد . وقد توسع الجيش الكردي من المقاتلين البرزانيين غير النظاميين الى " البيشمرغه " وتعني حرفيا " مواجهوا الموت " وهو الاسم الذي عُرف به الجيش الكردي منذ ذلك الحين .

لم يكن عدوان سنة ١٩٦١ مثل الحروب الاخرى ضد الاكراد

يشمل غالبية الجنود العراقيين وقد حصل الاكراد على الكثير من الاسلحة من الفارين من الجندية وكذلك من السوق السوداء وقد تسرك العديد من الضباط الاكراد مواقعهم في الجيش العراقي وانضموا الى الملا مصطفى .

لقد قصف العراقيون القرى الكردية بالقنابل ورشقهـا بالرشاشات ، واسقطوا النابلـم واطلقوا المـوارـيـخ عليها . وسـمـي الـريـف خرابا ، وفر الكثير من القرويين الى التلال والكهوف بحثا عن ملاجئ لهم . وعلى الرغم من هذا الهجوم الفاري ، كان الـاكـرـاد لا يزالون غير قادرين على ان يتوحدوا سياسيا . وقد تحالف بعض الاكراد مع الحكومة العراقية وقتلوا ضد اخوانهم الاكراد . وقد كان الزباريون ، الاعداء القبليين التقليديين للبرزاني ، قسـد عززوا بسرعة من قبل الحكومة العراقية لمقاتلة العصيان المسلح . بعدئذ بدأ النزاع بدب بين القواد الاكراد أنفسهم ، وقد انقسم ع . د . ك . بـي المصالح القطاعية القبلية ، التقليدية الممثلـه بالـرزاني وبين العناصر الاشتراكية ، اليسارية الجديدة المتعاطفة مع حلال الطالباني . ان الدور الاجتماعية والسياسية لعائلة الشيخ عبد الله جعلت منه مالكا للاراضي ولكنه اخذ اليسار من البرزاني لثقافته السوفياتية . وربما ان البرزاني خشيـه لأنه كان ممن الممكن ان يقدر على توحيد هذين الطرفين المنشقين . كان ممن الممكن لعبد الله ان يعارض حق البرزاني في حكم كردستان على اسس السـلـالـة الارستقراطية فقط . فقد كان اسـلـافـة ثـوارا معروفين ، كما كانوا شيوخا موقرين . ولم تكن للبرزاني شجرة عائلة تمتـد بنسبها لتصل الى النبي .

اشار الشيخ عبد الله الى البرزاني بازدراء ووصفه بآنـسـه دكتاتور ، مع تشديد على المقطع الاخير . وحسب اقوال الشيخ فانـسـه كان قد اطلق سراحه عملاء السافاك المبعوثون من ايران ، بعد ان سجنه البرزاني في الجبال ، وذلك نزولا عند طلب والده . فكرت كثيرـا

في الجزء الأخير من القصة المتضمنة تورط والد عبد الله مع البوليس السري الإيراني . وربما كانت هذه مسألة منفعة فقط بالنسبة لعبد الله ، فقد كان عليه الخروج من العراق بأية وسيلة . وفي سنوات عديدة لاحقة بدأ البرزاني بتطهير ح . د . ك ممن ارتاب فيهم على أنهم شيوعيون ولكن عبد الله وهو ابن شيخ مسلم مشهور لم يعد شيوعيا أكثر من معظم الذين اختلف مع البرزاني . فقد كان يرى فقط أنه حتى لو تمكن الاكراد من اعلان الاستقلال الذاتي من الحكومة العراقية فإن معظمهم سبطلون مضطهدين وسيستمررون في قوة عملهم ومحاصيلهم لمالكي الاراضي . وقد شكك عبد الله ومفكرون آخرون من الاكراد في امكانية انتصار البرزاني كاشفيين عن ولاءاته ، واساليبه الآيلة الى الزوال . وفرقائد المعارضه الرئيسي ، جلال طالباني من العراق ، تاركا زمام قيادة ح . د . ك في يد الملا مصطفى البرزاني لوحده .

استمرت الحرب الكردية تسع سنوات أخرى بعد عزل قاسم عن السلطة بعد بضعة سنوات من حكمه ، وقد اعلن في البداية عن اتفاقية وقف اطلاق النار ، ولكن الحكومة الجديدة تشدقت فقط بتأييدها لاهداف الكردية . واتضح بعد مدة ليست بطويلة من تعزيز سيطرة الحكم الجديد على العراق أنهم كانوا المقاومين الأكثر عنفا للاكراد أكثر من كل الذين سبقوهم . وكممثلين عن جميع العرب لم يبذروا الحكام العراقيين تعاطفا مع الآشوريين ، التركمان ، اليهود او حتى العرب الشيعة في الجنوب العراقي . وفي سنة ١٩٧٠ وقع الاكراد والحكومة اتفاقية سلام متضمنة على خمسة عشر بنداً . وقد كان من المفترض ان يجري احصاء في شمال العراق لتحديد المناطق التي تقطنها اغلبيية كردية واقرار هويتها . وبعدئذ سيعلم عن هذه المناطق على انها مستقلة . ولكن الاحصاء لم ينفذ ابداً . وفي الحقيقة بدأ العراقيون بابعاد الاكراد من اراضيهم نفسها بالقوة وايضا كان من المفترض على البعثيين ، بموجب الاتفاقية ان يصلحوا

- من الناحية الاقتصادية - المناطق التي دمرتها حرب التسع سنوات بالإضافة الى ضمان الحقوق اللعوية والثقافية . للاكراد وحسب رأي الاكراد لم تتخذ اي اجراءات من شأنها ان تحسن المعيشة في كردستان . وفي سنة ١٩٧٤ كان من السهل على الساه ذلك - اسراب المرتزقة لأمريكية تشجيع الاكراد - بعد ان ساء حالهم . . . في الوقت الذي اعتبر فيه الاكراد ان النزاع الذي قدمها . . . شيون لم تحقق البنود الاصلية لاتفاقيتهم . ولكن لو كانوا يعرفون اسمهم سيفقدون فيما بعد حتى حقهم في التحدث بالكردية في مدارسهم الخاصة ، لما خاصوا الحروب على الاكراد .

عبد عبد الله الى ايران قبل عقد في مطلع الحرب
 ه الثانية ، وجد ان ثروة العائلة ماتزال ضخمة
 على الرغم من انها قد استغرقت الى حد كبير . كان الشاه سنة ١٩٦٠ .
 قد نفذ مشروع اصلاح الزراعي ، الحرء الاساسي مما دعاه على نحو
 متسم بالمسالفة بشورته البصاء . وبموجب هذا الفانون ، لم يسمح
 لأي مالك للأراضي ان يمتلك اكثر من قرية واحدة . واما الباقي
 فيجب ان يعاد للحكومة . وعلى الرغم من وجود الدليل الكافي الذي
 يشير الى التنفيذ غير العادل لهذا الفانون على نحو فاضح في ايران
 فقد طبق في كردستان ، على الاقل ، بهذا الشرط وحده ، أي فيما
 يتعلق بابقاء قرية واحدة لكل خان (سيد) ولم التقي ابدا بمالك
 اراضي كردي مهما كان غناه او سلطته ونفوذه يمتلك اكثر من قرية
 واحدة . وقد بدا ان الاتراك من الجهة الثانية قد اصابوا نصيبا
 اوفر ، بعضهم على الاقل . فقد كان يظن ان امير فلاح - ذلك
 الرجل الغني القاطن في بداية زقاقنا - يمتلك ست قرى .

بعد ان تبع والد الشيخ عبد الله اصلاح الزراعي ، بطلبه
 ابتياع احدى قرى العائلة مسترجعا اياها من الحكومة ، نجح في ذلك
 وكانت هذه هي القرية التي اتاها عبد الله مؤخرا ليوظف ماله
 ويبحث في اسباب تأمين مستقبله . كان قد وصل ايران وهو على

حافة الشيخوخة ولدى حدوث تغيير مفاجئ في غير اوانه في النهج السياسي الذي بدا واعدا بالكثير والذي من المؤكد قد اقتضى استعدادات ضخمة ومعاملة من جهته ، لم يعتمد على ثرواته او يعلق آمالا على المركز الاجتماعي لعائلته بينما بقي ابن عمه الحاج اسماعيل في الصف الموروث عن اسلافه وتزوج من خمس نساء ، كان عبد الله قد قاتل في العراق وابران ، ثم في مصنع وعاش في سيبريا . الى ايران بعد كل هذه السنين لم يكن يملك شيئا حتى زوجة .

عُثر على زوجة له بسهولة من بين عائلته ، اما الباقي فقد كان يقع على عاتقه هو نفسه . لم يستطع ان يتبع خطى والده لأن قضاء عقده من الزمن في روسيا لم يكن سهلا من الاستعداد للملاصم لأن يكون شيخا صوفيا مزاولا للشاححة مع وجود اتباع ومريدين له . وكذلك لم يستطع الاستفادة من دراسته وثقافته الجديرة بالاعتبار . ففي ايران لا تقدر الشهادات الصوفياتية غالبا ، لأنه ينظر الى الذي عاش في روسيا - ولو بشكل مؤقت - بارتياب ، أي كان مايقوم به الشيخ عبد الله خلال وقته وهذا مما لم يكن حلييا بالنسبة له . اطلاقا ، فقد كان واضحا من الطريقة التي يتحدث فيها انه يشعر بأن عيون السافاك كانت تراقبه دائما . فعندما سألته عن سبب عدم كتابته مذكراته اجابني وهو يبتسم وكما لو انها كانت نكته ، على ان ذلك لا مجال للتفكير فيه على الاطلاق . فحتى كتابتها وبسودون محاولة لنشرها ستعرضه للخطر .

على الرغم من عدم كون الشيخ عبد الله شخصا فذا في ايران وعلى الرغم من القيود التي تربطه بمدينة متخلفة وقرية صغيرة ، فقد كان من الواضح انه ذو شأن في كردستان . وقد كان ذلك سبب مجيء اللاجئين لزيارته وسبب مارآيته من تدفق الملاكي والقواد الذين يأتون يسألون نصيحتة عندما قمت بزيارة الى قريته مؤخرا . تساءلت فيما اذا كانت هذه القلة القليلة من التقدير والاحترام تعسـوسـ

عما فقدته بعد كل هذا .

حاولت ان ابلغ بعضا من ماهيه شعور الشيخ عبد الله تجاه ماضيه عندما كنت جالسة في ايوان منزله اتناول نباتا شوكيا مطهو مع الارز واللبن ، نظرت بفضول الى الصورة المعلقة على الجدار وقد كانت تظهر والده وهو ينحني للشاه . ان مثل هذه الصورة كانت ضرورية في أي منزل يمكن ان يفخرناسه بأي صلة شخصية مع الشاه . ماذا يعني لعبد الله - ذلك الرجل الحاصل على دكتوراه في الفلسفة من لينينغراد والذي كان قد فر لدى انهيار جمهوريية مهاباد - ان يعلق صورة كهذه في غرفته ؟ تفحصت عائشة وهي تنحني نحو طبقها متضايقه عندما جلست على كرسي قاس ، بدلا من الارض التي اعتادت عليها. هل رغب عبد الله في الزواج من فتاة ريفية غير متعلمة ؟ لم تكن هذه الحجة تنطوي على شعور بالمأساة او على تضارب عنيف او مشير بين قوى مختلفة. ولا على شعور مفعم بما أخبرنا به الشيخ لتوه ، فقد رأيت امامي فقط زوجا وزوجة يتناولان الغداء مع صديقين لباقة فقط . لقد كانت قصة عبد الله جديدة علي ولكنها كانت قديمة جدا بالنسبة له .

بعد ان تناولنا الغداء بقي جيرد مع الشيخ ، بينما اخذتني عائشة الى الطابق العلوي ثانية لاحتساء الشاي في حجرة جلوسها . وبينما كنا نحتسي الشاي تأملت صورا في اليوم كبير انزلته من على رف الكتب . وجميع هذه الصور التي كانت بالابيض والاسود كانت تخص عبد الله واصدقائه في روسيا - منها مشاهد رحلات عامة واشواب سباحة لا يمكن تصورها في كردستان مع وجود آلة تصوير او بدونها . رأيت صورة للزوجة الروسية بخديها السلافيين والابنه الروسية بففاثرها الشقراء الطويلة وعيني عبد الله الزرقاوين بمظهرهما الغريب . اخبرتني عائشة بجديده :

- لقد كتبت لها وطلبت منها المجيء لتعيش معنا .

- من ؟

سألتها ، متصورة انها قد عنت الابنه .
- زوجة زوجي .

لقد ادهشني ذلك . الا تتمتع عائشه بمكانتها كزوجة وحيدة ؟
وقالت عائشة بحزن :

- ولكنها لاتستطيع المجيء .

عائشة وعبد الله لم يكونا كرديين نموذجيين ، ولكني كلما كنت اعرف اكرادا اكثر ، كنت ادرك اكثر ان لأحد من الذين التقيت بهم يمكن أن يعتبر نموذجيا ، وحتى خديجة بهيبتها الريفية لسم تكن المثال النموذجي . لقد كانت ردود افعالهم جميعا تجاهي مختلفة ، ولكن بدا أن عائشة وعبد الله فقط يريان ماهو ابعد من غربتي ، ونظراتي وسلوكي الغريب . كنت اشعر مع الآخرين انهم لن يستطيعوا فهم ماكنت ارغب فيه فعلا ولكن عائشة كانت تعرف ما اريد^{٣٠} . وفي زيارتي الثانية لايران اشارت عائشة الى حقيقة اننا - انا وجيرد - دون ريب قد عشنا معا قبل ان نتزوج ، وهذه الحقيقة لم اذكرها لكردي ابدأ . وعندما حاولت على نحو واهن ان انكر ذلك ضحكت كما لو انها تعرف اكثر من ذلك بكثير. أن مثل هذه الدراية وخصوصا هذا التسامح في الآراء والمبادئ والسلوك كان غير مألوف اطلاقا بالنسبة لامرأة كردية ، او في الحقيقة لأي امرأة في ايران . فقد سمعت سيدات ايرانيات مدنيات ، وعلى الرغم من وجود اولاد لهن يدرسون في الولايات المتحدة ، انهن يشرن وبثقة الى حقيقة ان جميع الفتيات الامريكيات فاسدات .

أي مستقبل يتصوره الشيخ عبد الله وعائشة لنفسيهما ؟ هل سيغادران ايران يوما ما ؟ هل يمكن لعبد الله ان يستأنف نشاطه السابق في الحركة الوطنية الكردية ؟ لم تخطر ببالي هذه الاسئلة في الاشهر التي بدأ فيها جيش البرزاني وكأنه قد ربح الجولة في العراق . وقد بدا لي ان عبد الله كان يشكل تهديدا للبرزاني

ولكنه قد خسر ، اما البرزاني فقد ظفر . ولو تمكن البرزاني من قيادة
الاكراد العراقيين نحو الانتصار ، لعنى ذلك الانتصار الاعظم لنهجه .

حدثت تغييرات شاملة موعرا ، تذكرت كلمة عبد الله -
دكتاتور - وهو ينطقها بانفعال اكثر مما قد اعتاد عليه لدى
مناقشة ومجادلة مسائل متعلقة بالسافاك والحكومة الايرانية . كان
الشيخ عبد الله مايزال وطنبا مخلصا . ولاأظن انه كان سعيدا للحظه
لما حدث للاكراد على الرغم من الضربة التي سددت للبرزاني . ولكن
كان لعبد الله كلمات قاسية عن قواد هذه الثورة ، فقد وصفهم بأنهم
رجال باعوا ثورتهم للحكومة الايرانية والسافاك وملؤوا جيوبهم
بالذهب . فبعد عشر سنوات من وجوده في ايران كان الشيخ عبد الله
في موقع افضل من الجميع ليقدر ماذا كانت الدوافع الايرانية الحقيقية
في دعمها للقضية القومية الكردية .

الفصل العاشر

لا يزال جزء وحيد من كردستان ، يلزم تفكيري . فـلـسـو
اغلقت عيني ، فباستطاعتي ان ارى تلك الحلقة من الوجوه الشاحبة ،
القلقة ، وجوه بعض المدرسين الذين يعتبرون من خيرة الاكراد واكثرهم
ثقافة في العالم . كان العديد منهم يتحدث بانكليزية طليقة وكانوا
جميعا يتقنون العربية . كانوا يرتدون مثلما ارتدي ، ولكونهم
اكراد لم يبدوا كالاغانب . استطيع تخيلهم في أي مدرسة ثانوية
في الولايات المتحدة . ان وجودهم في ايران وحتمية مواجهة العديد
منهم التعذيب والموت كان في حدود الامكان ، لم يكن هؤلاء الناس
مثلي فحسب ، بل اني كنت قد ارتكبت خطأ محاولة توريط نفسي
ومواجهة نفس مصيرهم .

ان الوجه الاكثر حيوية هو وجه جمال ، ذلك الوجه الذي
كنت اتخيله مرة تلو الاخرى عندما قرأت اسماء الذين اعدموا في
العراق . اتخيل حديث هذا الرجل ، الودي والرفيق وعينه الاكثر
رقة والذي يمتحن تدريس الصف الاول . كنت واحدة من تلميذات صفه
الاول وقد اظهر لي الاهتمام والصبر بنفس القدر الذي اظهره لجميع
طلابه - كان يناهز السادسة والعشرين ، لم ار ابداعا مثله ولم
اتصور امكانية وجود رجل مثله . ربما لن يشابروا على ما كانوا
عليه تحت ضغط الظروف القاسية والوحشية في ايران ، ولكن جيلا كاملا
من الاكراد في العراق كان قد نشأ ودرس بلغته الام وتعلم فـسـي
الجامعات في السلمانية . وقد تسلم هذا الجيل بكتبه التمهيدية
لتعليم مبادئ القراءة والكتابة وكتبهم المدرسية . وكل ذلك
بالكردي . كان من الصعب علي تمديد ان هؤلاء أيضا كانوا اكرادا .
فاللهجة التي يتداولونها ، ويكتبون بها كانت مختلفة لدرجة كبيرة

عن لهجة اكراد ريزاي حيث كان من الصعب علي تتبعها .

حضرت الى مدرسة اللاجئين تحت رعاية العدو - فقد كانت الحكومة وراء قناع جمعية الاسد والشمس التي كانت تمنح المساعدات للاجئين . وعلى الرغم من ان البرزاني ومستشاريه كانوا قد قرروا ان يتركوا الايرانيين يقودون امر الثورة الكردية ، فان الاكراد العاديين لم يشقوا بالايرانيين . فهم لايتذكرون مهاباد فحسب بل انهم كانوا يكرهون العيش في ايران . لقد ذاقوا طعم الحرية في العراق ، حرية ان يكونوا اكرادا وان يحملوا السلاح عندما يشعرون انهم مضطهدون . لقد كانت ايران بشاهها الكلي الوجود بصورة وبوليسه السري اكثر من قدرتهم على التحمل .

كنت اراقب اللاجئين لفترة طويلة ، قبل ان التقى بأي منهم . كان اغلبية سكان ريزاي غير الاكراد ينعتون اللاجئين بالبرزانيين وكما لو انهم كانوا جميعا من قبيلة ملا مصطفى البرزاني . ولكن هذا النعت كان يلائم الجنود ذوي العمائم الحمراء فقط ، الذين كانوا يشكلون جزءا من مجموع اللاجئين .

لقد اتى الاكراد من كل حذب ومؤب ليشاركوا في الثورة الكردية سنة ١٩٧٤ . وكان بعض المحترفيهم والمتمرسين الاكراد في الجيش العراقي قد اخلوا مواقعهم في بغداد لينضموا اليها . وحتى ان اكرادا من الخارج تركوا حياتهم المريحة واتوا للبرزاني واثقين من ان تكريس حياتهم لهذا الجهد الموحد للاستقلال الذاتي لن يذهب هباء .

علمت من حديثي مع امير أن هناك طبقتين في التسلسل الهرمي للاجئين . فالمجموعة الضخمة من اللاجئين كانوا قد اسكنوا في معسكرات واسعة حول منطقة ريزاي ، وكان احد المعسكرات قد اقيم في غرب المدينة مباشرة ، بينما كانت معسكرات اخرى عديدة في الجنوب . كان القرويون العاديون ورجال القبائل وكذلك سكان المدن

الفقراء من العراق قد انتظمت اسماؤهم في لوائح في هذه المعسكرات كانوا اناسا قد النقطوا اطفالهم وفروا من القصف المستمر مع اشياء اخرى قليلة غير الستهم على ظهورهم .

حتى الاكراد الاكثر غنى ، الذين نجحوا في احضار الذهب وواحد او اثنين من خدمهم من العراق ، قد عانوا القساوة والرعب في الطرق الجبلية السرية المؤدية الى ايران . كانت احدى العوائل مع اطفالها قد بدأت رحلتها في سيارتها الخاصة ولكنها خوفا من أن تكون مكشوفة للطيارين ، انتهت الى اتمام رحلتها سيرا على ارجلهم . وزوجة طبيب شري غير معتادة على بذل الجهد العضلي من . كانت قد اتت لوحدها دون زوجها على ظهر حمار . ولكن مصيبتها الفرويين كانت هي الاكثر اثاره للحزن والاسى . ففي البداية لم ارى وجوههم الملوحة بالشمس والمسمره من الغبار ، ولم اشهد معاناة هؤلاء الناس الذين يشكلون جزءا من الغالبية العظمى لمجموع اللاجئين فسي نهاية هجرتهم الجماعية الفظيعة عبر الجبال الاقي نهاية اقامتي في ايران تقريبا .

كان معظم اللاجئين الباقين في أواخر الشتاء من النساء والاطفال وكان الرجال يأتون بين فينة واخرى في اجازات من القتال . عند ذلك سنرى المحظوظين الذين حصلوا من الحكومة الايرانية على تصاريح للقيام برحلات قصيرة الى المدينة . كانوا يزورون البازار وبعدئذ يتجمعون في سيارات الجيب المعطوبة ليسيروا عاشرين الى المعسكرات

كان يقيم في المدينة نموذج آخر من اللاجئين الاكراد وهم عائلات قواد الحزب الديمقراطي الكردستاني وضباط البشمير كسمة " مواجهي الموت " وقد كانت جمعية الاسد الاحمر والشمس ، واجهة السافاك ، تدفع تكاليف معيشتهم ، بينما يمضي الرجال جيئة وذهابا عبر الحدود ليواجهوا سير الحرب . كان اللاجئين المقيمون في المدينة اكثر غنى بكثير عادة واكثر تعلما من الجزء المنتم لهم في المعسكرات . كانوا يميلون الى ارتداء الملابس الغربية فسي

الشارع على الرغم من أن البذلة الرسمية لجيش البرزاني كانت تتألف من " شلوار " خاكي مع سترة مشدودة ملائمة له ، وعمامة مثل الالبسة التي يرتديها خدم عبد الله تماما . وعلى الرغم من غناهم والراحة النسبية لحياة المدينة فقد كانت هذه العائلات حبيسة هي أيضا . فلم يكن باستطاعتهم الذهاب الى أي مكان خارج ريزاي بدون إذن سفر .

ان جزءا من الدمم الايراني لسير الحرب العراقية - الكردية كان يشمل على جولات شخصية لعدد من المراسلين الغربيين الذين قدموا لزيارة معسكرات اللاجئين عبر ريزاي وبعد ذلك يعبرون الى العراق ليشهدوا المعارك . قررت ان استخد م صليتي الوحيدة لأرى اذا كان باستطاعتي أنا أيضا زيارة معسكر اللاجئين . كنت اهتم على نحو خاص بروعية المدرسة هناك ، فالمدارس ذات الادارة الكردية الوحيدة في ايران كانت مدارس هؤلاء اللاجئين ، كانت صلة الوصل لدي ، ذلك الرجل الذي التقينا به في يومنا الاول في ريزاي أو بالأحرى في الطائفة حتى قبل هبوطنا على الأرض . لقد كان مسؤولا عن ادارة جميع المعسكرات ، لكونه مدير فرع ريزاي التابع لجمعية الاسد والشمس . ومنذ اقامتنا في ريزاي كنت قد رأيت هو وزوجته في مناسبات اجتماعية عديدة وقد عرف اني ادرس الكردية . وبما انه هو وزوجته كانا ودودين معي ، فقد كنت واثقة تماما من انه سيفي السبي على الاقل .

وعندما وصلت الى مكتبه ، افصحت عن طلبي ، شعرت بالارتياح لانه بدا مصفيا وكما انه لا يوجد شيء ملفت للنظر على الإطلاق في رغبتني روعية احد المعسكرات . كانت هناك صعوبة مخفية وحيدة وهي انه كان عليه ان يستدعي السافاك ليصدقوا على قراره لانه لا يسمح لأحد بالدخول الى المعسكرات دون موافقتهم . قضيت معظم فترة الصباح في مكتبه ، انتظر رد السافاك عليه ، واخيرا اجابوه بالنفي . على أية حال حصل انعطاف غير متوقع في الموضوع . فقد عانيت القلق لعدة شهور من أن السافاك كان يراقب نشاطاتي في

ريزي ، ولكن اتضح - وبغض النظر عن معرفة ماكنت منهمكه فيه - ان السافاك لم يعرف حتي من آكون . وحسب أقوال مدير جمعية الاسد الاحمر والشمس فانهم كانوا قد صنفوني على اني امرأة أمريكية أخرى في المدينة كانت متزوجة من إيراني وكانت قد قُضت وقتها في إيران تخدم في فرقة السلام . ولكنني انكرت هذه الهوية . نظر الي المدير الذي كان من المفترض انه يعرف اكثر وكما لو انه كان متأكدا من كذبي . واتضح انه على الرغم من عدم اهتمامهم بالضغط من آكون ، فان السافاك لم يكن يسمح لأي امرأة اجنبية بالدخول الى معسكرات اللاجئين بدون اوراق اعتماد تظهر انها مراسلة صحفية . بعد ان قرأنا القصص التي ارسلها اليها بعض اقاربنا في امريكا من النيويورك تايمز عن المعسكرات والحسرب استطعت ان ادرك النقطة الاساسية لدى السافاك . ان المرء وبدون معرفة للفارسية او الكردية وفي رحلة قصيرة لمدة اسبوع في المنطقة من موقع رسمي في طهران او بيروت أو باريس كان يتوه ويبتعد كثيرا عن حقيقة الاحداث ، لدرجة أن معظم هؤلاء الصحفيين ماكانوا يعرفون حقيقة السافاك في إيران ومن يمثلون . ولكن لو كنت انا أيضا صحفية قد استضيفت تحت الطلب لجعل الحسرب الكردية قضية مشهورة كان من الممكن آنذاك أن ينظر الي السافاك نظرة مختلفة تماما .

عندما رأى مدير جمعية الاسد الاحمر والشمس كم اصبحت بالخيبة ، قدم لي عرضا مقابلا لذاك . فيدون موافقة السافاك لم يستطع السماح لي بزيارة المعسكر ، ولكنه يستطيع - على حد زعمه غير الموعود بدليل - ان يرسلني الى مدرسة اللاجئين المحلية في المدينة . لم يخطر ببالي أبدا ، امكانية وجود مدرسة خاصة للاجئين في المدينة ، ولكنني وافقت مباشرة على الاقتراح وان اعود الى مركز قيادة الجمعية خلال يومين لتأخذني سيارة خاصة الى هناك . ابتسم مدير الجمعية وكان واضحا انه قد سر لأنه استطاع ممل شيء لي . وابتسمت انا ايضا ، وسررت لأنه لم يعد لزاما علي أن

امضي وقتا آخر في الجلوس في مكتبه اراقب مواكب المتوسلين الذين حضروا امامه يترجونه ان يوعدى لهم خدمات معينة . عندما عدت بعد يومين ولعدم معرفتي اين تنتهي سلطة الجمعية واين تبدأ السلطة الكردية ، لم استطع أن اخمن اذا كان الرجل ذو الشعر الاسود بسيارته البايك الامريكية المعطوبة كرديا ام ايرانيا . سرنا بصمت الى المدرسة وقد كانت حقا مجرد منزل قديم خلف جدار عال في احد الشوارع الرئيسية في المدينه . كان المدرسون في الطابق العلوي يجلسون مشكلين حلقة في مقاعد معدنية في حجرة هيئة التدريس . وعندما قادني الرجل الساق - الذي اتضح انه كردي الى الداخل توقف الجميع عن الحديث وحدقوا في .

حاولت ان اوضح سبب مجيئي بكردية خشة ، فتغيرت تعابير الفضول على وجوههم الى حيرة . توقفت ثم بدأت وتوقفت ثم بدأت وتوقفت ثانية . لقد كنت اهذي بالنسبة اليهم ويقدر مايتعلق به . لا . سألني احد المدرسين بانكليزية طليقة ، فيما اذا قد كنت كردية . فأومأت برأسي موكدة ذلك . حدقوا في بعضهم البعض وهم يبتسمون وقالوا :
- آه ، لقد انت لتتعلم الكردية .

كنت متأكدة من أنهم يفكرون في كيفية مجيئي من مكتب رئيس الجمعية من عند السافاك مباشرة . هل من المعقول أن يثقوا بشخص مثلي ؟ لقد استقبلوني بغض النظر عما اذا وثقوا بي أم لا ، واعطوني واحدا من الكتب التمهيدية لتعليم القراءة والكتابة المهرية عبر الحدود من قبل الجيش الكردي . اجلسوني بينما كانت وجوههم تنم من الاضطراب والخوف على مصيرهم ومصير العوائل والجيران الذين كانوا لا يزالون في العراق .

رحب جمال بي بحماس كطالب في صفه الاول . وبعد يومي الاول في المدرسة تساءلت عن مدى قدرتي على الصمود في الصف الاول ، فقد بدا مملا ومقيدا الى حد بعيد . كنت اتلوى فسي

مقعدي تماما مثل زملائي في الصف ، الجالسين بقربي في مقاعد خشبية ضيقة وطاولات ضيقة للقراءة والكتابة موضوعة امامهم .
 حلق في تلاميذ الصف الاول - المرتدون على نحو نظيف ، البسة أطفال ملونه . غربية الطراز - وجحظت عيونهم لروية زائرتهم الضخمة .
 كنا نستدعي الى اللوح الواحد تلو الآخر لنقوم بعمل ما . كان الاطفال يفسطون بحزم ولكن لسوء الحظ لم يكن جمال يعاقبني عندما كنت اسرح بعيدا . كان يعلن عن الفرص بجرس كل اربعين دقيقة ، كنت اقصيها في حجرة المدرسين . كان يوجد مدرسون لمادة الرياضيات ، والانكليزية والعربية والجغرافية ، والفيزياء ومدرسة للتربية البدنية ومختصون لأغلبية المواد الضرورية لتعليمها في الصف الاول حتى الثاني عشر . لقد ترك في ذهني انطباع عميق ليس فقط بسبب حقيقة ان مجلس الثورة الكردية قد تحرك لتأسيس هذه المدرسة . حالما قدم اللاجئين الى المنطقة فحسب ، بل أيضا بسبب تفاني المدرسين لدرجة كبيرة في عملهم . لقد علمت في كلية وليس في مدرسة ثانوية في ايران ، ولكن المدرسين هناك بدوا اناسيين وغير مهتمين ليس فقط بالطلاب ، بل أيضا بالمادة نفسها . كان في مطلع كل كتاب مدرسي ايراني فني المدارس الثانوية صور تملأ صفحات بكاملها للشاه وزوجته وولي العهد . لم تكن أي من الكتب الكردية تحتوي على صور من هذا القبيل . وكانت النصوص الانكليزية في المدارس الثانوية الايرانية حافلة بالاططاء . اما مدرسا الانكليزية في هذه المدرسة كانا قد درسا في بلاد نتحدث الانكليزية وكانت النصوص التي يستخدمونها دقيقة ولو انها كانت قديمة العهد .

كانت مديرة المدرسة الكردية تحثني على المجيء كل يوم ولكن ذلك كان مستحيلا . فقد كانت صفوفي لاتزال موجودة في الكلية واعرف الانطباع القوي الذي سأخلفه لدى العميد عندما يسمع أنني كنت احضر في الصف الاول في مدرسة اللاجئين المحلية . بالإضافة الى ذلك كان باستطاعتي فقط ان اوقف حضوري في الكثير من دروس

الصف الاول . وقد قررت ان افوت حصص الحساب لهذا الصف بعدد آن
تمكنت من مصطلحات الرياضيات الخاصة بالصف الاول بالكرديّة . كانت
سرعة سير حصص القراءة تمضي ببطء شديد وقد كانت موء لفسسة
من استظهار من غير فهم . وحفظ عن ظهر قلب ، والشيء الذي كان
يمتعني اكثر هو جلوسي في حجرة المدرسين واصفائي الى احاديثهم
بالكرديّة والعربيّة .

جلست في منطقة محايدة حيث يقابل فيها نصف حلقة النساء
النصف الآخر من الرجال . لقد كان عدد الرجال والنساء في الفصل
الاول من السنة متساويا تقريبا . ولكنهم كانوا يتحدثون معا
عبر الحلقة اكثر مما يتحدثون وهم جالسون جنبها الى جنب . كان
جمال غالبا ما يأتي ويأخذ دفتر ملاحظاتني المليء بالوظائف ليرييه
لمدرس آخر . ويسأل مدرس الفيزياء .

— اليس خط يدها جميلا ؟

فأخجل معتقدة انه ليس بالضرورة على كل امرئ ان يحكم بالمبادئ
المأخوذة في الصف الاول . ولكنني كنت اسر لمديحهم على الرغم
من ارتباكني .

قاسمني المدرسون كل ما عندهم ، الكتب المدرسية القيمة
والغذاء الذي كانت الحكومة الايرانية تمنحه لجميع اطفال المدارس
على نحو روتيني . وكان يشتمل على البرتقال والفستق والشاي
والحليب . وقد استطاعت احدى المدرسات أن تتخطى الى المنطقة
المحايدة بشجاعة لثأتي وتكلمني فعليا . لقد كانت مدرسة
التربية البدنية ماري . كنت اراقبها منذ فترة طويلة . كانت
فارعة الطول وذات جسم رياضي رشيق . وشعرها الفاحم كان طويلا
وقد علقته الى الخواصر ليظهر وجهها النحيل والشاحب . كنست
اسمعها باستمرار تقول للطلاب " يا الله ، يا الله " عندما كانت
تحتشم على النزول الى الطابق الاول والى الخارج ليلعبوا فسي
الفرصة . ويا الله ، شعني بالعربيّة " هيا ، اسرموا " وقد علمت

موءخرا أنها كانت تتحدث بالعربية مع الطلاب على وجه الحصر
على الرغم من أن جميع المدرسين كانوا احيانا يتحدثون مع بعضهم
بالعربية .

في المرة الاولى التي غامرت فيها بالتحدث الي ، كان
في يدها مجموعة من الصور بالابيض والاسود ، قد احضرتها لتريها
لي . لقد كانت تلك صور حفلة زفافها . تأملتها وقد اندهشت
لدى رؤيتي تنورتها القصيرة وقبعتها العريضة . بعدد ادر كنت
ان جميع الصور قد التقطت في كنيسة في ريزاي .

— هل انت كردية ؟

سألته متشككة فيما اذا كان في سوء الي اساءة ما . فأجابتنني
وهي تضحك .

— لا ، نحن آشوريون .

كان لماري عدة اخوة واخوات يحضرون الى المدرسة ،
ولكن لا أحد منهم كان يتحدث الكردية . ومع ذلك فقد كان عليهم
أن يقرأوا من الكتب المدرسية المدونة بتلك اللغة .

كانت واحدة من المدرسات الاخريات تركمانية ، عراقية
تتحدث بلغتها التركية الام في المنزل والعربية في المدرسة
تماما مثلما كانت تفعل ماري ، حيث كانت تتحدث بالآرامية مع
اخوتها وأخواتها وتحتفظ بعربيته لتتحدث بها مع الاكراد . في
البداية بدا غريبا جدا أن تجد اناسا غير اكراد من مدرسة
لاجئين كردية ، حيث كان التشديد كله مركزا على استخدام اللغة
الكردية كوسيط للتعليم . ولكن ذلك لم يكن لافتا للنظر ضمن محيط
الشرق الاوسط . فقد كانت جماعات اخرى قد انضمت الى القتال
الى جانب الاكراد ، لأن حقوقهم جميعا كانت قد انكرت من قبل
الحكومة العنصرية التي كانت توءثر العرب السنيين على جميع
السكان في العراق . كانت قرون من العداة بين الاكراد والاشوريين
قد تلاشت في مواجهة حكومة حالية ارادت ان تهيد كلا المجموعتين .

لو كنت اعرف أن أيام هذه المدرسة معدودة ؛ لربما حضرت على نحو مكثف أكثر ولكني لم أكن اعرف . لقد كان لدي عملي في الكلية ، وكنت التقي بالسيد احمدي بانتظام وكذلك بالنساء الكرديات في المدينة . ومع ذلك فقد شعرت انه عليّ المجيء ، فقط للجلوس في حجرة المدرسين . كبح اندفاعي شيء ما بالإضافة الى عملي والملل من منهج الدراسة في الصف الاول على الرغم من اعجابي بعمل المدرسين المنجز ومقا لما يرتضيه الضمير وتصميمهم على تعليم لغتهم الام وسط حرب رهيبه ، تستهدف استئصالهم من الجذور .

كان ينتابني في بعض الايام احساس بالذي تجشم عناه هؤلاء اللاجئين وما جرى لهم لدرجة اني لم اكن ارغب في البقاء معهم في نفس الحجرة وكان ذلك يعود الى جو الكآبة الى حد ما . قضت احدى الفتيات الصغيرات وقتا طويلا من يومها مختبئة تحت مقعدها . وكان جمال يصيح بها باستمرار أن تسلك سلوكا حسنا ، ولكني لم استطع ان اخفي اندهاشي وتساولي عن ماهية الانطباعات التي تركها القصف في ذهنهم . كان المدرسون يركضون بعصبية وانفعال نحو النافذة كلما كانت تمر طائرة على نحو منخفض فوق رؤوسهم . وقد لاحظت ان طياري الجيش الايراني كانوا يستمتعون باشارة دعر السكان المحليين وذلك بالتحليق على مقربة دانية ما أمكن من سقوف المنازل في المدينة . بعد فترة قصيرة اعتدت عليهم تماما ، ولكن ذلك سيستغرق سنينا قبل أن يتغلب هؤلاء الاكراد على الخوف اللا ارادي . فقد كانت كل طائرة بالنسبة لهم ميخ عراقية . لم يكن حزنهم وكآبتهم هما اللذان كانا يبقياني بعيدا ، بل ارتياهم ايضا . ففي كل مرة . . . وكان ذلك نادرا - كنت أبذل فيها جهدي بشكل خاص لا تتبع محادثة ما ، كان احدهم يسألني بحدة :

— هل تفهمين ؟ هل تفهمين ما نقوله ؟

وعندما كنت اجيبهم بأني لا أفهمهم تماما كما كنت

أفعل دائما ، كانت تبدو عليهم امارات الرضى وعلى الاغلب لا يحاولون أن يوضحوا لي ماكانوا يناقشونه ، فهم لا يريدونني أن افهم امورهم . كانوا يتقاسمون حزنهم وخوفهم ، ومع اني لست ايرانية فان بعضا منهم كان يعرف ان امريكا ليست افضل من ايران ، بالنسبة للاكراد والمصالح الكردية في الوقت الراهن .

بينما كنت جالسة في الصف الاول في احدى الايام حدث اضطراب وصخب عظيمين في القاعة ، فتوقف قلبي هنيهة لذلك . ماذا حدث ؟ ربما أن قنبلة قد انفجرت . انفتح الباب بقوة ونقل طالب شاب الاخبار الى جمال " وقف اطلاق النار " .

اندفع الجميع من الصف الى القاعة حيث تعانق جميع المدرسين . وقف اطلاق النار . السلام . ضجت هذه الكلمات موضحة ذلك . ابتسم لي الحاضرون وابتسمت بدوري لهم كذلك . كانت هناك اشاعات بأن ايران والعراق سيتوصلان الى اتفاق واخيرا حدث ذلك في الجزائر تحت مظلة مصالح الدفاع عن الذات لمنظمة الاوبك . ولكن ماذا عن المصالح الذاتية للاكراد ؟ ماذا ستفعل بهم ايران الان ، بما أنها لم تعد بحاجة اليهم لتستفز بهم العراق ؟ اردت أن أسال المدرسين . ماذا كانوا يعرفون أكثر مما اعرفه ؟ لاحقا عرفت الجواب وأنا في طريقي الى المنـزل . انهم يعرفون القصف ، القصف فقط . لم يكونوا جنودا . لقد خافوا على حياة الذين خلفوهم وراهم في كل يوم منصرف وكل يوم آت . والان حيث توقف القصف وكذلك هدأت مخاوفهم ليوم أو يومين لم يفكروا بما سيحدث بعد ذلك وقد اتضح انه شيء اسوأ بكثير مما تصوره .

اجبرت المدرسة على الاغلاق بعد ذلك بعدة أيام . وهذا اللاجئين بانذار يتضمن العودة الى العراق فورا أو أن الحدود ستغلق في وجوههم للابد وبذلك سيتحتم عليهم وعلى اطفالهم البقاء في ايران . لم يرغبوا في البقاء في ايران فهي لم تثبت حتى

وضعهم القانوني كلاجئين ابدا وبذلك لن تسمح للصليب الاحمر على الاطلاق أن يعاين المعسكرات رسميا . لقد عبثت بمصير الاكراد، والان بما انه لم يعد لهم نفع فقد بدا كما لو أن العبث سيصبح أكثر قساوة .

عاد بعض المدرسين عبر الحدود في غضون الاسابيع القليلة التالية . وقد سمعت ان احد مدرسي اللغة الانكليزية قد اعتمد مباشرة . كانت العراق قد اعلنت عن عفو عام لكل اللاجئين العائدين ولكن كل شخص كان يعرف انه توجد قائمة للموت . لن يرجع والد ماري ، ووالد الاطفال الذين كانوا يقطنون خلف منزلنا ابدا فقد قضوا مسبقا فترة في السجون العراقية وكانوا معروفين جيدا لدى الحكومة . حاول البيشميركة الاكراد المعاقون الشديديا الاهتياج في الجبال أن يواصلوا القتال حيث أعلن بعض الضباط عن عدم تخليهم عن القتال بالرغم من موافقة البرلمان على هدنة وقف اطلاق النار . اصدرت الاوامر للمدافع الايرانية المتمركزة على الحدود وفي اماكن اخرى التي كانت تدعم الاكراد سابقا ، اصدرت اليها الاوامر الآن لتسد نحو الجنود الاكراد الذين لم يستجيبوا لاتفاقية وقف اطلاق النار . كان للفوات العراقية يوما مخصصا للمناورات العسكرية وللقيام بعمليات تمشيط واسعة للتطهير من بقايا الاكراد وضرب نطاق من الجنود حولهم في ممرات جبلية ممتلئة بالثلوج وقد عانى العديد منهم الجوع حتى الموت .

عقد اللاجئين في ريزاي الاجتماع اثر الاخر . ليقرر البقاء ام الرحيل ؟ افتتحت المدرسة ثانية ثم اغلقت مرة اخرى . وقد علّمت طلاب الثانوية الانكليزية لفترة نزولا عند طلب المدرسين المتبقين ولكن لم يعد احد يواظب على دراسته . واخبرني جمال بأنه يرغب في المجيء الى امريكا وقد فكرت مباشرة فسي كيفية مساعدته . وقد تصادف أن القنصل الامريكي كان في رحلة قصيرة عبر ريزاي ، وهي واحدة من رحلاته العديدة التي كانت تأخذه ايضا الى اقصى الجنوب والغرب على مقربة من الحدود العراقية .

وقد تساءلت عن ماهية دوره في الحرب الكردية . ولكنني لم امض في تساؤلاتي على نحو كاف عندما عقدت لقاء بينه وبين جمال وقد افترضت ان مهمة القنصل هي روية الناس الذين يرغبون في المجيء الى امريكا والاصغاء اليهم جيدا فحسب ، ولم يخطر ببالي ببساطة انه يمكن ان تكون لدى القنصل اولويات مختلفة فيما يتعلق باللاجئين الاكراد .

وصل القنصل الى منزلنا برفقة السيد خشيني ، وهو رجل قصير، قوي البنية، ودو ملامح بدينة وكان يتمتع بفضيلة غيـر مألوفة جدا بالنسبة لایراني . كنت اعرف ان السيد خشيني ، وهو مدرس في الكلية ، يقضي الكثير من الوقت يسلي خبـراء الجيش الأمريكي المقيمين في ريزاي . ولعلمي بقدرته على أن يكون فظا ولمعرفتي شعوره نحو الاقليات الموجودة في ايران تساءلت عما يفعله في منزلي . أي معلومات من الولايات المتحدة كان خشيني سينقلها الى جمال .

لم يجر اللقاء بين جمال والرجلين كما توقعت أو أردت على الاطلاق . فقد بدأ باستجوابه وبما ان جمال لم يكن يعرف الانكليزية ، فقد كان السيد خشيني يطرح عليه السوال تلويحاً بالفارسية ، أسئلة لم تكن لها علاقة بالموضوع المتناول - هل كان ممكناً او مستحسناً بالنسبة لجمال ان يهاجر الى امريكا أم لا ؟ كنت قد سمعت ان لائحة بأسماء المنتظرين الراغبين في الرحيل كانت تعد وانه سيسمح لمئتين من الاكراد بالذهاب الى الولايات المتحدة ، هذا الرقم الذي اتضح انه ضئيل على نحو يرثى له على ضوء معلومات حديثة . ولكن القنصل كان متحفظا على ماورد في هذه القائمة . وانتظر حتى يسمع ماسيقوله جمال بالاجابة على اسئلة خشيني ، التي لم يستطيع جمال فهمها ، لأنه لم يكن يتحدث بفارسية أفضل بكثير من الانكليزية . حاولت ان اترجم له الى الكردية ولكن خشيني قاطعني قاشلا :

... دعيه يتكلم الفارسية ، انه يعرف الفارسية ، اليس

كذلك يا ... جمال ، هل قلت ان اسمك هو ذاك ؟

بعد مرور فترة طويلة وبعدما عرفت ماكان يجري ، لم يكن لدي حول ولاقوة لايقاف ماشرغت في تحريكه . كانا يعبشان به . ويحاولان ان يكتشفا ماهيه مشاعره ودور جمال في الكفاح الكردي، يحاولان ان يعرفا رآية في ايران . شعرت كما لو ان جمال كان كبش فداء وانني انا التي قدمته الى هذا الفخ . بماذا كان القنصل وخشيني منهمكين ؟ لقد كان خشيني شخصا مرتابافيه لدى الامريكيين والاييرانيين منذ فترة طويلة . كان فضوليا جداوودودا جدا مع الجيش الامريكي وكان ذانفوذ واسع واكثر ايذاًمن الكثير من أمثاله . اما بالنسبة للقنصل ، فقد اندهشت منه لأنه كان يبدو دائماً انسانيا وحتى متعا طفا قبل هذا . ولكن طبعاً كنت اراه من قبل برفقة الامريكان فقط . وقد بدا سلوكه مع الاكراد غير مماثل لذلك الود الشهم الذي كنت اميزه فيه من قبل . هل يحتاج فعلاً الى اشارة مثل هذه المضايقات للاجئين الاكراد ؟ من الموءكد انه كان يستطيع فهم ان جمال هو مجرد مدرس ، وانه حتى لو عرف شيئاً ما فلن يقوم باخبارهم به . اذا ما الفرض من هذا الادلل ؟ لـم استطع ان افهم ذلك . لربما كان المقصود منه اعطاء درس لـي ، لتلك الامريكية المُؤكّلة ، وذات القلب الذي يتفطر حزناً . وكما يعلق لاحقاً هنري كيسنجر رداً على اتهامات حول قساوة التورط الامريكي في المأساة الكردية ووحشيته " يجب أن لا يخلط العمل السري خطأً مع العمل التبشيري " ولانتهاء تلك الامسية ، حذق خشيني في ساعته وسأل جمال الذي بدأت الكآبة تلوح عليه أكثر فأكثر فيما اذا لم يتأخر الوقت . لقد كان هذا التلميح بالانصراف سمجاً جداً لدرجة انه حبس أنفاسي . نهض جمال فوراً وغادرنا . أما ضيفاي الآخرون فقد مكثا بعده طويلاً يتحادثان وكان شيئاً لم يحدث . ولم اتحدث اليهما الا قليلاً .

وفي اليوم التالي ولدى ذهابي الى منزل جمال اعتذرت له عما حصل ، نظر الي وابتسم وقال : انه ليس شمة مايدعو للاعتذار.

وبعد ذلك بعدة أيام سمعت انه قد اخذ عائلته وعاد بها الى العراق واخبرتني ماري انه كان موظفا صغيرا في الحكومة الكردية الشورية قبل الحرب .

كان أحد اللاجئين الذين لم يقاسوا مصير جمال طبيبا يتحدث الانكليزية . تكلم هو أيضا مع القنصل في منزل امريكي آخر مقيم في ريزاي . ولكنه كان قد اشترط عن دراية منه الايحضر المقابلة سواء هو والقنصل . وبعد ذلك بعدة أيام دعانا ذلك الطبيب الى منزله ، وبعد قضاء ساعة مريحة او نحو ذلك ، تفاخر فيها الطبيب باتصالاته بالبرزاني وعناصر من السافاك الايراني ، نهضنا لنفادر مقرين أننا قد سمعنا الكفاية . ولكن الطبيب اصر على أن نبقي لنحتسي الشاي معه . فجلسنا ثانية تأملنا وهو ينزل بسرعة نصف قنينة من الكونياك الايراني الصنع . وافضى اليينا قاشلا :

- هل تعرفين ؟ أنا اكره امريكا .

- لا ، لم اكن اعرف .

اجبته بجفاء .

- اعتقدت انك كنت تحاول الذهاب الى هناك .

- نعم ، نعم ، انها المكان الوحيد الذي يمكن أن اذهب

اليه تحت ضغط الظروف . ولكن لن ننسى ابدا ما فعلته امريكا

بشأ . انتم مسوؤلون عن مصير الحرب الكردية . انتم اخبرتمونا

أن نبدأ بالحرب . ماكننا سنبدأ الحرب ابدا لو لم يعدنا الامريكان

بالسلاح . وليس مهتما ما وعدت به .

قال ذلك متهما . فسألته :

- من وعدكم ؟ ريتشارد هيلمز ؟ كيسنجر؟ نيكسون؟

فقال الطبيب على نحو متكتم :

- لن اخبرك من وعدنا . لقد كنت هناك وسمعت ما كان

على السبي . آي . اي . ان تقوله . ربما انت لاتعرفين أما أنا

فأعرف .

لقد اوقع هذا الطبيب النفسور في نفسي بنفس القدر الذي اوقعه خشيني . الا أن المرء له العذر ، عندما يضطر أن يقوم بفعل أي شيء يعذر عليه لينجو بجلده ، عند وجوده في موقع محفوف بالمخاطر .

لم يكن الطبيب حذرا مثل خشيني . فقد شرب الكثير وشعرت حتى نسف عظامي ان ما قاله كان صحيحا . ما الذي كان يحدث هنا في ريزاي بالفيط وامام ناظرنا تماما ؟ من الذي فوض الجيش الامريكي لأن يكون هنا . والى أي حد كانوا يعملون مع الاكراد؟ لماذا يقوم القنصل برحلات كثيرة الى الحدود؟ وقساوة القنصل مثل قساوة كيسنجر تخلفان لدى المرء الشعور بادانتهم .

كنا هنا في فييتنامنا الخاصة والسرية التي لم تكن قد اعدت الانساء بعد ، ولن تعدها ابدا الا بالطريقة الاكثر سطحية . هنا كنا نشهد مباشرة اسلوب كيسنجر المبني على نهج السياسة الطبيعية وكذلك السياسة الواقعية ، ولكن ضباط الجيش ، القنصل وامريكيون آخرون في المدينة استمروا في تأجيل اسئلتنا وانكار ملاحظاتنا . كنا قد اعتدنا الى حد كبير على الكلام المخادع فسي ايران ، حتى اننا كنا نسأل انفسنا ساطراد فيما اذا لم نكن نخلق اشياء من مخيلتنا .

ولكن ثمة ما يدعو للزعاج اكثر من هذا . فالبرازانسي وجنرالاته كانوا قد تراؤفوا من بعيد محقين وانقياء الى حد بعيد . كان وليم . او . دوغلاس . قد قارن في مذكراته عن رحلة في كردستان قبل عشرين عاما ، الوطنيين الاكراد بالوطنيين الامريكيين في الحرب الثورية . وقد قال : هنا كانت قضية محضة بكل ابعادها وشمولييتها واناس شجعان لامجال لاحد أن يشك في ذلك أو يعترض عليه . ولكن القضية لم تكن واضحة المعالم الى حد بعيد . لم نكن بالقرب من الثورة الامريكية ، ولكن صدف ان قابلنا عددا من القواد الاكراد . لقد كان هنالك الكثير من الاطباء ومن الثوار

الاثرياء ينثرون ذهبهم هنا وهناك في المدينة ، بينما يتلمس الناس في المفسكرات طريقتهم في حال من الذل والهوان . وأيضا كان هناك الكثير من التعاون مع السافاك وأيضا جرى الحديث حول منسح بترول كردستان لأمريكا . وأيضا الكثير من الشك والارتياح وكابنة الغرب الليبرالي ، فقد توقعت أن يكون الاكراد أقل خوفا بكثير لأنني لم استطع ان افهم حقاً ما الذي كان يخيفهم .

لم تكن اتهامات الطبيب تختلف عن تلك التي سمعتها من الابراانيين الذين يعتبرون امريكا مسوؤلة عن كل خطأ في بلدهم . حتى أن إحدى النساء ، وهي موعيدة قوية للشاه ، ادلت برأيها قائلة : ان السبب في تدني قيمة الالبسة الصناعية الإيرانية يعزى جزئيا الى أن الأمم الغربية قد باعت ايران حيوطا من نوع رديء . اما مع اللاجئين الاكراد فقد كان يسوؤني ان اسمع هذه الاتهامات كليا او جزئيا . كنت قد تصورت للشاه مع اللاجئين ومصادقتهم ، هؤلاء الاكراد الذين يقولون ان ليس لهم اصدقاء . كنت قد ظننت ان العائق الوحيد سيكون قانونيا او ماديا صادرا عن الحكومة . ولم اكن اتوقع عدم ثقتهم الشديدة وامتعاضي الحاسم بسببها . ولم اكن اتوقع الثروة الاسطورية للقواد الثوريين في المنفى - رجال تضع زوجاتهم . الذهب واطواقا من الياقاقوت رجال يقدم لهم الكافيار الشمين في حفلات العشاء التي يقيمونها .

كنت أقرأ ادبيات الحزب الديمقراطي الكردستاني منذ وقت طويل ، حتى اني توقعت ان اجد النساء الكرديات العراقيات اكثر تحرا وان اجد العلاقات بين الناس اكثر مساواة . وبدلاً من ذلك فقد وجدت النموذج المألوف لملك الارض والتابع ، للسيد والمسود تماما كما في القرى الإيرانية . ان الاخت الصغرى في اسر اللاجئين تخدم الاخت الكبرى . الاخت تخدم الاخ والزوجة تخدم الزوج بينما حاول اللاجئين الاثرياء وبدون جدوى ان يتكيفوا مع النقص الشديد في عدد الخدم الذين يعملون لديهم . كان تعدد الزوجات والتباهي بالتمياز منتشرا بين اللاجئين المتمتعين بامتياز السكن

في ريزاي على الرغم من التأكيدات المصادرة عن الحزب الديمقراطي الكردي بأن تعدد الزوجات قد تلاشى من بين الاكراد المتعلمين . وكان اللاجئين غالباً ما يخبروني كم كانت الحياة أفضل بكثير في العراق منها في ايران . ولكن كلما كنت اتحدث معهم اكثر ، كنت افهم تماماً انهم كانوا يعيشون عهداً من الارهاب في العراق ، اما دور ايران فقد كان محصوراً في تكثيف هذا الرعب والارهاب .

كان الطبيب أول من سمح له بالهجرة الى الولايات المتحدة من بين الاكراد اللاجئين الذين قابلتهم في ايران . وقبل أن يغادروا رأيت صدفة حقيبة اوراق بنية ممتلئة برصاصات الرشاش في المقعد الامامي من سيارته اللاندروفر . وبما أن جميع الاكراد اللاجئين كانوا وعلى نحو طبيعي غير مسلحين عند الحدود ، فلم يكن أمامي الا أن افترض ان السلطات الايرانية قد اعطته ايها . وواضح أن الشيء الاكثر ملاءمة للحكومة الامريكية هو استقبال طبيب ثري ، كان قد تعاون مع الساماك واذلال مدرسي ثانوي فقير وصده .

الفصل الحادي عشر

ان مسألة القومية الكردية في تركيا - ذلك البلد الذي يبلغ فيه الاكراد عددا اكبر من أي بلد آخر - فقصتها أكثر عندما بكثير من قصة الشوار الاكراد في العراق . لقد ترسخت القومية التركية في وقت مبكر وبالتالي فان القضية الكردية مثل القضية الارمنية كانت قد عولجت بشمولية أكثر . فللأترك سمعة مخيفة في الشرق الاوسط فهم يعدون جدوا عديمي الحضارة ، انقضوا من الشرق ، كالمغول مثلا ، فأخذوا يضطهدون ويذبحون الشعوب المستقرة في طريقهم . وبالقدر الذي يتعلق بالاكراد فانه لاشيء أكثر جدارة بالازدراء سوى التركي . وبقدر ما يهتم الاتراك فان " الكردي الجيد الوحيد هو كردي ميت " . وكما صرح احد السياسيين المحنكيين في ثورة كردية في تركيا " كان الجنود الاتراك قد أمروا بأن يطعنوا الاكراد بالحرا ببدلا من أن يفقدوا طلقات الرصاص عليهم " .

قبل مجيئي بسنة الى ايران ، كنت قد وجدت مدرس كرمانجي في الولايات المتحدة حيث كان موظفا لدى استاذ تركي يدرس في جامعة امريكية . اشار صديق لي ، وهو استاذ في اللغويات الايرانية الى أن الموظف موسى هو كردي الاصل . وبالنسبة لمستخدم موسى وموسى نفسه فان كرديته كانت تعتبر ، في الحقيقة سطحية وهامشية . فقد احضر الى الولايات المتحدة لكي يتحدث بالتركية مع الاطفال وكان يقوم بذلك على احسن وجه . وكما اكتشفت موعرا كان يتحدث بها أفضل مما يتحدث بالكردية ، لغته الام . كان قد قضى ما يقرب من نصف حياته في استانبول حيث فعل كل ما بوسعه لينسى ذكرى طفولته غير السعيدة في بلدة صغيرة واقعة على اطراف ديار بكر في فقر تركيا الكثيب .

وحالما علمت أنني في طريقي الى كردستان ، ارهقت معلمي

بالأسئلة : ماذا تشبه الحياة في البلدة الصغيرة التي جئت منها ؟ ماذا يرتدي الناس ؟ بماذا يفكرون ؟ ماذا علي ارتداؤه لـدى ذهابي الى ايران ؟ كانت جل معرفتي في امريكا نظرية ، غامضة ومعتمدة على اخبار ثانوية . وقد اخبرني موسى المستحي والخجل من أصله الريفي اشياء لم اصدقها . فقد اكد لي أن كل ملابسي بما فيها الصيفية ، ستكون مقبولة في تركيا الشرقية وان الناس لـسن يهتموا فيما اذا كنا انا وجيرد متزوجين أم لا . ومن وجهة نظره فان المواقف والعادات في كردستان التركية تكاد لا تختلف عن تلك التي في بوسطن . ولكن حتى في بوسطن لم يستطع موسى ان ينسى عقدة كونه كرديا .

في حفلة اقامتها مرة ، اخذ موسى صديقا تركيا لي الى زاوية وسأله عن سبب اصراري على كرديته . لقد كان مسرورا لكسبه مالا اكثر لتعليمي الكردية ولكن طريفتي في التركيز على ثقافته كانت تقلقه . وسأل :

— ألم تدرك بعد أنسي تركي ؟

ان الاكراد الذين يرغبون في ان يفلحوا او حتسى أن يبقوا احياء في ظل الحكم الذي اسسه مصطفى كمال اتاتورك " جد الاتراك " عليهم هم انفسهم ان يصبحوا اتراكا . لأن ماتسى اليه الحكومة التركية وتحاول أن تثبته لبقية العالم منذ سنوات هو انه في تركيا يوجد اشراك فقط . وهذه حقيقة ذات اهمية كبيرة بما انه يوجد في ايران الجارة المتاخمة تماما اكراد وارمن وآشوريون ويهود . وهذا الخليط من القوميات والاديان نفسه يتواجد في نفس الوقت في مدن وقرى تركيا الشرقية . كان الاكراد قد استخدموا من قبل العثمانيين ومن قبل الجمهورية التركية للتخلص من الشعوب غير المسلحة . وللخزي الذي جروه على انفسهم ، فانهم قد لعبوا دورا دمويا في مذبة الارمن . وخاليا تجري محاولات للتخلص منهم هم انفسهم . ليس عن طريق المذابح ، بما ان عددهم كبير جدا ، وبما انه لم تعد هناك عصيانات مسلحة واسعة النطاق

لتخدمها الحكومة . بدلا من ذلك ، تجري ازالة الاكراد بصهر مقاتليهم في الجيش . لا يوجد اكراد في تركيا ، بل هناك فقط " اترك الجبال " لاتوجد لغة كردية ، بل مجرد خليط موءلف مما يقارب الثلاثمائة كلمة مأخوذة من اسلاف الفارسية ، التركية والعربية يتداولها بعض القرويين الجهلة . حتى الاتراك الاكثر ثقافة وتعلما يعتقدون بذلك . ولم تعترف الاغلبية الساحقة من الاتراك ابدا بمذبحة الازمن التي حدثت في بلادهم . تركيا هي ارض الاتراك ، ولن ترتكب الخطأ السذي ارتكبه ايران الراحة ابدا تحت وطأة تهديد التمزق بأيدي قومياتها المعادية .

ان تركيا هي البلد الذي يقيم فيه غالبية الاكراد ويتكلمون اللهجة الكردية الاقل دراسة في الحقبة المعاصرة ، ولكن الصمت المطبق الذي جابه محاولاتني في ايجاد شيء ما عن الذهاب الى تركيا لدراسة الكردية اشار الى بداية ونهاية اية محاولات حقيقية للذهاب الى هناك . فالحكومة التركية كانت تختلف عن حكومة الشاه في ايران ، فهي من الممكن ان تقبل الاسلحة من امريكا ولكنها لن تتردد في القاء الامريكان خارج البلاد اوزجهم في السجن اذا ظنت انهم مصدر ازعاج فعلي او محتمل . عرفت اناسا كانوا قد اعتقلوا لاتهامات اقل اهمية بكثير من محاولة كتابة قواعد لغة محظورة قانونيا . لذلك فقد وجهت ناظري نحو النهاية الشمالية من اذربيجان الغربية والى اللهجة القريبة جدا من الكردية المحكية في تركيا . ولكنني لم اتخل عن عزمي على الذهاب الى تركيا .

كنت قد تأملت الجبال التي تشكل الحدود ، لمدة خمسة أشهر . وعندما وصلنا الى ابران في الخريف كانت الجبال معبرة ، وذات لون بني باهت مع مسحات من اللون البرتقالي الفاتح والارجواني . وكانت الرطوبة والخضرة تنعدم كليا حتى الشتاء . كانت الاوراق قد بدأت بالتساقط في بدايه آب ولكن منحدرات سلسلة جبال زاغروس كانت جرداء . فالاحراج المزالة والعوامل الطبيعية ساعدت على تعريتها منذ اكثر من قرن مضى . كان من الصعب تصديق ان موسم حصاد وفيير قد جرى في وديان وسهول منطقة ريزاي . قبل شهر فقط من وصولنا .

ورطوبة الشتاء وامطار الربيع الاخيرة قد تبخرت دون ان تترك أي اثر . وما بقي كان منحدرات جبلية جرداء ، لاشجر فيها وسهول صخرية ومغبرة .

ان العلامة الاولى على حلول فصل الشتاء في ريزاي هـي ابيضاض المنحدرات العالية الواقعة الى غرب المدينة . وقد اتسع البياض تدريجيا من القمم المخروطية نزولا الى السفوح الجبلية ، الى أن تساقط الثلج فوق السهل نفسه . في البداية لم استطع أن ابعد نظري عن المنحدرات المبهرة ، ومن ثم وعندما تقدم الشتاء مللت من الثلج وكنت اتشوق لحلول الربيع . يقول الاكراد : في الربيع تصبـح الجبال " كسك وشين " خليط من الخضرة والزرقة .

احتجت لبعض الوقت كي اعتاد على الجبال ، بعد ان قضيت معظم حياتي بالقرب من المحيط . حتى انها استحوذت على آفـساق ذهني وروحي رويدا رويدا . كنت ارى الجبال المشرفة على تركيا كلما نظرت الى الغرب والشمال الغربي . وإلى الجنوب والجنوب الشرقي حيث كانت العراق . كان معظم معارفي من الشباب الاكراد قد عـبـسـروا الجبال في وقت او آخر ، الى العراق او تركيا ، اما هربا من الحروب او لمجرد الذهاب للصيد . كان الاكراد يميلون الى اعتبار كردستان برمتها لهم ، على الرغم من الحدود الدولية . لقد عرفوا التضاريس وعركوا الجبال وهذا ما جعل ذهابهم الى أي مكان يرغبون فيه ممكنا . ولكن دوريات الكشف المتزايدة بأسلحتها وتجهيزاتها المتطورة كانت انتهاكا لهذا الحق الكردي . ومع ذلك فان الشباب الاكراد لا يزالون يبتهاون برحلاتهم الى تركيا . كان الاكراد الذين التقيت بهم يثيرون رغبتني في رؤية المزيد ومعرفة كردستان اكثر . قالت احدي النساء :

— آه ، كردستان العراق . تلك هي كردستان الحقيقية .
فجبالها ذات خضرة دائمة .
سألت كرديا آخر :

— ولكن ماذا عن تركيا ؟

فأجابني :

— الاكراد كلاب .

يهز اكراد العراق وايران الوطنيون رؤوسهم استهجانسا
عندما يتحدثون عن اكراد تركيا . وقد تساءل احد اكراد العراق
الرفيعي الثقافة بصوت مرتفع امامي :

— هل مايزالون اكرادا ؟ انهم يطيعون الحكومة التي
تدعوهم بأتراك الحبال . انهم يتحدثون التركية . ولايلبسسون
مثل الاكراد . لقد اصبحوا اتراكا .

كان القنصل التركي في ريزاي سعيدا باعطائنا معلومات
عن التنقل في تركيا . فالى جانب تقديمه قهوة تركية جاهزة
وممتازة تحدث بحماس مفرط عن أنواع الطعام وعن خدمة سيارات
الاجرة الممتازة ، عن النشاطات الثقافية الرفيعة التي سنجدها في
تركيا وعلى وجه الدقة في استانبول . تشكل تركيا الغربية جزءا
من اوربا ، اما تركيا الشرقية ، فتشبه ايران في ايام ما قبل
البترول وهذا يشكل اختلافا كبيرا بالنسبة للمسافرين . قلت للقنصل
لا استطيع مقاومة ذكراني ارغب في الاقامة في تركيا اكثر من ايران
فقال مبتسما :

— حسنا ، لم لا ؟ فنحن بالتأكيد نحتاج الى اناس مثلك
ليدرّسوا هناك . أنا متأكد من انه يمكنك الحصول على مركز وظيفي
في استانبول او انقره .

تلاشت ابتسامته عندما اضفت قاشقة :

— في الحقيقية كنت افكر في الاقامة في انطاليا ، حيث
يمكنني ان ادرس الكردية . ولكنني اعتقد انه لايمكنني ان احوز على
اذن من الحكومة التركية لمثل هذا المشروع ، لذلك فقد اتيت الى
ايران . فقال معلقا وقد بدا عليه الارتباك :

— ليس لدينا مثل هذه المؤسسات في تركيا .

انتقلت المحادثة بسرعة الى خطط سفرنا . وبعد ربع ساعة من ذلك جمعنا الكراسيات الجميلة الخاصة بالسفر التي اعطانا اياها ومشينا الى المنزل تحت حبات البرد الشتوية التي كانت تسقط فوق ريزاي منذ يومين .

كان علينا ان نجرب حظنا مع الحافلات المحلية ، بما أن جميع المقاعد في القطار من تبريز الى طهران كانت قد حجزت قبل أن نفكر بقطع تذكرة سفر بوقت طويل ، مما جعل اختيار عبور الحدود على الاخص أمرا خطيرا . وحالما اقترب (٢١) آذار ، تاريخ بدء السنة الإيرانية الجديدة ، بدأنا نفكر على نحو مفصل كيف ومن أين علينا ان نعبّر الحدود . وكانت سيرو وهي مركز الجمارك الرسمي الاقرب ، حيث تبعد ساعة فقط عن ريزاي ومثلي كيلومتر عن وان التي يوجد فيها مطار . سيأخذنا الطريق الجبلي في سيرو عبر جزء من كردستان تركيا . وبازرگان، المحطة الحدودية الوحيدة الاخرى مع تركيا ، الواقعة في أقصى الشمال والغرب من تبريز كانت قد انشئت على الطريق الرئيسي من اوربا الى الهند . وارضروم كانت المطار التركي الاقرب الى ذلك المركز، وهي مركز ارمينيا التركية القديمة . كانت فائدة سيرو تكمن على نحو رئيسي في قربها من المكان ولكن بازرگان يمكن ان تقدم امكانية اكبر للنقل العام .

نصحت اصدقائنا الاكراد في ريزاي أن نتخذ طريق سيرو وأوضحوا انه اكثر راحة . وقد تساءلت لاحقا وبعد امعاني في التفكير فيما اذا لم تكن تلك النصيحة من وجهة نظر العبور غير القانوني . من المحتمل انه توجد دوريات كشف اقل من سيرو . لم يحصل معظم الاكراد الذين التقيت بهم ابدا على جواز سفر إيراني حتى بشرائه .

حالما قررنا الذهاب عن طريق سيرو ظهرت المصوبة الثانية وهي تشخيص الوسيلة التي سندهب بها من ريزاي الى هناك . وفي الوقت الذي لم نكن نملك فيه سيارة وحتى لو كانت لدينا ، فانه سيعتبر

ضرباً من الطيش ان نسير بها الى تركيا الشرقية وان نتركها قابضة
لثلاثة اسابيع بينما نطير نحن نحو الغرب . توقعت أنني لن أرى
منها شيء حتى لو ممسحة الحاجب الزجاجي للسيارة . وبما أننا لم
نكن ذاهبين بالسيارة ، فقد كان واضحاً أننا سنضطر للاعتماد على
النقل العام . كانت هناك حافلة مخصصة للانطلاق من ريزاي الى
سيرو . ابلغنا متطوع في فرقة السلام كان قد قام برحلة في السنة
الماضية :

— لاتزعجا نفسيكما بأخذ الحافلة .

فسألناه :

— ولم لا .

— لأن الحافلة ستصل بكما الى تركيا بوقت متأخر حيث
لن تقدرنا على أخذ الحافلة من يوكسيكوفنا الى وان في نفس اليوم .
— يوكسيكوفنا ؟

قلنا ذلك باندعاش واستشرنا دليل الحافلة الذي وصف يوكسيكوفنا
على انها مركز الانطلاق العام لبعثات تسلق الجبال الخاصة بنسنا
في تركيا . فقال المتطوع مواءداً :

— نعم، نعم، لن أنساها أبداً، انها ممتلئة، بمصيبة صغارذوي رؤوس
حليقة برداءة . ولن يدعك سكان المدينة تغييبين عن انظارهم
ويوجد فيها فندق واحد مزدحم على نحو فظيع ولا انصح به للنساء
على وجه الخصوص .

كانت صورة تركيا ، الموصوفة في كراسات القنصل تضمحل في
ذهني ، وماتراً لي انه سينبثق ، ويفرض نفسه ، كانت تركيا
التي من المحتمل ان تكون حتى افقر واكثر عدوانية من اي
الريفية . وقد نصحن المتطوع قائلان :

— لاتخبروهم ابداً ان لكما نسبة مختلفة في تركيا
فهم سيفترضون مباشرة انكما لستما زوجين وان مارغي هي بوسم
البيع .

خلف ذلك في ذهننا انطبعا اسوأ مما خلفته ايران التي لم يسألنا فيها احد بعد ، فيما اذا كنا متزوجين ام لا . وقد قررت على نحو حاسم انه سيكون من الحكمة ان اضع وشاحا على رأسي ولكنني لم أعرف مايمكنني ان افعله اضافة الى ذلك لأجعل من نفسي أقل وضوحا . كان الحجاب في تركيا قد حظر لسنوات عديدة على نحو مغاير عن ايران ، حيث كان الغطاء لايزال سائدا لدى العديد من النساء .

ابدى السيد خليلي استعدادات لمرافقتي لمركز المدينة بالقرب من منزل دارا احمدي لينتقي لنا سيارة اجرة يمكن لها أن تأخذنا الى الحدود . وقد شعر بثقه بأن أحد سائقي سيارات الاجرة ممن يعرفهم سيأخذنا بسعر معقول ، وذلك لما كان يحتاج له دائما من فرص السفر الى قرب الحدود . وما حصل بعد عثورنا بالمدفوعة على خط سير الفولكات الزرقاء والبيضاء البالية بدا وكأنه نذير لما كان سيأتي في بوكسيكوفنا .

تجمع حشد من رجال شبان ، مرتدين على نحو بدا فيه الفقر واضحا ، حولنا عندما مشى السيد خليلي نحو خط السير يسأل أولا أحد السائقين ومن ثم الآخر اذا كانوا يقدرون على اخذ اصدقائهم الامريكان الى الحدود في الساعة السادسة من صباح الجمعة التالية . وعندما لاحظهم السيد خليلي وهو في غمرة اسئلته طلب منهم المغادرة، ولكن صديقي ذا الاخلاق الدمثة لم يكن يجاري هذا الحشد الذي أخذ يتزايد اكثر ويصبح اكثر عدائية في كل لحظة . بدا السيد خليلي متضائقا الى أقصى حد وهمس في اذني قائلا :

— لن يرضى أحد بسعر اقل مناسب . ويقولون أيضا أن السادسة صباحا ، هو وقت مبكر جدا . يعتقدون انه عليك الذهاب بسيارتك الخاصة . وعلنا أخيرا الى نهاية خط سيارات الاجرة دون ان نجد سائقا يرغب في أخذنا الى سيرو . كان الحشد قد تزايد الى حد اخذ يعيق حركة المرور في أحد اكثر شوارع ريزاي ازدحاما انتابني شعور بأن السيد خليلي كان يتمنى لو أنه لم

يعرض علينا المساعدة أبدا . خلّصت نفسي من الجمهور وركضت الى الجانب الآخر من الطريق ، فتوقفت سيارة يرتقالية فجأة ، وبينما معدت اليها ، لوحت بيدي مودعة السيد خليلي الذي كان لايزال في الجانب الآخر من الطريق . وقد سألني السائق عن تلك الجمهرة عندما تحرك بي بخفة مبتعدة الى حيث يتوفر أمان نسبي في حي من احياء الطبقة الوسطى . وبدا انه يعرف ما كنت اتحدث عنه بالفضبط على الرغم من توضيحي الطفيف لذلك . ألم يكن واضحا انه في المكان الذي تتواجد فيه نساء اجنبيات سيتواجد فيه حشد من الرجال الايرانيين ايضا ؟ ولتعرف ذلك ما عليك الا أن تنظر الى مداخل دور السينما الايرانية المكتظة بالرجال عندما تعرض افلاما ايطالية عاطفية حتى الصميم .

بدأنا أنا وجيرد ، بعد أن يفسنا - نسأل بعض اصدقائنا الايرانيين ممن يفتنون السيارات ، اذا كان لديهم مانع من اخذنا الى الحدود . وقد رفض الامريكيون ذلك لمصراحة ، امـا الايرانيون فقد تنحنحوا وتلثموا متمسكين بالشكليات وآداب السلوك . واخيرا عرض علينا كولونيل في جيش الولايات المتحدة عرضا فيه من الكرم والسخاء ، بعد ان سمع بمحنتنا ، وذلك بان يأخذنا فباط ايراني الى الحدود في سيارة تابعة للجيش .

مع ضوء الصباح الباكر ، ليوم رحيلنا ، عبرنا المباني الستة الضخمة متجهين نحو مقر الجيش ، لتلتقي بالسائق . كنا نتحدث مع السائق عندما انطلقت بنا السيارة الامريكية الضخمة صعودا ونزولا فوق الهضاب وحول المنعطفات الحادة لطريق سـيـرو . كان الهواء ربيعا ، ولكن الثلج كان لايزال يكسو الجبال في كل الانحاء حولنا . وصلنا في أقل من ساعة وغادرنا السيارة وبدأنا بالسير بما انه لم يكن مسموحا للسيارة رسميا أن تأخذنا الى الحدود تماما . امسكنا بحقائبنا بعصبية ، بينما كنا ننظر الى السيارة . سمعنا سقسقة الطيور واصوات ذوبان جليد النهـر المنتشرة حولنا . كان مركز الحدود الايراني يقع امامنا مباشرة

وخلف ذلك وعلى بعد مسافة لم نستطع ان نميز وسيلة نقل تركية قط . عندما وصلنا محطة الحدود الايرانية ، لاحظت انها تشبه منطقة حدود واسعة بين الولايات المتحدة وكندا بموقف خاص مضاء جيدا وبناية ضخمة حديثة وذات تدفئة مركزية . وكل ذلك من أجل ثلاث سيارات اوشاحنات كانت تعبر من هناك خلال يوم مخصص لذلك . استغرق الوقت ساعة كاملة حتى استيقظ ضابط الجمارك الايراني ، وكانت الساعة قد قاربت التاسعة حتى ذلك الوقت . امسكنا بجوازات سفرنا المختومة ومن ثم تصافحنا وقلنا " خودا حافظ " . بدت لنا ايران فجأة اليقة وآمنة على نحو مدهش . وما كمن أمامنا تماما كان لغزا . لم يكن موظفوا الجمارك الايرانيون قادرين على الاجابة على أي من اسئلتنا عما كان يحدث على بعد نصف كيلو متر من الجانب التركي .

تحولت الطريق المعبدة وموقف السيارات الايرانية فجأة الى تراب . وبينما كنا نمشي بمحاذاة مجرى النهر المتدفق عبر الممر الجبلي القينا نظرات على سفوح الجبال ورأينا منزليين خشبيين من الممكن ان تنمية الاسكان الامريكية قد هجرتها سنة ١٩٤٠ . تبني معظم المساكن في ايران من القرميد ، مع انبينة محاطة بجدران ولكن هذه كانت تركيا الجمهورية الغربية التي أنشأها اتاتورك حيث تشكل الجدران ومن المحتمل الغطاءات أيضا بقايا ماض غير متور ثقافيا .

كان افراد دوريات الجيش التركي قابعين في مواقعهم وعلى رؤوسهم خوذ بيضاء بأشرطةها المربوطة حول الذقن ، وفي اقدامهم احذية جزوها الاعلى ابيض وقد كانوا يبدون مثل جنود من الدمى اكثر مما يبدون كالجنود العديمي الرحمة الذين وصفهم الاكراد . ارشدونا الى مخزن اسمنتني . وفي داخله وجدنا ارضية صلبة جرداء ، وموقدا صغيرا يعمل على حرق الخشب ورجلين قصيرين قويين بجسميهما الممتلئين وملامح شرقيمسة ذات تعابير حادة ، وشوبين فضاضين واسعين قد تدليا على اكتفاهما

وقد ادعى الرجلان انهما من باكستان ولكنهما كانا قنادرين على التحادث بالفارسية . شاهدنا رجلين آخرين ايضا وقد بدا انهما ليسا عابري سبيل ، الا انهما كانا فقيرين جدا بحيث كان ممن المستبعد أن يكونا من موظفي الجمارك . وقد علمنا بعد عبدة أسئلة ان ضابط الجمارك كان لا يزال ناشئا . على الرغم من أن كلا من ايران وتركيا بلدان ممتدان من الشرق حتى الغرب امتدادا واسعا فانهما يندرجان تحت توقيت موحد . واخيرا وصل رجـل نحيل وذو عينين زرقاوين . لم يكن لقاؤنا لطيفا او ودودا مثلما كان في الجانب الايراني . فُحصت حقائبنا برمتها وبعد بضعة أسئلة اشبر اليـنا ان نخرج من المكتب الصغير الواقع خلف المستودع . وسألنا الموظف بينما كنا نهم بالمغادرة :

— اين يمكن ان نجد الحافلة الذاهبة الى يوكسيكوف؟

— تحدثني الى الرجال هناك .

واشار باتجاه السكيرين غير الشرقيين اللذين كنا قد رأينا هما مسبقا . وقد تلاشت رغبتني في ذلك . عندما عرفت انهما يحاولان خداعنا ، فقد كانا يقولان بخليط من اللغات :

— تاكسي ، تاكسي ، نقود ، نقود .

اذا فالشاشعات التي سمعناها في ريزاي صحيحة . فلن تصل حافلة ما ابدا لتنقلنا الى المدينة الاخرى ، يوكسيكوف . وبدلا من ذلك علينا أن نستأجر سيارة اجرة لتعبر بنا العشرة كيلومترات هذه . وسيكون السعر عشر دولارات ، وهو نهب بمارسه سائقوا سيارات الاجرة الريفية ، الايرانية والتركية بتقد برهم لهذا السعر . وعلاوة على ذلك فان المبلغ يدفع سلفا والافلسن يقوم السائق بنقلك . كان موظف الجمارك قد خرج من مكتبه ، وكان يراقب هذه المفاوضات عن كذب وباتزان .

ولكي نبدد الوقت مشينا انا وجيرد الى مقدمة المستودع واطللنا من خلال النافذه . لم تلح وسيلة نقل على مرمى البصر ،

ولو كنا محظوظين جدا ربما استطعنا ان نوقف سيارة ايراني او اوروبي صديق ، لنسافر مع احدهما متطفلين . ربما يحدث هذا في الاسبوع التالي . قررنا اخيرا أن ندفع العشرة دولارات ، عرضت النقود التركية وانا اتساءل ما الذي يمكن أن يمنع الرجال من سرقة النقود دون ان يعدوا لنا سيارة .

تقدم نحونا احد حراس الحدود حيث بدأ انه على علاقة طيبة مع السائقين ، بينما ادار احد سائقي التاكسي قرص الهاتف ليطلب يوكسيكوفنا . لقد كانوا يتظاهرون بطلب سيارة على الاقل .

اشناء مفاوضاتنا من سيارة الاجرة شد حديثهم انتباهي فقد كانوا يتحدثون الكردية وليس التركية . بدأت لتوي في غرفة الحارس بالتحدث مع مضيفنا بالكردية . اتسعت عيناه قليلا ولكن لم يبدر منه أي تعليق . ومن ثم ادار مفتاح الراديو بسرعة الى محطة اذاعة الحزب الديمقراطي الكردستاني في العراق . بدأنا نشعر براحة اكبر عندما تدفأنا بموقده الذي يعمل على الحطب . صعب لنا مضيفنا حالا كأسين ضخمين من الشاي التركي العشبي النكهة مرفقا بقطع ضخمة من القناد . وأظهر لنا كتب كان يستخدمها ليتعلم الفارسية ، وكان ذلك مشروعا قد بدأه ليمضي به الوقت في مركز الحدود الموحش هذا . وصلت الحافلة العمومية الصغيرة من يوكسيكوفنا بعد ساعة من ذلك وبينما كنا نصعد الى المقعد الثاني سمعت الحارس الذي قدم لنا الشاي بهمس للسائق ومساعدته ويقول :

— انها تتحدث الكردية .

سألني السائق مباشرة فيما اذا كنت اعرف الحاج اسماعيل أم لا . فقلت اني اعرف ابنته .

— اذا ذلك هو المكان الذي تعلمت فيه الكردية .

قال احدهما للآخر .

عاود حي خشية من شر مرتقب حالما سرنا خارج منطقتنا

الحدود . دققت النظر من خلال نوافذ الحافلة ، لأقارن كردستان تركيا بكردستان ايران . بدا الطريق الترابي المتآكل والمتعرج كما لو انه في مكان ابعد من ايران التي بدت وكأننا لم ننطلق منها ولكننا وبعد ذلك لم نتنقل ابدا حول ريزاي وفي الريف بدون دليل . ها نحن قد بقينا وحدنا ، وعلى الرغم من أن معرفتي بالحاج اسماعيل قد خلقت انطبعا قويا لدى السائق فقد كنت أشك ان اسم الحاج اسماعيل سيمضي بعيدا لدرجة حمايتنا من خشونة تركيا الشرقية .

توقف السائق عدة مرات ليملأ مبرد محرك السيارة المسرب بالماء من قناة للري . توقفت الحافلة في القرية الاولى القابعة عاليا فوق منحدر تل ليأخذ السائق اناء صغيرا من اللبن الطازج . رأيت بعض النسوة على بعد مسافة وقد كن يرتدين الزي الكردي التقليدي ذا التنورات العديدة ولكن الرجال كانوا واقفين في هيئة مختلفة تماما عن الاكراد الايرانيين . فقد كانوا يرتدون قمبعات مستديرة ومسطحة من الاعلى وذات حواف وسترات صوفية قديمة وسراويل . من الممكن ان تكون البذلة بمرمتها في طرازها وحالها امتداد للزي البريطاني السائد في الثلاثينيات . ولاتمام الصورة فقد كانوا يحملون عصوات للمشي . وقد افترضنا انها لابد ان تكون البذلة الرسمية الغربية التي اذخلها اتاتورك في السنوات ما بين ١٩٢٠ و ١٩٣٠ لتحل محل الشلوار والعمامة الكرديين المحظورين وكذلك محل اللباس التركي التقليدي . وبعد نصف ساعة من الارتجاج فوق اخاديد في الطريق والالتفاف حول تراكمات ضخمة من الثلوج والصخور المنهارة وبعد اضافة الماء الى الرادياتور المسرب وصلنا الى الجزء الادنى من مدينة يوكسيكوف . وقد ذكرنا الضباب الابيض الصاعد من الارض المكسوة بالثلج بوصف فيودور للمكان حالما ترحلنا من فوق المقعد العالي للحافلة الصغيرة . ولكننا لم نشهد أيما من السواح أو متسلقي الجبال . وبدلا من ذلك فقد تقابلنا مباشرة مع حشد من الرجال والصبية مرتدين على نحو سيء وقد اتضح انهم سكان غرفة جرداء قذرة اشار اليها السائق على انها محطة الحافلة .

خطوت صوب منضدة خشبية تقوم مقام طاولة المحاضرات
وكان يجلس خلفها رجل طويل القامة وسيم وذو شعر احمر مجعد
وشارب احمر . وقد لمعت عيناه الزرقاوان بينما كان يراقبني وانا
انطق الكلمات الضرورية بالكردية ، وبدأت قائلة :

- نريد شراء بطاقات الى وان .

حدق الرجل ذو الشعر الاحمر لبرهة خارج النافذة وكان بقية الرجال
يراقبون عن كثب هذا التفاعل الناشء . واخبرني قائلا :

- لقد تأخرت كثيرا ، فالحافلة المخصصة لهذا اليوم

قد غادرت .

نظرت الى ساعتني ، لم تكن قد تجاوزت العاشرة بعد ، وكان صديقنا
الامريكي قد اخبرنا ان الحافلة من يوكسيكوبا الى وان لاتغادر
حتى الساعة الحادية عشرة ، فقلت :

- لايمكن ان تكون قد غادرت ، فلزال الوقت مبكرا جدا

فقال وقد بدا عليه السرور :

- نعم ، ولكنها قد رحلت .

نظرت خلفي نظرات عجل الى حيث كان يقف جيرد قرب حقائقنا ويجهد
لفهم ما كان يجري . واضاف الرجل ذو الشعر الاحمر استجابا
لنظرتي القلقة :

- نعم،لم العجلة ؟ لابد ان تبقي ونشاهدي مدينتنا .

نقلت هذا لجيرد الذي بدأ متخوفا ومتضايقا . لم يكن معتادا
على البقاء من غير اتصال بالآخرين . ففي ايران كان معظم الاكراد
الذين التقينا بهم يعرفون بعض الفارسية . ولكن الآن وبما انه
لايعرف التركية او الكردية فقد بقي مهملا . احس الحشد بهذه الحقيقة
حالا ، وقد اشار ذلك فضول الرجال . سأل الرجل ذو الشعر الاحمر مشيرا
الى جيرد :

- من هو ؟

فأجبتة :

— انه زوجي .

— انه لا يتحدث الكردية ، لماذا تتكأين في السفر معه؟

لو لم أكن في تركيا الشرقية لربما سرتي ذلك التحول ، عندما عرض على جيرد زوجة اخرى في مانوا . ولكن هنا بيوكسيكوفنا لم اسم اكن في موقع يدعو للضحك . وكنت سعيدة جدا لوجود جيرد معي ولم أكن ارجب ان يظن هو ^{لا} الرجال غير ذلك . كنت قد سمعت أن امرأتين امريكييتين عبرتا الحدود التركية — الايرانية بسيارتهما الخاصة وهدهما ، كانتا قد سلبتا من قبل عصابة هاجمتها .

تفحصت جدران ولوائح محطة الحافلة بحثا عن أي لافتة يمكن ان تخبر عن موعد مغادرة الحافلة الفعلي . وبعد ذلك سألت الرجل ذي الشعر الاحمر ثانية ولكنه استمر في تأكيده لي ان الحافلة قد غادرت في الساعة الثامنة من ذلك الصباح ولواني فقط اكف من القلق ، فاني سأقدر على قضاء الليلة في بيوكسيكوفنا وأخذ الحافلة في اليوم التالي . فكرت في نفسي ، حسنا ، لربما ان مواعيد السفر قد تغيرت منذ السنة الفائتة . ان احتمال الغاء جميع الحافلات المخصصة للجانب في شرق تركيا لم يبد بعيدا جدا ، بعد تجربتنا عند الحدود . فسألت الرجل :

— حسنا ، اذا لم تكن هناك حافلة ، هل توجد سيارة

اجرة ؟ يجب ان نذهب الى وان اليوم .

فكرت وهو يبتسم :

— تاكسي ؟ طبعاً ، طبعاً . ولكن اولا يجب ان نذهب

ونشرب الشاي معا . ومن ثم يمكننا ان نذهب الى وان . اعرف

شاحنة ستأخذكما الى هناك .

فسأله :

— هل انت متأكد ؟

— طبعاً ، هل تظنين أنني اكذب عليك ؟ انت مثل اختي .

وقد كرر هذه العبارة في غضون الساعة التي تلت عدة مرات

وغالبا ماكان يرفقها بدعوات الى منزله . على الرغم من اني فسي محطة الحدود كنت قد بدأت اشعر وبثقة بأن معرفتي باللغة ستقربنا من السكان المحليين او على الاقل انها ستجعلنا اقل غربة ولسو قليلا ولكنها سرعان ماتحولت الى شيء بغيض . فقد كانت معرفتي بالغة الكردية تساعدني ببساطة على فضح مجونهم اكثر .

طلبت من جيرد ان نذهب الى المقهى . وبما أن الرجل ذو الشعر الاحمر قد ابدى استعدادا للخدمة ، فقد قررت انه سيكون من الافضل أن نسايره لفترة . وعلى الرغم من تحفظاتي فقد كنت نصف مفتتنة بهذا الكردي الوسيم ، المليء بالحيوية والحماسه . وبتردد وضعنا حقائبنا على الارض في زاوية حجرة الانتظار . هل ستبقى في مكانها الى حين عودتنا ؟ كان حشد الرجال والصبيسة ينظرون اليها شزرا وكنا مكرهين لأن نتصرف وكأننا لم نشق بهم وقد ارانا الرجل الذي عين نفسه دليلا لنا شاحنة حمراء كبيسة كانت مستقرة على الطريق حالما خرجنا من الحجرة وتوجهنا نحو الطريق الرئيسي . واخبرني قائلا :

— تلك ستأخذكما الى وان .

فسألته :

— حقا ؟ متى ؟

فأجاب دليلا بتآن :

— حالا ، حالا ، ولكن في البداية لابد من تناول الشاي .

دخلنا المقهى الذي لم يكن يتميز عن مقاهي ايران حتى بطاولاتها المربعة . لم ألمح حتى ولا امرأة فيها . وقد التفتت الروءوس جميعها نحونا ، وحالا دخلت مع الرجل ذو الشعر الاحمر وجيرد . واستمتعت لبعض الدقائق الاولى من جلوسنا هناك بجو التشويق والاشارة . ففي كل مرة تحدثت فيها ، كان يسود الحجرة ، هدوء يملأ المرء من سماع صوت طحن قطعة من السكر . وبعدد ثفج الجدران بهمهمات مختلفة عندما ينقل الرجال الى

اصدقائهم في الاماكن البعيدة ماكنت اقله وذلك على مراحل متتالية . لم يكن التلفزيون قد وصل مقاهي يوكسيكوفنا بعد . ولكن الشيء الاخر الاكثر اشارة ، وهو وجود امرأة اجنبية تتحدث الكردية ، كانت قد وصلت الى هذه المقاهي . بينما كنت اتحدث ، كان العرق يسير على ظهري تحت سترتي وكنزتي الصوفية وتحت معطفي المطري الثقيل . بدأت اتساءل بالحاح اكثر عن كيفية خروجنا من هنا . كان الرجل ذو الشعر الاحمر يتصرف كما لو انه يرغب في الاستمرار في عرضي الى الابد على رفاقه في المقهى متباهيا بي .

بينما كان يقدم لنا الفئجان الثاني من الشاي لمحبت بطرف عيني من خلال النافذة، الشاحنة الحمراء التي كان من المفترض انها ستنقلنا الى وان وهي تنعطف في زاوية على طريقها للخروج من المدينة . وقد فرغت لدى روميّتي ذلك ونقلت المعلومة الى جيرد . فقال الرجل ذو الشعر الاحمر متملقا :

— تكلمي الكردية ، نحن لانعرف الانكليزية .

حدثت فيه وانتفضت قائلة وتبعني جيرد ومشى مشيفنا ورائنا الى خارج المقهى مع العديد من الاحتجاجات المستاءة لعدم اتمامنا احتساء الشاي حتى . اختار عدد من السادة رواد المقهى هذه اللحظة للمغادرة . والتف حشد كالحلقة حولنا بينما شققنا طريقنا عابدين الى الشارع الى حيث المكان الذي بقيت فيه حقائبنا سليمة على الرغم من انها لم تكن غير ممسوسة . وبعد محادثة سريعة مع جيرد التفت الى الرجل ذي الشعر الاحمر خاطبته قائلة :

— كنت اظن ان الاكراد اناس طيبون وشرفاء وانهم معروفون بحسن ضيافتهم . فابتسم الجميع لذلك واتممت :

— ولكنني لأظن انك تقول الحقيقة . كنت تعرف ان الشاحنة ماكانت ستأخذنا الى وان . لماذا حاولت ان تخدعنا ؟

عند ذلك تلاشت الابتسامات وبدأ الناس باللفظ ، كان الرجل ذو الشعر الاحمر قد اندهش لذلك . ان الاهانت المنذرة بالسوء

في كردستان قلما تلفظ جهارا ، بغض النظر عن مدى صحة الاتهام .
لم يعاملني هؤلاء الناس كصيفة ، بل كسائحة عابرة ، يمكن ان
يتسلوا معها . على الرغم من أننا كنا تحت رحمتهم فهم لم يرغبوا
بأن توجه لهم التهمة بالسلوك غير الحسن .

هذه الصفة المتناقضة ظاهريا ، هي حقيقة بين الاكراد
حيث يحتوي تراثهم على حكاية خرافية ذات مغزى تشبه هذا
الموقف . تقول الحكاية انه وقع احد الصيادين أثناء عاصفة ثلجية
في حفرة دب ، وللفرج الذي نزل على الرجل ، فان الدب لم يقتله
ولكنه تركه يمكث في جحره لبقية الشتاء . وكلما بجوع الرجل
أو يعطش ، كان الدب يعطيه قدمه ليلعقها ، واتضح ان هذا
كان شيئا مثيرا للاشمئزاز ، فقد بدأ الرجل بفقدان شهيته باطراد
وعندما حل الربيع ، ساعد الدب الرجل على التسلق للخروج من حفرة
وقبل ان يمضي الرجل في طريقه ، يسأله مضيقه :
- هل احسنت معاملتك يا أخي ؟

فيجيبه الرجل بصدق :

- نعم ، ولكن كان لقدميك رائحة كريهة حقيقة .
آنخذ يتوسل الدب الصياد ان يطعمه في ظهره فيتردد الرجل ولكنه
اخيرا ، ونزولا عند الحاح الدب يدعن لذلك . بعد عودته الى
القرية ، يتذكر الرجل الدب ويخبر عائلته بانه يرغب في
تقديم زوجين من الخراف له ، تعبيرا عن شكره لابقائه عنده
طوال الشتاء ، وعندما يعود الرجل الى حفرة الدب يجد ان جرح
الدب بالسكين قد شفي ، فيعطيه الخروفين ولكن الدب يجيبه قائلا :
- انا لا اريد هداياك . انظر الى الجرح الذي سببته
مدينتك انه قد شفي بدون مساعدة الاطباء او الدواء ولكن جرح
كلماتك البغيضة لن يبرىء ابدا .

كانت تركيا الشرقية قد فتحت ابوابها للسياح الاجانب
في السنوات الست او السبع الاخيرة فقط . وقبل ذلك كان السلب

والنهب والثورات شائعة هناك . في الوقت الذي جرحتهم اتهاماتني
حتى المميم فكرت في احتمال ان معرفة الرجل ذي الشعر الاحمر
بالبرنامج هي التي احشته على قبول طلبي . من ثم أعدت لنسـا
سيارة اجرة قديمة مزودة بسائق وتفاوضا حول الاجرة . وعلى الرغم
من أن السعر كان اعلى مما كان يجب ان يكون ، فان الخمسة عشر
دولارا لرحلة ، الثلاث ساعات الى وان كانت مقدارا أقل بكثير من
العشرة دولارات التي دفعناها لرحلة النصف ساعة من الحسدود .
حشر اثنان من المحليين نفسيهما في المقعد الامامي مع السائق
لانه سيعتبر ركوبا مجانيا بدون شك .

تجمع الرجال حول سيارتنا ليودعونا ، بينما سأل الرجل
ذو الشعر الاحمر نحو النافذه . وسأل :
- هل ماترالين تظنين ان الاكراد اناس سيئون ؟
فأجبته :

- لا

لقد كنت سعيدة لمجرد مغادرتنا يوكسيكوبا .
فقال :

- حسنا . لاتنسينا . وتذكري انك اختي . عسودي

وزوريني .

فأجبته من خلال مقعد السيارة الامامي :

- شكرا جزيلا .

بعدئذ تقدم نحوي العديد من الناس وصافحوني من خلال نافذة السيارة .

بعد ذلك ، لمحت المرأة الوحيدة التي شاهدها فسمي
يوكسيكوبا فقد مرت على بعد ما يقارب خمسة اقدام مثل شبح عبر
حقل مكسو بالثلج . كانت تضع على رأسها قماشا أسود سميكاً ، يوصل
حتى ركبتيها ، وبانت تحته ساقان عاريتان ، وكاحلان مكسوسان
بجوارب بيضاء داخل حذاء اسود مسطح . بدا انها تحديق باتجاهي
واستغربت لقدرتها على الرؤية من خلال القماش . كان علي أن اعرف

قبل ان افكر ان الغطاء بكل اشكاله غير المستحبة قد حـرم
في تركيبا .

بينما انطلقنا خارج مركز المدينة ، انعطفت حافلسنة
في الزاوية وانطلقت بسرعة ، مارة بنا ولكنها لم تكن بالسـرعة
المفرطة ، فقد استطعنا ان نقرأ كتابة عليها من الخارج " بحيرة
وان " . نظرت الى ساعني وكانت تشير الى الحادية عشر الابضع
دقائق ، كما كان قد اخبرنا متطوع فرقة السلام .

بدا ريف مقاطعة هكاري في تركيا اكثر اخضرارا ولـكـسن
أقل كثافة بالسكان من غرب اذربيجان . وحالما شققنا طريقنا في
منعطفات في الجبال ، رأينا رعاة ومعهم كلاب ضخمة .

كان بعضهم يرتدي العمامات الكردية والسراويل الفضفاضة
وكان اغلبهم يرتدي لباسا من الطراز البريطاني يعود لسنة ١٩٣٠ .
بعد عدة ساعات انطلقنا الى بوشقالة وهي مدينة كردية ممعنة
في القدم ذات شوارع مرصفة بالحجارة ، مبنية على جانب جبـسل .
تناولنا عشاءنا فيها مع السائق وركابه الآخرين . ابـديت
ملاحظتي لحقيقة انهم دفعوا بدلا منا ، ولكن جيرد اشار متشكـيا
الى أن من الطبيعي ان يكونوا كرماء جدا بالنقود التي نهوها منا .

بعد العشاء تحول الطريق شمالا مباشرة باتجاه وان ،
وبدانا بالتسلق نحو الالسنة الجبلية العالية لزاغروس . اختفت
الشمس وراء الغيوم وكان قد حل الجليد والثلج ، محل العشب الاخضر
الباهت في مطلع الربيع . وقد سرنا نحو عاصفة ثلجية صغيرة قسي
قمة رحلتنا وبدأت السيارة بالانزلاق ، بينما كنا نغالب المنعطفات
الحادة . اغلقت عيني محالة الا افكر في كيفية عدم ملامسة
عجلات السيارة الارض هذا اذا تجاوزنا ذكر السلاسل الجبلية .

بينما كنا نهبط من فوق الجبل ، حدثنا عاليا الى حافة
الجرف وشاهدنا هيكل واجهة حصن قديم . سررت لانه لم يـعد

مأهولا . ان أي امرئ كان يقدر على انتزاع ما يرغب فيـــــــــــــــــه
كضريبة على العابرين ، بسبب موقعها السيطر على الطريقــــــــــــــــق .
كان الاكراد حتى بدون هذه القلاع قد بسطوا سيطرتهم على الممرات
الجبلة في تركيا الشرقية ، الى ان اوقفهم الجيش المرسل من انقره.
عن ذلك .

غادرنا الجبال تدريجيا وبدأنا باحتياز الحقول . كانت
قد أنشئت في ضواحي وان مساكن مشابهه بالمباني التي رأيناها
عند الحدود وكانت هذه ايضا ذات افنية غير محاطة بجدران
وقادنا طريق عريض تكتفنه الاشجار لمركز المدينة بينما كنــــــــــــــــا
نلقي نظرة عجلى على كتاب الدليل السياحي بحثا عن اسم فندق مــــــــــــــــا .
وافق السائق على اختيارنا لفندق بيش كارديش ، وبينما توقف
امام مبنى كبير ذي مظهر مهمل بساحته المفروشة بالحصى والمزينة
بمجموعة تماثيل ، كتب احد المسافرين - كانت قد جرت بيني
وبينه محادثة ودية - اسمه واسم قريته بسرعة على قطعة ورق
وناولني اياها . وقال موءكدا :

- عندما تعودين الى الحدود ، اتمنى ان تزوريني .
شكرته وانضم الي جيرد بتوديعه توديعا حارا بعد ان كانت
معنويات جيرد قد انتعشت بعد نجاحنا في الوصول الى وان برغم
كل شيء .

دخلنا الى حجرة الانتظار في الفندق ومشينا بجانب
بعض الكراسي الركة المحشوة وحوض سمك مغبر . سألت الموظف
الشاب الانيق الجالس الى مكتبه :
- هل تفهم الكرديه ؟

فقلت بالكردية بأننا نريد غرفة ، معتبرة ان صمته هو
تصديق لذلك . فابتسم دون أن يتفوه بكلمة وناولني
استمارات لنملأها بالمعلومات المطلوبة ومن ثم ناولنا المفتاح .

أخذنا حقائبنا الى الاعلى وتفحصنا الغرفة . لقد كانت بالنسبة
لسعرها ذي الثمانية دولارات ، صغيرة وغير نظيفة جدا ولكن
التواليت الى الجانب الاخر من القاعة كان أسوأ حالا .

بعد بضع دقائق خرجنا الى الشارع الرئيسي لـمصر
النقود في مصرف ما ولشراء تذاكر سفر بالطائرة الى استانبول
ولتناول العشاء . وفي طريق عودتنا من المطعم ، دنا منا شخص
في رفاق معتم ويادرننا بالكلام وبعد ان القى علينا التحية كما
لو انه يعرفنا قال الغريب :

— اين تقيمان ؟

— في ايران .

اجبته بذلك بما انه كان يتحدث بالكردي .

— اوه ، حقا ؟ في اي مدينة ؟

— في ريزاي .

— ريزاي ؟ اعرف اناسا عديدين هناك . هل تعرفان

السيد فيلانسي ؟

لم استطع فهم الاسم الذي لفظه جيدا ولكن وجودي لخمسة
اشهر في ايران كان قد جعلني متيقظه لهذا النوع من اللقاءات
غير المتوقعة . وكنت قد حذرت ايضا ان تركيا الشرقية
تعج بعناصر وعملاء البوليس السري . تمتعت بشيء مجيبه على
هذا الرجل ومن ثم تفادينا ولم يلاحقنا هو أيضا بدوره .

لدى عودتنا الى الفندق جلسنا في حجرة الانتظار بجانب
حوض السمك وطلبنا فنجانين من الشاي بعد أن رأينا انه يقدم
لكل شخص حولنا . بدا ان كثير من الاعمال تنفذ في حجرة
الانتظار هذه ولكني لم اكن قادرة على اكتشاف ماهيتها تماما .

حصلت في اليوم التالي وفي الصباح الباكر على فكرة
افضل من تخطيط وان انا في الطريق اليها ، فهي تقع قـرب

بحيرة ملحية كبيرة وتحيط بها الجبال وتشبه ريزاي الى حد كبير بما ان تركيا تفتقر الى بترول يحقق لها ازدهارا اقتصاديا كما تفتقر الى لاجئين عراقيين حيث كانت الحدود مع العراق قد زرعت بالالغام لتبقي الاكراد في الخارج ، فقد كان عدد سكان وان يقارب حوالي ثلث سكان ريزاي فقط . واذا كان ثمة مجتمع اجنبي في وان ، فهو لم يكن واضحا ، وعلى الرغم من هذا ، فقد كان من النادر ان يحدد بنا احدوكان ذلك يوفر لنا راحة عظيمة بالمقارنة مع ماكان يحدث في ايران . وكان السكان ينظرون الي وكأنهم لم يروني من قبل ابدا بغض النظر عن المرات التي كانوا يشاهدوني فيها . كانت بعض النسوة في الخارج مرتديات نوعا من الغطاء المستعمل كبديل مؤقت للذي رأيناه في يوكسيكوفنا ، ولكن بشكل عام بدا ان النساء كن قد حلن مسألة الحجاب المخظورة بعدم الظهور في الشارع مطلقا . وطالبات المدارس كن يمشين بيضا بيد مرتديات البسة على الطراز الغربي مع السراويل والفاغات على رؤوسهن . وجدنا أنا وجيرد مقهى وجلسنا لنتمتع باحتساء الشاي وفي ذلك الحين لاحظت ان رجلا يراقبنا عن كذب من طاولة كانت بقربنا . كان ثمة شيئا ما في نظرتة لم ارتح له . انهينا شاينا بسرعة وخرجنا نازلين فوق الهضبة وانعطفنا حول زاوية لننهي تناسول فطورنا في محل معجنات . وبينما كنا جالسين هناك فتح الباب ودخل نفس الرجل وجلس بالقرب منا .

عند العودة الى الفندق جلست في غرفة الانتظار بقرب مجموعة من الرجال . كنت متأكدة من أن السكان في وان هم من الاكراد . ولكني كنت قد سمعت ، مصادفة ، بعض الناس في المدينة يتكلمون التركية مع اطفالهم . بدا الناس هنا راغبين عن التحدث معي بالكردية على نحو مظاهر عما كان في يوكسيكوفنا . ولكن عندما اخذت السرعة التي وضعت فيها تحت المراقبة بعين الاعتبار لم يبد خوفهم شيئا غريبا .

على كل حال كانت حجرة الانتظار في الفندق ممتلئة

بنماذج ريفية شبيهة باليوكسيكوفين . فقد كانوا جميعهم يتحدثون بالكردية فيما بينهم .

التفت الى الرجل الجالس بجانبى والقيت عليه التحية وسألته عن صحته . كانت اجابته ودية وحالا عقدت محادثة مع مجموعته كاملة من المهرابين الاكراد . سألتهم :

— ماذا تهربون ؟

فنظر الرجل حوله ومن ثم اجابني بصراحة :

— اغنام ، سيارات ، أي شيء .

فكررت متسائلة :

— اغنام ؟

— آوه ، نعم يمكنك ان تحصل على سعر افضل بكثير

للفنم الواحدة في ايران اكثر مما يمكن ان تكسبه هنا ، اكدوا لي ذلك وسأل احدهم :

— هل اتيت من ريزاي ؟

— نعم ، هل تعرفين اين هي ؟

— طبعاً ، ذهبنا الى هناك عدة مرات .

وانفجرت وجوههم المفجرة بتأثير العوامل الجوية عن ابتسامات عريضة مسلية .

— هل تعرفين الحاج اسماعيل ؟

— نعم .

اجبت بذلك مندهشة الى المدى الذي قد وصلت اليه شهرة الحساساج اسماعيل الفامض هذا .

كان مطار وان بالنسبة لمطار ريزاي نفس ماكان يعنيه مركز الحدود التركي قرب سيرو بالنسبة للجانب الايراني . كان مبنى مطار وان ذا كلفة باهظة ، اذا اخذنا بعين الاعتبار ، ان كلا

من ريزاي ووان كانتا تقومان بثلاث رحلات اسبوعيا لعاصمة البلاد.
لم يكن البناء يحتوي على ناد ليلي او على رخام مزيف . وقد
تجولنا خارجا في الجو المشمس والبارد بردا قارسا لنراقب وصول
الطائرة من استانبول عندما مللنا من صور اتاتورك المعلقة في
مكتب المدير .

بعدها نزل الركاب انزل تابوت خشبي غير مزخرف على
السلالم من الطائرة وتحركت مجموعة من الرجال المرتدين اغطية
ذات طراز كردي لاستقباله . لم نشاهد في أي وقت آخر في تركيا
الشرقية مجموعة من الناس مميزين بهذه السهولة على انهم اكراد.
رفع الرجال التابوت وحملوه الى مجموعة اضمخ من الرجال الذين كانوا
ينتظرون ويبكون خلف البوابات . واخيرا شرعنا في الطيران ونظرنا
نحو الاسفل الى تضاريس تركيا الشرقية الملتوية والملتفة على بعضها
وقد ضرب زلزالان هذه المنطقة بعد سنة ونصف من ذلك الحين ، نشر
الاكرد العراقيون تقارير عن المعانات الرهيبة التي تلت هذه
الهزات ، وعن المساعدات الدولية المرسلة التي لم تصل الضحايا
ابدا . ونقلت الصحف الكردية العراقية عن تصريحات لمسؤولين
اتراك يقولون فيها " على كل حال ، هم ليسوا الامجرد اكراد " .

وصلنا الى استانبول بعد ست ساعات . وقد بدت لنا
كما لو انها ستة قرون . استانبول هي مدينة جميلة تضج بالتجارة
والصناعة بالاضافة الى التباين بين المباني القديمة والحديثة
الجميلة . في وان ، البنايات القديمة الوحيدة هي الكنائس
الامريكية التي كانت قد انتهكت قدسيته لعقود مضت . ومنذ ذلك
الحين كانت الحكومة قد انشأت الشيء القليل من المباني الجميلة
والممتلكات في وان . ولماذا تتجشم عناء ذلك ؟ فالذي
يقيمون هناك هم من الاكراد فقط .

يبلغ عدد الاكراد القاطنين في استانبول خمسين ألفا
او ما يقارب ذلك ، وقد قدموا اليها لايجاد عمل فيها وتباعدوا
في رحمة هذا الحشد . لم نقس على التغاضي عن سماح الكرديين

لدى تحوالنا في شوارع وازقة المدينة عندما اخذنا موسى السذي عاد من امريكا لروبة معالم المدينة . وقد اصبحت بذهول عندما اكتشفت انه لن يتحدث معي بالكردية في استانبول على الرغم من انني كنت قد قضيت سنة في الولايات المتحدة اتعلم الكردية منه، والان بعد كل تجربتي في ايران استطيع التحدث بلغته افضل من أي وقت آخر ولكن موسى كان يفضل الانكليزية المكسرة .

سألته فيما اذا كان سيذهب معي الى البازار للبحث عن كتب وبيانات كردية مسجلة ، حيث كانت تظهر بين فينة واخرى على الرغم من ضغط الحكومة . فأجابني بلطف ولكن بحزم :

لا يامرغريت ، لا أظن ذلك .

– هل تظن انني سأقدر ان اجد كتباً من هذا القبيل ؟

فأجاب بحذر :

– ربما ، لا أعرف .

وفي اليوم التالي كنا نشق طريقنا من بائع كتب الى آخر في البازار ، الى أن انتهينا الى شارع ضيق مدّرج موء الى ساحة يتفرع منها شوارع . وقد حصلت على نسختين من قاموس كوردي-تركي واربعة اشربة موسيقى كردية ، ذات الخمسة والاربعين دورة. في كل دقيقة . كان البائعون ينظرون الي نظرات شاقبة وتساءلت فيما اذا كانوا ينتظرون اجنبيا ليتلقف هذه الكتب غير القانونية من اياديهم . او لربما تكون لديهم غرف خلفية مكدسة بمسودات كتابية كردية ولكنهم ولانهم لا يثقون بي ، لم يقدموا على بيعي ايهاا .

وبعد ان امضينا اسبوعا في تركيا ذهبنا الى مصر وقد قرأنا المزيد عن نهاية الثورة الكردية في صحف القاهرة . وقد ورد في احدى المقالات ان الجنرال البرزاني كان يطلب حق اللجوء السياسي في الولايات المتحدة . فكرت في المدرسين في مدرسة اللاجئين . فكرت في مدى اختلاف نهاية الحرب عن توقعاتهم كانوا

يصدقون أن نصرا كرديا هو ممكن ، وكنت آمل ان تتاح فرصة
لأزور كردستان العراق . وتساءلت فيما اذا سيبقى اللاجئون فلسي
ريزاي حتى عودتنا .

وقد طرنا من القاهرة الى بيروت ومن ثم الى انقرة واخيرا
الى ارضروم . وهي مدينة قديمة ذات ابنية وجدران حجرية
وشوارعها المعتمة ايضا كانت حجرية . لقد رحل الارمن عنها منذ
زمن بعيد فقد أبيدوا في مذابح جماعية في مطلع القرن العشرين
وشتتوا في ارض اجنبية . لم اجد احدا في ارضروم يتحدث الكردية
معي : لقد بدا ان الاختلاف قد تلاشى ، فقد كان الجميع يرتدون
نفس نسوع الالبسة الغربية وطبعا كان كل شخص يتحدث
التركية .

واخيرا ، بعد رحلة طويلة ، مغبرة وخطرة في الحافلة
من ارضروم وصلنا الى الحدود الايرانية مارين عبر بازرگان
أولا ومن ثم عبر ماكو ، واخيرا وصلنا الى تبريز . وقد
بدت لنا ايران اكثر جمالا حتى على الرغم من مشهد الجماهير
المثير في بازرگان . فهنا كان البوليس السري قد رآنا من قبل
على الاقل ولم يتجشم عناء مضايقتنا بالحديث معنا في اذقة
معتمة . كان الاكراد هنا يتحدثون ، ويرتدون مثل بقية الاكراد
أما هناك ، فقد كان الاختلاف موجودا بدلا من النظام . ربما
كان علينا ان نبتعد منذ زمن أبعد لنكتشف بعجلة اكثر
ان ايران كانت موطننا . لم احتمل انتظار الوصول
الى كردستان حيث كنت قد سمعت اسم حاج اسماعيل
في تركيا على شفاه كل مهرب اغنام . وقد اعتدت على التفكير
بأن الاكراد الحقيقيين يقيمون في مكان آخر . في تركيا في العراق
في مهاباد وليس في ريزاي . لم يبارحني التفكير بأن الاثراك
الآزريين سيستولفونني وان السافاك سيرحلوني من البلاد بسبب
بحثي في اوضاع كردستان . كان علي الذهاب الى وان التي
يتحدث فيها اطفال الاكراد بالتركية ، لكي اكتشف اني مشيت
في كردستان ، وان الحاج اسماعيل كان ينتظرني في ريزاي طوال
هذا الوقت .

الفصل الثاني عشر

كان يقف في مدخل حجرة الجلوس الضخمة شخص طويل القامة ،
بميل الى النحافة ، ببذلة سوداء ، وذووجه شاحب وعينين زرقاوين
غائصتين ، وهو يتكلم مع مريم حيث كانت جالسة مع نساء عائلتها
في يومها الاخير في المدينة . لقد ظهر للحظة ومن ثم اختفى السى
حيث لا ادري . وعندما عدت موءخرا الى شارع بهلوي لأرى خديجسة
كنت ادرك بين الفينة والاخرى حضور هذا الرجل ولكن بطريقسة
سطحية جدا وبعبدة من زاوية نظري . لم يدخل الغرفة التي كنت
اجلس فيها ابدا ، او يعطي أي إشارة تدل على انه يعلم بحضوري ،
لذلك ، تساءلت عما اذم كانت النساء قد اخبرنه بزياراتي .

عندما أقبل الربيع ادركت تماما ان رحلا قويا جدا ،
يسيطر على حياة هؤلاء النسوة اللواتي قضيت معهن الكثير من الوقت .
كن يتحدثن عنه دائما بهمسات تقريبا او بققهات مكتومة .
" قال الحاج ذلك " أو " الشيخ يريدنا ان نفعل ذلك " وعلى
الرغم من انه لم يقدم الي رسميا ، فقد ثبت لقب الحاج على ذلك
الشخص الغامض الطويل القامة الذي لمحتة في الخريف .

وبصدفة غريبة كان اليوم الذي التقينا فيه انا والحساج
وجها لوجه ، هو نفس اليوم الذي اخترته ، لألبس متباهية اللباس
الكردي الذي كان جيرد قد اوصى به لي في البازار . وقفت وحدي
أمام مرآة حمامنا الصغيرة محاولة ان اسوي الوشاح البرتقالي لكي
لاينزلق عن رأسي ، مشبته الفستان الاحمر الساتين الضارب الى
الزرقة بدبوس امان ضخم ، فوق " الكراس " الابيض والاحمر
والاصفر الذهبي . لم ألبس ثيابي الكرديّة بنفسي من قبل ، على الرغم
من اني كنت قد ارتديتها في مانوا وفي قرية السيد شيخ زاده . و
كان علي أن اجهد في وضع " الكراس " علي وان ألف حزام هـذا

اللباس الداخلي حول خصري واسحب نهايات الاكمام الطويلة الرفيعة خارجا لكي استطيع ان اربط اكمام " الكراس " عندما ارتسدي الفستان ، ولالقيها من فوق رأسي لتأخذ مكانها فوق ظهري واشبت الفستان المفتوح أسفله من الامام بدبوس امان ضخم . عندما نظرت الى بذلتي ، ادركت ان مظهري هومثل مظهر معظم النساء الكردييات تماما ولكنني لم أكن على وشك ارتداء فستانين ، مثلما كانت تفعل خديجة . كان الثوب القطني الذي يدمى فستانا داخليا يشكّل غطاء كافيا لي بدون " الفستان " او " الكراس " والصدارة المنطبقة عليه . تحت ثقل كل هذا القماش ، كنت اشعر كما لو ان السروال الفضفاض ، الساتين سينزلق من خصري ، وقد تساءلت الى أي مدى سأقدر على المشي في الشارع ، قبل ان ينزلق ساقطا حول كاحلي. لقد كان صعبا للغاية . اردت الجلوس ونسيان هذا الشيء برمته ولكنني كنت اخاف ان اجعد البستي الجديدة . فوقفت في حيرة من امري . ألم أكن انا التي رغبت في اظهار نفسي بهذا الذي وارتديت الالبسة الكردية في الشارع ؟ لأفترض أن الاتراك عرفوني ، عندئذ ستصبح الالبسة الكردية تسليتهم المفضلة وستعني لهم الكثير . استطيع ان اتخيلهم يحتشدون حولي ، ويتبعونني . وقد حدثني على الخروج فقط تفكيرتي بمنظر خديجة المندھشة والنساء الاحريات . ولو كننت اعلم ان الحاج اسماعيل سيكون موجودا او ينتظرني فلا أظن ابدا اني كنت ساستجمع شجاعتي وتخوفي معا ، لأخطو بحذر نازلة على الدرج المؤدي الى الفناء . لدى خروجي اندفعت والدة شهرزاد فجأة من الدار وتفحصتني من قمة رأسي حتى قدمي . كنت قد القيت غطاء اسود مخروما على البذلة بكليتها ولكن اللباس الكردي كان يرى من خلالها بوضوح .

— مبارك .

غمغمت بطريقة جافة وهي تهنئني اما على بذلتي الجديدة ، أو على اعصابي وتحلمي ارتدائها وهذا الاحتمال كان وارد اكثر .

خرجت بلباسي المهفهف ، عبر الفناء وفتحت البوابنة .

ووضعت نظارتي في محفظتي لأنني لم ار امرأة بغطاء ، تضع نظارة ابدا . وأملت فقط لو اني استطيع ان اجد طريقي خلال الازقة الى الطريق الرئيسي بدون الاصطدام بشيء . ولحسن حظي اعطاني ثقل ملابسي زخما في حركاتي ، حيث كابئت تدفعني الى الامام على الرغم مني . بدا غطائي كأنه يتلاطم كال موج حولي وبدا كل شيء ينزلق وينزلق . وفكرت في نفسي ، اذأ هذا مايفعله الحجاب فهو يبقي المرأة منشغلة كلياً بامساكه . ان الاغطية العربية الاكثر جدية لها فوائدها ، فهي على الاقل تبقى ثابتة بنفسها ولاتنزلق .

مر بي راكب دراجة ، فالتفت لأنظر اليه ولكنه استمر في طريقه حتى دون ان ينظر نظرة باتجاهي . عرفت انه لم ينظر وراءه لأنني انا ذاتي نظرت باندھاش . ما الامر ؟ ففي الأشهر الخمسة الفائتة لم يمر بي صبي على دراجة دون التحديق وراءه . كان من المستحيل تقريبا ان اوفق بين شعوري الغامض بالروعة مع مذهري الجدي غير الجلي . كنت سأصل لبیت خديجة دون أن يلحظني احد ابدا لولا ارتكابي خطئي المشؤوم . فقد حدثت في عيني بائع الخضروات وانا في طريقي ، بينما لاتحرق امرأة ترتدي غطاء ابدا في عيني رجل في الطريق . وقد فغرفاه اليقال اندھاشا عندما عرفني ، فاسرعت باحثه عن جرس باب البيت التالي آملّة ان تجيب خديجة قبل ان يبادر بالكلام .

هناأتني خديجة بصوت مرتفع ، عندما رأت ملابسي واجتمعت النسوة حولي في الطابق العلوي ليبدین اعجابهن بها . كان جميع الاكراد الذين رأيتهم يفتخرون حقا بملابسهم . فقد كانوا يظنون ان ملابسهم أعظم قيمة من الملابس الغربية وكانوا يسرون لروعة الآخرين يرتدونها . ان هذا تقليد حي بين الاكراد وهم يفتخرون به . وليس بالضرورة ان تنعدم لديهم ، الثقة بالنفس ليروا انفسهم كما يراها الاتراك والفرس .

تقدمت زينب نحوي وهي تضحك ، وفكت دبوس الامان الكبير
وتركت الفستان متدلجا .:

— مارغريت ، ليس على هذا النحو .

عدلت لباسي ، مغلقة " الكراس " الداخلي ، حيث رفعتة ولفنته
حولي لكي تبقي السحاب من الامام وليس من الخلف . ان السحابات
ودبابيس الامان يمكن أن تحتبر رديئة في الغرب ولكن دبوس الامان
في كردستان له فعالية عند الاكراد ، فهو وكما اكتشفت مؤخرًا
يفيد تماما في طرد " الخليليك " هذه الارواح الكردية الشريرة
التي تظهر عند المغيب متنكرة بشخصيات اناس حقيقيين ، وتنزل
الغراب على ضحاياها . لا اعرف اذا كان للسحابات خاصية
سحرية ، لكنها من المؤكد ليست غير مرغية .

عدلت زينب ايضا وشاح رأسي الذي كان يظهر نصف شعري
وهذا شيء لاتظهره المرأة الفاضلة . وحالما بدأت التعميدات
والاوه والآهات بالتوقف تدريجيا ، ظهر الرجل النحيل الفارع القامة
عند المدخل بنفس البدلة السوداء . كانت قد ارتسمت ابتسامات عريضة
شيطانية على محياه ، بينما كان يخلع حذاءه نهضت حالا وانسا
انقل نظري بينه وبين النساء الاخريات وتحول عدسي الى صدمة ،
كان كما لو ان مصيبة حلت على الحجرة او كما لو أن ميسدوزة
قد اثتالى الباب ، بدلا من رجل يبتسم بخبث . كانت وجوههن
قد شحبت وصممت اصواتهن . بدا كما لو انهن تحولن الى تماثيل
وهن يلقن بلا حراك . توقفت عن الابتسام ولكن حالما خطا
الحاج اسماعيل نحو الحجرة ورفع يده ليصافحني بثبات ، لسم
استطع مغالبة الابتسام ثانية :

— تفضلي بالجلوس ، تفضلي .

بقي بردد هذا لي ، ولكنني بقيت واقفة . ماكنت سأجلس وجميع
النسوة منتصبات حولي وقد تجمدت حركاتهن . فسأل زينب
مستغيبا :

.. بماذا لم تلتصق ؟

فأجابت زينب وعيناها مسدللتان :

— انها نعرف عاداتنا .

انحنى الحاج اسماعيل نحو الارض بسرعة ، وتبعه اسما ولكن بدا لي وكأن النساء الاخريات ينكمشن بدلا من ان سطسن بحبوبة . امر الحاج زينب بأن تحضر طبقا كبيرا من العواكسه ، ففعلت وخرجت بسرعة ، وظهرت ثانية بعد دقيقة اودقبتين وهي تحمل طبقا مزخرفا مصنولا من الموز . بعد ذلك قدم لي الحاج واحدة والتقط بعضها منها لنفسه . وكانت النسوة لا يزلن يبدون حراك .

— شاي ، هل قدمت لها الشاي .

سأل زينب التي نهضت ثانية بصمت لتحضر الشاي نزولا عند رغبة الحاج . ومن ثم لمحت حديجة التي بدت كما لو أنها كانت تتجشم معاناة تجربة زلزال . فهي حتى لم تجلس ، بل قرفت الى جانب الحائط تماما فوق الارض على مسمع بارد ، مفروش وراة طرف السجادة قرب الباب . كان لفاهها قد انسحب فوق وجهها المتجه صوب الجدار .

كان الحاج لا يزال يتحدث معي ، كما لو انه ليس شمة خطأ على الاطلاق ، لذلك حاولت ان اتجاهل الافة التي اصابني كسل النسوة حولي ، وبعد عدة زيارات كانت مقتصرة على النساء فقط بدا ان هناك شيئا غير طبيعي ابدا ، حتى بالنسبة لي في اللقاء مع رجل وجهها لوجه في هذا المنزل . قال الحاج ميتسما :

— حسنا ، لقد اخبروني انك تتعلمين لغتنا .

أو مات برآسي موءكدة ذلك . فسألني وهو ينظر الى النسوة اشباه التماثيل :

— ماذا تعلمت لحد الآن ؟ ماذا علمتك ؟

لم أعرف بماذا أجيب ، ولكن الحاج اطلع على دفتر ملاحظاتي
الذي كنت احملة معي في كل مكان وسألني :

ما الكلمات التي كتبتها عندك ؟ اقترعها لي .

فتحت دفتر ملاحظاتي وانتابني شعور كما لو أنني على
شك خوض اول امتحان لي في الكردية . قرأت ببطء مادوننتسه .
فطلب مني الحاج ان احدد معنى كل كلمة وعندما لم يوافق على
ماقلتة بدأ بتقريع نسائه . وقال مذكرا اياهن :

— يجب ان تعلمنها على نحو صحيح . انها مقدمة
على تأليف كتاب .

شعرت بالذنب لأنهن حوسبن بسبب اخطائي ، ولكن زينب وخديجة لم
تظهرا اي علامة تدل على اعتراضهن على هذا اللوم غير المنصف .
لقد كانتا ارفع بكثير من أن تظهرا أي علامة من هذا القبيل .

بقي الحاج اسماعيل ينظر الي وعلت وجهه ابتسامة عريضة .
بدا سعيدا لانه اخذ بقاطعتي بالانتقادات والاسئلة ، وكسسان
ابتهاجه معديا فقد شعرت انا أيضا بالابتهاج لأنني اتعلم الكردية
وكننت سعيدة لاني اتحدث معه . ولو ان النساء فقط لم يبدون
كما لو انهن قد اصبن بصدمة لكنت اكثر سعادة . بعد حوالي
عشرين دقيقة استأذن الحاج اسماعيل ليذهب للصلاة في الحجرة
المجاورة ، وحالما غادر عادت النسوة الى الحياة .

— ما الامر ياخديجة ؟

سألته شاعرة بالراحة لروءيتها تبدو وقد انتعشت من جديد
وعادت الى طبيعتها . ضحكت صديقتي بمرح . كانت تعرف ما أتحدث
عنه على وجه الدقة .

— انها عاداتنا ، مارغريت . على المرأة ان تكون
محشمة في حضور حميها . وتحركت بسرعة صوب المدخل ، فناديتها :

— الى اين انت ذاهبة ياخديجة ؟

فأجابتنني ٪

— سأقوم ببعض الاعمال .

من الواضح انها قد شعرت بالراحة لقدرتها على الفرار .
في ذلك الحين ، خشيت أن ابقى وحدي مع هذا الحاج ، سـاحـر
الجماهير . لقد اصابني بعض من خوف النساء . كانت خادمة
خديجة ايضا قد ذهبت في الوقت الذي عاد فيه الحاج . ورنسب
فقط هي التي بقيت معنا .

كان الحاج اسماعيل قد استمع لتوه للاخبار من المذيع
واراد ان يعرف كل آرائي عن حادث مايا غور . وبما اني كنت
افتقر الى سماح معظم الاحداث الدولية خلال اقامتي في ابران ،
فلم اعرف ما قوله ، ولكن الحاج جلس مبتسما لي ، كما لو
أن أي شيء سأقوله سيفتنه . نجحت في قضاء نصف ساعة اخرى
في الحديث معه ، بذلت فيه قصارى جهدي وقد ارهفتني مقدرة الرجل
وكذلك الجهد الذي بذلته لكوني الوحيدة في الحجرة التي تقـوم
بمحادثته . شعرت ان كرديتي هي قيد الاخبار ، لذلك كنت
اختر كلماتي بحرص متخوفة من ارتكاب خطأ ما . واخيـرا
استنفذت معظم قدرتي لهذا اليوم وخاصة تلك المحسدة في مجموعة
من المواد التركيبية ، التي تطلبت جهدا مصاعفا . فاخبرت الحاج
انه علي ان اغادر ، ولكن هذه المرة وعلى نحو مغاير عن تلك
المررة الفاشلة ، في احدى فترات العصر ، عندما كنت مع مريم ،
حيث جهدت على ان اعرب عن رغبتني بالمغادرة على نحو لبق
ومهذب .

— هل تسمح لي بالمغادرة ؟

نظر الي مبتسما ، رافضا ان يجيب على مثل هذا السؤال فجريت
طريفتي القديمة .

— علي ان اذهب للمنزل واحضر الغداء .

— لا بد ان تمكثي وتتناولي الطعام معنا .

لقد سرتني ذلك ، وجعلني حذره في نفس الوقت . كيف يمكن أن
أبقى وأتناول الطعام ؟ سيكون أنا وهو الشخصين الوحيديين في
الحجرة ، نتناول الطعام . فأضفت قاعلة .

- ان زوجي ينتظرني

- زوجك ؟

كرر ذلك ونظر الى زينب للتأكد من ذلك .

- هل هي متزوجة ؟ اطلبي منه ان يحضر الى هنا .

كان الحاج قد اشار اهتمامي لدرجة اني عزمك على أن
يشاطرنى جيرد في معرفته . اخذتني زينب الى حجرة نوم الحاج
حيث هتفت الى منزلنا ، ودعوت جيرد ليأتي ويأخذني . لقد شعرت
حقيقة بالراحة ، لأشئ لن اتجاوز عقبات الطريق الى المنزل لوحدي
في بذلتي الكرديسة .

حالما دخل جيرد للحجرة ، امر الحاج باحضار كرسي معدني
له . وتصفح الرجلان ومن ثم جلس جيرد في كرسيه ، بينما جلست
انا والحاج على الارض . وقد دغنا الحاج وهو يبتسم طسوال
الوقت ، للذهاب معه الى قريته دستان في نهاية الاسبوع . نظرنا
انا وجيرد ، احدهما الى الآخر . ماذا علينا ان نقول ؟ فقبيل
ثلاثة اشهر كنا سنقبل مباشرة ، ولكننا لم نعد نقبل اي شيء
فورا في ايران . فقلت :

- شكرا . ولكن لن نقدر .

سأل الحاج :

- لماذا ؟

فأجاب جيرد :

- علينا ان نعطي دروسا بعد غد .

- سأعيد كما الى دروسكما .

فأجبتنه :

- ولكن ذلك سيشكل ثقلاً عليك .
- ولكنني أريدكم . ان تأتيا ؟

أجاب الحاج بالحاج :
نظرت الى جيرد متسائلة ، ولكن جيرد هز رأسه .
- لا ، لن نقبل ..

لم يتدخل الحاج عن دعوته مباشرة ولكنه عندما رأى
اصرارنا ارتسم تعبير في نظراته ، متعذر فهمه . وعندما عدت
الى المنزل لاحقاً ، اجتذبت السيدة الكردية والرجل الاجنبي بعض
النظرات المستغربة . وسألنا انفسنا عما اذا كنا قد تصرفنا على
نحو صائب برفضنا دعوة الحاج . وعندما عدت الى منزله بعد عدة
أيام لرؤية خديجة اخبرتني ان الحاج قد استاء كثيراً من رفضنا
لدعوته . وكررت زينب نفس المعلومة ، مضيفة ان الحاج قد اخبنا
كثيراً . عند ذلك افعمت بالندم ، ولكن كيف كان لنا أن نعرف أن
هذه الدعوة حقيقية ؟ هل سيدعونا ثانية ؟ لربما قد انزعج
لدرجة انه لن يكرر الدعوة ثانية .

لقد اصبح الحاج الآن حقيقة جلية بعدما رأيته ، وتحدثت
معه فعلاً . تحدثت عنه الى السيد خليلي ، وقد ادلى ببعض
التعليقات التهكمية الموضوعية الى حد ما .
- آوه ، الحاج اسماعيل . هل تعرفين ان له خمس
زوجات ؟ خمس زوجات ، تصوري ذلك .
قال ذلك ومن ثم ضحك ضحكة مكتومة .
- خمس زوجات ؟

كنت قد رأيت وسمعت عن ثلاث فقط الخمس زوجات ، تشغل
زوجة زائدة عما يسمح به القرآن . كيف يمكن لرجل متدين مثل
الحاج ، يصلي الفرائض الخمسة كل يوم ، ان يتخذ خمس زوجات ؟

في احد الايام ، كانت امرأة ذات ملامح حادة ، ووشم

ازرق باهت فوق حنكها الصغير المدبب ، تجلس بين النساء في منزل شارع بهلوي . نظرت اليها بعقول . فالمرأة الكردية الوحيدة التي رأيت وشما ازرق على وجهها كانت لاجئة عراقية . ان الوشم وخزام الانف التي تستخدمها النساء في اجزاء اخرى من العالم الاسلامي لتزيين انفسهن ، يعتبران عادة عتيقة الطراز ، وقد بطل استعمالها لدى العديد من الاكراد اليوم . وموعرا سألت خديجة عن تلك المرأة الموشومة ، فأخبرتني خديجة قاتلة ؟

ـ انها والددة احدى زوجات الحاج . لا احد يحبها .

ومن ثم هزت كتفيها غير مبالية .

تقت لمعرفة كل شيء عن جميع هؤلاء الزوجات . أين يسكن ؟ هل لديهن منازل منفصلة ؟ هل يقضي الحاج اسماعيل وقتا متساويا مع كل واحدة منهن كما يأمر القرآن . لقد كان ذلك شيئا غريبا حقا بالنسبة لي . كانت الزوجات يعشن في القرية ، عدا زينب التي كانت قد عينت لتعتني بأولاد الحاج الذين قد بلغوا السن المناسبة لدخولهم المدرسة في المدينة . بدا لي أن كل امرأة مستقلة بذاتها . وبدا أن مريم لديها القليل مما يربطها باسماعيل . لقد أدركت الآن كنه الدعابة الموجهة اليها والتي تقول ان زوجها سيبحث عن زوجة أخرى اذا تركت المدينة . كان قد اتخذ ثلاث زوجات بعدها ، مسبقا ، ولكن اتضح أن ذلك لا يكفيه فقد بدا أن زينب وحدها كانت تتعرف كزوجة في المدينة ، فقد كانت تنام في حجرة نومه معه . والزوجات الثلاث الأخريات كن غامضات كليا بالنسبة لي . حتى والددة عائشة التي قابلتها مرة والتي أكاد لا أستطيع تذكرها . ربما يكون الحاج معروفا في كل أنحاء كردستان بتجاوزاته المتعلقة بالزواج ، ولكني لم أستطع فهم هذا الجانب من شخصيته بسهولة . فهو لم يظهر لي سوى الأدب والود والاحترام خلال كل الوقت الذي مرته فيه . أما علاقته مع نسائه فكانت شيئا آخر . وقد جعل بيننا مدام مباشر ، لمرة فقط ، فقد كنت طلبت من خديجة وزينب بالاضافة الى أولاد الحاج المفسار أن يأتوا في رحلة الى قرب البحيرة ، وكانت زينب قد ردت علي وهي

تضحك بعصبية أن علي أن أستاذن الحاج ، فعلت ذلك ولكن الحاج رفض طبعا وقال ونبرة الانزعاج في صوته :

- لماذا ؟ لماذا تريدان الذهاب الى البحيرة ؟ اذا أردت أن تذهبي لمكان ما ، اذن تعالي الى القرية . ذلك هو المكان الوحيد الذي أريدهم أن يذهبوا اليه .

اخبرتني خديجة انه ماكان علي ابدا ان اطلب منه ذلك مباشرة ، وانها كانت ستجد طريقة لاقتناعه . لم يكن زوجها طه ابن الحاج الاكبر صارما لهذا الحد . واشتدت موعظا انها موفية لوعدها في تحديدها حكم الحاج . ولكن زينب رفضت أن تتزحزح وقالت انها لن تسمح لنا بأن نصورها ابدا مدعية ان تلك هي رغبة الحاج . وعندما سألت الحاج عن قرار عدم التقاط الصور قال انه ليس لديه أي اعتراض . ماهي حقيقة المسألة ؟ كان الحاج اسماعيل - وهو زوج لخمس زوجات مستاءات ، ووالد لـ زينات عديدة من الاطفال ، رجلا سارا جدا . لم يك هناك شك ، في قدرته او ذكائه ، ولكنني استغرقت وقتا طويلا لكي افهم كم كانت علاقتنا معه تتمتع بامتيازات . لاحظت في احد الايام بينما كنت انا وجيرد جالسين مع طه وابن عمه رحيم في حجرة فيوف والده ان طه ذا الاربعة والعشرين عاما ، ورحيما ذا العشرين عاما كانا يتهاامسان كتلاميذ المدارس . فهما لم يتحولا الى حجر كما حل بالنسوة فسي حضور الحاج ولكنهما لم يجروا على ان يتحادثا على نحو مباشر مع والدهما وعمهما . لقد كانت كلمة الحاج قانونا لمسات عديدة على الاقل من الرجال الاكراد المسلحين . لقد كان مشهورا في كل انحاء كردستان . فضلا عن ذلك فقد اتى زمن نجح فيه الحاج بقوة نجاحا عظيما . انه لأمر مقبول لدى ابناء الحاج ومويديه ، ان يهزأ بالقوانين الايرانية بالقدر الذي يرييد لو شاء ذلك ، فهم معه حتى النهاية . ولكنه عندما حاول ان يهزأ بالقانون الاسلامي معرضا شرف وخير عائلته للخطر فقد توقف طه عن الهمس في حضوره .

لدى عودتنا الى كردستان بعد ثلاث سنوات من مغادرتنا

اياهما شعرت ان شوؤون عائلية الحاج اسماعيل لم تكن على مايسرام
على الرغم من أن اهتمام متصيفينا وانشغالهم فيما اذا كنا نقضي
وقتنا طيبا لم يتغير ابدا ولو للحظة واحدة . كلما كانت تطول
اقامتنا هناك كان يصعب عليهم اكثر اخفاء حقيقة ان امرا
كان يجري ، امرا كان يجعل مريم في حالة قلق لاتصدق . امرا
كانوا يتوقفون عن الحديث عنه ، عندما ادخل الججرة .

رأيت مريم في احد الصباحات ، وهي تكتب رسالة على
قطعة من الورق ، كانت قد مزقتها من دفتر ولدها الاصغر انه
امر غير مألوف بالنسبة لامرأة ريفية . ان تكتب رسالة ، لذلك فقد
راقبتها وهي تطوي الرسالة وتسلمها لطفه وتطلب منه ان يأخذها
الي منزل الحاج اسماعيل . وبينما كانت تعطي الرسالة لطفه ،
سمعتها تقول شيئا عن " العار " والكثير من الاطفال ، ولكنني لم
استطع ان استجمع هذا اللغز الذي كان قد بدأ يقلقني . وفي وقت
لاحق في المدينة ، كنت جالسة بين مجموعة من نساء العائلة ، عندما
سمعت مناقشة غريبة لم تكن مفهومة تماما . كان شخص ما مقبلا
على الزواج والنساء كن غير موافقات على الاطلاق . من يمكن ان يكون
ظننت انها العروس التي كانت زينب زوجة الحاج الثلاثة على وشك
ان تزفها لابنها الاكبر . وحسب معرفتي لم يكن شخص آخر مقبلا
على زف عروس في القرية . ولكن النساء لم يكن يرغبن في اطلاعي
على ما كن يتحدثن عنه . وبقيت يتحدثن بايجاز اكثر فاكثرت
واخيرا اقلعن عن الموضوع كلياً

وموئرا عرفت عائشة الموضوع معي وحدي ، هل فهمت ما
كن يقلنيه ؟ لقد أخطأت في افتراساتي وانا اراقب وجه عائشة
الذي كان يوحى الي بأنني مخطئة . لقد كانت حاسمة في تأكيدها
على صحة ماتقوله . فلم يكن هناك ما يهيب الفتاة التي كانت ترغب
فيها زينب مروسا لابنها . لقد كانت فتاة طيبة ولم يكن لأحد
اي شيء ضدها . اذا ماهي المشكلة ؟ اريد ان اعرف ، قرأت
عائشة هذا التساؤل على وجهي ؛

- يريد والدي ان يتخذ لنفسه عروسا اخرى .

- زوجة سادسة ؟

قلت ذلك ، وانا الفظ كُلمتي لاهشة .
- نعم ، يريد ان يتخذ من الاخت الصغيرة لزوجته
الاخيرة زوجة له .

الآن ، اتخذت اشياء كثيرة اماكنها وقد ذهبت لـدى
تفكيرى بالاضطراب الذي لايد من ان العائلة تعانيه ، بينما كنا نحن
نمضي معهم بمرح طانين انه ليس هناك مايشغل بال مضيق سوى
تسلبنا . استطيع ان اقدر مقدار الاضطراب والحقد الذي تسبب
الحاج في اشارتهما . لقد اغاظ مريم والزوجتين الكبيرتين . الاخريين .
ان الحاج قد اتخذ زوجته الرابعة ومن ثم ، الخامسة اللتين كانتا
تعتبر ان كخادمتين والاحيرة . التي قد حرما القرآن كزوجة اضافية
على الاربعة اللواتي حددهن القرآن لكل رجل . ماذا يمكن ان يكون
رد فعلهن تجاه السادسة ، وخاصة انها اخت الخامسة ، مفيلا
بذلك الخطيئة الى الاخرى التي سيرتكبها الحاج امام مراءى الله ؟

جلس الشيخ عبد الله الى الحائنه الآخر من عائشة . وكان

تعليقه الوحيد :

- ان لدى الحاج العديد من الاولاد ، لدرجة انه لايعرف

اسماءهم .

واضاف عائشة قائلا :

- نعم ، والدي مصاب بمرض ما . انه مرض رهيب .

جلست مستغوفة في التفكير ، محاولة ان افهم . تراعات امام
ناظري صورة كنت قد رأيتها من قبل . كانت تلك والدته الحليج بين
مجموعة من الصور ، كانت قد التقطت في تركيا ، قبل ان تقرر
العائلة لتتنجو بحياتها . كان الحاج اسماعيل في ذلك الوقت
لا يزال ضيحا صغيرا ، وكانت هذه الصورة القديعة من تركيها
الشرقية قد أظهرت والدته امرأة جميلة على نحو آخاذ ، ذات ملامح

رقية . امرأة أجمل من كل النساء اللواتي رأيتهن في دستان .
ذات يوم حضر رجل لزيارة مريم وعلمنا منه أنه ابن مريضة
الحاج اسماعيل الكبيرة التي كانت تخدم عند والدته الحاج منذ
ما يزيد على نصف قرن مضى في تركيا الشرقية . قال ابن المريضة :
- لقد كانت والدته الحاج لا يصدق أن يوجد لها مثيل .
لم ير رجل وجهها قط .

اذن ، ذلك هو تعريف المرأة التي لا يصدق أن يكون لها مثيل .
فكرت بصمت مع نفسي . هل يعرف هذا الرجل أنه قد التقطت لها
صور ، ودون شك ان الذي التقطها هو رجل ؟ كانت السلطات
التركية قد أعدمت والد وجد الحاج قبل أن يبلغ العاشرة من
العمر . وكان لدى والده زوجتان . احدهما رحلت الى استانبول
ورمت ولدا لا يتحدث الآن حتى ولا كلمة كردية . وعلى الرغم من
أنه هو والحاج يعتبران نفسيهما آحين وأنهما قد قاما بزيارة
بعضهما ، فهما لا يقدران على التواصل بيسر . كان الحاج اسماعيل
وأخته قد نشأا في ايران كأكراد ، تحت وصاية شخص غير معروف ،
ومن المؤكد أنه كان قد حل محل الأب والجد .

ما هو مصدر مرض الحاج اسماعيل ؟ لا شك أن ذلك المصدر
كان أيضا منشأ قدرته الحياتية ، الحياة التي جعلته صوفيسا ،
باحثا ومحبا للأجانب . كان الحاج اسماعيل رجلا جذابا ولكن على
الرغم من ذلك فقد أوقع الحزن والنفور في نفسي بسبب معاملته
السيئة لزوجاته وأطفاله . لماذا يتجاهل قوانين الزواج في
الاسلام ، في الوقت الذي يبدو متفانيا له ؟

سلكت مسألة اتخاذ الحاج زوجة أخرى له سبيلها ببساطة ،
ووصلت ذروتها قبل رحيلنا تماما . كانت عائشة قد أخبرتنني أن
عائلة الفتاة التي يريد الزواج بها ، كانت تحاول على نحو
جنوني أن تزوجها لرجل آخر قبل أن يتزوجها الحاج . كانوا قد
وجدوا لها مروسا مناسبا اكثر ولكن ليس قبل أن يتخذ أولاد
الحاج الكبار خطوة يائسة وذلك بالذهاب لوالدهم في احدي

الليالي وتهديده بالقتل اذا مضى نحو تحقيق ما يريد . ما كنا سنعرف شيئا عن هذا اذا لم نخبرنا عاثة به . غادرنا طه في تلك الليلة المقدرة الى ريزاي قائلا أن لديه بعض الاعمال في القرية فحسب . عاد في اليوم التالي وقد أفناه التعب وقال لنا انه كان يقوم ببعض الاعمال طوال الليلة الماضية . وقد افترضت أنه لا بد أن يكون شيئا متعلقا بالحصاد الذي كان يجري في تلك الفترة .

لأنني عرفت الحاج اسماعيل شخصا لم أستطع مطلقا أن أحتقره لا يقاعه الظلم بالنساء اللواتي يسري نفوذه عليهن . وربما كان ذلك بسبب معاملته لي بلطف . ربما لأن أجداد الحاج كانوا قد سحروا السواح الأجانب الذين وجدوا أنفسهم في كردستان. كانت بعثات تبشيرية قد قدمت من الغرب في القرن التاسع عشر لتخفف من قساوة عيش الآشوريين المسيحيين . كانت القبائل الكردية ونصف المستقرة في منطقة ريزاي ترهب هؤلاء الآشوريين باستمرار . وكان بعض المبشرين قد " استشهدوا " عندما خافوا هذا النزاع وهو في أشده . ومع ذلك فقد نقل العديد من الغربيين اعجابهم بهؤلاء الإكراد الاباة والنزاعيين الى الحرية ورفع القيود عن أنفسهم . على الرغم من وجود أمل ضعيف في استمالة المسلمين الى المسيحية ، فقد درس المبشرون الكردية وكتبوا قواعد اللغة . وقد تزوجت احدى المبشرات من كردي وقد كانت ممرضة ، ومكثت في مهاباد ، في حين غادر رفاقها . يمكن أن يثير اختيارها مثل هذه الحياة ، استغراب النساء الغربيات، ولا فرو ، فهن لم يذهبن الى كردستان .

الفصل الثالث عشر

احب أن أصغي الى لفظ أصوات النساء، الكرديات . ليم
أمل من الاستماع الى الاسطوانات المسجلة لهذه الاصوات حسنتي
بعد ايام واسابيع وشهور من اعادتها ، بل كنت احن الى
العودة الى هؤلاء النسوة ، صاحبات هذه الاصوات . كلما كنت
اصغي الى الاشرطة التي سجلتها في ريزاي وفي القرى كنت ادرك
خاصية اصوات النساء الكرديات : وهي لفظ ذو صوت خفيض ، يخرج
من الحنجرة ، ، وغني لايشبه مطلقا ما تصفه عدة لغات بطبققة
الصوت والخاصية المثلثية للصوت الانثوي . ليس فيه مايسمى
بالصوت الخافت او المرتفع ، فالصوت ينبثق بكامل قوامه من
الحنجرة . انه ليس مثل الصوت الحاد ، ذي النغم الرتيب للغه الفارسية
او الشبيه بهمس الفتيات لبعض النساء الأمريكيات . انها اصوات
عساء عرفن "القساوة" فهذه الاصوات تنطق عن الخبرة والسيطرة على
الذات . انهن يتحدثن عن حالات ولادة ، حالات موت ، عن الخرافات
المعنة في القدم ، عن مجريات احداث حالية ، وعن الزواج .

كنت قد اصغيت للاسطوانة التي سجلتها خديجة وهي
تصف يوم زفافها لطفه احيانا كثيرة . ومع ذلك لم اصيغ
اليها دون أن اتمنى لو أنني هناك حاليا ، او لو اني كنت
هناك في كل من الماضي القريب لمشهد التسجيل الذي حضرت به ،
وفي الماضي البعيد لمشهد الزفاف الذي لم اشهده أبدا . تُسمع
من خلال التسجيل اصوات كوء وس الشاي وهمسات اولاد زينب المصغار
في منزل الحاج وهو المكان الذي جرى فيه التسجيل . ولكن خديجة
هي التي تملأ الشريط بصوتها الصادح ، الرائع ، بضحكتها
وارتباكها عندما سفلت عن يوم زفافها وسعادتها لدى تذكّر
عظمته . فتبدأ خادمة خديجة بتصحيح خطأ سيدتها التي ذكرت
بأن خمسين وساطة نقل وصلت الى القرية عند بداية الافسراح
فتقول .

- مائة سيارة وثلاثمائة ضيف .

تستمر الحفلة لمدة عشرة أيام بلياليها . وحسب
أقوال خديجة وخادمتها ومبيان صغار لم يقيم احد بأي عمل
بل كانوا يرقصون ويرقصون فقط . سألت :

- هل الرجال والنساء يرقصون معا ؟ ام منفصلين ؟
فأجابوا :

- بل يرقص الرجال والنساء معا .

تنبثق في خيالي صورة لصخب رائع . حيث يحلّق
هؤلاء الاكراد الذين لم أرهم ، يغنون او يرقصون أبدا في لهو
معربد صاف . تحضر العروس من قريتها ويمعد العريس الشاب
إلى سطح منزله ويطلق النار من بندقيته ليعلن عن وصولها .
تقول الخادمة :

- تاك ، تاك ، تاك .

ولكن انتظر . هناك ماسنغيفه الى القصة وهو ذو اهمية
خاصة لخديجة . فقد اتضح انها ليست جزء من الحفلة بل انها
مسنبتها فحسب . لقد احضرت مغطاة بخمار أحمر من مسافة
عدة كيلومترات من منزل والديها في الجبال الواقعة قرب الحدود
العراقية الى قرية الحاج اسماعيل . وكالعادة يكن والداهما
بمزاراة ، لأن ابنتهما أخذت منهما ولم يحضرا الزفاف . وكانت
خديجة نفسها تكي . لم تكن قد رأت طم أبدا الا في صورة له
فحسب . ومع هذا ، فقد كانت قد خطبت للولد الأكبر للحاج العظيم
لأن أحد أقاربها كان قد تزوج من فتاة من عائلة الحاج من قبل

تفتخر خديجة لحقيقة أنها لم توطئه أبدا قبل أن تحضر الى
القرية . وهي فخورة بالآلاف الموهلة من الدولارات التي منحتها
اياها مريم ، وذلك وفق التقليد الديني الموهدي أمام الملا
وهذه البنود لا بد من اعادتها اذا حلت رابطة الزواج والمعتبرة

أيضا كمهر لها . وقد دفع لوالدها حيث يمثل ثمن اطعام الفتاة الى أن تبلغ السن المناسب للزواج . كان الخوف والألم اللذان تجشمت خديجة عناءهما لدى أخذها معصوية العينين وتسليمهما لرجل غريب ، لتمنح نفسها له في قرية لم ترها من قبل أبدا . قد تناسبا مع الفخامة التي رافقت ذلك . كان مهر العروسة ضخما ، والضيف كان يعد من اللامعين ، والعائلة التي كانت ستتزوج أحد أفرادها هي عائلة عريقة وقوية . وقد اكتشفت في وقت لاحق فقط ، انها كانت عائلة العدو وان خديجة وعلى نحو مغاير عن فتيات كرديات عديدات لم تتزوج من ابن عمها . وبدلا من ذلك فقد تزوجت من وريث عشيرة ضخمة كانت في حرب ناشطة مع قبيلتها ، عندما كانت لاتزال صغيرة قبل ما يقارب عشر سنوات . لماذا كانت خديجة سعيدة لهذه الدرجة وهي محاطة بأناس لم تعرفهم من قبل أبدا ؟ كانت قد اقحمت رسميا ولكن على نحو مفاجئ وسط محيط غريب لتقوم على خدمة حماة ولتسعد زوجا لم تختره أبدا . تعجبت كثيرا لامتلاء خديجة بالحياة وتحررها من الارتباك وسط جميع هؤلاء الناس الذين كان ممن الممكن أن يفرعوها . مما لاريب فيه أن خديجة كانت دمثة ، حسنة العشرة وهادئة في بدء تعاملها معهم . وبالإضافة الى ذلك ، كانت قد أنشئت وفق تربية لاتتوقع فيها زواجا بغير هذه الطريقة . ولكن ثمة سبب ثالث آخر لموافقة خديجة ، وهو الأكثر اهمية ، فهي الآن تقيم في ريزاي محاطة بكل وسائل الراحة ولهو حياة المدينة التي كانت تحلم بها في القرية . لم يكن يعني لها الكثير أن الثلاثة في منزل الحاج اسماعيل هي معطوبة دائما ، فهناك مخازن ممتلئة بالافذية تلغ على بعد خطوات فقط من بابها الامامي . من يهتم اذا كانت الاضواء العارية ، المعلقة وسط كل حجرة مجرد مصابيح رديئة ، ذات اضواء خافتة ، وانها ذات اربعين واطا فقط ؟ ان الفرق بين المصابيح الزيتية والكهربائية جعل اي قوة كهربائية معجزة . فبالنسبة لخديجة لم تعد هناك مطابخ معتمدة مكسوة بالسخام ، وقدور فوق النار لتجشم عندها .

لم يعد هناك مزيد من الغبار والحشرات . والاهم من ذلك كله
انها تخلصت من المعاناة من الوحدة .

ربما كان التشابه الذي بيني وبين خديجة هو نتيجة
لحقيقة ان تلك السنة كانت خاصة لكلينا . فقد كانت بالنسبة
لي تحقيق حلم استغرق سنوات من الاعداد له . وبالنسبة لخديجة
كانت فرصة للعيش في المدينة . ولم تكن خاصة السنة حفيضة
زواجنا الحديث ، بل بالاحرى الحياة التي ترتبت عليه . فقصود
منحني زواجي جواز سفر الى زاوية نائية من ارض بعيدة ، كنت
سأغامر بالمجيء اليها لوحدتي .

اما زواج خديجة فقد شكل لها انقاذا موعتا من القرية
التي عرفتھا طوال حياتها . لقد كانت هذه سنة الحرية والاستكشاف
وممارسة السلطة في منزل محتشد بالاطفال وبالزوار القرويين،
وبالنسبة لخديجة كانت هذه هي السنة التي ذهبت فيها الى السينما
المحلية لمشاهدة افلام هندية وتحدثت فيها من خارج النوافذ
مع جاراتها وذهبت الى الحمامات العامة وتنقلت في الريف مع
الامريكان . لم اعرف كيف وبأي سرعة سيمضي هذا الوقت بالنسبة
لخديجة . والذي هربت منه في الماضي ، وماذا ستواجه في
المستقبل ؟ وهي ايضا فترة كانت فيها قراراتها نافذة المفعول،
لقد كانت بالنسبة لسكينا مغامرة نخدينا .

كنت امضي معظم وقتي مع خديجة في حجرة الجلوس
او حجرة النوم التي كانت هي وطه يتقاسمانها في الطابق الثاني
من منزل الحاج اسماعيل . كانت حجرة النوم ، تلك الحجرة البهية
المكتظة بألوان موزقزح التي جلست فيها لأول مرة مع نسساء
الحاج اسماعيل ، تخص خديجة . كانت قد زينتها برقة ونسحت
المناديل الملونة التي تعطي كل واجهة ، وقد اهديت اليها صور
نسيجية مزدانة بالرسوم ، حيث علقتها على الحائط .

ومن حسن حظ الكثير من سكان هذا المنزل ومنازل
كردية اخرى ان سكان المدينة كانوا يتدفقون باتجاه القرية
كلما اصبح الجو اكثر دفئا . وقد شعرت بالسعادة لان خديجة
كانت تقضي فترة الصيف في المدينة . كان زوجها ذو الاربع
والعشرين سنة لا يزال طالبا . وكان قد آمن لنفسه عملا صيفيا
في ريزاي موعندما غادرت زينب مع الاطفال وانشغل الحـ
اسماعيل اكثر بمحاصيله الزراعية ، بقيت خديجة في منزل
شارع تهلوي ، وتقوم اسماء على خدمتها . كنا ثلاثتنا نجلس
ونتحدث ونشرب الشاي . كانت خديجة تتحدث معي بعفوية وتلقائية
كما لو انها تعرفني منذ سنين عديدة . كان واضحا انه لا يمكن
لاي موضوع ان يزعجها . تحدثت عن تحديد النسل وعن حقيقة انها
هي وطه قررا ألا ينجبا طفلا مباشرة لانه لم يينه دراسته بعد . على
الرغم من ان العديد من افراد العائلة كانوا يضغطون عليهم
لانجاب طفل حسب التقاليد . سألتني بخبت وهي تتحدث عن الجنس :

— مارغريت ، كم مرة في الاسبوع تستحمين ؟

فأجبت على نحو لم اشك فيه بشيء .

— لا أعرف ، مرة او مرتين .

فقلت وقد بدا عليها المكر والعبت :

— أما انا فأستحم يوميا .

انتابتنني حيرة لذلك ، لأنني نسيت ما أخبرني به
رفائي في فرقة السلام في مهباد . فقد كانوا يذهبون الى
الحمام العام في المدينة بسبب عدم وجود حمام في منزلهم . وبعد
الفترة قصيرة ، عرفوا ان العامة المحليين كانوا يهتمون على نحو
غير عادي بعدد المرات التي يذهب فيها الامريكان الى الحمامات .

أخبرتني خديجة عما كانوا قد تعلموه ، فقلت :

علينا ان نأخذ حماما في كل مرة نقرب فيها من
ارواحنا . كما ان اسمائنا عريضة ، لدرجة انها نراة كما

لو انها تكذب تعبيراتها عن المواقف التي عرفت انه من المفروض ان تتخذها .

اقترحت خديجة ان نذهب جميعا الى البازار في احسب الايام التي زارتنا فيها امرأة من القرية . ولشعوري بالابتهاج للخروج من المنزل ، وافقت على مرافقتها في حملة تسويق ، كي تشتري المرأة الريفية بعض الاحذية . عدلت المرأتان الكرديتان سترتيهما أمام المرأة ، بينما كنت انتظر مستعدة مسبقا للخروج للشارع ، ببنتالي القطني الاصفر المفلح المتناسب مع ستررة صفراء ذات ياقة عالية . لم نر في الخارج سيارات اجيرة ، لذلك شرعنا في المشي ولكن خديجة بدأت تقلقني ، قائلة بأني سأتعيب كثيرا . أكدت لها اني لن اتعب ولكنها استثمرت فيسي القلب . واكتشفت حالا حقيقة المسألة ، انها نفس مسألة اليسوم الذي تخلت فيه نازي عني . كان جميع الرجال الذين نمر بهم يرمقونني بنظرات غرامية ، يضايقونني بأسئلة مزعجة وشيعرت المرأتان الكرديتان ، بالانزعاج بسبب اعتيادهما على لأمبالاة الآخرين بسبب أغظيتهن . ولكنهما لم تتخليا عني . اسرعنا في خطانا اكثر فأكثر ، لذلك ، وصلنا البازار في زمن قصير جدا . كانت خديجة طوال الطريق تنقل نظرها من جانب لآخر منزعة وتصدر التعليقات عن كيفية تحديق الرجال . في .

ازداد الانبهاه الموجه نحو المرأتين الكرديتين من المغطاتين والمرأة الاجنبية المكسوة بالاصفر وشعرها السامر داخل البازار ذي السقف المقنطر . احتشد الناس حولنا ليحدثوا فينا والبائعون يحاولون ان يوقفوهم عن ذلك . قدوت خديجة حجم الموقف بلمحة ذكية . ألقينا نظرات عابرة واصرت خديجة على ان تشتري لي قفاز حمام ليبقى ذكرى لهذه المناهضة . ومن ثم قادتنا خديجة الى سيارة اجرة منتظرة ، وبعد ذلك

بأيام علقت على حقيقة أن :

— كل الرجال في الطريق كانوا يحدثون بمارهريت .

ولكن هذا التعليق ، كان مشار تساؤل اكثر منه استهجانا .

كانت حرية خديجة نسبية ومحدودة جدا بالمقارنة مع الحرية التي تسلم بها معظم النساء الغربيات ، فقد كانت تتصرف بموجب ضغوط وقيد قاسية . فهي لم تكن تخرج دون مرافقة خاصة معها ، ودون حجة مقنعة . لم أربط أبدا بين ذهاب واياب الحاج وقيام خديجة بالزيارات ، ولكن معا لا شك فيه ، أن زياراتها لمنزلي كانت تتوافق مع غيابها . وعلى أية حال فقد سرتني كثيرا أنها أخذت تدعو نفسها لمنزلي . كانت أحيانا تهتف لي مسبقا وعادة حوالي السادسة صباحا ، حيث كانت ساعتها المفضلة لتهتف لي فيها . وأحيانا تحضر مع أي كان من الحاضرين في منزل الحاج في اليوم الذي تزورني فيه . كانت خديجة تأخذ راحتها تماما لدى حضور زوجي أو أي مخلوق لا يوء من جانبه في منزل المرأة الأجنبية ، بينما كانت خادمتها أسماء تبدو عصيبة ، فقد كانت تلف سترتها وتشدها حول نفسها اكثر مما تفعله عندما تكون في الشارع ، بينما كانت خديجة تدع خمارها ينزلق عنها . ولكن أسماء لم تكن متزوجة بعد ، بينما كان عفاف خديجة قد بيع مرة وللأبد .

رافقت أخت خديجة " غلنام " الفاتنة ذات الخمس سنوات أختها لحفلات الشاي هذه في منزلي لفترة من الزمن . وقد أخبرتني خديجة أن عائلتها قد أرسلت غلنام من القرية لتبقى برفقتها في المدينة . كانوا قلقين بسبب اختهم الكبير المعتادة على أن تكون محاطة بالعائلة أو بأناس آخرين في القرية وكانوا يخشون أن تهزل صحتها بسبب الفراغ الصيفي الذي يمكن أن تتجشمه في منزل الحاج اسماعيل في المدينة . سألت خديجة عما اذا كان والداها ، قد قاما بزيارتها ، فأجابت بالنفي ، فلكونها عروسا جديدة لم يكن يسمح لها بالعودة الى قريتها وروءية والديها الا بعد سنة على الأقل وبعد أن ينعم عليها زوجها بالموافقة على قيامها بزيارة العودة . وبدون هذه الموافقة يمكن أن تقضي بقية حياتها دون الذهاب الى منزل والديها ثانية .

لأنني أصبحت آتقضي الكثير من الوقت مع خديجة ، فقد التقيت مصادفة زوجها طه الذي كان يبدو في مزاج حسن معظم الوقت ، مثل خديجة تماما ، بعد مجادلتي مع الحاج اسماعيل التي رفض فيها السماح لي بأخذ نسائه في رحلة طلبت من طه ، رسميا ان يأذن لي بأخذ زوجته الى اماكن شتى . وافق طه مباشرة وهو يقلد طريقتي الرسمية ويريق يلعب في عينيه . كان طه مثل والده ساحرا ولكن كانت تنقصه قوة اعصاب والده وتزمتته المحافظ . واطن ان حياة طه سهلة ، بالمقارنة مع حياة الحاج اسماعيل على الرغم من أن الراحة لم تكن تعني كل شيء مع والد متقلب المزاج مثل الحاج اسماعيل ، حيث اكتشفت في هذه الصفه موعرا . كان طه لا يزال يتمتع بامتيازات عديده لكونه الابن الاكبر . فقد اتفقت ثروة للحصول على عروس له . كانت له ولخديجة حجرة نوم خاصة ، حيث لا احد سوى طه والحاج الكبير يمكن ان يتباهيان بسريرين قابلين للنقل في هذا المنزل . ان مشكلة طه الوحيدة هي في كيفية بسروره وكيفية ان يصبح قويا . فقد كان لا يزال طالبا في الكلية بسبب الخدمة العسكرية والتأخير في الذهاب الى المدرسة . ولكن حتى لو لم يكن طالبا ، فقد بدا انه قد انعدمت لديه الوسيلة في المجتمع الكردي ، ليحرر نفسه من والديه .

عندما توقفنا أنا وجيرد عن العمل اخبرا اشترينا سيارة جديدة خاصة بنا ، ايرانية الصنع ، ذهبنا الى متسزل الحاج اسماعيل لنحتفي بها . كنا نعرف ان من رغبات طه الملحده هي اقتناء سيارة خاصة به . وقد نزل مباشرة ليتفحصها ويبدي اعجابه بها بينما كانت خديجة تبتسم وهي واقفة امام مدخل الباب . منذ ذلك الحين ، شرعت خديجه بالتخطيط لاماكن التي سنذهب اليها في نهاية كل اسبوع .

كانت رحلتنا الاولى الى وادي يقع جنوب ريزاي ، حيث

يقوم الناس الذين لا يميلون الى الاحتشاد أو التجمع برحلاتهم اليه . اقترحنا أنا وجيرد القيام بالرحلة ، وجهنا السيارة ، بينما عرضت خديجة وطه مرافقتهم لنا . كان هذا أول اختبار لنا في تسلية أصدقائنا الاكراد وبأسف وآسى أقول اننا فشلنا .

فالخطأ الأول الذي ارتكبناه هو أننا تصورنا أن خديجة وطه هما وحدهما سيأتيان . لأننا دعوناهما وحدهما . كنا قد تبادلنا الآراء حول الرحلة على أنها موءلفة من أربعة أشخاص ، ولكن عندما أتى صباح يوم الجمعة ، معد أخو خديجة الى سيارتنا ، وكان طالبا في الثانوية ، ولم أكن استسيغه أبدا - جاء - المقعد الخلفي المريح يعج بالازدحام ، مما تسبب في جعل المحرك يشد الى أقصى مدى وبقوة في المنحدرات الجبلية التي كنا نعبرها .

خطئي الثاني كان مرتبطا بالأول . فقد كنا قد اشترينا سندويشات كافية ومشروبات غير مسكرة لأربعة أشخاص فقط ، ليس أكثر . لم نقدر الدرس الذي تعلمناه من كل تلك الطاولات التي تتن تحت ثقل الاطعمة التي شاهدناها في حفلات الغذاء الايرانية فلا احد من الذين يستحقون لقب المضيف ، يقدم مقدار الطعام الكافي واللازم لعدد الضيوف المدعوين . فليس من المناسب أن تقدم شعبي أو ثلاثة أضعاف مقدار الطعام الذي يمكن أن يتناوله الشخص فحسب بل أيضا أنت ملزم به .

خطأنا الاخير الذي لم يكن ممكنا لنا تجنبه ، كان معرفتنا الشيء القليل عن قواعد التشريفات وآداب المعاشرة بين المضيف والمضيف في كردستان . فقد وجدنا أنفسنا تقريبا ، منذ بداية ركبنا السيارة الى حين عودتنا الى المدينة داخل هذه المحادثة الدورية وكنا نسأل :

- هل لنا أن " نقف هنا ؟ نأكل الآن ؟ نذهب هنا ؟ الى آخره .

فيجب ضيوفنا :

ـ " كـيفـاتـه " .

وقد تعلمنا حالا قول " كيفاته " التي تعني كما تحبون .
كان نتيجة هذا السلوك أن القرارات كانت توءجل الى أطول وقت
ممكن الى أن نضطر جميعا وكالعادة الى خيار يـكـان لا يرضي الجميع .
تجولنا في الريف ، وقمنا بزيارة نبع من المفترض أن شيخا
مبجلا كان مدفونا عنده ومن ثم ذهبنا الى مدينة كردية صغيرة
تدعى " شنو " واشترت خديجة من بازارها زوجا من المنسـادل
البلاستيكية بلون ارجواني باهت . وبعدئذ ظهرت المشكلة . فقد
بدأنا نشعر بالجوع ، لذلك اقترحنا على ضيوفنا أن يختاروا
مكانا لنأكل فيه . وبينما كنا نمر عبر عدد من البقاع الخالية
الرائحة شـعـرت أنه ليس لدى هؤلاء الناس معايير خفية توجهـه
سلوكهم هذا .

كان الحماس ينقص قولهم " كيفاته " لكل مكان اقترحـه ،
وأخيرا عندما أتينا الى المكان الأول المحتشد بالناس مع
دزينات من السيارات الواقفة ، اتخذت " كيفاته " خاصية مشوقة .
أوقف جيرد السيارة ونزلنا منها ، وشرعنا بالسير ، كان المكان
يعج بالحشود وتنتشر فيه ركام النفايات ، لدرجة أنه تطلب
نا ان نمضي بعيدا حدا فـل أن نجد بقعة نظيفة لنجلس عليها . ولكن
لدى جلوسنا هوجمنا بروائح كريهة لم تكن بالحسبان . ومرة
ثانية مضينا ضمن حلقة " الكيفاته " قبل أن نقدر أن نتخذ
قرارا جماعيا بالمغادرة .

عندما قدم لنا الغداء أخيرا كان كل شخص منا قد شعـر
بالجوع لدرجة أن قلة السندويشات بدت واضحة وملحوظة الى حد
أكبر مما لو كانت غير ذلك . كان الجميع ظمأنيين ومغبريسن ،
حتى أن جميع قناني الكوكا وكازوز البرتقال التي أحضرناها
معنا ، لم تكف لارواء عطشنا .

مضيت مع خديجة للبحث عن نبع ، وانضم اليها أخوها ، وعندما
شاهدنا قطيع أغنام على سفح الجبل الذي كنا نتسلقه ، أمر على

أن التقط صورة للحيوانات وهو يحمل واحدة منها . وذكرني قائلًا:

- سيكون هذا ممتعًا حقًا في أمريكا .
- لقد رأوا الأغنام في أمريكا من قبل .

أجبتة بحدة ، متمنية على نحو بغيض أن يتحول الى واحدة منها ، لكي لا يقدر على العودة معنا .

قررت أن أنتظر ، عندما بدأت خديجة بإشارة مخاوفي حول امكانية وجود الأنعامي ، بينما واصل جيرد وطه وحدهما المضي الى النبع عند قمة التل . وعندما عادا ، وصفت خديجة ما رآته من وجبة الطعام الموءلفة من الكباب والبيرة التي تتناولها مجموعة من العجم . فحتى العجم قد تناولوا غذاة أفضل منا .

على الرغم من النقص الواضح في ضيافتنا ، أراد طه وخديجة وأخوها أن تستمر حملتنا أكثر . ولكن كل ما كنا نفكر فيه أننا وجيرد ، كان في كيفية عزل الأخ غير المرحب به ، وتركه في المدينة والانسحاب لبقية فترة العصر الى منزلنا الى حيث الوفرة في الماء المتدفق النظيف ، حيث لم نطلب منه المقدار الكافي للشرب . وفي طريق عودتنا الى المدينة توقفنا في احدى محطات الاستراحة ذات الطراز القديم ، والواقعة الى جانب الطريق ، حيث يشكل علامة على أننا في الريف ، واشترينا كازوز البرتقال لكل واحد منا ، ولكنها كانت حلوة جدا . وأخيرا وصلنا ريزاي وأنزلنا ضيوفنا من السيارة ومفينا .

لم تتضاءل رغبة طه وخديجة في القيام بنزهات في سيارتنا ، حتى بعد فشلنا ذلك . لذلك توجهنا في الجمعة التالية نحو البحيرة . كان الجو عليلًا ودافئًا . وبالطبع ما كان لأحد أن يسبح ، لأن فصل السباحة ما كان ليبدأ الا بعد شهور عديدة . شرعنا أنا وخديجة في الحديث عن الخوف في الماء ، بينما جلس جيرد وطه فوق الصخور يشربان البيرة التي كنا قد أحضرناها معنا . رفضت خديجة أن تمش المشروبات الروحية ، وشربت أنا مقدارًا ضئيلًا منها على مرأى من نظرات طه المتسلية

الضاحكة ، والمشدوهة . لم يكن معظم أكراد القرية يتعاطسون المشروبات ، ولكن القليل الذين كانوا يتعاطونها ، كانوا من الذكور .

أكد لنا الرجال أنهم سيتبعونا في الخوض في الماء ، لذلك مضينا أنا وخديجة حول المنحني ، وبدأنا بخلع ملابسنا خلف بعض الصخور . وبينما كنا نخلع ملابسنا التحتية توقفت فجأة سيارة على الجرف المطل على شاطئنا الصخري ونزل منها زوجان مع طفلين ، وشرعوا بالمشي نحو البحيرة . وحتى قبل أن أدرك أنهم كانوا ناسا أعرفهم من الكلية ، بدأت بالنظر حولي ، باحثة على نحو يائس عن مأوى في الشاطئ الآخر . كانت توجد صخرة ضخمة فقط ، ولم تكن تؤمن لنا ستارا أفضل مما يوقره لنا الجرف . تصورت أن خديجة قد ذمرت ، ولكني عندما نظرت إليها تسرفت بانفعال أكثر مما لو كانت فزعة . في الحقيقة بدت أقل ارتباكاً مني . بكثير . وعند ما سمعت أن المرأة التي فوق الجرف أمريكية ، تملكها الفضول لدرجة أنها نسيت حالة العري التي كانت فيها . كانت المسافة بعيدة تماماً ، حتى أنني لم أتأكد فيما إذا كان يقدر الزوجان على أن يهربا وجهينا ، ولكن اتضح أنهما أدركا وجودنا لأنهما أسرعنا مع طفليهما بالعودة إلى سيارتهما والسير بعيداً . وبعد أن خبرت البحيرة جيداً ، أدركت كم كنا محظوظين أن هؤلاء الناس اللطفاء - وليس بعض الاتراك - هم الذين فاجؤونا .

وعندما أصبحنا وحيدتين ثانية ، خرجت من خلف الصخرة التي كنا جاثمتين بقربها ، وارتحت جسدي بالخوض في الماء المالح الدافئ . بدأ الماء مبهجا ، إلى أن رششت بعضاً منه في عيني . خضنا أنا وخديجة في ماء ضحل ، لما بقارب من العشرين دقيقة ومن ثم خرجنا .

جف الملح على شعرنا وجسدينا اللذين أبيضاً وتشكلت عليهما قشرة ملحية صلبة ، عندما عدنا ثانية واقتربنا من

المنحنى، حيث وجدناهما بكامل لباسهما بدا انهما لم يعزما ابدا على الخوض في الماء . لم نستطع السير بالسرعة الكافية التي تناسبني الى المنزل . فقد شعرت أن مسامات جسدي تكاد تختنق. حاولت خديجة ان تراني عارية ، عندما نزلت هي وطه عند منزل الحاج اسماعيل ، حيث سألتني :

- الا ترغبين في الدخول واخذ حمام معي ؟

فأجبتها :

- لا ، شكرا .

اظهرت خديجة قمة جراتها ، في يوم وافقت فيه على المجيء معي الى البحيرة ، وحيدة ، او بالاحرى وحيدة بقدر ما تستطيع . لم يأت طه معنا ، بل رافقتنا خادمتها أسماء وماراز ، وهي امرأة آشورية كانت قد اعتادت على التردد على منزل الحاج اسماعيل . استحمننا هذه المرة في الماء المالح، واغتسلنا بماء عذب كنت قد احضرته معي في السيارة ، وبعدئذ توجهنا مائدتا الى المديفة . وحالما توقفنا امام منزل الحاج اسماعيل ، بدا ان خديجة ترتعد خوفا وهي في مقعدها . وهمست بذعر :

- استمري في السير يا مرغريت ، استمري .

وحالما عبرنا المنزل ، نظرت خديجة خلفها وشنهدت براحة، بصوت مرتفع مندما رأت ان اللاندروفر الذي توقفوا لنا لم يكن لاندروفر الحاج اسماعيل . وهمست قاشلة :

- كنت سأشعر بالخجل الشديد لو أن الحاج رآني.

حقيقه ان خديجة لم تكن تحتفظ بمخاوفها وافكارها وآرائها لنفسها . كانت ذات فائدة عظيمة لي . فبينما كانت الاخريات يبقين صامتات ، اما بسبب الآداب العامة او بسبب الارتباك ، كانت خديجة تصرح بكل شيء . وبفضلها تعلمت الكثير عما هو مناسب بين الاكراد . عرفت في احد الايام ما كان يفكر به الجعفريون بضيفاتي من النساء الكرديات . فقد تحدثت عنهم

خديجة باحتقار وعن كيفية اغلاقهم بابهم الداخلي بعنف ، في كل مرة يرونها تصعد اليها . وفي يوم آخر علمت سبب تمنع مجموعة النساء في صورة لي ولجبريد ، كنت قد اريتها لهن فقد سمعت خديجة تدافع عني وتقول للاخريات :

- أن يد زوجها ليس حولت خصرها تماما . مارغريت لاتفعل ذلك .

ارتكبت مرة غلطة مروعة في سلوكي الاجتماعي هناك وذلك بأن قلبت فنجان شاي ضخم من البرسلان رأسا على عقب بدلا من أن يكون على جانبه حدثت كل النساء في برعب مضحك وهن يرفضن اخباري عن حقيقة الخطأ . وقد علمتني خديجة من بينهن ان تلك هي علامة على أن المضيقة امرأة رديئة . بوجودي مع خديجة ، كنت محمية من أن اصبح دخيلة ، والنساء الاخريات قد لاحظن ذلك عليها . فقد قالت امرأة اخي زوجها مستغربة : - خديجة تحب مارغريت فعلا . انها تخبرها عن كل شيء .

في المرات التي ذهبت فيها الى منزل الحاج اطلعت على دستان وسمعت الكثير عنها . فقد كان يأتي من ذلك المكان الغامض اشخاص مختلفون وذوو ملامح غريبة .

الثقيت في احدى المرات بگل بهار ، العديمة الاسنان ، والداية العجوز التي كانت قد حضرت ولادة العديد من أولاد الحاج . وفي مرة اخرى تعرفت الى هاجر وكانت امرأة في بدايتها الثلاثينات ، اتت الى المدينة لتقلع اسنانها المسوسة جميعها ، ولتضع مكانها طقما من الاسنان المصنعة . وأيضا الثقيت بالمرأة ذات الوشم الازرق ، والددة زوجة الحاج اسماعيل الخامسة ، وكذلك بعدد من النساء الاخريات لم اكن اعرفهن ابدا . ومن جهة اخرى وعلى مستوى مختلف تماما الثقيت بنساء مثل ناديا كننة مريم الاخرى ، ونسرين ابنة مريم الوحيدة . كانت هؤلاء النسوة

يأتين لبضعة أيام لروءية الطبيب ، أو للذهاب في رحلة قصيرة في عمل مهم ، ومن ثم يجبرن على العودة الى القرية الى حيث حياتهن الحقيقية . اما حقيقة حياة خديجة السابقة فكانت تختلف قليلا . كان ذلك سبب سخريّة زينب وناديتة القاسية والمستمرة من خديجة في ذلك الشتاء عندما اخذت على مضض الى القرية للعمل .

كنت افكر دائما بدعوة الحاج اسماعيل لنا الى دستان فمئذ ذلك الحين لم اره لاتحدث اليه ثانية . ولكن خديجة وطه كانا ودودين معنا ، لدرجة شعرت فيها ان الحاج لايمكن أن يكون قد انزعج منا . ومع ذلك فلم يذكر احد شيئا عن الذهاب الى دستان . وفي احد ايام الجمع وفي فترة الظهيرة ، اشار طه الموضوع ، بعد ان تناولنا الغداء في بيتنا .

— متى ستأتين الى دستان ؟

فقلت :

— لا اعرف . في الوقت الذي ترغبون فيه .

— مارأيكما لو اننا نذهب في الاسبوع القادم ؟

سأحاول ان استعير سيارة لاندروفر ، ويمكننا جميعا ان نمضي ظهر يوم الخميس .

فقلت :

— لا ارجب في ذلك كثيرا .

لكن جبرد لم يتفوه بشيء . وبعد ان غادرنا ضيفانا ، قلت لجبرد .

— اليس ذلك شيء عظيم ؟ واخيرا سنذهب الى هناك .

سأرى مريم والحاج اسماعيل كلهم . وبما أن الربيع قد حل ، فان الجبال ستكون " كسكوشين " . تلفت حولي بسعادة وأنا افكر بذلك .

نظر الي جبرد دون ان يبتسم وقال محذرا :

— لاتعيري ذلك اهتماما كبيرا . لربما ينسى طه

ذلك . ولربما لن يقدر على استعارة لاندروفر . أوربمما
انه يقول ذلك من باب آداب السلوك فقط . يمكن أن يحدث أي
شيء من الآن حتى يوم الخميس القادم .

أولا لن ادع جيرد يشبط معنوياتي المرتفعة . فهو لا
يعرف ، خديجة ومقدار صراحتها . فهي وبالقدر الذي اعسرف
لم تكن تتعامل بطريقة تلتزم فيها بالشكليات والآداب السلوكية
التقليدية . كان جيرد ، الاكثر حساسية مني اتجاه الدعوات ،
قد عانى من حالة سيئة من هذه الشكليات الخادعة . كان يكره
ان يصدق احدا . وحالما اقترب اليوم ، اصبح جيرد اكثر
تشككا ، وذلك تحسبا للموقف الذي يمكن ان يحدث . شعرت بالشك
يتعاظم في تفكيري أنا ايضا . لم أكن متأكدة بعد من هذه
العلاقات لأطردها من تفكيري . ففي لحظة احلم بالقرية وافكر
بما سأرتديه هناك . وفيمن سأحدث اليه . وفي لحظة أخرى
اقرر في نفسي الا ابتهج كثيرا .

كان احد اسباب التشاؤم لدى جيرد معرفته بأهمية
هذه الرحلة بالنسبة لي . فهي ليست فترة ترفيهية كما حدث
في مانوا ، التي لم استطع التحدث فيها بالكردية بأي وسيلة .
لم تكن عائلة الحاج قد اصبحت وسيلة اتصالي بالاكراد فحسب ،
بل أيضا اصبح افرادها اصدقاء المفضلين في ايران . واذا لم
يعنوا هذه الدعوة بجدية ، فماذا اذن لي في ايران لأتطلع
اليه ؟ وعندما اقبل اليوم الذي وعدنا فيه
طه بالمجيء لأخذنا جهزت نفسي على نحو يعوزه الحماس
ودون ان اخصص الكثير من الوقت لذلك ، كان جيرد قد
اضطجع لياخذ سنة من النوم وقد غلبه الخوف مسن
رفض آخر . هل كنا على وشك المضي في رحلتنا القصيرة الاولى
للكوث في قرية كردية أم لا ؟ كانت شقتنا جرداء ، صامتة ،
بينما كنا ننتظر طنين جرس الطابق السفلي .

الجزء الثالث
داحل كرستان

الفصل الرابع عشر

- هذه هي كردستان ، يا مارغريت .

قالت ذلك نسرين ، أخت طه وابنة مريم الوحيدة . تتبععت بنظري القوس الذي رسمته بيدها ، عندما مدتها باندفاع لتشمل الوادى المستدير برمته ، كان قاع الوادى المجوف والجبال التي تشكل حوافه مغطاة بخضرة لطيفة . ان فعل الربيع هو الفعل المفضل لدى الأكراد ، فعل نوروز ، السنة الجديدة حيث تكون فيها الجبال في أتم خضرتها والقطعان تتكاثر بالمواليد الجديدة . سألتني نسرين على نحو أهدت فيه ازديادها :

- انهم يطلقون على هذه المنطقة اسم أذربيجان ، ماذا يعني ذلك ؟ هذه كردستان .

أشرت في كلمات نسرين حتى الصميم في أرض لا يتحدث فيها أناسها بعلنية عن الاضطهاد الذي يمارس ضدهم . لم أكن أعرف بعد كم كان أكراد القرية وخصوصا نساؤها ، يصرحون عما يجول في فكرهم بحرية . ما قالت لي نسرين كان صحيحا لدرجة أنني اندهشت ان أحدا لم يقله من قبل . تطلق الحكومة الإيرانية اسم " كردستان " على مقاطعة صغيرة في إيران . وتقع جنوب مهاباد تماما . تبدأ كردستان إيران الحقيقية على بعد أميال جنوب مقاطعة " كردستان " وتمتد بعيدا الى الشمال من مهاباد ، حتى الحدود الروسية .

اذن ، لقد حضر طه ليناخذنا الى قرية والده ، وقد وصل مبكرا ، ووجدنا غير مستعدين بعد ، مما أوقعنا في الارتباك . ولكن ، وبما أنه طه المحب فقد انتظرنا طلق المحيا في القاعة الخالية من الاثاث ، بينما اسرعنا نحن للاستعداد للذهاب . صادفت فترة العصر تماما ، في الوقت الذي وصل فيه اللاندروفر وسائقه

جنبنا الى جنب مع خديجة وگلنام وابن عم طه وطه وجيرد وأنا .
والشيء الاول الذي لاحظته كان الصمت المطبق . بعد ذلك ظهرت
مريم مرحبة بي وبجيرد رسميا ومعانقه طه . وكالعادة كانت
مكسوة باللون الازرق من فمة رأسها وحتى اخمص قدميها . اخذت
اتصفح نسرين وهي فتاة قصيرة ، ممتلئة الجسم ، ذات حنك طويل
بارز الى الامام وعينين ضاربتين الى الزرقاء كعينني والدتها تماما
وقبل ان اعرف ماذا حصل لخديجة ، كانت قد اختفت وراء خلفية
المنزل ولم ترى ثانية حتى وقت متأخر من ذلك المساء .

اقحمنا انا وجيرد بسرعة في الفعاليات الرئيسية التي
تؤدي للضيوف في القرية ، من شرب الشاي والجلوس والتحدث والتجول
وعلى نحو تقريبي ضمن هذا الترتيب . اخذت نسرين على عاتقها
مهمة السير معي في كل جولتي ، بينما مضى جيرد مع الرجسالة .
تجولنا أولا في الخارج امام منزل والدتها الواقع في مقدمة
القرية كان يطل على مشهد فسيح وعريض من الوادي . تنزهنا
متجولتين بين الاغنام والخراف والماعز والجداء المتبعثرة عبر
منطقة رعي واسعة . كانت نسرين تجاهر بقلقها باستمرار ، بانها
تتعبني ، لذلك عادت بي حالا لاحتساء المزيد من الشاي ، ولاأظن
أن ساعة مرت دون قدح من الشاي على الأقل . فقد كنا ننظر
في دفتر الصور الخاص بمريم ونحن نحتسي الشاي ، وكنا نتحدث
ونحتسي المزهد منه ، جلسنا نحقق في بعضنا بصمت ونحن نشرب
الشاي .

في آخر النهار ، حيث امتدت الظلال ، اخذتني نسرين في
جولة اخرى ، افضت بنا الى القرية الحقيقية ، بأزقتها الترابية
المكتظة بالسكان ، وجدرانها الطينية . صادفنا الحاج اسماعيل
وجها لوجه في بداية الزقاق الذي يشق القرية مثلوبا ، وكان
يتوحيص منه المرء شرا على نحو غريب وهو ببذلة السوداء نللك
وهبته المارة النحلة ، ولكن لم يكن ثمة ما ينبئ بالنسسر
في عينيه اللنس سعتنا بالسعادة عندما رأنا . قال لي :

• أهلا وسهلا. هذه فريتك • تعالي الى هنا متى شئت •

شكرته ، وشعرت بالارتباك لكثافة معاني كلماته •
وعندما غادرنا الحاج طفحت نسرين بالسعادة لهذا اللقاء المبشر
بالخير مع والدها • ومن ثم كررت الكلمات لوالدتها واختها وابن
عمها • خلقت لدي شعورا بأنها كانت نادرا ماتتحدث الى الحاج
وانها كانت تنظر اليه باجلال كما لو انه ملك وليس والدا فحسب •

شققنا طريقنا عبر الرقاق الموادي الى قلب القرية بهدوء
وعلى بعد ميل تقريبا ، من منزل مريم • كان منزل الحاج
اسماعيل قد شيد فوق منحدر وعلى مسافة من منازل عامة القرويين •
لم ادرك العظمة التي تضفيها عزلة ارستقرا طيبي دستان عليهم
الا بعد ان حبرت اهتمام الاكراد ، القرويين العاديين ، الففراء
بهم • لم يكن مضيحونا اكثر الناس غنى ، في قرية مزدهرة نسبيا
فحسب ، بل كانوا ايضا الاكثر ثراء في جميع انحاء كردستان •

عتمة الفسق جعلت كل شيء يبدو باليا واشد تعتيما مما
هو عليه عندما تفرست في الممرات الضيقة المتعرجة بين الجسدران
الطينية المحيطة بالمنازل الطينية • ربما كان وقت النهار ، ولكني
شعرت فجأة بالكآبة والغربة مثل زائر من المستقبل ، يشهد فسادة
القرون الوسطى الممكن تفاديها • حيث مجموعة من النساء ، والاطفال
يحومون حولهن وكانت نسرين وافقه في هذا الجو الطيني المعتم
مثل نجم في فستانها التفتت ، ذي اللون الكرمي • رد ،
نسرين بابتهاج استجابة لتحياتهن الرسمية والتي يلوح فيهما
الخضوع • اقتربت النساء الواحدة تلو الاخرى من نسرين ، امسكن
يدها ، وقبلن ظهرها وانحنين حتى لامست يدها جباههن •
تأملت هذا المشهد باندهاش بينما مضت النسوة بعد ذلك ، بعيدا ،
نظرت الى احدهن كما لو انها تتساءل فيما اذا كنت انا ايضا
جديرة بهذا الاحترام • ولكن اتضح انها فررت عكس ذلك •
ولكني عندما ظهرت في دستان بملابس كردية بعد شهر من ذلك
تقريبا كانت النساء يمسكن يدي ابصا ويفبلنها •

هذه النظرة الاولى المعتمدة لمنشأ القرية الاصلي ،
افسدت المشهد الريفي الذي كنت قد تخيلته في ذهني عن دستان .
مضت فترة الظهيرة بسرعة في محادثات صبابية لانهاية لها ، وفي
ابتسامات واسئلة وشاي يقدم فوق سجادة فارسية جميلة وجديدة ،
حيث كنا جالستين مقابل جدران مبيضة وتوافذ ذات اطارات
معدنية انيقة . لم افكر مليا بمسكن الخادومات في منزل مريم
ومن كان يعتني فعليا بذلك القطيع الضخم من الاغنام المنتشرة
في تلك المنطقة الرعوية . كنت قد أرهقت أيضا من حماس ونشاط
نسرين ، فقد كانت قد اخذت على عاتقها دور المضيضة بمقدرة
كافية لارشاد وتوجيه عشر نساء على الاقل ضمن انحاء قريرتها .
واصلت تساؤلتي عما يمكن ان يكون قد حدث لخديجة . كنت
اعرف ان جيرد يمضي وقته مع طه واولاد عمومته وبعض شباب
القرية . ما سبب وجود خديجة معي ومع نسرين ؟ شعرت بالراحة
في نهاية المطاف عندما قادتني نسرين بعيدا عن القرية
المظلمة واخذتني باتجاه منزل والدتها ، حيث استطعت ان أرى
بصيص الضوء من الفوانيس المضاءة للنسوة . وبينما ذهبت الى حجرة
الضيوف التي كنت قد امضيت الكثير من فترة العصر فيها ، غادرت
نسرين الى مكان آخر . كانت الحجرة ممتلئة بالرجال والصبيان
وكان من الموجودين جيرد وطه واخوان لطفه وابن عم طه رحيم .
وكنت انا المرأة الوحيدة هناك .

ثبط همتي شعوري بالارهاق عندما جلست اتحدث مع
المضيفين واشرب الشاي . وعندما اشارت نسرين الى انني منهكة
احتججت على ذلك . ولكن كان ذلك صحيحا فقد كنت تعبته جدا
مع اننا لم نمض يوما واحدا بعد فقد قمت بجولات كثيره مع
نسرين والالبسة التي كانت ترتديها نسرين لم تكن تصلح للتجول
ابدا ربما كانت اللغة هي التي اتعبتني . فحتى الآن ولدى
جلوسي مع جيرد ايضا كنت اتحدث بالكردية . ولكن ماتطلبه
وجودنا هنا بالذات من الجهد قد اتعبنا اكثر من الجهد الذي كنا
نبدله في التحدث بالكردية ، آخذين في اعتبارنا التناقضات

المبهمة وانتساءل دوما عما هو متوقع . والان وبعد ان حل الليل شعرت بالضيق لبعـد القرية . بدت المجموعة التي كانت تحيـط بنا اصغر واكثر هشاشة . وكأنها ستختفي بين ومضة من المصباح وخبوها . لاحـت الجبال في الافق مجسمة اكثر ، لم استطع رؤية أي من الاضواء البعيدة في السهل لدى تحديقي من خلال النافذة . كان الظلام والصمت المطبق قد غمر الطريق الذي سرنا عليه للوصول الى هنا . تشكل القرية في الليل ملجأ وتجمع كائنات بشرية لأخذ قسط من الراحة والدفع والضوء . ولكني كنت حديثة العهد بالنسبة للقرية لانتزع منها ١٥٨ الشعور بالموءازرة . وكانت اقل غربة بقليل من صمت السهل المطبق فحسب . ظهرت فجأة مجموعة من الرجال عند مدخل حجرة مريم ، مدني لا ظلالهم عبر الارض . نهض الجميع عندهما دخل الحاج اسماعيل وحاشيته الى الحجرة . كن الحاج يبتسم ويصافحنا بحيوية ولهفه وحالما جلسنا جميعا ، لاحظت ان رجاله كانوا يحاولون متعمدين الا ينظروا الي . كان الحاج بقيص بجاهزية عالبة كالعادة ، وكان ممثلا بالاسئلة والتعليقات الموجهة اليـنا . ومما كان يهمه الى حد كبير هو اكتشافه عدم حلولنا ضيوفا عليه . لم اعرف في البداية ماكان يتحدث عنه ، مدستان هي قريته . ومريم هي زوجته وطه هو ابنه . وفي سلسلة التبعية فمن الموءكد اننا ضيوفه هو ايضا . قال مشيرا :

— في منزلي كهـ . بـاء . في المرة القادمة التي ستأتيان فيها الى دستان ، يجب تمكثا معي .

أومات برأسي على نحو مهذب ، متسائلة عن سبب وجود الكهرباء في منزله فقط ، ومندهشة اكثر لهذا الفصل بين الضيوف . لم اكن ادرك بعد اننا نخص مريم . ولم ادرك بعد كم كان مجيء الحاج الى هنا وراينا الى منزل مريم ذا اهمية عظيمة . لقد كانت حركة السير العادية بين المنزلين تصعد الى منزل الحاج فوق الهضبة ولاتنزل الى مريم في طرف السهل . لم يمض وقت طويل قبل أن تتلاشى فارسية جيرد عندما لاحست

على عينيه غشاوة تدريجية شبه رجائية نتيجة الإرهاق . فاضطرت الى متابعة الحادثة مع الحاج الذي ابدى اعجابه لتمكيني من الكردية ، بينما كنت اتلعثم خلال ذلك بسأم محاولة ان اتابع ماكان يتحدث عنه . اراد الحاج ان يريني كيف علم نفسه كتابة اللغة الكردية بالحروف اللاتينية المستخدمة في التركية . نسخ الحروف على علبة سجائرة الامريكية ووعدني ان يكتب لي بحروف لغتي عندما اعود الى الولايات المتحدة . عندما كان الحاج يتحدث ، لم يكن احد ينبس ببنت شفة ، ملقنين بذلك ثقل نصف المحادثة على كاهلي . ولكن هذه المرة لم أكن استطيع ان اركـز انتباهي جيدا ، على نحو مغاير عما كنت عليه في المدينة فقد كنت منهكة القوى لدرجة كبيرة .

اخيرا حضرت مريم الى مدخل الحجرة . و ارادت ان تعرف هل سأتناول عشاءي مع الرجال ام مع النساء . وعندما لاحظت عدم قدرتي على الاجابة على هذا السؤال البسيط ، قادتني بسهولة الى الطرف الاخر من منزلها . على الرغم من ان المنزل كان مؤلفا من اربع حجرات فقط ، كل حجرتين في طـرف ووراءهما مخزنان ، فان نصفي المنزل لم يتصلا من الداخل . قادتني الى حجرة نوم اخرى حيث كانت مريم وخديجة ونسرين وناديا يتأملنني وانا آلتهم الغذاء من الصينية الكبيرة الموضوعة امامي . وعلى الرغم من احتجائي فانهن لم يقتربن من الطعام الى ان انتهيت منه . وبعد العشاء حاولن ان يرينني اشكال الرقص الكردي حيث و فغن شريطا مسجلا وشكلن صفا في الفراغ الضيق بين السرير المزدوج والجدار . وكنت لا اكد اني اقدر على فتح عيني .

— مارغريت تعبته .

ابتدت مريم ملاحظتها واسرعت باخراج الفتيات من حجرة النوم الى الطرف الآخر من المنزل ، حيث كان الحاج اسماعيل و بطانته قد غادروا لتوهم . اخرجت بندقية ضخمة بسرعة من تحت الفراش

المزدوج ومن ثم عدلته ثانية . وضعت خديجة طبقا كبيرا من الفواكة وطبقين صغيرين لخدمة المائدة ، مع سكينين للتقشير وابريق ماء وكأسين ومسجلة مع حافظة اشربة محبوكة فسوق عتبة النافذة قرب الفراش . وحالما وضع كل شيء كما رغبنا تمنست لنا مضيفاتنا بقضاء ليلة سعيدة واغلقن الباب . تركنا انا وجيرد لوحدها ، لتأمل احداث وسب وجود تلك البندقيّة بما أن هذه كانت الليلة الاولى لوجودنا في القرية ، فقد كان تأثيرها علينا قليلا نسبيا . كنا نعرف ان الحاج اسماعيل وابنه كانا صيادين متحمسين ولم يخطر ببالنا مباشرة ان هذه البندقيّة تخص مريم . فهي لاتذهب للصيد . وموئرا وبعد أن انتهت اقامتي في كردستان ادركت انني لم اكن اخطو عشر خطوات في القرية دون ان اكون مرافقة بأحد ما للحماية ، والاهم من ذلك لم ننم ليلة واحدة دون وجود حارس يحرسنا . لم يكن الاكراد الايرانيون مسلحين من الناحية النظرية ، ولكن سيطرة الضغائن الدموية وسفك الدماء جعل ذلك موضوع نقاش . ايا كان نوع القانون ، فقد كان واضحا ان العديد من الاكراد يقتنون اسلحة نارية .

نظرت الى الساعة الفخمة المعلقة على الجدار وكانست تشير الى التاسعة والنصف . وفجأة لم أعد أشعر بالتعب . تناهى الى سمعي في الجانب الآخر من المنزل احاديث وقهقهات ، ونظرت خارجا من خلال نافذتنا الى حزم الضوء المنبعثة من نوافذ حجرة نوم ناديا . لم يكن السرير طويلا بما فيه الكفاية لجيرد ليتمدد بكامل طوله . وكان كل شيء يتدلى مثل ارجوحة شيكية ، حاولت المشي للنوم ، لمعرفتي مدى التعب الذي سأتجشمه في اليوم التالي . وبعد نوم متقطع وقلق استيقظت على فجر بارد اخضر ، سديمي يمتد بعيدا حتى اطراف الجبال . تلاشى شعوري بالنعاس عندما سمعت سقسقة الطيور من خلال النافذة المفتوحة . وحالا وصلت خادمة الى الباب وهي تحمل طبق المنيوم مستديرا ضخما ممتلئ . بطعام الفطور المكون من الخبز الطازج المنبسط

المصنوع من القمح الخالص مع جبنه ببضاًء ولبن خاشر وعسل
وكوؤوس من الحليب الحار التي يتصاعد منه البخار . حضر رحيم
ليبقى برفقتنا وحالا بدأ يوم جديد . جاءت نسرين بعد الفطور
لتأخذني لالتقي بأختها امينسه .

بعد مشي مايقارب ربع ميل صعدنا نحو الهضبة ،
افترينا من المنزل من خلفيته وشرنا نحو موقع حجرة الحريم .
لم ارى في هذه المرة الجدار ذا العشرين قدما الذي يفصل حجرة
الحريم من ديوان خانة الحاج اسماعيل ، حجرة الجلوس تلك ،
الطويلة والمعممة المبنية جانبا ، للرجال الذين يقومون
بزيارة القرية . رأيت هذه المرة فقط خادمة مرتدية على نحو
بلوح فيه الفقر واضحا وهي تجد مع مجموعة اواني كهيمة ،
معدنية وزيتية المظهر ، مدعمة بركائز عند الحنفيات خلف
المنزل . صعدنا انا ونسرين الدرجات الصلبة عند مدخل حجرة
الحريم وخطونا فوق قشور خيار وبرتقال مرمية بالقرب من كلب
رعي ضخم في القاعة المعممة . وبعدئذ افلتت نسرين يسدي
عندما توقفنا كلانا لنخلع احدىتنا امام الباب المعدني . نهضت
نصف دزينة من النساء لدى دخولنا بقيت المرأة الثقيلة المقعدة
التي تذكرتها وبغموض منذ ذلك اليوم البعيد ، في حجرة جلوس
مريم ، جالسة فوق سجادة وعكازها الى جانبها . حيت ، نسرين
اولا المرأة الاكبر سنا ومدت عنقها الى الامام باتجاهي
وابتسامة تجعد ثنايا وجهها . فهمت اخيرا ان المرأة ذات
العكاز هي سوسن خانم والدة عائشة . وامينه الطويلة القائمة
ذات الشعر الاسود والعينين الرماديتين التي عرفتتها نسرين الي
كانت اخت عائشة الصغرى ، وكذلك اخت نسرين بما أن اللغة
الكردية لاتفرق بين الاخت الشقيقة والاخت .

عندما جلست جلست جميع النساء ، بدأن بسوءالي فيمما
اذا احببت القرية أم لا . وهذا السوءال كان يتردد على شفاه
نسرين اكثر من الجميع بما انها قد دارت بي في انحاءها

في اليوم الفائت . قدمت الشاي المرأة ذات الوشم الازرق على حنكها ، التي اشارت اليها خديجة على انها والددة احدى زوجات الحاج الاخريات . تساءلت أين يمكن ان تكون الزوجات الاخريات ومن كانت النساء الجالسات امامي ، وخيل الي كما لو انهن يقضين النهار جالسات في حجرة نوم سوسن خانم . اليسس لديهن ما هو افضل للقيام به ؟ شككت في انهن قد اجتمعن خصيصا لشرب الشاي . وانهن قد تعطلن لوفادتي . وبعد أن مضت نصف ساعة فقط وانا برفقتهم ، بدأت اشعر وكأنني قد سمرت بسير الحياة الطبيء . تخيلتهن جالسات يوما بعد الآخر في هذه الحجرة الداكنة ، المعتممة حيث يحوم فيها الذبسان فوق فتات الطعام المرمي ارضا فوق السجاد . بدؤن متبلسات بسبب وجودهن في القرية كما لو انهن لا يعرفن ما يتحدثن عنه لي سوى فيما اذا احببت القرية اكثر من المدينة ام لا . بالطبع زال الآن عنهن الملل قليلا ، بسبب حضوري ، حيث أشكل وجهها جديدا بالنسبة لهن ليحدثن فيه . ما كنت سأستشف ابدا من هذا اللقاء مع سوسن خانم زوجة الحاج اسماعيل الكبسرى انها كانت قد تورطت منذ زمن بعيد في فضيحة ومغامرة . كل ما استطيع ان اخبره الان انها كانت تجلس من يوم لآخر تتلمس مسبحتها بأصابعها وعقلها - والله اعلم - ممتلئة بأي مشاعر من الندم وبأي افكار عن السنوات الاربعة السابقة المتتالية او عن الزوجات الاخريات اللواتي كان عليها أن تتحملهن او عن بناتها الاربعة .

شرعت نسرين ، التي بدت وكأنها لم تتأثر بجو الحجرة المثير للوهن ، تتحدث عني بسرعة كما لو أنني لست موجودة اخبرتهن عن عملي في الكلية ، وعن انواع الاطعمة التي اجهزها للغداء وعن كيفية تزييني منزلي . كانت معظم هذه المعلومات ثانوية نوعا ما . سألت النساء عن زوجي ، فأوضحت نسرين انه فارغ القائمة ، والاهم من ذلك انه كان شابا . كنت صامته ، وقد تملكني شعور شابه قدرة نسرين

على تحمل الكدر . حاولت امينه بين فينه واخرى أن تفسح المجال لقول كلمة او اخرى ولكنها فشلت . استمرت آلال ابنة اخ الحاج - ذات المظهر الطاش في القهقهة والذهب يتلأل ، في ثغرها ذى الخمسة عشر ربيعا . فهمت من هذا أن نسرين معتادة على عقد مجالس كهذه في حجرة جلوس سوسن ، وتساءلت عن شعور اختها المغرى وابنة عمها نحوها .

صرحت لي نسرين موعرا ، عندما أتت الى ريزاي في زيارة ، انه ليس لديها صديقات في القرية .

- ماذا تعنين ؟

سألته وأنا أفكر بالوقت الذى تقضيه مع أمينة وآلال .

- ماذا عن اختك وابنة عمك ؟

فأجبت بازدرأء :

- أوه ، انهما ليستا صديقتي . كيف يمكن لأمينة أن تكون صديقتي .

ولكني خلال زيارتي الاولى لدستان لم أستطع أن أكّون رأيا من هذا التوتر في علاقتهن . كان العمل العدائي الذي شعرت به آنعد ، هو التنافس على امتلاكى ، أنا الزائرة . كانت نسرين قد كسبت النزاع مسبقا ، ووضعت يدها علي ، لأنه كان واضحا للجميع أنني ضيفة مريم ولست ضيفة حريم الحاج اسماعيل . عندما ناشدتنا سوسن على نحو مثير للشفقة ، للبقاء لتناول وجبة غداء الظهر ، كانت نسرين حاسمة تقريبا بالطريقة التي نهضت فيها وأخذت بيدي نازلة فوق الهضبة باتجاه منزل والدتها .

تساءلت فيما اذا كانت أهمية نسرين تنبع جزئيا من حقيقة كونها ابنة مريم . لقد عاشت مريم في السنتين الاخيرتين منفصلة عن جناح الحريم المثير للملل . بدا في وقت زيارتنا أن مجموعة من الابنيسنة تنشأ في دستان . حيث كانت كلاويز ، اخت الحاج اسماعيل ستنتقل الى خارج مساكن

النساء المشاعة في ذلك الصنف . كنت متأكدة تماما من أن سوسن كانت ترغب بالمفادرة هي ايضا ، ولكن ليس بيدها حيلة ، فهي عجوز مسنة ومريضة جدا . وبما انها لم تنجب اولادا وبالنتيجة لم يكن لديها كنائن ، فقد كانت تعتمد على الزوجات الشابات كي بطخن لها . يمكن فقط للنساء اللواتي لديهن اولاد شباب مثل مريم ان يسكنن وحدهن وهذا فقط ماسيبدو معقولا .

لم يبد لي أحد على عجل في تجهيز نفسه على الرغم من انني سمعت انهم سبأخذوننا في رحلة الى منبع حار في الانحاء القريبة . قدم لنا في البداية غداء عامر ، وافر ، ومن ثم شعرنا بالنعاس . واخيرا اتضح اننا سنمعد الى اللاندروفر . وبما انني كنت قد تناولت غذائي مع الرجال والصبيان ، لم أر النساء لفترة ، لذلك عندما صادفت مخديجة في جانب المنزل ، سألتها فبما اذا كانت ذاهبه هي ايضا الى منبع الحار . فقالت وهي تبسم :

— لا أظن ذلك يامارغريت .

— ولكن لم لا ؟

تلاشت هذه العبارة على شفاهي ، بينما اختفت ثانية وراء المنزل في مكان ، أظن انه المطبخ .

عندما حان الوقت ، اتضح ان جيرد وطه ورحيم ، وأحمد اخوة طه المغار وأمينه ونسرين وأنا فقط كنا ذاهبين . أحمد طه بندقبته المنقشة وعلق حزاما عريضا من الرصاص حول صدره ، كانت نسرين تقفز من الفرع جيئة وذهابا ، عندما بدأنا بالخروج متتبعين الطريق والسلك الكهربائي باتجاه الحدود العراقية ، تساءلت بصوت عال فيما اذا كانت كهرباء الحاج اسماعيل تستمد من هذه الاسلاك ، ولكن الجواب من طه كان انه لا يسمح لأي قرية ان تستمد من هذه الطاقة . وأن استخدامها والافادة منها يقتصر على الجيش المتمركز على الحدود فقط . كانت كهرباء الحاج

اسماعيل مجهزة بمولد يعمل بقوة مادة نفطية .
قبل ان يغادر بساعة او ساعتين كانت نسرين وامينة
تتحدثان عن هذه النزهة ، كما لو انها نزهتهما الوحيدة لهذه
السنة . فقد انفجرتا بالحديث عن اوهام مع بعضهما ومعني عن
توقعهما مدى روعة هذه الرحلة . كنت اشك في ذلك ولكن " درمان
آقا " والتي تعني حرفيا - الماء الشافي - كانت لافتة للنظر
اكثر مما تصورت بكثير .

كان جزء من جمالها يكمن في حقيقة انها لم تمسس
تقريبها ، ولا عجب في ذلك ، فقد كان علينا ان نعبر بحرا مكشوف
من الوحل لكي نصل الى هذا الممر الضيق الذي يقطعه نهر يجري من
خلال صخرة صلبة . وقد نجح اللاندروفر بعبورها بصعوبة . ولكن
المشهد وحده كان يستحق السير نحوه . كان لون النهر اخضر
باهتا وقد زاد على ذلك الخضرة القليلة المحيطة بنا . بدا الماء
دافئا لذيذا عندما تسلقت الجرف الصغير لأضع يدي في احسدي
البرك المتدفقة . اخذت نسرين وامينه بيدي ومضينا نتجول في
انحاء النبع . كانتا تبديان قلقهما باستمرار على اني قد
تعبت . فكرت في سبب قلقهما وقررت انه يمكن ان يكون جبرا
انسحابنا في وقت مبكر جدا في الليلة الفائتة ، عدا ان نسرين
كانت تفترض انني متعبة منذ اللحظة التي وصلت فيها الى دسستان .
ربما كان ذلك سبب ارهاقي الشديد . ومن عادة الاكراد ان يفكروا
في حتمية شعور الضيف بالتعب لانه ليس معتادا على الجبال .

حالما مضى الرجال الذين سبقونا الى النبع كيفت خطواتي
مع نسرين وامينة وتوقفت معهن عندما تحدثنا مع عائلة بسدا
انهما قد عسكرت تحت صخرة بجانب الجرف . كانت هؤلاء النساء
مرتديات لباسا غريبا وحلى ذهبية مثل الاكراد . تصورت انهم
لاجئون عراقيون غير مسجلين لدى السلطات المحلية ، ولكن ، عندما
سألت مضيفتي عن امرهم ، أبلغتني انهم معجم . فكرت في نفسي
انه من الغريب ان يتحدث المعجم بالكردية ولكنني لم
ألاحق الموضوع .

كان رجلان آخران جاثمين ، بدا بوضوح انهما كرديان
بشلواريهما الفضفاضين وعمامتيهما ، كانا جاثمين على صخرة
اخرى يبدخان السجائر ويراقباننا . استغربت لكيفية وزمن
وصول هؤلاء الناس . فقد كانت سيارتنا اللاندروفر هي وسيلة
النقل الوحيدة التي ترى على مرمى البصر .

شرع طه في المييد جديا ، ودوت الطلقات عاليا . ركضت
الفتاتان لتراقبان أخا طه الاصغر حسين وهو يخوض حتى وسط
بنطاله الجينز المستورد ، وقد ابتهجت لدى اكتشاف ان بنطاله
الداخلي هو شلوار طويل من الموسلين ، متجمع عند الكاحلين ،
بينما كانت الفتاتان ملتفتين من قمة رأسيهما حتى اخصص
قدميهما . بالملابس الكردية التقليدية ، كان الرجال الثلاث
جميعهم مكسوين بملابس مريحة اكثر من الطراز الغربي ، العملي .
كانت اللغة واللباس الداخلي فقط يحددان هويتهم على انهم
اكرد .

رجتني أمينه ونسرين ان اطلب من طه ان يأخذنا جميعا
الى معسكر اللاجئين الاكرد قبل أن يتم رحلة صيده فيفوت
علينا هذه الفرصة . لمحنا أسقف ثكنات المعسكر المعدنيصة
الواسعة وهي تلمع من على بعد مسافة بجانب القمم الجبلية
المكتسية بالثلوج . عندما انعطفنا عن الطريق الرئيسي المؤدي
الى حقل موحل . ونحن نتجه نحو درمان آفا وقد رغبت أننا
أيضا في روعة المعسكر ولكنني لم افكر ان ذلك ممكن فقلت
وقد لاح فضول في كلامي :

— لماذا لاتطلبان ذلك منه بنفسكما ؟

— لن يأخذنا من أجلنا ، ولكن لو طلبت أنت ذلك

يامارغريت فأنا متأكدة انه سيأخذنا .

وافقت ان اطلب منه ذلك لأجلي بقمدر ما لأجل نسرين

وامينة . في صباح اليوم الفائت كانت نسرين تحلم بالسبيير

الى العراق على ظهر حصان برزاني ، وهو يرعى في دستان تماما .
بأحلام كهذه ماذا يمكن أن يكون أكثر اشارة من روعية بعض
الرجال اللاجئين المعاقين داخل المعسكر ؟

قدم حسين طيور الحجل المصطادة لظه الذي وضعها
على الارض . ابتسم استجابة لكلمات المجاملة العديدة التي
صدرت عن اختيه وسأل :

- ماذا سنفعل الآن ؟ ربما علي ان احصل على
المزيد من الطيور ؟

سررت لان نسرين أعطتني المبرر لأقترح انهاء هذا الصيد ،
فسألته :

- هل تظن انه يمكننا ان نسير بمحاذاة زيوا
وان نلقي نظرة على المعسكر ؟ فأجاب طه :

- طبعاً ، اذا كان ذلك ماترغبين القيام به ؟
ارتسمت لذلك ابتسامتان عريضتان على وجهي نسرين وامينه
سرننا بهدوء نحو السيارة ونسرين تتمتع بامتياز حمل الطيور
الميتة . عندما وصلنا الى الطريق الرئيسية ، اتجه طه نحو
الاسقف المعدنية . كان باستطاعتي ان اسمع امينه ونسرين وهما
تتهامسان بابتهاج في خلفية سيارة اللاندروفر .

بعد كل مداولات السافاك ، عما اذا كان سيسمح لي
بزيارة زيوه ام لا ، لم أقدر أن اصدق اننا سندخل المعسكر
بهذه السهولة فعلاً . لم تكن ثمة اسبجة ولا حراس . عبرنا
بسهولة جسراً ملبا ووجدنا انفسنا في طريق مع صفوف الشكنات
الضيقة في أحد الجوانب وخيم الجيش في الجانب الاخر . كان يقف
بجانب الشكنات نساء وأطفال باللبسة كردية ، بينهما كانت زمرة
من الرجال قد اجتمعت أمام ما ائضح فيما بعد انه مطعم .
بدأت بالتقاط صور من خلال النافذة وقد امتع ذلك طه كثيراً . ولم
يبدا خائفاً من السافاك على الاطلاق . تقدم رجل باللبسة

كردية وحياء من خلال النافذه وأخيرا بعد عدة دقائق تقدم جندي وسأل طه عما نفعله هناك . أخفيت آلة التصوير بسرعة وأجاب طه بأننا عابرو سبيل فحسب . كان الطريق المار عبر المعسكر هو الشريان الرئيسي للمواصلات من الشمال الى الجنوب فسي غرب ادربيجان الكردية . لوح لنا الجندي بيديه وعندما نظرت خلفي ، تلالأت الثكنات ثانية تحت ضوء الشمس . ولكنها ظهرت مغبرة وموحشة عندما كنا بالقرب منها .

مضت بقية فترة العصر بسرعة وبمزيد من الشاي والحديث في منزل مريم . وعندما آن أوان الرحيل ، ظهرت خديجة من وراء المطبخ أخيرا . كانت قد قضت معظم نهاية الاسبوع وهي تطبخ وتقوم بالأعمال المنزلية الروتينية غير المحببة لحماتهما. تجمع بقية أفراد فريقنا عندما حضر الحاج اسماعيل متخبطا وهو يهبط الهضبة في سيارته اللاندروفر ليأخذنا ويعود بنا جميعا الى المدينة . وبعد أن وصلنا الطريق العام الحكومي تماما خطأ شرطي من مخفر الدرك الواقع قرب دستان نحونا على الطريق ، وأشار الينا بالوقوف وسأل مشيرا نحونا :

— من هؤلاء ؟

فأجاب الحاج اسماعيل :

— أنهما ضيفاي .

أومأ الدركي برأسه وتراجع القهقري ، وواصلنا السير في طريقنا .

كان الضوء المنور للطريق يبهت رويدا رويدا ، وبدأ الحاج تعباً . وبقي ينظر بعينين طارفتين نصف مفتوحتين ، ومن ثم يفتحهما على وسعهما ، كما لو أنه لم يكن يستطيع الرؤية . كان الطريق في بداية باند مكثظا بسيارات سكان المدينة الذين قضوا يومهم قرب وسائل نقلهم ، وعلى نحو عرضي في الهواء الطلق خلف باند تماما كان هناك متسع كاف من المكان لكل شخص ليفترشه ، ولكن مثلما ذكرتني نسرين ذلك المكان هو كردستان ، وليس للعجم مكان فيه .

رجونا أيضا وجيرد الحاج اسماعيل أن ينزلنا على بعد عدة مبان قبل أن نصل الى منزلنا ، بما أننا قد تعرفنا جيدا على الشكليات التقليدية الملازمة لهذه المناسبة . فقد كنا قد رأينا لمرات عديدة ان الايرانيين يقفزون فعلا من سيارات متحركة محاولين انقاذ السائق من بذل المزيد من الجهد لأخذهم الى المنزل تماما . ولكن كان واضحا أن الحاج لن يتوقف الى أن يطمئن الى أننا امام منزلنا . ارشدنا مكرهين الى فناء دارنا حيث نزل من سيارته لكي يصفحنا . ومن ثم امر طه ان يقدم لنا اثنين من طيور الحجل التي كان قد اصطادها . ولكنه عندما حملها ليقدّمها لنا ، رفضنا أن نأخذ هذه الطيور البالغة الصغر ، ليس من منطلق سلوك " التعارف" التقليدي ، بل لاننا لم نكن نرغب فيها أصلا . على كل حال، أمر الحاج على أن نأخذها . فبالاستناد الى سلوكنا السابق ظن أننا نفعل ذلك لمجرد انه سلوك مهذب نسلكه معه . وبعد أخذ وعطاء معه ، استمر الحاج اسماعيل في رفضه تصديق اننا كنا نرد مثل هذا الخيار مراعاة للذوق واننا من جهة اخرى لم نكن نرغب في نتف واخراج احشاء هذه الاجساد الصغيرة من أجمل قليل من لحم الطير . واخيرا قال جيرد :

- ان اعطاءنا طيور الحجل هذه هو مثل القائها في المزبلة ، فنحن لن نأكلها .

بدا الحاج اسماعيل مذهولا ولكنه عاد الى وضعه السوي حالا . لقد كنا غرباء ، وقد قبل منا ذلك . وقبل أن يسير مبتعدا تمنى لنا قضاء ليلة سعيدة وعودة سريعة الى قريته . بقيت انتقاد وداعه الحار ووداعات البقية في السيارة ، ووداعات تسرين ومريم المحبة عند مغادرتنا القرية وحسن الضيافة الذي استمتعنا به في دستان ، بقي كل ذلك معنا الى أن وصلنا أمام باب دارنا . ومن ثم اكتشفنا ان الباب مقفل من الداخل واننا قد بلّينا خارجا .

كنا نقتني مفاتيح لبوابة الفناء ولباب شقتنا فسي
الطابق العلوي فقط . لم نجد الباب الامامي للبناية مغلقا أبدا
خلال أشهر اقامتنا في ريزاي كلها . ولكن لم يحدث أن كان
هوشغ وشهرزاد في الخارج . كانت اخت هوشغ الكبرى قد حلت
محلهم لتعتني بالشقة والطفلين . كانت تلمح بغموض وفي أكثر
من مناسبة الى جميع الجرائم في المدينة ، لذلك لم تعد أبواب
الفناء والشقة تترك مواربه كما كانت لدى وجود شهرزاد في
المنزل . أما الآن فقد اغلقت العمه باب البناية الامامي بمفتاح
لم نكن نعلم بوجوده . وبما أن منزلنا لم يكن مضاء ، فقد
ظننا انها قد رحلت الى مكان ما ، وربما لوقت طويل .

تجولنا في البداية في الزقاق بحثا عنها . ومن ثم مكثنا
ننتظر عودتها ببساطة وقد انهكنا التعب في الساحة المظلمة .
وأخيرا عادت والطفلان في رعايتها ، دون ان تقدم لنا أي اعتذار
عندما اوضحنا لها انها قد اغلقت الباب وتركتنا خارجا . كان
تعاملنا معا أقل من أن يكون عداً علينا بقليل ، لذا
فقد صعد جبرد الى الطابق العلوي مباشرة ، تفاديا للمزيد من
المناقشة . وحالما فتحت باب شقة الجعفريين قالت لي العمه
وللمرة العاشرة أو مايقاربها منذ ان التقينا " بفرماييسد،
خانم " رجاء تفضلي بالدخول لتناول الشاي .

عندما كانت تقوم بهذه الدعوة من قبل ، كنت اتفادى
قبولها دون مغرفة مني فيما اذا كانت تعنيها حقاً أم لا .
ولكن هذه الليلة كنت في حاجة لبعض الشاي وبالإضافة الى ذلك
لم ارد ان ارفض دعوتها وان ابدو غير ودودة أكثر بعد
المحادثة المنفعلة من القفل . قبلت الدعوة دون ان افكر في
حقيقة ان المرأة كانت خارج المنزل وان السماور من الممكن
الأن يكون ساخنا . وحالما دخلت الردهة معها ، وقفت وهي تنظر
الي دون ان تدعوني للجلوس وأخيرا قالت :
- رجاء تفضلي بالجلوس .

بعد ذلك مضت الى المطبخ . وعندما عادت تناولتني تفاحاً طرية ضخمة وقالت :

— هذه من بستان عمي . يجب أن احمم الطفل .

حصلت وقفة قصيرة فظة ، ادركت فيها ببطء انها تصرفني بذلك وان التفاحة هي تعويض عن الشاي الذي عرضته علي والذي لم تعني ان اقبله من المرة الاولى . على الاطلاق . نهضت بسرعة ممسكة بالتفاحة و وجهي يتوهج من الانفعال . ونجحت في صياغة بعض الكلمات وقلت :

— اعذريني ، على أن امضي الآن . ليلة سعيدة .

فردت خلفي :

— ليلة سعيدة خانم .

عندما قفلت عائدة الى الطابق العلوي ممسكة بالتفاحة ، لم أفهم في البداية كيف ارتكبت مثل هذا الخطأ . متى كانت المرة الاخيرة التي قبلت فيها دعوة بمعناها الظاهري ونسيت أن اعطي الشخص الذي دعاني فرصة لقبول رفضي على نحو لبق ؟ بعدئذ ، ادركت حقيقة المشكلة . كنت قد قضيت اليوميين الاخيرين مع الاكراد في كردستان . وهي بلد آخر وذو مستوى ثقافي آخر فهناك كانت كل دعوة ، كل وجبة غذاء تدمم بتأكيد قوي للقبول . وفي طريقنا للمنزل اوقعنا الحاج في حيرة اوربما ارتكبنا خطأ بحقه ، برفضنا الشبيه بالتمسك بالشكليات والرسميات التقليدية ولم يدرك كم كنا مضطربين . فمن جهة ، ارتكبنا خطأ ممارسة نظام الشكليات مع الاكراد ومن جهة اخرى نسينا ان نستخدمها مع الفرس والأتراك . حينئذ توجب علينا اكثر من أي وقت آخر ان نسأل انفسنا الى من ننتمي في ايران ؟ فقد عرض علينا مكان في كردستان لقد قالها الحاج :

— هذه قريبتك .

ومع ذلك مكثنا في ريزاي . لقد كان عملنا هناك . ومنزلنا

كان هناك . ولم اكن متأكدة تماما من انني مستعدة للانتقال الى القرية الا في بعض خيالاتي المجردة .

كانت الحرب الايرانية الواسعة ، غير المعلنة قد غمرتنا على الرغم من جهودنا المبكرة لتفاديها . لقد كنا في وفست ما غرباء كلياً ، نمضي هنا وهناك ببراءة وجهل وبين فينة واخرى نقضي الوقت مع الاكراد اذا استطعنا ان نجدهم واحياناً نعقد علاقات اجتماعية مع ايرانيين آخرين اذا دعينا فعلاً او قبلوا دعواتنا . لقد شارفت فترة سدا جننا وعدم قدوم الاصدقاء الى عتبة دارنا على الانتهاء .

— هل لديك اصدقاء من العجم ؟

سألتني خديجة هذا السؤال وهي تضيق عينيها في اكثر من مناسبة :

— لماذا تذهبين الى القرى الكردية ؟ انها اماكسن مثيرة للاشمئزاز والغرف .

ارادت والدة شهرزاد ان تعرف ، فسألتني ذلك . لم يكن مفهومها بالنسبة للاتراك المتمدنين اننا ، نحن الامريكيان المثقفين نختر رفقة قرويين وسخين ومخلفين . ومع ذلك فقد خلصنا الى رأي مفاده ان الاكراد او على الاقل الحجاج اسماعيل وعائلته يتصرفون بغرابة أقل من الايرانيين . أن غياب نظام الشكليات والتأكيد على الشرف الشخصي والاهم من هذا وذاك الافتخار العرقي هو الذي يميز الاكراد عن معظم الايرانيين الذين التقينا بهم . ربما كانت ميزة الافتخار هي الغالبية . ان الاكراد اوبالاحرى ، اكراد القرى الحقيقيون ، لم يشعروا بعد بحاجة الى تقليد الغرب ، لذا فقد قابلونا كأنداد دون استياء ولكنني لااقوى على التفاوضي عن هذا الصراع سيسر بتلك التعميمات الصرفة التي سبق الحديث عنها . كنت على وشك اكتشاف القرى الكردية التي لا يشعرونني فيها بشيء سوى ب " الاخرى " وكان لايزال يوجد بعض الاتراك والفرس ممن رغت فيهم كاصدقاء لي .

لم تحل المسألة قط . لقد كان الحقد والخوف رابضين
هناك لقرون قبل وصولي لهذا المشهد ، ولم اتعلم قط كيفية تقبله
كنت امتقد اني قد اتيت الى بلد واحد ، بينما كنت في الحقيقة
اجول واتنقل بغير نظام عبر حدود اكثر من نصف دزينة من
القوميات . فالأتراك لم يقووا على فهم صلتى بالاكرااد،
والاكرااد ، لم يقدرُوا على فهم ماالذي كنت افعله مع العجم
لما انا صديقتهم . كان الارمن المسيحيون والاشورييون وكذلك
يهود ريزاي قد ذهبوا ، الى بما كانوا يرونه بالمجموعة
المسلمة الاكثر وحشية في المنطقة . هذا بالإضافة الى الفرس
الذين كان يشعرون ان ريزاي هي مركز حدود بعيدة ، الى حدود
لايطاق عن طهران ، مدينتهم المفضلة وعن مشهد او شيراز . ينظر
الفرس الى الأتراك على انهم حمير ، والى الاكرااد على انهم مجرمون
متوحشون وانهم يشكلون تهديدا على أي بلد متمدن .

ولكنني حسمت الامر في ذهني مسبقا . وهو ان كردستان
كانت غاييتي وانني بلغتها اخيرا . لقد تلاشت كل الاضطرابات
التي شعرت بها لتجسس جبراني على ضيوفي الاكرااد . وكذلك
الغضب والخوف اللذان كانت تثبیرهما اوامر العميد وتهديدات
المتسترة ، وحتى قلقي الذي كان يسببه السافاك . كل ذلك قد
تلاشى . لقد قالتها نسرين : (هذه هي كردستان) .

الفصل الخامس عشر

ان بعضا من غرابة قرية الحاج اسماعيل دستان ومانوا يكمن في الطين المنتشر في كل شبر فيها . ففي كردستان تكساد تكون جميع القرى مشيدة بصورة رئيسية من الطين ، هذا ان لم تكن قد وقعت فترة من الفترات بيد الآشوريين . فمنازلهم . وجدرانهم وافنية دورهم كلها طينية ، والمصدر الرئيسي لوفود الشتاء هو كتل صلبة من روث الحيوانات . وهذه ايضا تخسزن في مخازن طينية .

وبما ان الحاج اسماعيل رجل ثري ، فقد بنى منزله من القرميد الاصفر المصنع في المدينة ، وكان منزل مريم قد بنى حديثا من احجار مصنعة ، ومعدة لذلك دون استخدام الملاط . كان الحاج اسماعيل بمحصول قمحه وحصادته وسيارته اللاندروفر قادرا على ان يبني قلعة . كان بامكانه انشاء منزل ذي طابقين بدلا من طابق واحد ، وان يشغل ثلاثة اوتلفزيونا بقوة مولده الكهربائي وان يشتري اشياء اجنبيا غاليا . كان يمكن لمنزله ان يكون نظيفا وخاليا من الذباب لو أنه اراد ذلك . لم يكن يعيش بمستوى يختلف عن جيرانه الفقراء فقرا مدقعا ، فقد كان يفر من منزله مثل منازلهم الذباب وحشرات الاعمام . وكانت وجوه اطفاله مثل وجوه اطفالهم مغرقة بالذباب . اخبرتنا اخت الحاج انه وضع في احدى المرات حاجزا منخلية على نوافذ ديوانخاته ودار الحريم ، ولكنها اوضحت ان هذا قد زاد المشكلة فحسب ، لأن الذباب صار يحبس في الداخل ، لذلك امر بنزع الحواجز . لقد وضع الآن قضايبا حديدية لتمنع اللصوص والناهبين من الدخول وتركها دون حواجز منخلية . كان ركام من النفايات والفضلات يتبعثر عادة في مناء منزله الطيني المطروق . لم يكن ثمة ما يدعو للتخوف من تراكم

ولد الشيخ عبد الله أيضا في القرن الخامس عشر ، ولكنه تعلم في القرن العشرين وكان يعيش مثل العديد من الإيرانيين المتمدنين في قرن متأخر ، بينما حاول الشاه ، دون طائل أن يعطل سنوات الاهمال بانفاق فوائد البترول الضخمة على نحو هائل في فترة أقل من عقد واحد . كان الشيخ عبد الله قد رأى وقرأ ، وتعلم اشياء لايقوى الحاج اسماعيل على تصورها ، ولا يرغب في تصورها ، ولكن الحاج اسماعيل كان كلا متكاملا منسجما ، بينما كان الشيخ عبد الله - وهو نجل شيخ صوفي يعود لأزمنة عتيقة - كتلة من التناقضات .

كنت سأدفع عمري من أجل الفاء نظرة على قرية عائشة وعبد الله ، خوشخان ، ولكنني في نفس الوقت خشيت من رحيل عائشة الى المدينة ، لأن ذلك سينهى بنهاية تقربها مني والافادة من المحادثة . هذه المحادثة التي اصبحت لدي رغبة ملحة ، عندما اخذ الموقف في الكلية يتطور الى حالة أسوأ تدريجيا . اتضح الفساد المستفحل في التعليم العالي الإيراني أكثر فأكثر ، عندما انقضت السنة الدراسية الأكاديمية . حدثت اضرابات ومقاطعات خفيفة لبعض المدرسين في نصف السنة الدراسية الربيعية بعد نوروز . تضاعفت هذه الاضرابات تدريجيا الى اضراب ضخم تصادف مع الاعلان المتضمن ان جميع الطلاب الذين يرغبون في اتخاذ موقف جيد من الحكومة ، مطلوب منهم أن ينضموا الى حزب الشاه الجديد ، " رستاخير " والذي يعني " النهضة " . كان الشاه يأمل النهوض ببلده ، باجبار اكبر عدد من الناس على المضي في الانغماس في بعث الشوفينية والخضوع له . وبالطبع فان الطلاب لم يجروءوا على شجب رستاخير علنيا لأن ذلك سيشكل خطرا عظيما عليهم وقد طالبوا باقالة العميد والعديد من المدرسين غير الشعبيين ، وكذلك تأجيل او بالاحرى التخلي عن جميع امتحانات السنة . وعندما بدأ الاضراب جديا ، تخلى جميع الطلاب عن الدروس ومضى معظمهم ببساطة في عطلة مديدة ، مبهتهجين للراحة التي نالوها بعيدا عن ازعاجات الدراسة . وقد شارك في الاضراب

الفعلي ، عدد ضئيل من الطلاب وذلك بأن مكثوا في حرم الجامعة وجلسوا بسلام على الأرض وهم يرددون الاناشيد ، بينما كان الجنود ببنادقهم الرشاشة يراقبونهم من على بعد بارادات منهم . لقد ترك الطلاب ، هؤلاء القلة الشجعان ، كي يقرروا مصيرهم ويتجشموا عناء النتائج .

قدمت الى عملي في الكلية ، الموقع التعليمي الاول بالنسبة لي ، وأنا مفعمة بالمشاليات . في البداية قضيت ساعات فسي اعداد وتنظيم كل صف وكنت اقلق باستمرار لكيفية خلق دافع نحو الدراسة لدى طلابي المتململين . وقد ادركت تدريجيا أن ذلك محرد وهم . لم يكن أحد يهتم بالتعليم بدا ، لا الطلاب ولا المدرسون ولا الهيئة الادارية . وقد شعرت بالمرارة على الرغم من تبين ان الفساد قد بلغ النظام كله ، وبلغ طالب او طالبين من أصل مئات عديدة من الطلاب لم يكن كافيا لي . بدأ السوء ال يلح علينا اكثر فأكثر عما نفعله في ايران ؟ لا أعرف لماذا اخترت ان ابوح شكواي الى عائشة . فهي لم تذهب الى كلية على الاطلاق . ولا حتى الى مدرسة ثانوية . ولكن كانت تتمتع بالاولويات على نحو مغاير عن اناس متعلمين آخرين . بدا انها تتعاطف مع خيبة رجائي وفضي . لم تكن التعاسير عن المشاعر تبدو غريبة لعائشة بنفس الطريقة التي كانت تبدو فيها للعديد من الايرانيين . كنا أنا وعائشة قد تجاوزنا بسرعة مرحلة الشكليات والرسميات التي ستبقى علاقاتي في ايران محصورة ضمنها الى الابد .

لم اختر أن اتحدث مع عائشة لأنها كانت الوخبة التي تهتم أو تعرف شيئا عن الموقف في الكلية . فالكلية كلها كانت تضج بالاخبار عن الاضراب . وفجأة وعلى نحو لم اعده بها ، بدأت شهرزاد غير المهمة والمفتقرة الى الاخبار تستوقفني وتسالني عن تطورات الموقف كل يوم . سألتني وهي مقطوعة الانعاس :

أكدت انه لا سبيل الى مساعدتها ، فقد غادرتها متسائلة فيما اذا بقي لي احد في ريزاي بالاضافة الى جيرد يمكنني ان اتحدث معه بحرية .

بما اننا الآن قد تفرغنا من واجبات التدريس ، ففسد ازدادت لهفتي للذهاب الى المزيد من القرى ، ولكنني كالعادة انتظرت دعوات محددة لذلك . كان الحاج اسماعيل وعائشة قد طلبا مني الذهاب اليهما متى شئت ، ولكنني لم أكن اشعر بعد بالراحة الكافية للقيام بذلك . واخيرا كوفى صبري بوصول صاحبة عائشة ، القصيرة الممتلئة الجسم الى باب منزلي في احد الايام الربيعية الدافئة مع مرسل كبير من " اليوغورت " اللبن ، بعثته عائشة من القرية . ويرفقة هذا اللبن كانت ثمة دعوة تقبول " تعالي " . اعطتنا المرأة القصيرة المكتنزة التعليمات للوصول الى خوشخان . كانت توقعاتي عن خوشخان - القرية التي استرجعها والد الشيخ - وذلك بأن اشتراها من حكومة الشاه - تعتمد على زيارات سابقة قمت بها الى ثلاث قرى وهي قرية مانوا ، قرية شيخ زادة وديستان . طبعاً حملت مناقشة حامية في ديستان - من اي القرية افضل ، ديستان ام خوشخان . اتخذت عائشة واخيها موقف الدفاع عن خوشخان واعتبراها هي الافضل ، بينما كان الآخرون جميعاً يودون ديستان ولكن سوسن خانم شرحت باسهاب ان خوشخان هي اكثر جمالاً وهذا جلي لكل ، لأن الماء يتوفر فيها أكثر . ان اروع الالوان في العالم بالنسبة للافراد هي " الكسكوشين " خضرة الربيع الضاربة الى الزرقاء ، ومصدرها الوحيد هو الماء .

المنطقة التي تقع فيها خوشخان هي الجزء الاكثر تروبية في كردستان التي رأيناها خلال اقامتنا . فالنهر المنحدر من جبال العراق يقطع ممراً ضيقاً عبر الجبال ويسقي بذلك السهل برمته ، حتى انه يمكن الشيخ عبد الله من زراعة بعض الحبوب في الارز ذي الحبوب الصغيرة . ولكن ليس فقط وفرة الماء هي التي تلفت النظر في خوشخان . فالماء يتوفر في قرى اخرى أيضاً ،

فلا يوجد في أي مكان آخر من كردستان ابران ما يشبه منزل
الشيخ .

شاهدنا من على بعد بناء ضخما من القرميد الاحمر قابض
في قمة الهضبة المشرقة على النهر ، بينما كنا نجهد بسيارتنا
عبر وحل السهل . وقد ظننت انه يخص الحكومة . ربما هو احد
مخافر الدرك او احد المعسكرات الحكومية الصيفية المنشأة لطلاب
الثانوية والجامعة لغرض الحفاظ على الهدوء ، عندما تغلق
المدارس . ولكننا حالما دنونا اكثر فأكثر استغربنا لعدم
روءيتنا أي بناء ذا حالة متوسطة بين البناء الضخم ذي المظهر
الرسمي وبين الكوخ الطيني ، عندما مررنا بمحاذاة قرية صغيرة
مغبرة . تساءلت اين يمكن أن يكون منزل عبد الله ؟ . انه
بالتأكيد لا يعيش مثل قروي عادي وعندما توقفنا لنسأل راهيبا
واقفا قرب الطريق اشار الى البناء ذي القرميد الاحمر واتضح
انه ، منزل عبد الله .

لقد وصلت الى خوشخان حقا ، وفي ذهني توقعات مسبقة
خاطئة ، كانت واضحة من الطريقة التي نظر فيها عبد الله الى
ملابسي عندما خرجت من السيارة . سألني وقد علت وجهه ابتسامة
خفيفة :

— ماذا تفعلين بهذا اللباس ؟

نظرت الى فستاني المطرز الذهبي والابيض الذي يغطي " الكراس"
المصنوع من قماش الفوال الاحمر الفاتح والقرمزي وشعرت فجأة
بثقة عالية بالنفس وبشيء مثير للفحك . اعتقدت أنني
سأشعر براحة اكثر بارتدائي للملابس الكردية في القرية بعد
ان قضيت نهاية الاسبوع في دستان . فقد قضيت معظم وقتي في
دستان وأنا جالسة على الارض في حجرة الحريم حيث كانت الشايبا
الكثيرة للكراس الكردي الغضاض تجعل جلوسي وفي حالات مختلفة
اكثر راحة بكثير مما لو كنت مرتدية الجينز الضيق . ولكن الامر
يختلف هنا عن الروتين اليومي في مجالس حريم الحاج اسماعيل .
فمن الاشياء المميزة انه لم يكن يوجد حريم هنا .

نزلت عائشة على الدرحات الموءدة الى خارج حجرة
مارة بجميع اصص مزروعها ، المكونة من السداب وال
المرصوفة . رحبت بنا ومن ثم استعدت قائله انها
تعمل ما . حذقت فيها بزرع . فقد حلت كل هذه المسألة
ريزاي والفكرة الوحيدة المسطرة على هي النحدث معها ولخصها
بدت حاوية الوفاض . بعدئذ قادنا السخ عبد الله الى
المطلة على نهر وممر ضيق . رأينا حديقة ذات مساحة مسطحة
عند جانب المنحدر وكان قد زرع حول جميع انحاء المنزل السدي
لم يكمل بناؤه بعد ، نبات من فصيلة الساجوان وورد ونبات
القرس ونبات السمكة ذي الزهر الابيض والاحمر في مساكن محفلة
حديثا . بدا حقل الشيخ كأنه قطعة من سويسرا ، بعد توصف
النفابة المنتشرة في افنية الحاج اسماعيل . وجدنا كوخ اراس
مغمورا في احد جوانب الطريق الدائري الخاص الممتد الى البناء ،
وفي بداية هذا الطريق شاهدنا بستان لوز وتفايح وبستان كرم
وحلية نحل مصنعة . وضع جهاز غير مستعمل لتفقيس البيض على
الشرفة قرب حجرة النوم . وفي الشرفة المطلة على الممر الضيق
سندت مغسلة بورسلين غير مركبة بالقرب من الحائط . السدي
الانتهاة من تجهيز كل شيء ، سيحتوي منزل الشيخ عبد الله على
تواليبين داخلين مثبت كلاهما بالبورسلين . كان نمط مطبخ
داخل المنزل ، وكان دون سوافذ ومعتم وذا ارضية عمل مطابخ
القرى الاخرى . ولكنه لم يكن يحتوى على فحوة مفتوحة لنار
الفرن والمدفأة . لقد كان لديهم فرن غار للطبخ وموقد قـ
ضغط جديد تماما ، الماني المنع والشيء الاروع من كل هذا .
حجرة الطعام الرسمية في الطابق الثاني ، المكمله بالسـ
والطاولة والكراسي . كانت هذه هي القرية الوحيدة التي
فيها على الطاولة لتناول وجبة الطعام .

انتابني الاضطراب للطريقة التي احسب فيها
على الرغم من انني كنت قد انبهرت بالترف المادي وبظفافه
منزلها . لم استطع فهم سبب اجهاد عائشة نفسها في العمل

حاولت . . .

في . . .

الليلة . . .

عندما . . .

الليلة . . .

في . . .

وفي وقت لاحق ، عندما عرفت ان عائشة قد غادرت المطبخ وذهبت

للتفقد حفل باذنجان ، عرفت على الذهاب اليها . ركض خلفي

هذه المرة الخادم محمد ذو العمامة المنديلة الحواف محبسا ولا

منعي من الذهاب ، ولكنني واصلت المضي على الرغم من جهوده

لايقفاني . كنت قد مللت من الجلوس في الشرفة مع اثنين من

الملالي يتجاهلاني عمدا ، بينما يلعب جيرد لعبة شطرنج

خاسرة مع الشيخ . اردت ان اجد عائشة واتحدث معها . هذا

ماكنت اتشوق اليه في خوشخان . ولم أكن انوقع ان انفي الى

شرفة الشيخ مع اثنين من الملالي الكارهين للنساء . لم تبد

عائشة سعادة بروعيته ابدا . كانت واففة وسط حفل مروي

كبير ، بينما بدأت اشعر بالوهن حالا من وهج الشمس . انزلقت

في احدى الحفر المروية الخفية تحت الخضار النامية فأصبحت

أطراف مستاني الكردي كلها موحلة . سألت عائشة محمد

متجهمه واشارت الي :

— ماذا تفعل هنا ؟

— أنا آسف خانم ، حاولت ان اوقفها .

بعد ذلك قادني الخادم امامه مثل طفلة مشاكسة وأنا

افكر طوال الطريق بأمر عائشة . هل كانت تتجنبني ، أم انها

ملزمة حقا بالعمل بمثل هذه المشقة ؟

تناول الجنسان عشاءهما منفصلين . جلس جيرد مسمع

الشيخ بينما بقيت أنا مع عائشة اتناول من صينية وضعت فوق

بساط بجانب سريرها المركب المزدوج ، ذي الطراز الغربي . حالمسا كنا سنبدأ بحديث فعلي مع بعضنا ، ظهر الشيخ عند نافذة حجرة النوم معلنا ان الوقت قد حان ليأخذ كل مناسنة من النوم . لم يبق لدينا أنا وجيرد الخيار ، فقد قادونا ببساطة الى حجرة الضيوف داخل الباب المؤدي الى شرفة الشيخ . ومن ثم تركنسا لننام نوما خفيفا في ذلك الجو الحار والذباب يطن على الحاجر المنخلي للنافذة . بعد ان افقنا في عصر ذلك اليوم من النوم وبعد أن قدم لنا الشاي ، لم احاول ان اجد عائشة ولكنني جلست بهدوء مع الرجال في اشرفة . عادت عائشة في المساء ، عند المغيب تقريبا الى المنزل ولاحظت الكلف على بشرتها الشاحبة . ابدت تعليقا عندما وضعت الخادمة اثنيين من كؤوس الشاي بدلا من واحدة ، على الرغم من أن عائشة قد شربت الشاي لتوها لتبقي متيقظة طوال اليوم ، لتقوم بأعمال المنزل الروتينية . سألتها عندما جلسنا لنحتسي الشاي :

— هل كنت تعملين عندما كنت عازبة في دستان ؟

فأجابتنني وهي تضحك :

— آه لا ، ابدأ .

تحدثت عائشة عن مدى استمتاعها بعمل المزرعة المتطلب جهدا كبيرا وعن مدى اهمية العمل بالنسبة لها . حيث قالت :

— علي ان اعمل . فأنا بحاجة الى النقود .

تعجبت لذلك ، فقد خيل الي انه بإمكانها ان تجعل النفايات تلتقي دون ان ترفع بنانها . لم يبد على زوجها انه يبذل جهدا كبيرا في العمل ، ولكن ربما كانت عائشة تحتاج العمل لاسباب غير النقود . لم يكن يقربها اناث مسن مركزها الاجتماعي في خوشخان لتقيم علاقات اجتماعية معهن ولا أطفال لتعتني بهم . وقد لاحظت انها كانت قلقة على طفل ولد حديثا لزوجته احد سائقي الشيخ ، ولكن ذلك هو مجرد تسليية ولا يمكن أن يمثل حياة عائلية ، عملية خاصة بها . اقترحت مرة على عائشة انه يمكنها هي والشيخ ان يتبنيا طفلا ، فنظرت السي

كما لو أنها لاتعهم ما اتحدث عنه .

- أليس هناك اطفال يتامي ؟

سألتهما وقد علمت أن الحكومة قد احدثت دار للايتام في مركز مدينة ريزاي .

- ماذا عن الحرب في العراق ؟ من المؤكد انه يوجد

أطفال دون والدين او عائلة .

- لا ..

أجابت عائشة بذلك وبدت وكأنها صدمت لفكرة امكانية وجود أطفال في كردستان دون أن يعتني بهم احد .

قمت أنا وعائشة في ذلك المساء في خوشخان بجولة بين الازهار البرية قرب الجبال . ومن ثم عدنا الى حجرة نومها المضأة بالكهرباء . سطعت الاضواء وبدأ التلفزيون بعرض جماعات من سلاح الفرسان التابعة لأوليفر كرومويل ، منقولة بالفارسية . وحالما انتهى العرض ، أعلن عن موعد النوم وأخذنا أنا وجيرد شايبة الى حجرة الضيوف . وكان قد تمركز رجل مع بندقيته في موقع قريب بابنا لأن عددا من الجرائم كانت قد وقعت حديثا في الجوار . حتى لو كنا ضيوف في قصر مالك مزرعة فخمة ، فهذه كانت لاتزال امتدادا لكردستان .

ان وقوع خوشخان ضمن حدود كردستان ، هو أقصى ماكان يحلم به الشيخ عبد الله . وفي كل مرة تأتي فيها الى منزله كنا نجد تجهيزات جديدة ووسائل ترفيهية لم يسمع بها في قرية أخرى . ومع ذلك فقد ظلت القرية هي نفسها . لقد كانت أصغر من دستان بكثير وحتى انها بدت اكثر فقرا ، ربما يعزى ذلك الى التباين الواضح بين منزل الشيخ وبقيّة المنازل . فهي لم تكن تشتمل على مزارعين ميسورين آخرين على نحو مختلف عن قرية الحاج اسماعيل فلا أحد غير الشيخ عبد الله يقنطني سيارة أجرة أو حتى مسكنا حديثا . شعرت فيها بعدائية القرويين لي أكثر ولم أر هنا أبدا احدا من قبلي الايدي مثلما كان شاعنا في دستان . أشار الشيخ عبد الله الى انه لايمارس امتيازاه بمطالبة القرويين

زوجة عايشة . والى الحط لم تكن بينها مور للعروس . ولأن
الله مدرك الله البعد كما ينبغي ، فقد كان خجلا جدا من
... . رسومه منذ ، إننا الخادم الذي وثق به ، في اعطائه
الكاميرا ، قد اتلف ذلك الجزء من الفيلم . ولكن ومع ذلك فقد
رأيت المكث من الفيوف المحتمعين في قرية والد الشيخ ، والآلاف من
ارغفة الخبز المفروشة على الارض لتبرد ، والكثير من الخيام
المنصوية للفيوف . وحدنا صورة للحاج اسماعيل وهو شاب وقد ابتسم
للكاميرا وصورا لقرية دستان التي احضرت منها العروس . كان الشيخ
عبد الله قد اعطى طبيبا ، صديقا له من منطقة تتحدث بالفارسية
ألبيسة كردية ايرانية ليرتديها وفرسا ليركها أمام الكاميرا .
ولدت الصور لدي انطباعا بأن الشيخ عبد الله هو مجرد متأمل
اوسائح في حفلة زفافه بالذات .

على كل حال ، لم يكن مفهومي عن الشيخ عبد الله كرجل مثقف
قادر على النظر الى ثقافته الخاصة بنظرات غير متحيزة وكشخص محابذ
لم يكن دائما في مكانه الحقيقي . في احدى المرات بينما كانت
عايشة وعبد الله يتفحصان سلسلة من الصور كنت قد انقطعتا فـي
خوشخان ، سمعتهما يبديان ملاحظة لبعضهما وبنبهة ضاحكة ، كيف
اني كنت قد التقطت صورا لخدمهم فعلا . كان لدى الشيخ العديد من
الكاميرات ولكنه لم يستخدمها ابدا في التقاط صور لخدمه . كان
الشيخ هو الوحيد الذي قد سمع عن الحركة النسائية الداعية الى
المساواة ، في الغرب ، من بين جميع الاكراد الذين التقيت بهم . كان
يصغي لاداعة ال ب . ب . سي بانتظام . ومندما حضر هو وعائشة
للتناول الغداء في منزلنا شكرني مرات كثيرة على الوجبة ، لذلك
اوحيت اليه متعمدة الى أن جيردكان هو الطاهي . عند ذكر هذه
الملاحظة فهذه الشيخ بعصبية وتمتم بشيء عن " الحركة النسائية " في
الغرب . لم اتفوه بشيء ، ولكنني تعجبت وتساءلت فيما اذا كانت
بهذا الشكل في الاتحاد السوفياتي ، وفيما اذا كانت نوعية النساء
هناك تزعه . ماذا ستقول زوجته الاولى من عايشة التي لم تتجرا

على تناول الطعام مع الرجال في نفس الحجرة ؟

كيف يمكن للشيخ عبدالله ان يدمج بين مراحل حياته غير المتصلة ؟ من السهل ان تشتري طاولة حجرة الطعام ، ولكن ليس بوسعك ان تجعل ضيوفك يشعرون بالراحة بنفس السهولة بجلوسهم على كرسي ذات خلفية مستقيمة . انه لشيء مألوف جدا في كردستان ان تتزوج ابنة عمك التي تصفرك بثلاثين سنة ، ولكن ليس من الطبيعي أبدا ان تتوقع منها ان تكون رفيقة لفكرك في سنك المتقدم هذا .

اعتقدت لفترة طويلة ان عائشة وعبد الله يعيشان متفاهمين الى حد مذهل . وعرفت من تعليقات عائشة عن نشأتها ، انها كانت تشعر بالمرارة تجاه والدها وانها تشعر بتكافؤ الضدين تجاه والدتها وانها سعيدة بفرارها من دستان . ولكن ثمة جانب آخر يتعلق بها وقد افشته بعد فترة قصيرة من تعرفنا الى بعضنا جيدا وهو اوجاع رأس وأرق كانت تعاني منهما . وتشوق بدائس لاطفال والرومانسية . من المدهش ان تسمع امنيات من هذا القبيل اوحى تلميحا عنها من امرأة كردية . ان المصير في ايران وفي الاسلام هو " سرنفشت " أي مايقدر على الانسان منذ اليوم الاول من ولادته . لقد كان قدر عائشة في السماء قبل ان تولد . ومع ذلك لا بد انه قد ادهشها ان تجد نفسها في انكلترا في سن الثامنة عشرة وان تستضيف مواكب متدفقة من اللاجئين العراقيين في سن الثامنة والعشرين .

اخبرتني عائشة والشيخ عبدالله نفسه ، بأنه اراد وبرغبة بالغة ان يرحل ثانية . لقد مضت عشر سنوات على رحلته الى اوربا مع عائشة بعد زفافهما . ولكن الحكومة الايرانية هددت بمصادرة ارضه وكل املاكه التي يتركها وراءه حالما يهجر الحدود . تساءلت عن ماهية شعور عائشة بالسفر معه . فهي لم تكن بعد قد تعلمت الانكليزية او أي لغة اوربية اخرى .

كانت عائشة تجعلني اشعر بالرعب الذي يعاني منه الاكراد

أكثر من أي شخص آخر . عندما عدنا إلى إيران قبيل انهيار سلطة الشاه ، حدثني عما حدث في الربيع الذي مضى ، عندما قامت الحكومة العراقية بإحراق مجمل القرى الكردية بانتظام في نطاق خمسة وعشرين كيلومترا من الحدود العراقية ، ولم تكن هذه الحدود بعيدة عن خوشخان وأنه قد فر مئات من الأكراد العراقيين إلى جبل قريش داخل الحدود الإيرانية . لقد ساعد الجيش الإيراني العراقيين العرب هذه المرة ووقف ضد الأكراد . وقد حاصر الإيرانيون والعراقيون معا اللاجئين البائسين ، يقصفون هؤلاء الذين يرونهم ويحاولون عـزل وتجويع البقية الباقية .

— يقولون أن بعض المهجرين اتوا إلى منازل أناس من هذه الانحاء ، وأنهم ملؤوها أفواههم بالدقيق من شدة وطأة الجوع الذي كانوا يعانونه .
قالت عائشة ذلك وقد علا وجهها تعابير من الرعب . ونقل أن أكثر من خمسمائة شخص منهم لقوا حتفهم .

حلمت حلما غريبا بعائشة قبل سنتين من عودتي لروبيتها . فقد رأيته تعذب وسمعت صرختها بالكردية " أنا خائفة " استيقظت من الحلم متأكدة من أن شيئا فظيعا قد حدث لصديقتي . أردت أن اهتف لها ولكني لم أفعل طبعاً . فلا يوجد هواتف في القرية ، وبالإضافة إلى ذلك ، فحتى لو اعتقلت وسجنت فليس بمقدوري أن أفعل لها شيئا . لم أذكر حلمي لعائشة بعد أن رأيته شائبة بعد مرور سنتين على ذلك . لقد بدت في حالة جيدة ، حتى ولو أنها كبرت قليلا وأصبحت أكثر تشككا وسخية . ما كان لأحد أن يعذب هذه السيدة الكردية المرتدية على نحو فاخر وزوجة الشيخ عبد الله الشهير . ومع ذلك فقد أحسست في لاوعيي بقابلية سقوط عائشة بيد الأعداء . فليس ثمة رادع يمنع حكومة الشاه عن تعذيب امرأة مثلها . ولا شيء يوقف الاثراك إذا عزموا على المضي وراءها . كان سينتج عن ذلك عداوة دموي مع عائلتها ، ولكن ماذا كانوا يشكلون بالمقارنة مع الجيش الإيراني ؟

كان هذا هو التقلقل الفظيع الذي يبطن الحياة برمتها في ايران ، وعلى وجه الخصوص ، حياة الاكراد . لقد كانوا غرباء وأعداء في أرضهم الام . وكانت الحكومة تسدد النار الى الاشخاص الذين تعتقد انهم قواد مستقلون ، فتترديهم واحدا تلو الآخر . حدثتني عائشة من عم لها كان قد اعتقل لمدة عشرين سنة متهما بكتابة رسالة الى شخص ما في روسيا . وعرفتني خديجة الى مالك حمام المدينة الذي يذهب اليه جميع الاكراد وذكرت لي قاتلة :

- انه رجل طيب يامر غريت . هل تعرفين انه قد خرج لتوه من السجن ؟ لقد اعدموا والده .

كان من الصعب ان يكون هؤلاء الناس شوريين طوال الوقت ولكن يفترض أن جميع الاكراد في ايران وربما لسبب وجيهه ، هم مناهضون للحكومة الطهرانية . لم تكن الحكومة الايرانية ترغب فحسب ، بل كانت تتشوق الى ارسال طائرات مقاتلة لتقصف القرويين العراقيين العزل . ولو حدث وسقطت الذخائر على القرويين الايرانيين أيضا فهذا أفضل بكثير . فكلهم كانوا أكراد .

الفصل السادس عشر

لم يكن احد يخيف دارا احمدي ، لا ابن اخته الاكبر ولا عميد الكلية واقلهم انا . وبقدر ما استطعت فهمه ، لم يكن ثمة سبب واضح يدعو لظهار صبي كردي فقير مولود في القرية كل هذا القدر من التباهي وخاصة في ايران ، حيث الهـمـم الاجتماعي والشكليات والرسميات تجعل من التملق تقليدا اجتماعيا . في اهدالاحاديث المتبادلة بين جيرد وعامل فقير في وزارة التعليم الابرانية في طهران ظهرت طبيعة التملق المطلقة ، على حقيقتها . فقد سأل جيرد ذلك الرجل الضخم الجثة المرتدي على نحو يبدو فيه الفقر واضحا :

— كيف حالك ؟

توقع جيرد ان يحيبه هذا - " شكرا " وهذا هو الجواب الفارسي المألوف . ولكن بدلا من ذلك اجابه العامل " أنا غير رفيع المنزلة " .

وقد اكد لنا اصدقاؤنا الايرانيون مؤخرا انه مناسب تماما لهذا الرجل ان يوحي ان مكانته الاجتماعية بالمقارنة مع جيرد لاتؤهله لـ ان يكون رجلا ذا منزلة رفيعة .

كانت كل الدلائل تشير الى علاقة اجتماعية غير متكافئة بيني وبين السيد احمدي . فأنا اعتبر امرأة اجنبية مثقفة وصاحبة مال وموقع في الجامعة . وكان هو لا يزال طالبا قد نال منحة ليدرس في مدرسة ثانوية محلية . لقد قام في حياته كلها بزيارة واحدة الى طهران والى تبريز ربما بقدر نصف دزينة من المرات . كان يعرف القليل ومع ذلك فقد كان يتصرف كما لو أنه يعرف كل شيء . كانت هيئته وجرائته وتعابيره تنم عن ثقة بالنفس

غير متناسبة مع سته . كان يتصرف دائما كما لو أنه مساو لي وان لم يكن ارفع مقاما في بلد سادت فيه فكرة المنزلة الرفيعة .

معد نهاية السنة الدراسية . شعرت بالتعب قليلا من السيّد احمدي . فقد اثبتت كبرياؤه المصطنعة همتي ، لأنني لم استطع التغلب عليها ابدا . وبدأ يخيّل اليّ أنه يهتقني ففي كل مرة انوه فيها ويغموض للقيام بزيارة قريته كان يبدي حرصه الشديد وشعرت أنه سيحاول جاهدا ألا أتسلل الى ذلك المجال من حياته وبالطريقة التي عرفت فيها منزل اخته على الرغم من ان معرفتي بأن زيارة منزل اخته يمكن ان تكون أسوأ من عدم زيارته على الاطلاق ، فقد واصلت الحامي كي يوجه اليّ الدعوة . وحالما تحسنت لغتي اكثر وازدادت سماعات تواجدي مع خديجة وعاشة وبقية النساء شرمت بالتفكير بعدم حاجتي للسيد احمدي . لقد كان يشكل تطفلا على حياتي لماذا يحيط نفسه بهذه السرية والغموض ؟ هــسـل هو جاسوس ؟ صرت اشك أكثر بكل سلوك ينحرف عما هو متوقع كأي شخص آخر في إيران . ولكنني عندما طلبت من السيد احمدي ان ينقل شريطا كنت قد سجلته ، الى كتابة بنظام الاصوات الكلامية الكردية انجز هذه المهمة الصعبة بدقة وبسرعة بالغة ادركت فيها اني لن استطيع التخلي عنه مهما سبب لي مسن مضايقات . واستمر في المجيء الى منزلي يوميا .

حضرت ذات يوم شانا- تلك المرأة التي كانت تقوم بتنظيف منزلنا مرة في الاسبوع - مع ابنتها ، بينما كنت اننا والسيد احمدي نسجل شريطا معا . عندما جلست محاولا ان اركز انتباهي على نظام الاصوات الكردية ، لاحظت ان الفتاة ذات الثماني عشرة سنة تتفحص كل حاجاتي ، وتضحك على نحو مكتوم من صوري . والأسوأ من كل هذا انها كانت تفتش في الصندوق الخشبي الطويل الذي كنت قد احتفظت فيه بـ ٥٠٠ ورقة جيسست كانت عبارة عن مسودة لقاموس كردي - انكليزي . كان هــذا الصندوق يجسد ساعات وساعات من العمل . وعندما واصلت البحث

به ازداد اندهاشي اكثر ، والشئ الذي كان من الممكن ان يشكل
ازعاجا ضئيلا غير ذي اهمية تنامي وبلغ حدا غير مناسب . لم
استطع ان اتواصل مع نانا بأي لغة ، لذلك فقد اتجهت الى السيد
احمدي طالبة منه المساعدة . هل احضار نانا ابنتها معها دون
استئذاني هو تصرف لائق ؟ كان موقف مساعدي ملتبسا وغير محدد.
كيف له ان يعرف ؟ طلبت منه ان ينقل ازعاجي بالتركية الأزرية
ولكن الابنة استمرت في الركض في الانحاء والعبث بحاجاتي بعدما
اوضحت نانا استجابة لما نقله السيد احمدي أن زوج ابنتها
قد سمح لزوجته بالخروج هذه المرة فقط كي ترفه عن نفسها قليلا.
لقد كانت تمتع نفسها حقا بالدوران في شقتي وحجابها متدل حول
الجزء الاعلى من سترتها المقفورة الياقة . هل كان علي ان امحق
فرحة هذه الفتاة الفقيرة الوحيدة ، بعيدا عن زوجها وسيدها في
رحلتها هذه ؟ .

تحتم علي لأشهر عديدة ان اتحمل سلوكا فطا كانت توجهه الي
في الشارع ، نساء ايرانيات مغطيات . وهاهي ذي واحدة منهم
موجودة في منزلي نفسه ، تبدي التعليقات على صوري بصوت عال
وتدعو والدتها لتأتي وتنظر الى الصورة التي اعتبرنها ذات
اهمية خاصة ، ومن ثم تتفحص كل ماهو من صني من بعض اثاث
حجرة الجلوس حتى البستي الداخلية . ولكني مع ذلك ضبطت نفسي
فأنا لم امض كل هذه المدة في ايران عبثا . حاولت ثانبة ان
احصل على نصيحة السيد احمدي لأسلك السبيل المناسب . هل من
الصواب ان اطلب من نانا ان تأمر ابنتها بالمقادرة ؟ هــ
مساعدي كتفيه غير مبال . لماذا لم أتمكن من الحصول على
المعلومات التي احتاجها لاتصرف بنجاح في هذا المجتمع ؟ لماذا
طلبت منّا شهرزاد ان ندفع لسائق التاكسي في المطار ما يريد
عندما حاول ان يفسنا ؟ ولو كانت هي صاحبة الشأن لما فعلت
ذلك . لماذا يتصرف السيد احمدي وكأنه امر طبيعي ان يقوم
خادمك بتخريب منزلك امام عينيك ؟ .

اعلمت السيد احمدي ان يطلب من نانا بطريقة مهذبة قـدر استطاعته بأن ترسل ابنتها . وفي غضون لحظة حضرت امامي الام الشبيهة بالطير والابنة الضخمة الجثة ذات الشعر الدهني وهما ترملاني بتعابير يلوح فيها الاتهام وتنظران اليّ شزراً وتحركان رأسيهما يمناً ويسرة . ونقل السيد احمدي عن نانا قولها:
- تقول انه ليس ثمة ما يدعو للقلق . وان ابنتها لن تسعى وراء زوجك .

حدثت صوب السرير الخالي الذي كان جيرد قد تركه ، ترددت للحظات غير مصدقة ما اسمع . هل ظنت ابنة نانا حقاً اني اردتها ان تغادر البيت لأنني كنت خائفة من امكانية اغواثها زوجي؟ طلبت منها ان تخرج . وكان ذلك كل ما استطيع قوله بالتركية .

لم تغفر لنا نانا ابداً ، وفي وقت لاحق امضى الي السيد احمدي بسلوكه السفينكسي المعتاد عندما ابدت قلقي حول احتمال تصرفي على نحو خاطئ . هل ثمة شيء في الكون يمكن ان يجعله يتكلم معي كإنسانة لها مشاعر واحاسيس يوماً ما ؟ .

بعد عدة اسابيع قبلت دموع كانت تتطلب مني ان اكون خارج المدينة ، في موعد كنت قد حددته مع السيد احمدي . سرت مع جيرد في تلك الليلة الى " كوجاسنيا " رفاق السنين ، تذكرت ان منزل اخته يقع في هذا الرقاق . عندما وصلنا الى هناك لم يبد لي اي شيء مألوفاً تحت التوهج الضبابي لضوء الشارع وعلى الرغم من اني لم ارغب في الوقوف وحدي في هذا الشارع الغريب فقد انطلقنا انا وجيرد انه من الأفضل ان يذهب هو وحده الى مقهى كانت قريبة منا ليستفسر عن الطريق . لم أر خلال اقامتي كلها في ايران امرأة تدخل مقهى ابداً .

انتظرت بقلق الى ان خرج جيرد وقد بدا عليه الاضطراب فأردت ان اعرف منه سبب ذلك فبادرته بالسؤال :
- هل سألتهم اي رفاق هذا ؟

- نعم ، وقالوا انهم عمال .

- ماذا ؟

- سألتهم هل هذا " كوچا سنیا " فأجابوني " نحن عمال "

- نحن عمال ؟ ا .

عندما وقفنا وسط الزقاق المعتم الظليل نفكر بهذه الاجابة بدأت اشعر كما لو اننا كنا مراقبين . وقبل ان يمضى الكثير من الوقت دنا رجل منى وسألني اذا كان باستطاعته مساعدتنا وحسب ارساداته رجعنا الى سيارتنا وسرنا نحو الشارع الرئيسى المصرف قليلا ، ولكننا حالما عبرنا العبد من البنابات ، تأكدت انه يقودنا الى طريق خطأ على نحو مقصود . قفلنا راجعين الى المقهى وتوقفنا فى نفس الزقاق المسدود . سعدت ، سقيت جيرد عبر الزقاق الملتوى الموحل ومررنا بحدران فناء مصمتة ، الى ان وصلنا الى باب بدا لي مألوفا نوعا ما . قرعت حرس الباب فأجابني رجل نحيف فارغ القامة مرتد سروالا كروبا فضفاضا وعلى عينيه نظارة . وسألت بالكردية :

- هل دارا احمدي هنا ؟

حرق الرجل وقد ارتسمت على وجهه تعابير تنم عن الاندهاش كما لو اني احد سكان المريخ واني اتكلم لغة غير مفهومة . كررت اسم السيد احمدي بكامله عدة مرات وكان الرجل يهز رأسه الى الاعلى نافيا ذلك :

- لا ، لا يوجد شخص بهذا الاسم هنا . باله من اسم غريب ! .

عند ذلك استسلمت وشرعنا بالعودة . وحالما انعطفنا اننا وجيرد بالسيارة ، اتى السيد احمدي راكضا مقطوع الانفاس .

- قال اخى ان اناسا قد حضروا لروءيتي وفكرت انه من الممكن

ان تكونا انتما .

فأجبت :

- اخوك ؟ هل كان ذاك اخاك ؟ قال انه لايعرف احدا باسم

دارا احمدي .

- لم يستطع فهم ماكنتما تقولانه .

فقال جبرد :

لقد فهم تماما . فقد كررت مارغريت اسمك اربع او خمس مرات

على الاقل .

فسأل مساعدي :

- ماذا تريدان ؟

لدى طرحه هذا السوء ال كان علي بالفعل ان افكر لدقيقة . فقد بدت مهمتنا سخيطة وتافهة فحاة . هل حقا جئنا كل هذه المسافة ومررنا بكل هؤلاء الناس الذين - من الموءكد انهم فكروا في انفسهم ، ان اثنين من الاجانب مرتدين على نحو فخم لاعمل لهما في جوارهم - فقط لنجنب السيد احمدي عناء السير الى منزلنا ؟ اخبرته بذلك فبدا دارا متحيرا . لقد لاحظ ودار بخلده هو ايضا اننا قد جئنا الى مكان لانتمي اليه . وتبادلنا كلمتان وداع باردة . بعد ذلك عرفت انه ليس لي الا ان اهتم باطروحتي فقط ، وهذا افضل من محاولة فرض نفسي على حياة السيد احمدي . كنت قد بدأت اوءمن بوجود لهجات كردية مختلفة بقدر ما يوجد من اكرد . فهناك قبائل متميزة ، ولها طرق مختلفة في الكلام . فالاكرد الذين قضاوا فترة من الزمن في المدينة لا يلفظون الكلمات بنفس طريقة الاكرد القاطنين في القرية . والرجال يتكلمون على نحو مختلف عن النساء . ومعظم هذه الاختلافات يصعب وصفها او فهمها لدقتها ، الا اني لم اقو على تجاهلها . كنت مدركة تماما اني لا ازال اجهل معرفة اى من الاكرد العاديين . فالحاج اسماعيل وعاشة وعبدالله وبقية عائلتهما كلهم ينتمون الى الطبقة الارستقراطية . لم اقم بزيارة حتى الى قرية واحدة لقضاء وقت مع اناس فقراء ليسوا قوادا قبليين ولامعلمي مدارس مثل السيد شيخ زادة . وعندما ابلغني السيد احمدي ان والدته لا تتحدث اي لغة سوى الكردية رغبت في لقائها وتسجيل اشرطة لها . كان جميع الاكرد الذين التقيت بهم يعرفون بعض الفارسية ، وبعض التركية ، ولكنني كنت متأكدة من ان الغالبية العظمى من

النساء يستخدمن لغة واحدة . فهن لم يذهبن الى المدرسة ولم يمتصبن في اسفار او يطلبن الى الحيش .

عندما اخبرت السيد احمدي عن رغبتني في لقاء والدته فقط لأنها تتحدث الكردية ، اصرى الى كلامي ، ولكنه لم يحب عليه . وعندما اقترحت انه بإمكاننا ان نسير جميعا الى قريته يومنا ما قال بفظافة :

- ولكن عند ذلك سيتحتم عليك ان تتناولى طعامك هناك .

تسألت في نفسي هل المشكلة هي في عدم توفر الطعام الكافي لاستقبال الضيوف ؟ فعرضت عليه قائلة :

- يمكننا ان نحضر معنا طعامنا .

فأجاب متفكرا :

- ربما سيكون هذا افضل ، لأنه من المحتمل ألا تحبي منا سناكله نحن هناك .

لم يرغب عن بالي انه ليس لدى دارا اية فكرة عن سلوكنا لدى حلولنا ضيوفا على والدته . فهو لم يرني مع خديجة وصديقاتها ولم يكن يعرف شيئا عن رحلاتنا القصيرة الى دستان وخوشخان والشيء الذي كان يشغله من غير رب هو اننا سنتصرف على نحو غير لائق ، مثلما كان مع ابنة نانا او لدى محاولتنا ايجاد منزله . غير ان ما خيل الي هو ان رفضه لنا ناشيء عن خجله من فقره ، ولكني بعدئذ أدركت انه كان يخشى ان تخجله تصرفاتنا نحن الاجانب - امام عائلته وجيرانه . من يدري اي مشهد مربك يمكن ان نوءديه امامهم لو قدمنا الى قريته ؟ .

واخيرا سئحت لنا فرصة . لقد تراكمت لدي اعمال كثيرة للسيد احمدي ، وبينما كانت الاسباع تمضي لم اكن اعرف كم بقي لسي من الوقت في ايران . لذلك فقد قلقت واستعجلته لينتهي كل شيء بأقصى سرعة ممكنة . حاول السيد احمدي هو ايضا ان يزيد في اشغال وقته ، لأنه بذلك سأكسب مالا اكثر . وفي احد الايام

ونحن في معمعان واجبات ضخمة أعلن عن أسفه لعدم استطاعته الاستمرار لأنه قد وعد والدته بأن يقضي اليوم التالي ، يوم الجمعة في قريتها ، وأنه إذا لم يلحق بالحافلة المغادرة مركز مدينة ريزاي في غضون ساعة ، فلن يقدر على الذهاب إلى هناك .

عندما عرفت عليه أن آخذه في سيارتنا في وقت مبكر من صباح اليوم التالي لم بحبني مباشرة ، لذلك سألته :

— هل سيكون الأمر على مايرام مع والدتك إذا زرناها ؟

فأجابني :

— طبعاً ، إذا أخذتيني إلى هناك ، ستكون سعيدة .

أخذت مني هذه الدعوة المفضى بها علينا الاهتمام الذي تستحقه ، أخيراً سأرى هذه القرية والتقي بمصدر كل هذه الحكايا الشعبية التي سمعتها لأشهر عديدة .

كان موقع قرية السيد احمدي متميزاً نوعاً ما . فهي لم تكن تبعد عن المدينة إلا بضعة كيلومترات ومعظم الطريق كان معبداً ولكن كان يتم بلوغ الستة كيلومترات الأخيرة إليها بالسفر بمحاذاة مجرى نهر وينتهي بطريق منحدر . تدربحياً إلى سهل واسع مرتفع . لذا لم تكن أي حافلة تسلك ذلك الطريق الأسفلتي المؤدي إليها ، فقد كانت تعتبر بعيدة عن المدينة . كانت الطريق الترابية المطروقة صعبة حتى بالسير فيها على الاقدام فسي الشتاء والربيع لأن النهر كان ممتلئاً بالماء .

عندما وصلنا باز دو أخيراً ، كانت والدة السيد احمدي ، وأختاه الصغيرتان وحشد من اولاد الجوار بانتظارنا . قبلت صليحة اسنهما ومن ثم قادتنا إلى منزلها الطيني بعد أن نصحتنا بإيقاف سيارتنا داخل جدران بستان اللوز التابع لمنزلها للتأكد من أن الأطفال لن بنتزعوا شيئاً منها . كان المنزل صغيراً ومبني على نحو غير متقن ومع ذلك فقد بدا أنيقاً جداً وأكثر نظافة من

مساكن الحاج اسماعيل المنفق عليها بغير حساب . بدأ السيد
احمدي باعداد الشاي مباشرة ، بطريقة لم ارها من قبل ابدا
كان الخدم في منزل الحاج اسماعيل يحضرون الشاي الينا من
قسم خفي من المنزل . ولكن في منزل صليحة لم تكن شمة اجزاء
مخفية ، بل فقط الحجرة الوحيدة بكومات الوسائد والفرش وسندوق
السياب الخشبي القابع في الزاوية ، وآلة الخياطة وبعض
اللوحات المرسومة بخطوط قلم رصاص غير متقنة ، كانت تزيين
الحائط الطيني بملاطه المجبول بالقش .

حضر الشاي مسبقا وكان ينتظرنا حارا في ترمس انزله السيد
احمدي من فوق رف في الحائط ، وقبل ان يخففه باضافة الماء اليه
ملا كاسا بالماء المغلي من السماور وصب الماء في صحن فنجان
مقعر ودرج الكاس فيه . ومن ثم صب ماء طبق الفنجان الذي كان
البخار يتصاعد منه في الكاس الثاني الموجود في الطبق الكبير
وبعمله هذا ، بخفة ورشاقة نظف جميع الكؤوس الموجودة على
الطبق قبل ان يبرد كاس الماء الممتلئ . ومن ثم صب قلبلا من
مطول الشاي من الترمس في كل كاس وملا بقية الكاس بماء من
السماور . وبعد ان قدم الشاي سالتني صليحة عن سبب تجميعي
قصص كردية . فقلت :

— لآخذها الى امريكا ، واضعها في كتاب .

أومات صليحة برأسها متفهمة ، وعندما جلست مسكت بعلبة فضية
مسطحة من التبغ الاذربيجاني اللاذع واوراق السحائر في يدها
تلف السحائر وهي تدخن بغير انقطاع . كانت تسعل بين الفينة
والاخرى . كان صوتها اخفض من اي صوت انثوي كردي آخر سمعته
ولم يكذب دارا عندما قال انها لاتعرف حتى ولا كلمة بالفارسية
لان جيرد استسلم حالا من محاولته التواصل معها .

كنت اعرف ان صليحة تتأملنا وتكون رأيا عنا . كانت
هيئتها برمتها تختلف جذريا عن هيئة خديجة او نسرين او حتس
مريم . فعندها انعدم الاسراف في التعبير عن العواطف والقهقاز

ولا حتى الماحات ضئيلة تنم عن الشكليات . كانت مهبدة تماما
تتأكد من وجود وسائد وراة ظهورنا ، وتقدم الشاي لنا أولا
وتفح كميات كبيرة من القاند امامنا لكي لانتعرض لخطر تذوق
اي شيء مر ، ولكنها كانت متحفظة تماما وحتى مقتضية فـسي
حديثها . في البداية تحدثت الي على نحو مبهم ، وذلك عندما
كانت لاتزال تكوّن رأيها عني . لم يك هناك ادنى ريب في انها
كانت والدة السيد احمدي .

بينما انقضى الوقت رويدا رويدا ، هذا الجو في الحجرة،
اعلنت صليحة انها ستروي قصة " الدموع الذهبية " . امتألت الحجرة
بالمستمعين من بناتها وكنتها التي كانت ترفع ولدها فـسي
الزاوية وبعض الجيران . لم ينبس احد ببنت شفة حالما بدأ
صوت صليحة الاجش بالصيغة التالية : " كان ياما كان ، وما كان
سوى وجه الله " ومن ثم دخلت بغنة في حكاية طويلة معقدة عن
فتاة تدعى منور فعندما تبكي ، منور يتساقط الذهب من عينيها ،
وعندما تضحك ، فانها تضحك ورودا .

الحكاية تبدأ كمايلي : يحكى انه كان هناك رجل فقير مع
زوجه وابنه " ولكن والد منور يتلاشى تدريجيا من الصورة عندما
تموت زوجته الاولى ويتزوج ثانية ، ويخبو حظ منور مع وصول زوجة
الاب والاخت من زوجة الاب ، رغبت الامير المحلي في الزواج منها
لجمالها وحسنها ولكن زوجة الاب تقلع عيني منور وتسجنهنها ،
وتستبدل بها ابنتها لتحل محلها في ليلة الزفاف . وبعد سنوات
عديدة من السجن تنجح منور في الهرب مع بائع متجول كان قد مر
بالقرب من قبه الموءن الارضي الذي حبست فيه . ولأن زوجة الأب
كانت تحتاج الى ورود منور وذهبها لتعافظ على تنكر ابنتها
فقد استأجرت عجوزا ساحرة لتبحث عنها فتطير هذه على ظهر فرس
هرمة ، الى ان تعثر على الفتاة في منزل البائع المتجول .
بمضي البائع المتجول ، الذي كان قد أصبح مثل اب لمنور ، فسي
بحته عنها سبع سنوات قبل ان يجدها ثانية وهذه المرة في كهف

كانت زوجة الاب قد خبأتها فيه . ولكن منور لا تجتمع بأمرها
الى ان يصل ابنيهما بعد سنوات عديدة اخرى . كان ذلك هو نفس
الابن الذي وضعته منور بعد ان حبستها زوجة الاب بتسعة اشهر
في قبو الموءن .

شكل ولد منور صدمة لي وذلك لأن ممارسة الحب قبل الزواج
محرم لدى الاكراد . ولكن الاختلاف الطبقي الواسع بين منور
والامير ربما يوضح خضوعها " لعدم صبره " كما عبرت عن ذلك
راوية القصة . ان ممارسة الحب قبل الزواج لم يكن الشيء
المدهش الوحيد في " الدموع الذهبية " فعندما يعثر الابن
المفقود منذ زمن طويل بغير معرفة منه على امه ، وهي تقيم في
كوخ وسط غابة مع " والدها البائع المتجول " يقع في حب هذه
الفتاة العمياء الحسنة ، ويقرر ان يتزوجها . تعرف منور هويته
ولكنها تستمر في اقامة مراسيم الزواج كوسيلة للوصول الى
الامير لتخبره بما حدث لها . وتسرد منور في حفلة الزفاف
حكايتها على الضيوف المجتمعين . والامير الذي يعترف بأنه قد
خامره شك غامض بأن زوجته ليست منور يمتلئ ابتهاجا بعشورة
على خطيبته المفقودة لزمن طويل . ويمن الله عليهم باعادة
البصر لمنور وهي معجزة صعبة التحقيق ، وذلك لأن زوجة الأب قد
انتزمت عينيها من رأسها تماما . ومن ثم تُشد زوجة الاب وابنتها
الى زوج من الاحصنة حيث يجرانهما الى خارج المدينة فيسحق
جسدهما ، وتتبعثر اشلثهما في جميع انحاء الريف . تمكث منور
في المنزل وتحيا حياة مرفهة دون ان تقع في ايدي المضطهدين
شانية .

وفي النهاية اهدت صليحة سردا للقصة لي بهذه الكلمات
" بصحة وسعادة الخانم " بقي الصمت مخيما على الحجرة . لا اعرف
بماذا كان المستمعون الآخرون يفكرون . من دون ريب انهم قد
سمعوا القصة عدة مرات من قبل ، ولكن " الدموع الذهبية " كانت
مفاجأة مثيرة لدهشتي . فمن جهة كانت راوية القصة هي صليحة

ومع ذلك فقد سردت مغامرات منور كما لو انها كانت تقرأها في صفحة كتاب او بالاحرى مغامرات معذبيها ومنقذيها ، بما ان منور كانت سلبية اساسا . بدا الجزء الاول من القصة شيئا لا يصدق فكيف نجحت اخت منور من زوجة ابيها القبيحة ان تمثل شخصيتها لعقود عديدة من الزواج ؟ ولكني عندما فكرت بالمدى القليل من الزمن الذي يرى فيه الحاج اسماعيل زوجاته ، بدت لي القصة معقولة . وكيف لم يعرف الامير منور ، حبيبته السابقة ، عندما زارها في الغابة خلال مفاوضات زواجها من ابنتها ؟ وهذا شيء بسيط للغاية ، لقد وضعت غطاء . ان الوحشية في القصة هي امر واقع مثل حكايا " جريم " قبل ان تطبع لأجيال من الاطفال الامريكيين المحميين ، ولكني لا أزال أنكمش خوفا لدى التفكير بكيفية اقتلاع زوجة الأب عيني منور دون رادع من ضمير . فعندما تضع ابنة زوجة الاب ابنا قبيحا في نفس الوقت الذي تحمل فيسه منور على نحو اعجازي طفلا ذهبي الشعر ، بعد تسعة اشهر من الاسر العسير ، تضطر زوجة الاب لأن تدع ابن ابنتها ببساطة دون غداء ، الى ان يفتك به الجوع ، ويعيش ابن منور لأنه ضروري للحفاظ على مظهر ان الامير قد تزوج من منور الحقيقية . وفي الخاتمة لاتنال زوجة الاب وابنتها الا ما تستحقانه . كان طريق العودة من " الدموع الذهبية " الى حجرة صلحية الطينية طويلة . فاحت راحة الغداء عندما قدمته كنة صلحية . خلت الوجبة من اللحم ولكنها كانت وجبة ممتازة مكونة من اوراق العنب المحشوة الى جانب البيض والبندورة المغلية . لقد تناولنا هنا ولأول مرة طعامنا من طبق شعبي ، بدون صحن او آنية مائدة فضية ، بسل نلتقط الطعام بالخبز فقط . اكلت قليلا جدا ، لأنني كنت قد عانيت من نوبة اسهال في الليلة السابقة . عند ذلك سيطر عليها الخلق فجأة فقالت :

— ألا تحبين الطعام ياخانم ؟ اخبريني عما تحبين كي اعده لك في المرة القادمة التي ستأتين فيها .

اعترضت على ذلك قاطلة ان الطعام لذيذ وكل ما في الامراني متوعة قليلا . بعدئذ التفتت الى دارا تسأله عما احب مضينا في محادثتنا الى ان اكدت لها اني احب " الدولما " الكوسا المحشوة ، عندما تكون معدتي في حالة سيئة . ولكنها كانت قد اقتنعت اني قد جاهلتها فقط . لاحظت ان احترام صلحية لي كان يتنامى اكثر كلما سمعت كيف كنت اتحدث الكردية وانني كنت اعرف كيف اعبر عن نفسي على نحو مهذب ، اتسعت عينا دارا عندما رأني اقلب كأس شاي على جنبه ، لأشير الى اني قد اخذت كفايتي . لم يكن قد مر ببالي قط انه قد تكونت لدينا حتى ولو فكرة غامضة عن الاتيكيت الكردي .

كانت صلحية جديدة كابنها اكثر مما ينبغي وكانت تعامله ليس كما هو صبي ذو خمسة عشر عاما ، بل كند لها ، قامت جارة لها بزيارة قصيرة لتسأل دارا المساعدة في تصفية حسابات دكان الليرة الصغير الذي كان يديره ، وصلحية ايضا اخذت ابنتها جانبها ليلتظف سمعته حول امر لم استطع سماعه . ابدت ملاحظتي لصلحية قاطلة :

- ان ولدك ذكي جدا .

فقلت متباهية :

- نعم ، اعرف . انه ذكي منذ طفولته . لفتني ونكلم جميع اطفال في السنة الاولى من عمرهم . الاكراذ اذكبا جدا .

كانت صلحية تدير منزلها وحياتها بنفسها مستقلة عنهن اي رجل ، لم تكن تشبه مريم في طبيعتها . كان لصلحية ستة اطفال وثلاثة منهم كانوا شبانا . كانت الاخت الكبرى قد تزوجت واقامت في قرية اخرى . وصلحية هي مدبرة منزل جيدة . فبستانها المنظم ومنزلها وطبق الطعام الذي قدمته وفناء دارها النظيف ، كل هذا يشهد بذلك . كانت ابنتاها الصغيرتان تحضران مدرسة القرية وهناك دارا ايضا جوهرتها . كان دارا قد نال منحة للدراسة في مدرسة ثانوية في ريزاي . سينتسب الى كلية . ما وسيتهم بوالدته عندما تبلغ من الكبر عتيا .

عند فترة العصر تناقشنا حول مصدر جميع الحكايا التي
تعرفها صلحية، فقالت :

- لقد تعلمناها انا واخوتي من والدتي . انهم يعرفون الكثير
من القصص . فأخوتي مشهورون بحكاياتهم .

لقد سحرني ذلك ، فالدموع الذهبية كانت قد اشارت رغبتي في
المزيد من الحكايا . هل يمكننا الذهاب الى قرية اخوتها .
ابتهجت صلحية لهذه الفكرة وقالت :
- لم اذهب الى هناك منذ سنوات عديدة .

عند ذلك تخيلت اتحادا عائليا بعد غيبة طويلة ، فحذرتها
قائلة :

- تعرفين اننا لن نقوى على البقاء هناك طويلا . ربما ليوم
او يومين فقط .
فاجابت :

- هذا مناسب جدا لي . اذا كان لابد لك ان تذهبي فسأذهب
انا ايضا . لن نتوقع امي مني البقاء

تأملت الخدود المسطحة ، المسقرة لتعرضها للشمس والعينين
السوداوين الحادثتين . كيف نجحت صلحية بعدم العودة الى قريتها
لتقيم مع اخوتها وامها عندما توفي زوجها ؟ كيف دبرت امرها
في العيش ؟ لقد اشار فضولي تصور روعيتها وسط قريتها الام .
هل ستبدو صريحة ومستقلة هناك كما بدت لي هنا ؟

قررت ان نعود الى بازو بعد بضعة ايام مع دارا ، نأخذ
صلحية ونواصل طريقنا الى زبلا ، القرية التي شهدت شباب صلحية،
حيث سأجمع الكثير من القصص واسجلها .

تحدثنا انا وجيرد ودارا في طريق مودتنا السريزاي من
الرحلة القادمة . وبدون ان يبدي دارا اي تعليق لاحظت ان موقفه
تجاهنا قد تغير . فلم يبدر منا اي تصرف سخيف . وقد تقبلتنا

صلحية . وفي الواقع اصبحت والددة دارا مهذرة تقريبا قبيل مغادرتنا .

— رجاء تعالي وامكثي معي متى شئت .
قالت ذلك وهي تصافحني بشدة، بيدها النحيقة المرنة .

بعد هذه الرحلة اتي دارا الى المنزل في مواعيد دقيقة ، كما كان من قبل ، يعمل بجد وينجز عمله بما يمليه عليه ضميره كما كان يفعل ذلك ابدا . شرعنا في محادثات طويلة من القلب الى القلب فجأة .

حصل تفاهم بيننا للمرة الاولى . وادركت ان حرصه لايشير بالضرورة الى عدم وده او الى احتقاره لي . وادرك هو ايضا انه يمكن للجانب ان يتكيفوا مع الاساليب الكردية ، وان تخطاتي لاتعني بالضرورة انني شخص بليد ميثوس منه . شعرت انه يحترمني وشعرت اني احبه بالقدر الذي كنت اريده في البداية . لقد كان صبيا مدهشا ، يختلف عن أي امرئ آخر التقيت به في إيران . وبعبقوية مني ، وبعد ذلك اليوم في سارزو ودون آن أستأذنه توقف عن كونه السيد احمدي ، وجرى اسمه على لسانني واصبح ببساطة دارا فقط .

اكلني الشوق لزيلا ، لاعتقادي ان الرحلة الى قرية والدته يمكن ان تفشي المزيد عن دارا وعن مصدر قوته ، كانت زيارتي القرية الكردية الاولى التي حددت موقعها على خارطتي كانت هذه الخارطة اكتشافا نادرا اعطاني اياها ضابط في الجيش الامريكي عندما رأى مدى رغبتني في اقتنائها . وحتى ذلك الحين لم اكن اعلم بوجود مثل هذه الخرائط ، فكل الخرائط التي كنا على سراعها كانت تظهر ايران مثل امة ذات مدن متناثرة هنا وهناك ولاشيء يتوسطها . ولكن هذه الخارطة التي رسمها الجيش البريطاني سنة ١٩٤٠ كانت مغطاة بأسماء قرى وجبال وانهار فصلية صغيرة فهي — كما اخبرونا — لاتعرض للجماهير للبيع ، وهي غير قانونية

ولاتجوز الا للاستخدام العسكري فقط .

بعد ان افاق دارا من دهشته لالتناشنا اياها استغرقنا
- ثلاثتنا - في التعديق فيها ، محاولين العثور على الطريق
الاسرع والاقصر الى زيلا . رأينا خطا رقيقا يتجه صوب الغرب فوق
الجبال من بازدو، وكانت المشكلة الوحيدة ان دارا لم يسبق
ان ذهب عبر هذا الطريق الجبلي ابدا . ربما كان هذا الخط فوق
الخريطة درب بغال مهمل . قام دارا بتوجيه اسئلة عديدة ولكنه
لم يكتشف شيئا محدد . لم يكن احد من الذين يريدون الذهاب من
بازدو الى زيلا يقتني سيارة . كانوا يضطرون الى اخذ الحافلة
التي تسير فوق الطريق المعبد فقط ،الذاهب للشمال باتجاه مدينة
شاهور حيث يمكنهم ان يأخذوا حافلة اخرى تقودهم نحو الجنوب
والغرب على طول الطريق الحصوي الى سهل سوما .

في صباح يوم رحلتنا اقنعت جيرد بضرورة محاولة السير عبر
الطريق الجبلي . ان خطا على الخريطة ، بالنسبة لي ، كان يشير
الى طريق ، والطريق في الجبال كان اقل بقدر ثلث المسافة من
الطريق المعبد والحصوي المنحدر ولكنني اضطرت بعد ساعتين من
اخذنا صلحية من بازدو ، للاعتراف بأن الخط ليس طريقا فبعد كل
هذا الوقت لم نكن قد اجتزنا سوى اربعة كيلومترات وقد حصل
ذلك برفقة كل المسافرين - من صلحية ودارا واخذت دارا الصغيرة
وانا - ونحن نتمشى ، بينما حاول جيرد ان يتغلب بالسير على
حفر وتشققات ما بقي من هذا الطريق الوعر . وعلى الرغم من
اني كنت الوحيدة التي اصررت على السير في هذا الطريق المختصر
كنت الاولى ايضا التي رغبت في التخلي عنه . كان الاكبراد
مستعدين لأي شيء فالسيارة لم تكن لهم وكان جيرد يستمتع بتعدي
السير فوق درب البغال . وعندما اختفى في منعطف لم يكن جليبا
لنا، مالت السيارة كثيرا الى الجانب المنحدر العمودي من
الطريق حيث تأكدت منذ ذلك من انني سأجد جيرد في اسفل الوحد
في الطرف الآخر . ولكن الطريق انتهى ببساطة عند الزاوية تماما

لذلك كان علي ألا احاول اكثر من ذلك . وكان لابد لنا من ان نعود ادراجنا .

ماستهلنا به كبداية مبكرة جميلة تحول الى حملة استغرقت فترة الصباح كله ، بينما ارتفعت الشمس في السماء وصار الجو حارا . لم يكن هناك فراغ للسير بالسيارة من ذلك المكان لأن الطريق كان ضيقا وماثلا الى حد بالغ . كان علينا ان نديرها باليد ، نرفع النهاية الخلفية عن الأرض وندير النهاية الامامية في الاتجاه المعاكس . وقد كسبنا الكثير من الوقت عند انحدارنا نحو الطريق الى شاهور على الرغم من انه كان على كل شخص منا - عدا جيرد - ان يمشي معظم طريق العودة الى باز دو . يلتقي الطريق الجانبي بالطريق المنحدر الذي يعبر النجد السهلي الى الغرب من البحيرة ، تماما قبل ان يصل الطريق المعبد الى شاهور . قادنا هذا الطريق الترابي الى اكثر البقاع جذبا وفقرا من مجمل الاراضي التي مورنا بها في اذربيجان على الرغم من ان اعيننا كانت قد تعودت حينئذ على الغبار غير المنقطع في المناطق الريفية الكردية ، حتى اننا عندما وصلنا الى منطقة فيها شلالات رقيقة جدا ، ظننا اننا قد وصلنا شلالات نياغارا . خرجت والتقطت نصف درينة من الصور . لم تؤثر في نفسي هذه الصور ولم تذهلني لغرابتها المفرطة الا بعد عودتي الى الولايات المتحدة .

كان بمحاذات الشلال مجرى نهر قليل الماء وارض مشجيرة باشجار قزمة ، ضئيلة خضراء رمادية ، نمت بشكل عشوائي في ارض متآكلة بفعل التعرية وعوامل الطبيعة . كان عدد مشير للدهشة من الاغنام يلوك هذه الخضرة الجافة ، بينما كنا نعبّر القريسة تلو الاخرى . اندهشت لكيفية امكانية هذه الارض جعل تيرغاوار وميرغاوار تبدوان مثل جنائن عدن ، وان تمد هذا الكم الهائل من الناس بالخيرات . ولكن المكان برمته بالنسبة لصلحية كان مغمورا بتوهج ذهبي للذاكرة . اشارت بابتهاج الى احدى القرى ومن ثم الى واحدة اخرى باسمها . هنا تقيم صديقة وهناك يقيم ابن

عم وفي قرية اخرى كانت لها ابنة شابة لم ترها لسنوات عديدة. لم اصدق اننا كنا فوق الجبال وعلى بعد عشرة اميال فقط من منزلها الحالي . كان الخط القاسم بين حاضر صلحية وماضيها نهائيا وحاسما لدرجة ان القرى التي شهدت طفولتها والأخرى التي شهدت حياتها الزوجية بدت وكأنها في بلدين مختلفين. اخيرا انصرفنا عن الطريق وتسلقنا صاعدين نجدا موديا الى قرية واقعة فوق هضبة على شكل رغيف طيني . ترجلنا تحت نوافذ منزل طيني كبير ذي طابقين . عندما خرجت من السيارة تيقنت من ان الخضرة مسألة نسبية . فقد كان السهل الذي تجاوزناه اكثر خضرة بالمقارنة مع هذه القرية ، فهنا لم يكن يوجد حتى اشجار ذات خضرة رمادية ، بل محض تراب لا تلمح فيه حتى ولا ورقة عشب على مرمى البصر .

قادتنا صلحية ودارا بلهفة صعودا نحو الطابق العلوي من المنزل ذي الطابقين ومررنا بالحيوانات المتجمعة في الطابق الارضي في حجرة كبيرة حيث التقينا فوقها بموس اخي صلحية الاكبر وصاحب المنزل ومضيفنا. حالما دخلنا امتلأت الحجرة بسرعة على سعتها بذكور واناث مراقبين مصطفين بجانب الجدران مسح اطفال قد تكتلوا عند المدخل يمدون اعناقهم الى الامام ويحدقون ليروا الاجانب . ألقت ام صلحية التحية على ابنتها وبدت مسنة بفكها العديم الاسنان وجلدها الرخو الجاف . كان الاخوال اخوة صلحية يبتسمون ويحاولون التحدث معنا . بينما كان البقيس يحدقون فينا وفي النهاية احس مشيفونا بأن الفوضى ازدادت عند الباب ، فذهب ادهم الى حشد الاطفال الممزقي الثياب وطردهم بعيدا . ذهبوا بأسرع مما كنت اتوقع ورجع احد الاعمام ونقل انه اخبرهم بأنني طبيبة جديدة وقد اتيت لاحقنهم بالابر . ذهبست مجموعة من الاطفال المحبين للمغامرة من الذين اخرجوا من الردهة الى سلف احد المنازل المجاورة التي كانت في مواجهة احدي نافذتي الحجرة التي كنا في داخلها واستأنفوا تحديقهم فينسا بجرأة . كانوا واقفين مثل الاصنام مستعدين تماما لالتقاط صورة

لذلك أمسكت بآلة التصوير ووجهتها نحوهم ، عندها قرّ جميعهم
فرعين . ضحك جميع الموجودين في الحجرة . فأوضحت إحدى النساء
قائلة :

— لو انك أخبرتهم فقط انها آلة تصوير وانها ليست بندقية
لما فروا هاربين .

توقفت مستغربة من ذلك . اي نوع من القرى هذه، حيث يبسّدو
فيها الاطباء اشباحا مرعبة ويتوقع فيها الاطفال ان يسدّد الغرباء
النار اليهم ؟

ولكن شمة حقيقة واحدة مؤكدة وهي ان هذه ليست دستسان-
كان عدد الجالسات من النساء تقريبا يعادل عدد الرجال فـسـي
حجرة الاستقبال الطويلة هذه ، بدا ان حضور جيرد لم يسبب حتس
ولو قدرا ضئيلا من الاختلاف . فلم تفع اي منهن خسارها فوق قمها
وكانت جميع النساء يتحدثن بصوت عال وبعنفوية مثل الرجال . لم
يقدم الشاي خادم ، بل صبي صغير من العائلة .

فكرت بسيارتنا بقلق . فقبل ان نغادرها تماما ، كنت قد
لاحظت ان حشدا من اطفال القرية والماعر يصعدون فوقها والاطفال
يجاولون دون شك ان ينزعوا كل اللواحق المشيرة ، التي لم تكن
ذات وصلات ملتصقة ، والماعر تبحث عن الظل . قام جيرد الى
النافذة ليتفقدنا ويبلغنا محذرا انه يبدو له كما لو ان
سيارتنا ستجرد خلال ساعة او مايقاربها . فطلبنا من مضيفينا
ان يبعدوا الاطفال عنها ، ولكنهم نظروا الينا بارتياح . ماذا
نتوقع ؟ بما انه لا توجد سيارات في زيبلا وباب الفناء لم يكن
واسعا على نحو كاف لنسوقها الى الداخل ، فان على سيارتنا ان
تبقى في ميدان عام . ولكي يظهر واحترامهم لنا ، فقد صرخ احد
مضيفينا بالاطفال ولكن في الحقيقة ، لم تكن هناك وسيلة
لابعادهم . كنا هذه المرة وسط قرية ، وبين اناس عادييين بدلا من
ان نكون في الاعالي فوق الهضبة مع " الخانات " . ولكن صلحية
اهتمت برغباتي اهتماما شديدا ، فبعد ان انتهت من السوءال عن

اخبارهم وعن الاشاعات شرعت تردد كيف انني قد جئت الى هنا لاجمع قصصا لأخذها الى امريكا ، بعد تناول غذاء مكون من الارز المطبوخ مع القليل من قطع اللحم الغضروفية المتناثرة بينه لتعطيه نكهة لذيذة ، رتبت صلحية جلسة لسرد القصص وكمان ميكروفوني ينتقل من يد مسقرة بالشمس الى اخرى ، بينما امتلاء شريط المسجلة بقصص الجان الطويلة الشبيهة بالدموع الذهبية . وكما لو ان سحرا حل بالحجرة حيث كان كل شخص يمضي بعناية الى القصص ناسيا ايانا - نحن الاجانب - وربما حتى تلك الأرض الخالية من الاثاث والشمس الحارة ومشكلة تجميع الغذاء ، فلم يكن يشغل تفكيرهم حينئذ سوى الاميرات والتنانين والساحرات والفرسان لم اصدق كيفه امتلاء مسجلتي بهذه السهولة ، ونظرت الى صلحية بامتنان . ابتمت لي هي ايضا . ولكن التسجيل والقصص لا يمكن ان يستمرا الى الابد . فقد سألتني احدهم :

- هل صعيح ان الامريكان يكسبون الكثير من المال ؟

لقي هذا السؤال ثقيلنا اكثر ، فقد اعتبرنا صيغته افضل من الصيغة الاخرى وقد كان يطرح بهذا الشكل : كم تكسبون من المال ؟ ربما ان طريقة السؤال هذه كانت ملائمة اكثر لزيلا التي لم يكن يسود فيها النظام الاقتصادي المقدّر بالعمل . قفل مضيفونا الحاليون على موءونتهم القليلة من الارز في حجرة صغيرة كما لو انها كانت جواهر . من الواضح انهم لا يأكلون اللحم . كان غذاؤهم الرئيسي موءلفا من اللبن المصنوع من حليب الغنم والخبز المصنوع من القمح الحكومي . لم يكن هناك حتى شخص واحد ممتلىء الجسم في الحجرة .

- هل تعلم انه بإمكان العمال في امريكا ان يكسبوا مالا اكثر من استاذ في الجامعة .

تطوع جيرد بالجواب على سوء الهم . وساد السكون ثانية فالا جانب الآن على وشك سرد بعض القصص من بلادهم واناسهم . وسأل احد الرجال الجريئين :

- كيف يمكن ذلك ؟

فأجابه جيرد :

- حسنا ، لا احد يعطيهم الكثير من النقود . اما العمال في امريكا فهم يطالبون بالمزيد . انهم يحدثون اضرابات . عند ذلك نظر مضيفوننا الى بعضهم بقلق وقال آخر :
- كان قد قام بعض العمال في ريزاي باضراب .
وسأله جيرد :

- كم استغرق من الوقت ؟

- ربما يوما او يومين .

- هذه المدة ليست طويلة بما فيه الكفاية .

- ولكنه خطر ، خطر جدا .

قالوا ذلك وهم ينظرون الى جيرد بامعان كما لو ان لديه الجواب الذي يحتاجونه فقال جيرد معلقا :
- لقد كان خطرا في امريكا ايضا . فقد قتل بعض الناس بعد الاضراب .

لم يتفوه احد بكلمة . وكانوا ينقلون نظرهم بيننا وبينهم .
أومأت لجيرد برفع حاجبي لتحذيره ، فان مجرد تقرير عن هذه المعادثة سيكون كافيا لطردها من ايران . ولكن المجادلة لم تمض الى ابعد من ذلك . كان واضحا ان هؤلاء القرويين بوجوههم ذات المسحة الترابية ، يريدون سماع المزيد ولكنهم كانوا خائفين .

ازدادت عتمة الحجرة اكثر ، فقد لاحت لنا مظلمة لسدى وصولنا تحت اشعة شمس الظهر العديمة الظلال ، وبدأت أتساءل من وضع سيارتنا ثانية . كانت امرأة تدعى خيال ، قد التقطت ميكروفوني لتروي مراسيم زفاف عروس لابنها . ولكنني نسيته بعد ذلك فقد كان الوقت قد حان للرحيل ومع ان السير في ذلك الصباح كان مرهقا ولكن الطريق لا يمكن السير فيه في الظلام .

حدث شيء غريب لدى نزولنا قرب السبارة ، فقد بدا كما لو ان القرية كلها قد تجمعت لتودعنا . شعرنا كما لو اننا قد قضينا الاشهر الخمسة الاخيرة في زيلا ، بدلا من الخمس ساعات الاخيرة . طالب الحشد بصف بالتقاط صورة له ، لذلك فقد التقطت صورة له اظهرت الصبية فيه مصطفين في المقدمة وهم يلوحون للكاميرا ، وفي خلفية الصورة كانت الشمس تأهل خلف الهضاب القاحلة وهي تشكل تخوم السقوف المستدقة لأكواخ السعاد المخزون كان من المستحيل صعود السارة مباشرة مع مثل هذا الحشد، وبينما كانت صليحة تودع اقاربها بدا كل شخص يسألنا عن سبب عدم بقائنا وسمعت صوت خيال يقول :

— ألا تريدان ان تحضري حفلة زفاف ولدي ؟

التفت اليها وقد لاح على وجهي التردد واللهفة . احسست العبد من القرويين ان حفلة الزفاف قد لقيت اهتمامي . فرددوا قائلين :

— نعم العرس . العرس . من الموءكد ان المرأة الاحنيصة لا تريد ان يلوئتها العرس .

لقد كانوا محقين في ذلك . ولكنني نظرت حولي الى الوجوه الهزلة والغريبة الملوحة بالشمس المحيطة بي ، وشعرت بحيرة في نفسي . قال شيرو احد اخوة صليحة :

— ابلي ، ابلي . يجب ان نبلي .

اشهرت دوامة من الابتهاج والخوف في قلبي . والحقيقة كل ماكنت اريد ان افعله هو الخروج من زيلا الى الابد ، ولكن كيف مع وجود مرس كردي ؟ . لو انه فقط كان في قرية الحاح اسماعيل حيث يمكن لسيارتنا ان تكون بأمان ، كما سنكون نحن ابشاً، وبينما كنت واقفة احاول ان اقرر ، كانت هناك امرأتان على مقربة مني تمان شعري باصابعهما وسمعت احدهما تسأل الاخرى :

— هل يمكن ان تكون امرأة متروكة حفا ؟ انظري الى شعرها وبشرتها ، لاند انها فتاة مازبة .

بدأت اناقش جيورد من فوق الروءوس . هل يمكن ان نعود
لنحضر هذا العرس ؟ فقال جيورد مجيبا وترك القرار لي :
- تقولين دائما انك تودين روءية عرس كردي .
فالتفت الى صليحة قائلة :
- متى سيبدأ العرس ؟
التفتت بدورها الى اخوتها وسألتهن وقالت مجيبة على
مراحل :

- ربما اليوم هذه الليلة . ربما اليوم الذي يليه . او حتى
ربما اليوم الذي بعده .

اقلقني عدم التحديد في ذلك ، لماذا لا يعرفون متى سيبدأ
العرس ؟ ربما انهم قد اختلفوا كل ذلك لاغوائي بالبقاء . كنت
اعرف ان هذه ليست تركيا ، ومع ذلك فان المشاعر التي اثارتهما
في زيلاً ذكرتنني بيوكسيكوفنا . لقد كنت اعني بالنسبة لهؤلاء
القرويين المنعزلين " الاخرى " وهذا امر مفروغ منه . اردت
الذهاب ولكني لم ارغب في تفويت روءية عرس كردي . اخبرتنني
صليحة قائلة :
- يمكننا العودة . لا اظن ان العرس يبدأ في هذا الحين .

اتخذت قرارا مع فكرة اخذ فترة من الراحة بعيدا عن القرية .
سنعود للعرس . ولكن سيكون في غضون يومين ، بعد ان اكون قد
اخذت كمية جيدة من الطعام والنوم ، وبعد ان تكون قد سحمت
لي فرصة لارتداء ملابس الكرديّة ، ربما لن يهدق في سكان زيلاً
كثيرا لو اني لبست مثل كرديّة .

كانت معنويات صليحة وفنار اخت دارا الصغيرة مرتفعة
عندما التقينا بهما في البازار في ريزاي بعد يومين من ذلك .
تمتعنا برحلتهم بعيدا عن بازودو وذلك بقضاء معظم وقتهم
ملطختين بوحل السهول الملحية والحديدية قرب البحيرة . كانت
خديجة قد ضفرت شعري في ذلك الصباح اربع عشرة ضفيرة ووطتهما
بشريط ملون . لقد احدث التغيير الذي نشأ عن ملابس وتسريحة

شعري بالطريقة الكردية شعورا بالروعة والرهبة لدى صاحبة ودارا. نظرت الي دارا بامعان كما لو انه لم يرني من قبل اسداه سلكتنا طريقا آخر الى ربلا اوصلنا في اقل من ساعتين وعندما وصلنا جمع حشد كبير شاسع . رحبوا بنا كأصدقاء قدامى، ولكن الجواب على سوء الي المباشر كان : لا ، لم يبدأ العرس بعد . ومنى سبدا ؟ حالا ، الآن نعمانا ، عرضوا الخمر موء كدين ذلك كنت لا ارال غير قادرة على فهم سب عدم معرفتهم بتوقيت عرسهم . وفي غضون فترة العصر واصلت سوء الي منى سبدا العرس ، فخص النظر من مدى محاولتي في السماس الراحة . قدم اليها الشاي والغذاء وقلنا بحولة الى شركة مياه شرو السطحة الواقعة بجانب بستانه حيث كان قد زرع اشجاره في اخاديد معدة بتأثير مياه المطر بعيدة عن مركز القرية . وبما ان موسى كان يملك البركة وبستان اشجار البسولا في مكان ناء في الجانب الآخر من القرية ، فليسد ساكذب من انه لابد من ان اخوى صلحة هما من بين الرحاسال المسورس في القرية ، ولكن ملايسهم كانت رثة واسنانهم منفردة واحسادهم بحفة الى حد كبير ، فادان كان هو لا هم الاسياد ، اذا فكيف بعش البقية ؟

واصلت سوء الي عن العرس بقرينا حتى المساء عندما نظرت حرد من خلال نافله الحجرة الكبيرة في الطابق الثاني ورأى مجموعة من اربعة رجال يرقصون كتفا لكتف على طول اذقة زبلا الطينة . وقد ايلعنا مضيقنا ان هذه تمثل دعوة تقليدية للفروسين ليأمنوا الى الامتفالات . بعد ذلك لفترة قصيرة ظهر رجلان عرسان حدا عند مدخل باب حجرة الاستقبال الطويلة التي كنا نلصق فيها بومنا . نصب موسى مضيقنا ، كراسي معدنية قابلة للطي لهم حالا . كان كلا الرجلين يرتديان بذلات خضراء فاتحة على الطراز العربي . ولم سرفج الرجلان اعينهما عني منذ اللحظة التي دخلا فيها الحجرة الى ان قادراهما . شعرت ان اعينهما كانت سوهجان نحو الراوية المظلمة ، حيث كنت جالسة هناك بحاسبي صلحة . ولست ما انبهرت صلحة هذه القرية لتعيد ترتيب

أعطية رأسي ودون ان تستشيرني اخذت وشاحي البرتقالي عن رأسي
ببساطة وبذلك انكشف شعري برمته . وقد افتن هذا المنظر
الرجلين وسمعن احدهما يقول للآخر عبر الحجرة :
- لماذا لاتنزع كل ملابسها ؟

استمرت صليحة بالعناية بوشاحي بافراط مضيقة وشاحا اسود
من عندها وبذلك اصبح لدي اثنان منها . كانت تنصرف كما لو
انها لم تسمع ملاحظة الرجل ولكني لم اقل على طردها عني
تفكير .

اصبحت زيلا مروعة في الليل اكثر منها في النهار حتى،
ولم امل الى هذين الرجلين الجالسين هناك وهما يرمقانني
بنظرات الغرام . وتساءلت في نفسي عما اذا كنت ارغب في الذهاب
حقيقة الى العرس بعدما اتضح ان هذين هما مضيفانا . ما كان
مني الا ان اتمنى ان سلوكهما لن يكون نموذجا عن سلوك الرجال
في زيلا ، لانهما كانا يعيشان في مدينة شاهبور وليس في القرية.

نهض كل امرئ في الساعة العاشرة ومشى نحو فناء دارخيال،
وحالما وصلنا الى المدخل ذي الحائط الترابي ، شاهدنا صفا من
الكراسي المنصوبة باتجاه زمرة محتشدة يبلغ عددها تقريبا
اربعين من ضيوف العرس المبتهجين وهم جالسون فوق ارض عبراء.
وحالما قادونا الى الكراسي المخصصة لنا ، بدأ حشد النساء
الجالسين على الكراسي بالتعديق فينا ، كان كما لو اننا كنا
فوق المسرح ، لم تكن هنالك اضاءة موضعية مسلطة ، بل كان يوجد
فانوسان يصدر عنهما طنين ويشتعلان على نحو متقطع بالاضافة الى
ضوء القمر ، ليجعل كل شخص من حولنا منظورا على نحو غريب .

كان يقبع في مكان مرتفع اثنان من " الدنغ بيچ " وكلاهما
يرتديان قبعات شتوية صوفية ثقيلة ، يتبادلان الغناء وقد اتعنت
يد كل منهما حول احد خديه او تكورت حول احد اذنيه . كان ايقاع
الطبل عاليا ورتيبا . نهض بعض الرجال والنساء للرقص ولفست

نظري ثلاث فتيات مرتديات على نحو فاخر ،من المحتمل انهن كن اخوات العروس ،كن قد لبسن قماشا مطرزا مع اهزمة معدنية رنانة وعريضة وعروات ذهبية تزيينية للأنف .

رغبت فقط في الجلوس لأصغي ولأراقب سابتهاج هذا المشهد الرائع ،القمر ،الطين الجاف ،حلقات تزيين الأنف والمغنيان ولكن ذلك لم يكن ممكنا ،فالانتباه كان ينبغي ان يكون منصباً على الراقصين والمغنيين وعلى الاخض على عائلة العروس ، ولكن بدلا من ذلك كان الانتباه مركزا علينا . لم يقو بعض الأولاد الصغار على ابعاد اياديهم عنا . واستمر احد الرجال وفي يده مصفا غليظة بالمحجى والضرب على رءوس الصغار الاكثر اساءة ولكنهم حالما كانوا يبتعدون ، كان يحل محلهم اطفال آخرون .

سحب شيرو ودارا جيرد لينضم لحلقة الرقص ،ولكني بقيت في مكاني بجانب صلمية . لم ارغب في النهوض لأرقص امام هذا الحشد ولم ارد ان اقترب من الرجلين ذوي البذلتين الخضراوين الفاتحتين ، فقد انضموا ايضا للرقص وفي فم كل منهما سجاثر ملفوفة باليد على نحو رخو ، وقد علت وجهيهما تعابير تنم عن الانتشاء . وعندما عاد جيرد من الرقص ابلغني انهما كانا يدخلان الحشيش ، هذا ما فسرته سلوكهما الغريب ولكني لم اتيقن انهما يتعاطيان المخدرات . فقد اكد لنا الاكراد في ريزاي انه لم يمس كـردي المخدرات ابدا ، حتى ولو انهم يهريونها بين الفينة والاخرى " انها للعجم فقط " كان السيد خليلي قد ابدى ملاحظته بازدياد ، تساءلت عما اذا كان الرجلان المرتديان الخضراوين الفاتحتين هما الوحيدان في حالة الانتشاء تلك في زيلاً تلك الليلة . من المؤكد تماما ان اناسا في هذه القرية قد قضوا وقتا في السجن بسبب التهريب .

بدا ان التحديق والرفض سيتواصلان لساعات . كنت انظر بعينين نصف معمضتين ومطرفتين الى الارهاق . " هذا شيء عجيب جدا

قلت ذلك موجهة كلامي لدارا الذي كان قد جلس ثانية . يمكن
لكلمة " عجيب " ان تعني غريب ، متضمنة معنى " الدهشة " او يمكن
ان تعني مجرد الغرابة . اختار دارا المعنى الأول ، وابتسم
قائلا :

— تعنين ان الراقصين راضعون جدا .

مند هذا تجهمت ملامحي . لماذا نكون انا ودارا على كوكبين
مختلفين دائما ؟ وحاولت ان اوضح :
— كل امرئ يشدد في تحديقه اليّ ذلك هو الشيء العجيب .
فقال :

— طبعاً . الناس هنا غير معتادين على روية امرأة اجنبية ،
وبشكل خصوصي امرأة اجنبية بلباس كردي . نظرت الى دارا مستاءة
من ذلك . ربما ان ارتدائي البسة كردية كان شيئاً غير عادي
بالنسبة له ولكن هب اني كنت هناك حالسة بلباس الجينز ، حيث
يمكن لكل امرئ ان يرى شكل فخذي او بلباس يكشف عن ساقّي؟ من
الممكن ان دارا قد عاش في ريزاي لفترة طويلة لدرجة ان اللباس
الكردي لم يعد يبدو طبيعياً بالنسبة له .

لاحظت صلحية المتألفة مع اضطرابي اكثر من ابنها ، انني
مرهقة وانه ينبغي علينا المغادرة . أومأت برأسي ممثلة وسرنا
ببطء الى خارج لفناء مشكلين رتلا ، وبعد ان شكرنا مضيفينا
دعينا للعودة لحضور احتفالات اليوم التالي عندما تزف العروس
فعليا الى المنزل . والمسألة المهمة التي فرضت نفسها لسدي
عودتنا الى فناء موسى هي مكان نومنا . فقد كنت انا وجيـرد
قد ناقشنا هذه المسألة طويلاً قبل المجيء الى زيلا ، كانت فكرتنا
هي ان ننام فوق السطح مستخدمين اكياس النوم التي كنا قد
احضرناها معنا . ولكن صلحية كانت قد حددت مكان نومنا مسبقاً
منذ ذلك الصباح حالما صعدت الى سيارتنا فقالت مشيرة :

— منزل والدتي نظيف جداً . نظيف مثل منزلي ليس فيه بق
القراش .

كان بق الفراش على وجه الدقة هو ما يفللني ، ولو اني كنت سأتقاضى عن ذكرهم . عندما قالت صلحة ان منزل والدتها نظيف مثل منزلها اثر ذلك في نفسي لأن صلحية كانت مدبرة منزل دقيقة واكثر دقة من اي امرأة التقينا بها في كردستان . ولكن زيلا لم تكن على مستوى مقاييس صلحة . فقد كان لابنة شبرو المقيمة التي كان عمرها يناهز عمر اسنة عمها فنار ، شعر اشعث معكسد بدا رمادي اللون من تجمع الغبار والتراب عليه . اما شعير فنار فقد كان يسرح يوميا بفرتها الطويلة وجذيلتيها الكثيفتين ، وكانت ترتدي دائما البسة نظيفة . لم تكن المسألة مسألة نقود بل اعتزاز بالنفس . فقد كان دارا و صلحية معتدين بنفسيهما الى حد بعيد . ولكن حتى لو ان نساء زيلا كن مدبرات منازل مدققات في مسألة النظافة ، فان التخلص من بق الفراش هو صعب عليهن . كان في زيلا اغنام اكثر من ساردو . وفي ارضية حجرة الجلوس الكبيرة التي اراد موسى وعائلته ان ننام فيها يوجد حيز واسع لآلاف من بق الاغنام لترحف ظلاله من الاسطبل المتعني . حاولنا ان نصير على النوم على السطح ولكن مضيقا كانا عبيدين . فلابد لنا من اخذ افضل حجرة لديهم . وكانت هذه الحجرة تنسج على الأقل لنوم دزينة منهم في الليل ولكن مضيقا اصرا على ان ننام وحدنا و اشارت صلحة قائلة :

— مثل عروسين .

بعد ان عادت بنا صلحية وزوجة اخوها الى الطابق العلوي ، سؤي فراش ملون بألوان زاهية وسط فوق الارضية على نحو يهمل فيه المرء . ناولتنا النسوة سراجا ونركننا وحدنا لنتمتع بفخامة هذا المكان الفسح المنزوك لنا وحدنا . وحالما اطلقت الانوار بدأ البق يهزونا . كنت ناشئة ببذليتي الكردية بتمامها ونهاية الاكمام الطويلة ملتفة باحكام حول راسي والنسيج الممزوج بالمحطات في نهاية سروالي قد سحب الى اسفل ، فوق حواربي ، حتى اني كنت قد نركت وشاحي مربوطا حول رأسي . ولكن السق كان ينسج في الاختباء بين شباكنا لاسي . وبعد مرور خمس عشرة دقيقة شاككنا بآسي لس انام خمس دقائق تلك الليلة .

— علينا ان نحضر اكياس النوم

همست قائلة ذلك لجيرد الذي كان النعاس يغالبه ، ولسبب
ما بدا ان البق يهمله .

أضأت المصباح المدخر الذي كنا قد احضرناه معنا وأرست
جيرد اسراب البق الصغير ذي اللون الاسود ، فوافق على الخروج
على مضض ، ولكنه عاد لتوه خاوي الوفاض . وقال موضحا .
— جميعهم نائمون في الفناء ، لاننا اخذنا هجرتهم .

بعد عدة ساعات صحت على فجر رمادي بارد ، من نوم يتخلله
شعور بالحشرات وهي تزحف فوق جسدي . وبعد ساعة من ذلك قُذمت
لنا فطور مكون من شاي ثقيل وخبز قمح مسطح . ونحو مايقارب
منتصف الصباح مضينا في جولة اخرى ، هذه المرة الى بركة شيرو .

لم يكن شيرو مثل اكراد آخرين التقينا بهم في زيلا وفي
اماكن اخرى في كردستان . لقد كان امر اخوة صلحية عليها . وكان
له وجه متطاوّل كوجه صلحية وبشرة ضاربة الى الحمرة . ولكن
بينما كانت مينا صلحية سوداوين ، كانت مينا شيرو خضراوين
وبينما كانت صلحية ، تتصرف بجدية ، كان شيرو يتصرف وكأنه خال
من الهموم . ان الحياة بالنسبة للأكراد هي كفاح مستمر وبالنسبة
لل بعض هي النضال من اجل القومية الكردية ، وبالنسبة لآخرين
مثل سكان زيلا هي صراع من اجل البقاء . اما بالنسبة لشيرو فلم
تكن حياته تتسم بسماة من الكفاح ، فقد بدا انه يتمتع بالحياة .

في كردستان لا يغني الناس ولا يرقصون عادة . لقد كنت اطلب
من الناس باطراد ان يعلموني اغانيا وقد رفض جيمعهم ذلك تقريبا
ان الاغاني كما افهموني هي من اختصاص المحترفين "الدغ بيــر"
الذين يغنون في الامراس . كنت اكاد لاعتبر شيرو دنغ بيــر
بصوته الاجش الذي اتلفه الدخان . ومع ذلك فقد احب ان يغنسي
وقد غنى لي العديد من الاغاني عندما كنت في زيلا . وكذلك كان

يستمتع بالرقص وامر على ان يتعلم جيرد الرقص بدقة . لقد سُـرّ
شيرو في الحقيقة لأنني اردت ان اتعلم كلمات كردية جديدة وبينما
كنا نجاري السير مع خطواته المرحّة على طول الطريق الى بستانه
المشجر التقط من الارض نباتات شائكة وفطور النفث الاكثـر
تميزا واخبرني عن اسمائها .

عندما وصلنا الايكة تبادل شيرو والصبي الذي قدم لنا
الشاي الادوار في غناء السلسلة التقليدية من اغاني الامراس
لاسجلها . امسكت صلحية بالمكرفون لأخيها الى ان بلغ اغنية ملأت
عينيهما بالدموع ونهضت ثم مضت في سبيلها . استمر التسجيل وفي
آخر الامر عادت ادراجها . واوضحت موعرا قائلة :
- ان الجزء الذي اتوا فيه ليأخذو العروس ذكروني بعروسي
لقد كانت فترة كئيبة ومليئة بالاسى .

اضطربت لدى روءيتي صلحية تبكي . فهي لم تكن شئنة ولا
قاسية بل عاطفية جدا . ولكن خيّل الي انها كانت قد تركت
مشاعرها وراءها . والا فكيف استمرت في العيش مع الحظ السيـء
جعلها زوجة ، رجل مسن وتركها ارملة مع ستة اطفال ؟ تساءلت
عما اذا كانت تبكي لفراق زيلا على الرغم من ان بازودو كانت
مبهجة اكثر بكثير . ولكن بالطبع ما كان لها ان تعرف ذلك
وكأي عروس تقليدية لم تكن قد رأت زوجها المستقبلي ولا منزل
المستقبل ايضا .

بعد وصلة الغناء تلك ، قرر شيروا ان يعلم جيرد الرقص .
شكل الرجال صفا تحت الشمس الحارة ، بعيدا عن الاشجار وتماسكت
الايادي وبدؤوا بهز اكتافهم ، وتمايلو في مشيتهم ،قفزوا، من ثم
جثموا في ذلك الرقص السريع الذي يؤديه الرجال الاكراد . كان
شيرو يلوح بوشاح في يده والصغير يغني . وعندما انهكنا هذا
اللهو قفلنا عاشرين الى القرية .

مـد العودة الى الحجرة الكبيرة المعتشدة بدأت الحاجة

الى النوم وبدأ قرص البق وشعور عام بالخوف بازعاجي . لقد
عدنا للجلوس ثانية ، والى مرات لاتحصى من احتساء الشاي . وبين
فترة واخرى كنت اسأل من بقية حفلة العرس . متى ستزف العروس؟
لقد فهمت منذ برهة قصيرة انها موجودة في القرية مسبقا .
كانت هذه العروس قد فرّت من والدها منذ شهرين مضيا ، واتت
لوحدها الى زيبلا مع زوجها المفترض ، لأن والدها كان يطلب مهرا
أعلى من أي مهر كان يرغب في دفعه اي شخص ، فسألت صليحة :
- هل يعني هذا انه لن يكون هناك مهر ؟

فأجابت :

- لا ، ينبغي على العريس ان يدفع شيئا ما او ستنشرب حسوب
بين العائلتين .

بينما حاولت ان افهم مايجري في الطريق ، سألت عمما اذا
كانت العروس ستزف على حصان من المنزل الذي تمكك فيه في القرية .
لقد كانت الاحصنة هي الوسائل التقليدية لاحضار العروس . على
الرغم من ان سيارات الاجرة الريفية كانت قد حلت محلها الى
حد ما .

نظر القرويون الى بعضهم . لقد قرروا مسبقا ان سيارتنا
هي التي ستعصر العروس ولكنهم لم يخبرونا عن هذا حتى ذلستك
الحين . خرجوا الآن وسألوا اذا كان بإمكانهم استخدام سيارتنا
القرمزية الفاتحة . وقبل ان اقدر على الاجابة ، اقترح دارا ان
يستخدموا حصانا هذه المرة بما ان الحفلة ستكون موضوع صبور
مثيرة . كان يعلم اني اربح في اخذ الصور ، ولكن رغبة دارا
اهملت . كان الجميع في زيبلا ، عدا صليحة ، يعاملون دارا كما هو
تماما ، صبي ذو خمسة عشر عاما .

شرعت في النظر من خلال النافذة ، بينما بدأت المحادثة
تنحرف عن موضوع العرس رويدا رويدا . لقد تلبدت السماء بالغبوم
وبدا المطر بالهطول . نبت القطرات المائحية الضخمة بوابل
صيفي . وكان بإمكانني تماما ان اتصور ما سيحدث لهذه الارض القاحلة

بعد بضعة انشات من المطر . فالمسيلات التي عبرناها ، كلها ستتحول الى انهار متدفقة ، تجعل الطريق غير ممكن عبوره . ربما لن نقدر على السير الى المنزل . وقد اثقل علي شعوري اني سابعى في زبلا الى الابد .

بدأت آسأل مضيئينا عن التأثيرات التي تتبع السيل، وقالوا موءكدين الاحتمال الأسوأ : نعم يمكن للطريق ان تصبح غير سالكة . انتفضت واقفة لدى سماعي هذه الاخبار ومشيت الى جيرد وقلست بالانكليزية :

— لقد سمعت انتظار هذا العرس . دعنا نذهب ، ستعوقنا المياه اذا جرفت الطريق .

نظر اليّ جيرد فرعاً لم اتحدث معه بالانكليزية امام الاكراد ابداً تقريباً ، بل كنا نستخدم الفارسية لكي نكون مفهوميين وهمس قائلًا :

— ماذا تفعلين ؟ ارجعي واجلسي .

ذعرت لهذه الاجابة غير المتعاطفة معي . وبدأ كان كل انش مربع من جسدي قد احتاج غضبا . كان المطر يهطل بغزارة وسرعة رهيبة . والاجزاء المتعددة من لباسي ذي الطيات الكثيرة قد تصلبت من العرق ، وكان بقية الاشخاص في الحجرة ينظرون السيّ بفضول اكثر من ذي قبل عندما وقفت قرب جيرد وانا اتكلم بعصبية بلغة اجنبية . فكرت اني لن اقوى على البقاء حتى ولو لحظّة اخرى في زبلا . واذا لم يغادر جيرد ، فسأغادر انا . ما كنت ساقيد نفسي في انتظار عرس لن يحدث ابداً ، بهذه الافكار خرجت بمشيئة بطيئة من الحجرة وهبطت الدرجات ، الى ان وصلت خارجاً تحت المطر الهاطل بغزارة . وهناك فتحت باب السيارة بحركة سددت ضربة لقرون مغلقة واغلقتها علي . وبدأت بالنشيج . لقد كانت تلك ، هي الدقيقة الوحيدة التي انعزلت فيها مع نفسي خلال ست وثلاثين ساعة . حتى اني لم اكن قادرة على التبول

بمفردي في زيل ، بسبب عدم وجود مراحيض خارجية في القرية حيث كانت ملحمة ترافقني وتقف حارسه في كل مرة .

ظهر جبرد بعد دقيقة عند نافذة السيارة وهو يهتف من خلال المطر . حدثت فيه بغضب وبعدد وقت ملحمة امامي فجأة وهي مبتلة وقد علا وجهها امارات من القلق . فتحت لها الباب لتدخل فسالت :

... ما الامر ؟

شعرت بشعوب في وجهي الذي بللته الدموع واوضحت لها على نحو واه :

... انا وجبرد نتناقش حول امر .

وقالت بلطف :

... عودي الى الداخل يا مارغريت . لا يمكنك السير تحت هذا المطر الغزير .

خرجت بهدوء من السيارة عائدة ، واخذت ملحمة بيدي . وقادتني الى الداخل ومن ثم الى الطابق العلوي . شعرت بالراحة بعد بكائي وبعد ان اختليت لدقيقة مع نفسي ، ولكني كنت خائفة من مواجهة الناس فوق . ماذا سيظنون ؟ سيعرفون جميعهم انني كنت ابكي .

لكنني عندما نظرت الى سكان الحجرة ، موسى وزوجته ، شير ، دارا وكل الاعمام وابناؤهم ، بدوا مختلفين . فبدلاً من ان يظهر عليهم الاندهاش او الانزعاج كما توقعت ، بدوا قلقين واكثر ألفة مما بدوا لي من قبل . ربما انا ايضا بدوت اقل غرابية لهم . وتبادلنا الابتسامات . بعدد تكلم موسى قائلاً :

... عليك ان تنتظري الى ان ينتهي المطر قبل ان تسيري الى اي مكان . عندما يكون الجو على هذا النحو ، فان السواقة خطيرة جداً .

بعد مضي نصف ساعة على ذلك ،توقف المطر وبدأ العرس .
ذهبت في البداية انا و صليحة الى كوخ صغير لانوافذ له ، حيث
كانت جميع النسوة قد تجمعت فيه ،وتنوراتهما تخشخش ، وتضطدم
الهدايا الواحدة بالآخرى وهن يرمينها الواحدة تلو الاخرى في
سلة مستوية موضوعة على الارض وسط الغرفة . كانت معظم الهدايا
قوالب صابون او اوشحة ،ولكن كان هناك فساتين واحذية ايضا من
قربيات العريس .

بعد ذلك شكلت النساء رتلا وهن يخرجن من الغرفة . وشكل
القرويون حلقة وبدؤوا بالرقص التقليدي بالتناغم مع ايقاع
الدغج بيژ . اقعمنا انا وجيرد نفسيينا الى جانب صليحة وشيرو
واثننتين من اخوات العريس الى السيارة لنقوم برحلة من مثشي
متر الى المنزل الذي كانت تمكث فيه العروس . وتعلق بقيصة
الضيوف مقطورة مسطحة يسحبها الجرار الوحيد في القرية .

وصلنا بعد عدة دقائق الى منزل ارشدنا اليه لدخوله لاحتساء
الشاي . شكل ضيوف العرس حلقة ورقصوا حول سيارتنا السى ان
قادت الحماة كنتها الى خارج الحجرة الواقعة الى جانب الفناء
كان قد لقي وشاح برتقالي حول وجهها ، لذا فكل ما كنا نقدر
على رؤيته كان فستانها الساتين الاحمر وحداؤها ذو اللون
الاسود والابيض المزين بالازرار على الطراز الحديث وكان يلوح
من تحت اهداب اطراف فستانها . عند هذا حاول عشرة اشخاص
معود سيارتنا الصغيرة . وحدثت مشاجرة خفيفة عندما رفضت صليحة
وشيرو ان يعطيا مكانهما لجماعة من طرف العريس . وصعدت
العروس فقط معنا . رفعت صليحة الغطاء عن وجهها لتريني اياه
ولكن كل ما لمحته قبل ان تصعق العروس وتعبد الوشاح الى مكانه ،
كان عينييين سوداوين . سرنا في الانحاء لفترة قصيرة حسب تعليمات
شيرو ،لتؤكد اعتقاد اننا كنا نرف العروس من مكان بعيد ومن
ثم عدنا الى منزل العريس ، حيث كان ينتظر هو ورفاقه فسوق
السطح ليروي جرة ممتلئة بالسكاكر على رأس العروس قبل ان تعبر

عتبة الباب . ارتطم السكر برأسها بضربات كتومة موءكدا انها ستكون زوجة حلوة ومن الموءكد انه سيب لها مداع رهيب ومن ثم ستقضي العروس ببقية الامسية جالسة في الحجرة الصغيرة العديمة النوافذ مع هداياها ، بينما ستستمر الحفلة بدونها .

على الرغم من ان العروس زفت وان الشمس ستأفل حالا ، لم اعد اشعر باليأس لمغادرة زيلا . ولكن هناك سبب آخر للمغادرة ليس له علاقة مع مخاوفي السابقة ، فطالما اننا باقون ، فان ذلك لن يعدّ عرسا ، بل عرضا لاثنيين من الاجانب يحضران عرسا .

بينما كانت صلحية وشيرو يزوداننا بتعليقات متواصلة عن العادات والتقاليد الكردية ، لم يستطع بقية القرويين رفع انظارهم عنا . فاحوات العريس ما كن قد ارتدين ملابسهن وحليهن المبهرجه وبذلك اسبح لكل امرئ ان يحدق في الزوجين الغريبين . لقد حان الوقت كي نعيد العرس الى خيال . عندما التفتنا نحو مضيفينا لنودعهم توقف العرس تماما ولم يبدأ ثانية الى ان سرنا بعيدا . وعندما ابتعدنا وبلغنا السهل غطت فنان في نوم عميق وبدا كل شخص شاردا وسارحا في عالم خاص به ، غادرنا في بازدو فنان ، صلحية ودارا وسرنا انا وجيرد عائدين الى ريزاي وهدنا .

حالما اتجهنا شرقا صوب البحيرة حولت الشمس الافلة حقول القمح حولنا الى ذهب متوهج . وعلى مسافة قريبة ظهر لـون البحيرة الفيروزي وظلال عديدة اكثر كثافة من زرقة السماء الفاتحة . قبعنا القرية خلفنا في الظل . وحالما وصلنا المدينة عند الغسق كانت المحلات التجارية قد أضاءت انوارها للتسوق . انطلقنا بسرعة مارين بالسينما وبنوافذ البوتيكات البلورية الكبيرة ذات الاطارات المطلية بلون الكروم ، نظرت الى كل ذلك بعينين قروية . كم بدت حديثة وملونة بعد لون زيلا السني الشامل . هل حقا اننا لازلنا في نفس السنة وفي نفس اليوم؟ بماذا يشعر سكان زيلا عندما يغادرون قريتهم ويأتون الى مدن

مثل شاهپور وريزاي؟ هل يكرهون الاتراك لسيطرتهم على هذه الواحات؟ هل يقبلون الاختلاف على انه مقدّر من عند الله؟

قضيت الكثير من الوقت وأنا افكر بزيلا وبالسلوك الذي انتهجه الناس هناك: لم استطع ان اجزم اذا كان هنالك شيء حقيقي لاخشاه. من المحتمل ان يشعر بعض الطهرانيين والريزانيين المتمدنين بالراحة في زيلا. لم تكن المسألة أننا لسنا ايرانيين، بل أننا كنا من المدينة وأنا ننتمي الى الطبقة الوسطى. كان صدى كلمات العمال في شارع السنيين لا يزال يطن في ذاكرتي. نحن عمال، نحن عمال.

كانت زيلا هي تجربتي في صميم واعماق كردستان. وعلى الرغم من ان اراضي دستان وخوشخان ومانوا اكثر غنى من زيلا فان معظم اهالي هذه القرى لايعيشون مثل الخانات الذين زراهم هناك. لم يكن لديهم جرارات او سيارات لاندروفر او مولدات كهربائية مثلما كان لدى الحاج اسماعيل. انهم لايمتلكون الارض التي يعملون فيها او يسيطرون على مصدر المياه الذي يحتاجونه لانماء الحبوب، حتى ان معظم الاكراد القرويين هم اشد فقرا من شيرو وموسى، كانوا يستمتعون بتفكيك سياراتنا في دستان وخوشخان ومانوا، وفي زيلا ولكن مضيفينا منعوهم عن ذلك بطريقة مؤثرة.

كانت زيلا تمثل كردستان وهي مجردة من الاوهام والصور الخادمة. لم ار هناك سوى ارض طينية قاحلة تشير الرهبة في النفس، ومساكن طينية موشكة على السقوط، وضربا من اليأس يدفع الى أخذ الأحصنة الى تركيا لبيع اي شيء في ساحات اسواق ايران التي تعاني من التضخم. لدى عودتي الى ريزاي المريحة وبعبد ان اصغيت الى القصص التي جمعتها ادركت ان الناس زيلا كانوا اغنياء بطريقة واحدة ولو انهم كانوا فقراء ووسخين باقى ما يمكن ان تملئه المعاني. كانت ارضهم فقيرة لاقيمة لها ولكن تهريب المخدرات يمكن ان يفيض بهم الى السجن. وحتى ان تبادل الاحاديث

الشورية من كيفية عدم تقديم الحكومة المساعدة لهم كانت أكثر خطورة .

كل ما ترك لهم كانت الحكايا . في المساء وتحت ضوء الكيروسين او في ايام الشتاء الطويلة المعتمدة ، نسج القرويون هذه الحكايا كانوا يتبادلونها ويوشونها كأففس الانسجة . لقد استغرقت اسابيع من العمل مع دارا قبل ان افهم كل الحيكات المعقدة والحوار . ولكني عندما فهمتها تمنيت لو انه باستطاعتني ان اذهب الى زيلا ثانية لافتش عن المزيد .

اردت ان افهم على نحو افضل من اين اتت هذه الثنائيسين والاميرات الشجاعات والساحرات . تشير القصص التي جمعتها الذهول بالكلام غير المعتشم وبالمبالغة والخيال الذهبي الذي تتضمنه . لقد اجبرتني على أن ارى هؤلاء الرجال نصف الجاعين تحت ضوء روعية جديدة على انهم كائنات بشرية تنتصر على بيئة عداوية ، وانهم استطاعوا الاحتمال ليس بمعونة السماد او تجهيزات المزرعة بل بمعونة اخيلتهم الخصبة .

الفصل السابع عشر

من الواضح ان السافاك قد قضى فترة في التفكير مليا في صورة شامخة كان صديق في الولايات المتحدة قد ارسلها لـ... ومنذما تلقينا الطرد البريدي بعد اسابيع عديدة من وصوله الى ريزاي ، تفحصناه لدقيقة او اثنتين مقلبين اياه لنلقي نظرة عليه من جميع الزوايا ، محاولين بذلك ان نكشف فيه الشيء الذي اشار اهتمام البوليس السري . ومن ثم حدد جبرد بدقة البهر الانزق الغامق المشكل على هيئة حصان في الزاوية اليمنى هاليسا ، بعدد اعطت البقع البيضاء الظاهرة في التغضنات السوداء البادية مثل اورد ، شكلا جليا لدى تمييزنا التلال المغطاة بالثلوج الواقعة عند سفوح الجبال وقمم زاغروس في الشتاء . لقد كانت صورة لكردستان مأخوذة من قمر اصطناعي . والبحر الانزق الغامق الشبيه بالحصان كان بحيرة ريزاي الداخلية العريضة التي تغوم على نحو غامض في الزاوية الشمالية الغربية المغمورة فسي مساحة واسعة من الارض المعروفة بايران .

يحكى أنه كان في ايران اكثر من بحر ملحي داخلي واحد ، لكن هذه البحار قد تحولت الآن الى صحارى ، وعلى الرغم من أن بحيرة ريزاي لازالت واسعة ، فانها تجف ببطء . وعلى الرغم من احتوائها على نسبة عالية من الاملاح المهلكة ، فان البحيرة تعتبر بحرا سخيا في منطقة ينقصها الماء مثل ايران ، يسمى الاكراد المنطقة الواقعة بين المدينة والبحيرة بـ "محمستان" ، أي ارض العجم وكانوا عبر القرون قد قاموا باكثر من محاولة للسيطرة عليها . يقع قسم من اخب الاراضي في اذربيجان الغربية قرب البحيرة ، ولكن في الوقت الراهن - ومثلما كان من قبل - لازالت الارض في ايد غير كردية من اترك وكذلك بعض الارمن والاشوريين ويفتخر الاكراد الساكنون في الجبال على القيام برحلات سنوية

ما استطاعوا الى ذلك سبيلا للانتجاع في مياه البحيرة الصهية
وولها الكبريتي الدوائي .

ان الاكراد ليسوا الناس الوحيدين الذين يترددون على
بحيرة ريزاي في الصيف ، والمساء الآن " بحيرة اورميا " . لا يمكن
ان تجد الاتراك والاكرد ، الرجال والنساء ، المسيحيين والمسلمين
من الذين يستحمون في البحيرة في يوم حار في شهر تير الايراني
بهذا القرب الشديد في اي مكان الا في البازار ، ولكن في البازار
يكون كل شخص مغطى او بالاحرى متسترا جيدا . ليس هناك مكان في
جميع انحاء اذربيجان الغربية شبيه بهذه البحيرة ، فهنا ،
وللأسف ، تصل ايران الى اقصى حالات عريها .

كنت انا وجيرد نشكو مثل بقية السكان غير الموسمين من
الازدهام في حركة المرور في فصل الصيف ومن تضخم الاسعار التي
يسببها السياح ولكن الحقيقة الأسوأ من ذلك هي ان البحيرة لم
تعد تظلم من الناس . بذلك لم يعد باستطاعتنا الخروج الى
الشاطئ دون ان نرى احدا مثلما كنا نتجول على الهضاب لنلتقط
الخشخاش او خارجا فوق الرصيف الممتد في البحر لنراقب وصول
المركب القديم المسمى " نوح " من رحلته الى تبريز . كان حشد
الحافلات وسيارات الاجرة والسيارات الخاصة يشغل هذا الطريق ما
يقارب العشرة كيلومترات . وقد تبعثرت على الطريق العام المعبّد
الذي يحاذي معامل اللبن والخمر وسجن ريزاي حيث تجد جثث كلاب
واغنام بائسة مبعثرة هناك . ومع ذلك فقد كنا لانزال انا وجيرد
ننجح في الاجتياز بسلام في الذهاب الى مكان ابعد . فقد كنسنا
نسير بجانب شاطئ المدينة الرملية العام ، وشاطئ بوي سكوت
ونادي الضباط المقتصر عليهم فقط ، الى ان نخرج الى جانب صخور
حيث كان ينعدم في تلك المنطقة الرمل والسباحون . كانت خديجة
تعاتب شاكية من ان الخوض نحو الداخل الى منطقة الصخور ليس
سليما وذلك لعدة مرات عندما كنت اذهب معها . بما ان الاكراد
لم يكونوا سباحين ماهرين فقد كان سطح الشاطئ المنظور مهمّا

لهم اكثر مما كان بالنسبة لي . ولكن السبب الحقيقي لاعتراضات ومخاوف حديثة ونسرين ايضا كان يكمن في شيء آخر ، ولم اكن اعلم ابن ، الى ان قصبت اخرا يوما لابس في مدينة ريراى .

بدأت الرحلة من منزل في المدينة كانت عاثثة وعبدالله يخزان بعضا من اشك منزلهما فيه . وكان الوقت آنثا واخسر حزيبان وقد سلخ ذرويه الموسمية في البهيرة وكان الاكراد الذين تسمح لهم قدراتهم وطروفهم ينزلون من الحمال للاغتيال ولبس بحبا عن المتعة . وعاثثة وعبدالله كانا بروران المدسنة اكثر من اى كردي آخر ، وكان الترف يبلوح عليهما في اسفارهما . فعندما وصلنا الى مكان لقائنا معهما وجدنا ما لا يقل عن نصف درينة من الخدم يساعدون في تحميل سيارة اللاندروفر الكبيرة . كان هنالك العديد من القدور المعدنية الضخمة الملفوفة في مناشف واسيق شاي صيني وكؤوس شاي صغيرة مع اطباقها وكذلك سلال مشوية فيها الفدية غير معروفة وادوات واواني اخرى . كان هنالك بالاضافة الى الخدم ستة اشخاص ، عاثثة ، عبدالله ، خبيجة ، حيرد وانسما ونسرين التي كان الحاج اسماعيل قد سمح لها بمغادرة دستان لهذه المناسبة الخاصة .

لدى وصولنا الى البحيرة حصل موقف بينم عن السهيب ، حيث سئلنا انا وحسرد عن المكان الذي نرف ان نسج فيه ، وبما انه كان لدى احساس داخلي بما يمكن ان يكون عليه الشاطئ العمام ، فقد اقترحت السابعة المعرولة التي كنا نذهب اليها عادة ، راق اخسارى للشيوخ عبدالله ولكي نصابير من الخزع صدرت عن صديقاتي فغالب نسرين :

- ان المكان الذي نريد مارغرب الذهب اليه مكان رهيب .

وقد وافقها على ذلك خبيجة . لذلك سرنا عبر ممرات شاطئ ريراى العام الفيلة حيث اغترب منا بعض الانراك ذوى الملابس الرثة ، سسما كاسوا ينتظرون السبارة لتتوقف . تفاوض الشيخ

عبد الله معهم على استعجار ثلاثة اكواخ اذا صح التعبير. لقد كانت أسوأ نوع من المنتجات ، فقد كانت مبنية من السجواح خشبية مع الخيش وارضيات من الورق المقوى القذر . ويعتقد ان توزعنا على اكواخنا على هذا النحو : الخدم في احد الاكواخ وانا والنساء الاخريات في كوخ آخر وجيرد والشيخ في الثالث ، قررنا ان نمضي نحو الماء مباشرة . ذهبت النساء في اتجاه والشيخ وجيرد في اتجاه آخر . ومكت معظم الخدم في اماكنهم لاعداد الطعام . عندما وصلنا بقعة اعتبرتها عاثرة مناسبة ، بدأت النساء جميعا ، بخلع ملابسهن وصولا الى القمصان الداخلية القطنية او النايلونية الرقيقة . كانت جميعها تمت " الفستان والكراس " وبما اني كنت قد ارتديت لباس السباحة تحت فستان طويل فقد انتهيت من خلع ملايسي قبلهن . وبينما وقفت انتظر ، رأيت عددا من الذكور الكاملين اللباس يجوبون الشاطئ على مهل ذهابا وايابا ، على الرغم من اننا كنا لانزال في مطلع الصباح ولم تكن المكاتب في المدينة قد توقفت عن العمل بعد في هذا النهار. ماذا كان يفعل جميع هؤلاء الرجال ؟

اخيرا تقدمت النساء صوب الماء بخطى وقورة ، يغطسهن أنفسهن تدريجيا . وفي رأيي ان اللباس المبطل ، كان فاضحا اكثر من بذلة السباحة التي ارتديتها ، ومهما يكن فان ذلك لم يبد متناقضا لاحد غيري . ولا أظن ان احدى هؤلاء النساء الكرديات قد فكرت بارتداء لباس السباحة والذي يقال له " مايكسوت " بالفارسية لأن ذلك سيكشف عن سيقانها العارية والأسوأ من ذلك كان سيشير الى انها تمارس السباحة كرياضة ولن تعتبر مجرد زيارة سنوية للبحيرة ، لأغراض علاجية بحتة .

بينما كنا نعويم جميعا ونبلل أنفسنا في الهاء الصهل ، سبح بالقرب منا شابان ذوا شعر اسود ويتحدثان التركية ، كانا يرتديان بنطلونين اسودين قصيرين للرياضة ، نظرت اليهما وفقدت الرعب ، وتساءلت عما يمكن ان تقولن النساء ، توقعت ان

يهمل الرجال ببرود على اقل تقدير ، ولكن ومما اثار دهشتي ، ان نسرين بدأت تفحك معهما وعلى ما يبدو مشحفة الرجلين لسلوكهما قريئا . وتصرفت خديجة على نحو ابدت فيه المودة ، وحتى عائشة المتكلفة بالجد والاحتشام والتي اضطرب لآن ستناول طعامها في نفس الحجرة التي كان فيها زوجي لم تند مضايعة من انصراف الرجلين التركيين ، وهما في وضعهما المشترك من العري ، من الصعب علي تصديق ان هؤلاء النسوة اللواتي كن يفضن عبادة متسترات في شوارع ريزاي كن الآن في البسه فاضحة وبينما كان الرجلان التركيبان العربيان يسبحان بالقرب منهن .

التفت وبدأت بالسباحة مستعدة عنهما وبقيت النساء فسي اماكنهن ينادينني كي اعود ، فقد كان الماء خطرا وبالتاكيد سأغرق . كانت صديقاتي يلزم من العرق ، على الرغم من ان نسوة ملوحة مياه البحر بحسب سانية - جيد . لاء م الانسان . مثالا . فليئة . كان سهلا عليهن ان يمشين بحواسب الوهاد الشديسسه الانحدار ، والتي كانت تجعلني ارتعد من الخوف ، ولكن الماء لم يكن المحيط الملائم لهن . بدأ الرجلان بالسباحة متقدمين صوبي وكنت متأكدة تماما من ان دافعهما الى ذلك لم يكن الخوف على سلامتي . لقد كان امرا طبيعيا ان يمشيا مع جماعة من النساء الكردييات ولكن الساعت الحميقي كان وجود امرأة غريبة في لباس الساحة المشير للحريرة الجنسية .

بعثت من حرد عسر الماء وسحب مسرعة سانحاه ، وبذلك ظلت الرجلين ورائي تدرجسا . وعندما ولب قرب حرد جهسرت بشكواي . لم يكن هذا الشاطئ مليئا بالرجال الذين كان غرضهم الوحيد يكمن في الماء بطرفه على حرد اشوى فحسد وهو غابسه مظلومة ، ربما بعد السام من الحبات السائد في الشارع ، بل ان الماء نفسه كان قدرا . فقد كان من الضروري الساحة سعبدا حدا لنحب النفايات التي تلتقي قرب الشاطئ سماما . ولم نكس النفايات تلتقي على المحور التي اهدنا الذهاب اليها ايدا .

بالسباحة قربنا ، محاولين ان يلقوا نظرة علي من قســرب
ويخاطبوننا بانكليزية بسيطة ومكسرة .

حالما خرجنا من الماء ثانية وقد كستنا قشرة من الملح
اشتكت خديجة من ان دورتها الشهرية قد بدأت ، هذا هو ما كنت
افتش عنه ، فاقترحت ان نسير بها الى المنزل حالا . كنت ابحت
عن اي مبرر لكي نغادر . قبلت خديجة عرضي ممتنة ، ولكن اصوات
غامضة تعبر من عدم الموافقة صدرت عن نسرين . ولقد تركت لسدي
انصباعا بأنها تعتقد ان على خديجة الا تسافر وحدها مع امرأة
اجنبية وزوجها الخطر ، او انها ربما ارادت فقط مبررا لتذهب
معنا ، على اية حال صرحت انها هي ايضا ستغادر ، نظر البنينا
الشيخ عبدالله ، وقد بدا عليه الاحباط ، لماذا سذهب بهـذه
السرعة ؟ كان من المستحيل ان نوضح السبب الحقيقي .

ها نحن الآن ، غريبون رغبوا في السباحة ، وكثيرا ما ميروا
من مدى السرور الذي تشيره البحيرة في نفوسهم ، هانحن بالقرب
من البحيرة او بالاحرى عند شاطئ المدينة نواجه مشهد اجتماعي
ايراني وهو في قمة فظاظته ، كان المشهد يبدو كما لو ان احدا
قد قلب شوارع ريزاي رأسها على عقبها ، وجعل باطنها ظاهرها .
كانت النساء في شوارع المدينة متسترات ، بينما كان الرجال
يرتدون ما يرغبون فيه . اما هنا فالرجال كانوا كاملا لباسهم
بينما كانت النساء نصف عاريات . ولدى عودتنا الى القرية كان
مهما لنسرين ألا يقول احد عنها انها قد ركبت السيارة وحدها
معي ومع جيرد ، ولكن لا احد سبظهر قلقه عن كيفية ظهورها امام
سباحين تركيين .

- دعيتا نتشلى لبضع دقائق .

اقترحت نسرين وخديجة ذلك تماما ، قبل ان نهم بالمفسادة
وبما ان جيرد والشيخ عبدالله بدوا مستغرقين في محادثة ، لم
يكن لسدي مبرر للرفض ، تجولت معهما على مضطرب ، شاهد
الناس وهم بدورهم يرونني ، لقد كان هنا لقاء الاكراد والعجم

الحقيقي الذي شهادته خلال اقامتي في ريزاي . كان فيه شيء من الموضوعية ، مثل الاختلاط في الكلية ، مشهد اجتماعي نشأ من باطن اليأس ، مشهد عذراوات وزوجات كرديات ما زلن تحت الوصاية وقد تركن للخروج من فراهن لبعضه ايام ، ورجال يعيشون في مجتمع لا يقدر العديد منهم على تحمل اعباء الزواج الى ان يبلغوا الثلاثين او الاربعين من العمر .

كان كل شيء ممتعا جدا ومنورا للعقل عدا شيء واحد ، وهو انني لم اُقو على البقاء مجرد متأملة متحفظة . وكما هو الحال دائما ، فبان سلوكي الحقيقي وملابسي لعلقة لهما بالموضوع . ففستاني الطويل وبذلة السباحة الشبيهة ببذلة عمل لم تكن تشير الى شيء الا الى امرأة اجنبية غريبة . فاذا كانت النساء الكرديات قد مضين الى ذلك العدو على الشاطئ فالى أي مدى يمكن لامرأة امريكية ان تمضي بالنسبة لي . فقد آثرت مياه " درمان آقا " غير غير الملوثة بالنفايات ونظوها من الاتراك البلهاء غير اللبقيين . اما بالنسبة لخديجة ونسرين فدردمان آقا تفتقر الى ما هو مدهش ومشير ، وتفكيرهما هذا ينطوي على الهزل اذا قارناه . مسح حياتهما اليومية الرتيبة . اما ريزاي فهي حلم قد انبعثت فيه الحياة ، كنت قد شعرت بالتناقضات الجنسية في المجتمع الايراني حتى منذ مطلع اقامتي في ريزاي . فلأن الجنس محرم بشدة لذا تراه قابعا في فكر كل امرئ على نحو مستمر . ويغض النظر ممن كنت اتحدث معه فقد كنت اشعر به مستفحلا .

كان هوشنغ وشهرزاد يعلمانني ذات يوم لعب الورق ودعائني هوشنغ لآكون شريكته ، ومن ثم بدأ بالضحك المكثوم و اضاف فقط في اللعبة " ،ويمكنني القول ان طلابي الجامعيين كانوا يقهقهون على نحو هستيري لدى ذكر اي شيء يمت بصلة ولو بعيدة الى الجنس او عند ذكر المواضيع الجنسية او معالجتها في الادب . ولكن من جهة ثانية هناك جانب رومانسي في هذا الهاجس . فالايرانيون يحبون الشعر والاغاني اكثر من اي شعب آخر قبيضي اللقاء به .

فاحتسب رئيس الشرطة في رساي كان قد علق قصيدة للشاعر الفارسي الكبير سعدي ، على حائط مكتبه . ان قصائد الحب والمآسي تظنق متنفسا للاحباط الجنسي بطريفة ما وينحلق هذا على نحو مماثل في الحي الأحمر ، وعدا ذلك فهناك النساء الاجبيبات بأحلاقهن المعروفة جدا منذ عقود من الهولبود والافلام الاوربية النسي تعرض في ابران .

بغول الاكراد مفتخرين انه لبس لديهم كلمة اصلية مرادفة لكلمة " دامرة " فهذه العبارة المألوفة مقبسة من العربية ، ان الفري لبست كبيرة يحتم كاف ليسمح فيها ببيوت للدعارة ، ولكننا لو اخذنا كردستان الاكثر طهارة من الناحية الاجتماعية من ابران المتعدنة ، على حدة ، فقد شعرت بأن الجنس كان أقل استهواذا على تفكير الرجال الذين الثقبتسهم . ربما كان ذلك نتيجة الزيحات المبكرة او سبب قبول تعدد الزوجات ، على الرغم من أن الحاج اسماعيل كان يهتوق للحديث معي ، فلم اشعر ابسدا بأن ذلك الاهتمام الدامر الذي بينم عن سلوك الرجال الابرائيين بهدرمنه ، ولكن ما هو شعور روحاب الحاج نحوه ؟ هل كن محططات وممتعضات منه ؟ لطالما راودني ذلك السؤال .

جرت المعادشة السالبة في احد الابهام بيني وبين طه وقد بدأت سلسلة اسئلتي بهذا السؤال :
- هل صبح ان اتحاد اكثر من زوجتين في ابران هو عمل ضد القانون وان الروجة الاولى يجب ان تدلي بموافقتها على الثانية ؟
أوما طه برأسه مؤكدا ذلك ، وقد ارتسمت ابتسامة خفيفة على وجهه ، كنا كلانا نعرف اني قد طرحت سؤالاً بلاغيا ، بما انني وطه كنا مدركين تماما لقانون حماية الاسرة الذي كان الشاه قد سنه ، وكان ذلك جزءا من المراسيم التي شُرعت لمنح النساء حقوقهن التي لا ينتمين بها تحت ظل الشريعة الاسلامية . فقد سمح القرآن للرجل سانحاذ اربع زوجات وطلاق بمكن ان يحدث فسي أي لحظة . كانت السبل نندم امام المرأة في الماضي لاهرار الطلاق

إذا لم يرغب زوجها بتركها • وكان الشاه قد غيّر كل ذلك نظرياً.
سألت طه على نحو جدي :

— ماذا ستفعلون إذا أتى الدرك إلى دستان وسألوا والدك
عن كل زوجاته ؟ •

فكشف عن ابتسامة وأجاب :

— سندعوهم إلى الديوانخانة ونقدم لهم الشاي •

— وبعد ذلك ؟

— وبعد ذلك سيمضون في طريقهم •

لم تشكل كلمات طه مفاجأة مثيرة للدهشة ، بعد قضاء أشهر
عديدة في إيران ، لم يكن لقانون حماية الأسرة وحقوق النساء
الأولوية ، بل بالأحرى كان قد ورد في آخر قائمة القوانين التي
أرادت الحكومة فرضها على إيران • ومع ذلك فقد كنت قد سمعت
من العديد من الإيرانيين عما يدعى بتحرير المرأة ، ذلك الحدث
الذي كانت الحكومة تحتفل به كل سنة في "يوم تحرير المرأة"
والذي لم استطع مقاومة السوءال عنه • كان طه يبدو بالنسبة
لخديجة التي أصبحت زوجة منذ أقل من سنة ، راغباً في اتخاذ
فتاة اعجمية كزوجة أخرى له •

يبدو أن الرجال الأكراد ينظرون إلى قوانين الزواج نفس
نظرتهم إلى الحدود الدولية ، على أنها أمور يمكن مخاطلتها.
لقد أقرّت تشريعات في كل من تركيا وإيران لتحديد تعددية الزواج
والمكان الوحيد الذي يتم فيه خرق هذه القوانين في كلا البلدين
على الأغلب هو القرى الكردية •

قدمت إلى دستان في مطلع الصيف مرة ومعني مسحتي ، وقد
عزمت على أن يكون موضوع المقابلات التي سأجرها هو الزواج
ومرهب سوس خانم ، زوجة الحاج الأول ، الذي كان من الدند
عشره من عمرها عندما وعد والدها ، الحاج سوس خانم ،
على نحو محلف عن سوانه ماوا الدند ، لم يسكن في دستان
تلقى في النار • وقد هرب مع الحاج اسماعيل الذي كان قد

رأته مرة في عرس محلي لتتجنب ذلك الممير الرهيب . بعد هروبها لم يتكلم معها والدها لفترة طويلة ، لأن قبيلتيهما كانتا عدوتين . حاولت ان اتحل سوس المريضة ذات الوزن المفرط وهي فتاة في الثالثة عشرة من عمرها ، ولكن خيالي لم يسعفني . تساءلت فيما اذا كان الحاج مع زوجاته اللاهفات قد فكر مرة سوس وهي تابعة دون حركة ساعة بعد ساعة في حجرتها . هل يشعر بأي عاطفة تجاهها او يسترجع بعضا من ذكريات الماضي ؟ ام انه كان مستغرقا كلياً في زوجاته الجديديات الاكثر شبابه ؟

بما ان مريم زوجة الحاج الثانية كانت غائبة عن الحجرة لذا لم استطع ان أسأل عن زواجها ، وعبرت زينب ، الزوجة الاخرى المتحفظة عادة ، عن رأيها بغير تردد او خوف . فقالت وهي تهز رأسها وتضحك :

— لم ارغب في الزواج من الحاج . لقد كنت تعيسة جدا .
ولم تغل اكثر من ذلك .

كالمعاد لم نكن كلنا الزوجتين الحديشتين موجودتين في الحجرة . ساءل ان كانا تغضبان وفتنهما . من الواضح ان الزوجات الثلاث الاوليات المنحدرات جميعا من اسر اساءة رائلة كن يعسرن الزوجين الآخرين اسل مرلة مهن . لذلك ماكن بعض علاقات اجتماعية معهن ، وقبل ان اعادر اسرا تماما وفي وقت لاحق عندما عدت ، لمحت سرفه ، الزوجة الخامسة مرتبـس وكانت حاملا في اسهرها الاخير ومهملة قللا في كلا المرتبـس وقد رمقتني بنظرات ساخرة ، واكد لي النساء الاخريات بأنه ليس لدينا الشيء الكثير لنفعله معا .

طلبت من الحاج في اليوم الذي احضرت فيه مسجلتي ان يروي قصة هروبه مع سوس خانم ، فنظر اليّ وقد ملأه الرعب ورفض بصراحة ان يتحدث عنها فاثلا ان ذلك شيء معيب ومن ثم وعدني بأن يدلي بعدد مداول رمذوع عن مدى تدين عائلته .

حتى لو ان زينب وسوسن لم ترغبيا في التحدث عن الماضي
باسهاب او عن مشاعرهما تجاه الحاج اسماعيل ، فقد حدث شيء في
دستان في ذلك اليوم جعلني أؤكد الى اي مدى كانت نساء القرية
خارج حماية القانون المشرع في طهران على بعد ستمائة ميل
فبينما كنا جالسات في حجرة الحريم بعد تناول الغذاء والميكرفون
ينتقل على مهل من يد ليد ليضيف كل شخص طرفة او حكاية ، اذ
بالمرأة ذات الملامح الحادة بوشمها الأزرق المنقط على حكمها
تبدأ بالحديث . كانت تلك ، فاطمة نفس المرأة التي اشارت
اليها خديجة قبل عدة اشهر على انها والددة احدى روحي الحاج
الاخيرتين ، تلك المرأة التي لا يحبها احد . كانت فاطمة تتحدث
بصوت جاف وحاد عن مسألة عدم امنلاكها لسقف يأويها وعن سفرها
ساحرة عن مكان لها وعن عمرها المسافر على نهايته . لم أقو
على متابعة ما كانت تقوله لسبب ما ، ولكن خيل اليّ انه لامنزل
لها . واخيرا وعندما توقفت عن الحديث لسهرة عن روايتها
المثيرة للشفقة . سألت عما كانت تتحدث عنه . فخيم الصمت
على الحجرة ، واخيرا اجابتنى سرين :
- لقد اتخذ زوجها ، زوجة جديدة .

راقت النساء ملامحي ، بينما كنت اسنجم في تفكيري
احزان فاطمة بصمت ، من الواضح انها لم توافق زوجها على
اتخاذ زوجة اخرى ، وان زوجها لم يكن غنيا او عادلا بما فيه
الكفاية ليوء من منزليين منفصلين للزوجتين . عند ذلك شعرت فاطمة
باقصائها عن منزلها ، نظرت اليها متعاطفة ، ولكن العبرة بدت
وكانها تمور باستهجان مريم . فقد شعرت وكان مضيقنا كاست
ترغب في ان تخرس هذه المرأة او ان تمنعها من عرض مشاكلها في
مسجلتي على الملأ . ولكني كنت ضيقة ، لذلك لم تقل مريم شيئا .
هل كان ذلك لمجرد ان فاطمة هي والددة احدى زوجات الحاج المستخف
بهن . ام انه ثمة سبب آخر لعدم وجود شعبية لها .

لم تكن قد مرت فترة طويلة على سرد فاطمة لحكايتها عندما

شرعنا بتوديع مضيفينا في ذلك اليوم ، حيث اتت فاطمة وسألت هامة اذا كان بإمكانها الذهاب معنا في سيارتنا الى المدينة فأجبتها :

- طبعاً .

بدا من الطريقة التي كانت فاطمة ترشق فيها مريم بنظراتها والتي لم تكن قريبة على نحو كاف لتسمع ما يدور من حديث ، بدا انها كانت تحاول ان تبقي طلبها سرا . وبينما ذهبت الى منزل مريم لاحضار شيء ما . حضرت خديجة وطه الى القرب من نافسدة السيارة وتحدثت معي خديجة قائلة :

- مارغريت ، لن تأخذى تلك المرأة معك ، أليس كذلك ؟

- بلى ، ولم لا ؟

- بسبب وجود صدامات بينها وبين زوجها ، لا يريدوا ان تذهب الى ريزاي . يجب الا تفعل ما تقول .

اوضحت خديجة ذلك وقد لاح عليها القلق .

- لن يسبب ذلك مشكلة لنا . فهناك متسع كاف في السيارة .

قلت ذلك رافضة ان اتوصل الى النتيجة التي تودها خديجة وتابعت قائلة :

- اذا كانت على نزاع مع زوجها فهذا ليس من شأننا .

فقلت خديجة وهي تنظر بقلق الى مافوق الهضبة باتجاه مسكن والد زوجها :

- ولكن يا مارغريت هذا من شأن الحاج ، فزوج هذه المرأة

فرد من قبيلة الحاج ، وانت صيغة الحاج ، واذا اخذت المرأة الى المدينة فان روحها سيلوم الحاج وهذا سيتسبب في خلق مشكلة .

لمعت المرأة الموسومة من راوية نظري وهي نتدرج بسطء

المراسم ، ولما رأينا دسحة وهي سحبت الى نومعت

منراة . ماكب سارصن للبهها صراحه ، على الاطلاق ، وكل ما كان علي ان اعله هو الادعاء لطلب خديجة . ولدى عودتنا الى المنزل

راودني في الطريق شعور بالذنب وتساءلت عما كان يتوجب علي ان افعله ، هل اتسب في ثورة غضب ؟ وهل احدثت ضغينة اورط فيها الحاج اسماعيل الذي اظهر لنا كل اللطف والموودة في قريته ؟ ولكن ماذا عن فاطمة ؟ الى اي درجة بالغت من اليأس قد وصلت لتلجأ الى طلب المساعدة من اجنبيين باخراجها من قريتها ؟ ام انها كانت تحاول عن سابق تصميم ولصوران ترك الحاج اسماعيل؟ لماذا تكن لها مريم كل هذا الحقد ؟ هل كان ذلك ،لأنه توجس على مريم نفسها ان تعيش تجربة اتخاذ زوجة اخرى واحضارها الى منزلها ؟ لربما ان مريم لا تبذل تعاطفا تجاه النساء اللواتي لايتحملن ما كانت تتحمله هي نفسها .

لقد شعرت في مريم - التي كانت اكثر المضيفات تهذيبا واكثر الامهات حنانا - قساوة ، اظهرت نفسها في تعاملها مع كنائها . كانت مريم ، مثل الحاج اسماعيل تعتبر نفسها متدينة جدا فقد كانت تصلي خمس مرات في اليوم ، وتقرأ القرآن باطراد وانا متأكدة من انها وعلى الرغم من اعتدادها بنفسها واستقلالها قد قبلت القوانين الاسلامية المتعلقة بالمرأة . ومن المحتمل جدا ان مريم كانت تنظر الى فاطمة كامرأة شاكية ضعيفة تظنق المشاكل لنفسها وللبقية في دستان .

ولكن لم تكن الزوجات وحدهن مسجونات في دستان ، فقد كانت الفتيات غير المتزوجات اقل حرية بكثير . وعندما بدأنا انا وجيرد نسلّم بأن النساء الكرديات هن اقل ضيقا في افق التفكير من نظيراتهن الفارسيات والتركيات المتمدنيات ، وقع حادث في دستان اظهر لنا مدى فهمنا الناقص . وبالطبع فإن دستان لا تمثل كل قرية والحاج اسماعيل لا يمثل كل اب .

لم تكن خديجة قد نشأت مثلما نشأت عليه بنات الحاج اسماعيل وكانت قريتها بعيدة جدا وطريقة والدها في الحياة كانت لاتزال نصف مثرحلة . وعلى نحو مغاير عن سلفاتها المنفصلات

كانت خديجة قد قضت الكثير من الوقت فوق ظهر الفرس ومن الواضح ان عائلتها لم تكن تهتم بحماية عفتها لدرجة متناهية وكذلك كان واضحا ان فتيات زيلا ماكن قد نشأن مثل أمينة وآلال ولكن الحاج اسماعيل لم يرتكب اخطاء بقدر ما كان الموضوع يمت الى نسائه بصفة .

كان الوقت يصادف أواخر حزيران عندما سرنا صوب فناء دار الحاج اسماعيل ، حيث ظهرت اهرامات ضخمة من القش عند مدخل القرية . أوقفنا سيارتنا ونزلنا منها ، وتقدمنا نحو الامام باتجاه حجرة الحريم التي لم نر فيها ابدا ، ولم نبصر الحشد المألوف من الاطفال الرثي الملابس ، لا الخدم ولا الخادومات ، وحتى ولا كلب ، كانت سيارة الحاج اسماعيل اللاندروفر الخضراء غائبة ، ولاج الفناء الخالي غريبا تحت اشعة الشمس المعرقة . وتماثما عندما بدأ الشعور بالندم يراودنا لقرارانا التلقائي ، للقيام بهذه الرحلة القصيرة غير المعلن عنها ، ظهرت أمينة وآلال فسي الردهة فنادتاني قائلتين :

- أهلا مارغريت . كيف حالك ؟ أهلا وسهلا .

فأجبتهن :

- سلام آلال . سلام أمينة .

ومى ثم وبطريقة غير متقنة سألت عن مكان الحاج اسماعيل

فأجابتنني أمينة :

- انه بعيد عن المنزل ، منشغل بالحصاد . هل تحتاجين

لرؤيته .

تنامى شعوري بالانزعاج اكثر من ذي قبل . بالتأكيد نحن

لانهتاج رؤية الحاج اسماعيل . وفي الحقيقة لا يوجد سبب مقنع

لوجودنا في دستان ، ولاداعي لمناداة الحاج اسماعيل من ههنا

البعد وصرفه عن عمله . سألت غير عالة بما يمكن ان اقول غير

ذلك :

- كم يمكن ان يحده .

فأحابت امينة مشرة باصعها :

- ربما يكون هناك .

لم أر علامات على وجود بشر ولم ابصر سوى السهل الذهبي
الواسع الممتد نحو الاسفل .

- لماذا لا تدخلن وتجلسان ، فالمكان هنا لطيف .

اقترحته امينة ذلك ولم تقل آلال شيئا . ووقفت تحديق في
سعينين واسعتين مسدوهتين .

ألقيت نظرة على جرد الذي كان واقفا على مسافة قريبة،
لم تكن الفتاتان قد خاطبته وماكنت اعلم انهما تعلمان بوجوده،
في هذا الموقف الغريب مع وجود امينة وآلال فقط في المنزل
وعدم وجود احد في الديوانخانة خطر ببالي ان جرد لم يدخل
حجرة الحريم من قبل ابدا ، فاقترحت عليه قائلة :

- لماذا لا تنتظر في الخارج الى ان اري ماذا يحدث ؟

أوما جرد برأسه تحت اشعة الشمس المبهرة . كانت درجة
الحرارة مرتفعة جدا في الفناء الخالي من الظلال . تبععت
الفتاتين الى حجرة جلوس النساء ذات البرودة الهادئة والجدران
السميكة وحلوسنا على الأرض .

- أبين والد تاكما ؟

سألت الفتاتين متعجبة لعدم جلوس سوسن خانم في مكانها
المعتاد وعكازتها بجانبها . فأحابت آلال وهي تفتح فمها لأول
مرة منذ محيبي :

- انهما في الخارج تحت الاشجار ، تحاولان ان نلتفأ بالبرودة
واضافت قائلة :

- لم تعرفا انكما قادمان .

فقلت وانا اهم بالنهوض :

- اذا لربما يتوح عليا المغادرة . اظن ان هذا الوقت

لم يكن مناسباً للمجيء .

فقلت امينة التي كانت تتمتع بكياسة اجتماعية اكثر من ابنة عمها :

- لا ، لا ، لا لن تستطيعي الذهاب . لقد وصلت للتو .

ومن ثم قالت لاحدى اخواتها :

- اذهبي الى البستان واخري والدتي ان مارغريت وزوجها

هنا .

عندما اشارت الى حضور جيرد ألقيت نظرة عليه عبر قضبان النافذة ورأيتته واقفا تحت الشمس الحارة يتحرك مقتربا من النافذة ، فناديته :

- كيف الحال معك يا جيرد ؟

فهدق في جيرد وقال :

- حقا ان الجو حار هنا . ماذا تفعلين هناك ؟ هل تظنين

انه بإمكانني المجيء الى الداخل ؟ ام ان هذا سيشكل تهديدا

لسموهم ؟

لم تفهم امينة وآلال الجالستان في النهاية الاخرى من الغرفة الانكليزية ، ولكنهما أحستا بقلقي وبدأتا بالتهامس مع بعضهما وتجرات امينة قائلة :

- لماذا لاتدعين زوجك للدخول ؟

فقلت لجيرد من خلال القضبان :

- انهما تدعوانك للدخول .

بعد لحظة كان جيرد واقفا عند مدخل حجرة الجلوس ولدى وصوله تراجعت امينة وآلال قليلا الى الزاوية وسحبنا غطاءيهما على وجهيهما وبدأتا بالهمس بفزع . عندئذ جلست بين الفتاتين وزوجي المسيء . دأبت امينة وآلال على التحدث بانفعال بين الفينة والاخرى وكانتا احبانا تحاولان ان تكونا مهذبتين وذلك بـأن تقوما بادلاء ملاحظة او باخرى الي . ولكنهما كانتا تتجاهلان جيرد عن عمد . وكنت اعلم ان جيرد كان متضايقا في نفسه علسى

الرغم من اظهاره الأدب . وكنت اعرف منشأ غضبه فقد كنت انسا
وجيرد نعتبر ولاشهر متتالية شخصين حنسيين منبوذين في شوارع
ايران . فبينما كانوا يعتبرونني عاهرة ممكن بلوغها من قبل
اي رجل ايراني عابر ، فقد كانت النساء تترجل من الحافلات
الريفية التي كن قد ركبها مسبقا بدلا من الركوب في نفس وسيلة
النقل مع جيرد . ولو حدث ان لمس جيرد امرأة ايرانية ، لربما
كانت نهايته السجن ، اذا لم تكن الموت المعتم . لقد كان
موقفا لا يطاق ولا يمكن للمرء ان يهونه ليطيعه مع انقضاء الزمن
ولكننا في دستان كنا نُعامل دائما كآناس عاديين . فقد جلس
جيرد في حجرة مريم ، معها ومع ابنتها وكنتها ، ولم ينظر اليّ
قط رجل نظرة فيها تساؤل . ولكني كنت اعرف منشأ قلق امينة
وآلال ايضا ، فلكونهما فتاتين عذراوين ، فهما لى تعتملا أقل
اشارة توجه اليهما . ابرز الموقف مشكلة كامنة لدى الاكبراد .
فمن جهة ، فان حسن استقبال الضيف امر الزامي ، ومن الجهة
الاخرى من المفترض الا تظهر الفتيات امام رجل ، غير مصحوبات
بفرد من العائلة .

لحسن الحظ ، عادت والددة آلال حالا من تحت الاشجار ورافقتنا
الى المنزل الذي كان اخوها الحاج اسماعيل قد بناه لها في
احد جوانب فناء دار الحريم . كانت غلاويژ خانم في اواخر
الاربعينات من عمرها ولسنين ظلت متزوجة من كردي عراقي ميسال
للتعددية الزوجية . ولكنه لدى اتخاذه زوجة اخرى انفصل هو
وغلادويژ عن بعضهما واتت هي لتعيش مع اخوها في دستان . من
الواضح ان جيرد لم يشكل تهديدا لسمعتها . ولم تكن مريم بخشى
البقاء وحدها مع رجل احببي . ولكونها متزوجة ، فقد ظن هذا
اختلافا علاوة على كبر سنهما واستقلالها النسبي مع أولاد سُسان .
كانت مريم وغلادويژ تبدوان مرتاحتين مع جيرد اكثر من زينس
بكثير . ولكن خارج كردستان فعنى النساء المتزوجات ماكن
يفهمن بالبقاء وحدهن مع جيرد . فعلى الرغم من كل تعلمهن

وكل الفرص العصرية الملائمة ، فان النساء الفارسيات والتركيات ماكن بتحدثن او يتصرفن بسلوك متحرر مثل نظيراتهن الكرديات . فمثلا قام جيرد مرة بزيارة قصيرة الى جيراننا ليسلم رسالة للسيد امين زانة . وهو مدرس في الكلية . وقد اجابت زوجته نازي نفس نازي التي تخطت عني ونحن في طريقنا معا الى البازار قبل عدة اشهر بوساطة الاتصال الداخلي ان زوجها ليس في المنزل ولكنه سيعود حالا ، ومن ثم دعت جيرد للدخول قائلة :

- "بفرماييد" وتعني تفضل بالدخول . فانتظر جيرد معتقدا انها ستفتح الباب وان زوجها سيأتي ويسلم الرسالة له شخصيا وعندما لم يحدث شيء دق الجرس ثانية ، وكررت المرأة دعوتها " بفرماييد " وانتظر جيرد ثانية . ولم يحدث شيء ثانية ، عندها وقف هناك وقد غامره شعور بالغباء محاولا ان يفهم بماذا كانت منهمكة . اخيرا اكتشفت انها لاتنوي ادخاله ، فقد كانت دعوتها مجرد شكليات . كانت نازي تعمل خارج منزلها وهي خريجة كلية ، متزوجة من استاذ رياضيات . ولكن كان من غير الوارد ان يخطو جيرد ويعبر الباب الخارجي في غياب زوجها ، حتى لو كان مقرررا في برنامج انه سيعود في خلال خمس دقائق .

حدث موقف شبه مماثل لهذا في يوم آخر ، عندما ذهب جيـرد ليتحدث مع زوج امرأة مع ولديها ، كنت قد قضيت وقتنا معها ، وهي امرأة كهلة ، ذات منزلة اجتماعية . مع ان السيدة جام تلك ، لم تكن داخل منزلها ، بل كانت تشرف على الخدم في فناء الدار ، فلم يسمح لجيرد بالدخول الى البوابة الامامية ليبلغ رسالة . فقد قالت السيدة جام بصراحة :

- عد عندما يكون زوجي في المنزل . وبعدئذ اغلقت البوابة . لم يكن توقف العمال في شارعنا عن وضع القرميد ، كي يحددوا في نوافذنا مجرد دهابة ، عندما كان دارا يتردد على منزلنا . من الواضح انه لاتوجد امرأة محترمة اخرى في المدينة تغامر بعفتها على هذا النحو .

بلغت دراستنا لسلوك النساء في الفرية وفي المدينة الحمد
الاقصى عندما لاحظنا ان الحاج اسماعيل كان يتأملنا عن كثب،
فقد كنا في احدى فترات العصر نقوم بزيارة لدستان عندما
قررت العودة الى المنزل ، فبعد ساعات من الجلوس في حجرة
الحريم وانا اصفي الى القبل والقال الذي لاجدوى فيه ،هاجمني
الشهور بالملل والاختناق ايضا من شمس الصيف الحارة . فالتطقت
الموضوعة فوق بعضها البعض من الاقمشة الموءلفة لملابسي الكردية
لم تكن تمتص العرق على الاطلاق .

وقفت فجأة وانا اعرف اني ارتكب زلة في سلوكي الاجتماعي
واعلنت اني ذاهبة الى الديوانخانة ، حيث كان جيرد يتنـسـاول
الغذاء مع الحاج ، هدقت النساء في متعيرات عندما سرت الى
خارج حجرة الحريم ،ورمقني خادم الحاج اسماعيل الطويل بنظرة
عندما وصلت الى مدخل الردهة من مسكن الرجال .

عند مدخل الباب اوضعت لجيرد سبب مجيئي ، بينما كان
الحاج اسماعيل يراقبنا . اجاب جيرد بأنه يريد البقاء لأن الحاج
اسماعيل طلب منه ان يرافقه للصيد ولكني قلت بكلمات مضطربة
اني اريد الذهاب . لم تكن لدي وسيلة لبقة لأنضم لحملة صيد مع
الرجال وكنت ايضا قد امضيت وقتا كافيا مع الحريم في ذلك
اليوم .كل ما كنت اريد ان اقوم به هو ان اذهب للمنزل وانسزع
ملابسي وأخذ حماما سريعا . سأل الحاج بفضول :
- ماذا تقولين ؟

فأوضح جيرد اني ارغب في المعادرة ، عند ذلك هت الحاج
جيرد على البقاء وقد مدت عليه الخبة ، واخيرا كان لرأيي
الغلبة ، فنظر الينا الحاج كما لو أنه يحسب حسابا دقيقا وقال:
- انها هي التي تفرر ، أليس كذلك ؟

لم يكن ذلك اتهاما ، بل ملاحظة وقد احدثت وقفة للتفكير
بأن الحاج اسماعيل كان يحاول فهمنا بقدر ما كنا نحن ايضا

نحاول فهمه . عند العودة الى مجلس الحريم لم ترغب النساء في ان يرينني اغادر ولكنهن افترضن انها كانت رغبة روجي . ولم احبرهن بحقيقة الأمر .

على الرغم من انه كان امرا طبيعيا ان اعمم الاشياء، نتيجة لتحاربي في دستان ، فقد كان علي ان اذكر نفسي ان الحاج لا يمثل كل الرجال وان دستان لاتمثل كل القرى الكردية . فقد بدت بعض الاماكن في كردستان اقرب الى ان تكون مثل ريزاي فسي معاملة الرجال لي ومعاملتهم لنسائهم . كانت مانوا هي احدى القرى التي لم يجلس فيها جيرد مع فتيات او نساء كرديات ابدا وقد حاول فيها الرجال ان يقنعوا جيرد باتخاذ زوجة ثانية .

حالما اتضعت لي روية دستان اكثر ، اصحت ذكرياتي عن مانوا اكثر ضبابية . فقد تراءى لي كما لو اني كنت قد سافرت الى تيرغاوار البعيدة منذ عدة سنوات وليس منذ عدة اشهر — بمرافقة السيد ظيلي وسائقه في الوقت الذي كنت فيه اكساد لا أتكلم الكردية ولم اكن اعرف بعد شيئا عن العادات الكردية ولم افهم على الاطلاق ان جميع نساء القرية كن بعيديات ينظمن عرس بروانة المسكينة ، تلك الفتاة التي ألقت بنفسها في النار . فكرت لفترة قصيرة بمصير بروانة ولكنها تلاشت عن تفكيري تدريجيا . كان العرس في زيبلا لراشدبن متعقبن في الرأي على الأقل ، على الرغم من غرارته ، كان عمر العروس ثمانى عشرة سنة ولم اقدر ان استسيخ انها قد هربت دون ان تحمل اي عاطفة نحو الرجل الذي تزوجته . لم اسمع عن فتيات شابات في دستان انهن القين بأنفسهن في النار على هذا النحو ، ولكن من كان سيذكر لي مثل هذه الاحداث ؟ .

ابتدت شيرين وبروانة الود في ذلك اليوم الذي خلى فسي مانوا ولكنهما لم تحتاني على العودة الى قريتهما ولم يطلب مني السيد ظيلي ابدا ان اذهب معه ثانية ، ولو لم تحدث زيارتي لمانوا بالصدفة ، ماكنت سأراها ابدا .

لقد خلصت الى نتيجة في وقت ما ، ان المجموعات الكردية التي التفيت بها متميزة تماما ، بما فيهم اللاحقون العراقيون عائلة الحاج اسماعيل وحند مانوا واكراد تركيا . ولكني عرفت تدريجيا انهم جميعا يشكلون جزءا من كل اكبر ، وان العدسـد منهم كانوا يعرفون بعضهم البعض .

كانت الحرب قد وضعت اوزارها وحل فصل الصيف ،ولكن مدرسة اللاجئين في ريزاي استمرت في دوامها . كانت سلطات الشاه قد نقلت مدرسة الاكراد الى مسكن آخر وقد ترك ذلك لدى انطباعا انهم كانوا يحاولون ان يخلقوا المضابقات قدر المستطاع للاجئين كي لا يستمروا في ادارة مدرستهم . لقد كان موقفا محفوقا بالمخاطر بالنسبة لكل الاكراد اللاجئين الذين كانوا لابرالسون في ايران . وعلى نحو يندر بالسوء ، ادعت الحكومة الابرائية حينئذ انها على وفاق مع الحكومة العراقية ،وفي احسن الاحوال كان الاكراد العراقيون الذين ساعدتهم ابران ذات يوم يشكلون عائقا امامهم . وفي أسوأ الاحوال يعتبرون ذوي تأثير خطير على اكراد ايران ذاتها . كانت السلطات الابرائية تدرك جيدا ان الاكراد العراقيين الذين بقوا في ايران معرضون للهِجوم لانهم كانوا بخشون العودة الى بلدهم عندما طلب منهم العراق ذلك . كان العديد منهم يأمل في الهجرة الى امريكا واوروبا أو أي مكان آخر ،ولكن الحكومة الابرائية كانت في ذلك الحين ترفض مغادرتهم البلاد ،ولم تكن امريكا تبدي اي اهتمام في مسألة اخذهم ايضا . لقد خرجت فيتنام من يدها للتو ،وعلى الرغم من ان هؤلاء الاكراد كانوا يشكلون مجموعه ضئيلة بالمقارنة مع تدفق اللاجئين الفيتناميين الى الولايات المتحدة فان مسوؤلا ما في واشنطن كان قد اصدر القرار برفض الاكراد .

كانت هيئة التدريس والادارة في مدرسة اللاجئين قد تغبرت بمحملها نقرسا . فبدلا من وجود حريحي كليات او مدرسين متمرسين كان هالك الكثير من الشباب والعديد منهم كانوا في الجامعة عندما اندلعت الحرب الكردية ، كان هؤلاء المدرسون

ومعظمهم من الرجال - هم الاكثر كفاءة والممكن الاستفادة منهم في هذا الوقت . كان قواد اللاجئين قد قرروا ان يعلموا اطفالهم الكردية ، الى ان يمنعهم الايرانيون عن ذلك بالقوة وقد ابلغ الطلبة ان يواظبوا على المجيء خلال فترة الصيف للتعويض عن الوقت الذي تبدد لدى توقف الدراسة بعد هدنة وقف اطلاق النار . بدأت بالذهاب الى الصف الثاني وشرعت بتعليم الانكليزية للطلاب ذوي المستوى الاعلى . ولكنني كنت اشعر بالضيق بيزداد رويدا رويدا في المدرسة . كانت مجموعة المدرسين الجدد يعلمون في ناغادة ، وهي مدينة تقع بالقرب من مهاباد التي الجنوب من ريزاي ، حيث كان البرزاني قد اتخذها مقرا للقيادة لم يكن احد من المدرسين يعرفني من قبل سوى مدرسة الرياضة ، الآشورية وقد اوضحوا لي انهم لم يصدقوا ولو ثانية ان هويتي هي كما اوضحتمها لهم .

في احد الابطام ذكر مسعود مدرس الصف الثاني ، وهو رجل فارغ الطول يناهز التاسعة عشرة من عمره ، ذكر في حجرة المدرسين انه ذاهب الى مانوا في نهاية الاسبوع . فسألته بفضول :
- ماذا هنالك في مانوا ؟
رمقني نظرة فيها من الشك الكثير وقال :
- ماذا تعرفين عن مانوا ؟
- لقد فمت بزيارة لها في الخريف الفائت .

قلب ذلك ، مع قبولي حقيقا انه سيكون من الصعب علي من الآن فصاعدا الحصول على جواب مباشر من لاجيء ، كانت الاسئلة تحا ب دائما بالاسئلة . وبما ان المجموعة الجديدة كان معظمها من الرجال تقريبا ، فقد حمزت في تفكيري ان هذا يشكل جزءا من المشكلة . لقد رفضت حتى ولو مدرسة واحدة ذات كفاءة عالية ، كانت في المدرسة قبل انتهاء الحرب ، ان تعود اليها الآن كان وجود عدد من المدرسات الاناث وكذلك وجود مديرة المدرسة يخلق جوا مختلفا تماما وبذلك ازعجتني النبوة المتعجرفة التي

طلب فيها مسعود مني معرفة من الذي اخذني الى مانوا . فأجبتته
بنزق :

- لا أحد تعرفه .

عند ذلك شدد بنظره اليّ ، فاستدركت ما قلته - فلو رغبت
في العودة الى مانوا وقمت بذلك ، فلن اقدر ان اصرف نظري
عن مسعود الذي يمكن ان يبرهن في النهاية انه شاهد لي هناك
فأجبتته طوعيا :

- لقد اخذني الى هناك السيد خليلي الذي يعمل في محطة
الاذاعة ، عندما كان يقوم بتحقيق صحفي .

أوماً مسعود برأسه وقد نفذ صبره ، كما لو انه لم يهتم
حقيقة بالمعلومات قط . وسألته :

- ولماذا انت ذاهب الى هناك ؟

فقال :

- عائلتي تسكن في مانوا .

- اذا فأنت هركي ؟

- نعم ، انا هركي .

تأملت وجه مسعود الممتلئ بشوته الساحبة وعبدت
الرماد بسبب . لقد اوحى اليّ احدهم ولم اعد اذكر من هذا السوء
الهركين لم يكونوا وراء البراءة في هذه المذمة من النزاع الاخر
الذي جرى في العراق . وهذا مجرد اسماء خلفها انهيار
جمهورية مهملات . ولكني ان اذكر اني لم قبل ذلك مسعود هركين
في الاطلاع في المدرسة . في الحقيقة كان العمدة من طوع لاء
الكراد من ان لدرجة اسعدنا انكاروا مستوحشوا انهم
السلالة والاسم والنسب الى اي قدام . اني سمعت في المثال
الاول الذي سمعت عنه ، على وجود رابطة بين لحيء عراقي والاكرا
في قرية ايرانية . وقد تساءلت كثيرا عن كيفية احتيال الحكومة
الايرانية للسيطرة على هذه الضروب من العلاقات . فقد كان واضحا
انهم يرغبون في الحد من التواصل ما أمكن بين الاكراد المحليين

واللاجئين وكانت هناك اشاعات منذ وقف اطلاق النار تقول ان الحكومة ستنقل جميع اللاجئين العراقيين بعيدا عن الحدود الغربية التي تمكنهم من ان يكونوا على اتصال مع الاكراد الايرانيين . ولكن حتى ذلك الحين لم يحدث شيء من هذا القبيل . سألت مسعود :

- هل تظن انه بإمكانني الذهاب معك ؟

وعندما احسست انه على وشك الرفض اضفت على نحو سريع :

- لدينا سيارة ، لدينا سيارة ، لذلك بإمكاننا ان نأخذك

الى هناك .

شرعنا انا وجيرد ومسعود في الجمعة التالية بالرحلة الى مانوا . وعندما وصلنا وتجمع الرجال ليرحبوا بنا ، اشار مسعود باصبعه باتجاه حجرة الحريم وقال لي :

- انت ، اذهبي مع النساء

رغمته بنظرة احتقار وفكرت في البقاء لفترة وجيزة مع الرجال لأزعجه . كان مسعود يرتدي دائما بذلة رمادية ذات تفصيلات حسنة . كان يتحدث القليل من الانكليزية . ومن الواضح انه كان قد انتقل للسنة الاخيرة في الكلية ضمن نظام الجامعة العراقية قبل ان يضطر للفرار ، لم تكن ملابسه وثقافته توحيان بشيء يمت بصلة للقرية . ولكن سلوكه معي كامرأة كان مزعجا وجنسيا اكثر من اي رجل كردي قبليّ التقيت به . عندما وصلت الى داخل احدى حجرات الحريم ، اقتربت مني فتاة نحيفة ، ذات شعر عسلي وقصدت جلست عندما رأيته . لقد كانت صورة طبق الأصل عن بروانه . ربما ان العرس لم يحدث فط ؟ ا ولكن لا . لقد كانت تلك اخت بروانسة . كانتا تقريبا بنفس العمر وكانتا تبدوان مثل توأمين ، دهشت كيف كان لوالدهما ان يختار واحدة منهما ليلقيها في النار :

سألت اخت بروانة :

- اين هي . انا .

- انها في العراق .

- العراق ؟ !

- نعم ، تعتم عليها ان تلحق زوجها الى هناك بعدد ان
انتهت الحرب . لقد بكت كثيرا ولكنهم اجبروها على الرحيل .

لم اكن اعلم ان عريس بروانة العجوز هو عراقي فضلا عن
وجود علل اخرى فيه . فكرت في بروانة اللطيفة ، الخجولة وهي
تنكر انها على وشك الزواج . وهاهي الآن قد اجبرت على ان تغادر
ارضها الأم . ربما لن يحدث ان ترى اسرتها ثانية ابدا . فقد
كان محتملا ان الهجرة الهركية السنوية لن تحدث ثانية قط مع
نشوء العلاقة الجديدة المشتركة بين ايران والعراق واتخاذ
اجراءات صارمة بشأن الاكراد .

اخرجت اخت بروانة ، البوم الصور وارتنني صور عرس بروانة
والصورة التي انطبعت في ذهني ، كانت بروانة وهي تتكأ على
نافذة صغيرة في الطابق العلوي في مسكن ميرخان في المدينتي ،
وقد بدت الفتاة الصغيرة حبيسة ولاح عليها اليأس ، داخل ذلك
المنزل الكبير ، مثل اميرة في حكايا الجان . ولكن لم تكن
لهذه الحكاية نهاية سعيدة .

مضى بقية ذلك اليوم في سبيله ، وكان ذلك اليوم شبيها في
ظاهرة بيوم في دستان . حيث مكث جيرد مع الرجال ، بينما بقيت
انا في دار الحريم مع النساء وقد خاطرت بالخروج في جولـة
برفقة اخت بروانة الشبيهة بها . و ميرخان نفسه كان غائبا عن
مانوا تلك الليلة .

قبل ان يغادر في ساعة متأخرة من عصر ذلك اليوم ، ذهبت
الى الخارج وسألت جيرد ، اذا كان بإمكانه استخدام آلة تصويره
في التقاط صور للنساء في الداخل . لأن الاضاءة هناك لم تكن
كافية تماما لآلة التصوير التي بعودتي . فأشار جيرد انه يجب
عليّ ألا اطلب منه ذلك ، بل من السادة الذين حل عليهم ضيفا .
ومندما اعدت طلبي ، موجهة اياه للرجال ، نظروا الى بعضهم وهم
يتضاحكون .

— لم لا ، لم لا ؟
اجاب اكبرهم سنا متحمسا لذلك .

لقد كانوا جميعا مستعدين لبعض التسليبة المنعثة ، مضت
المجموعة محتشدة وهي تصعد السلالم الى دار الحريم ، وجيبرد في
مقدتهم ، ولكن النساء انكمشن على انفسهن من الدمر عندما رآهن
جميع الرجال عند المدخل ، فقال الرجل الذي أعطانا الأذن
بالتصوير :

— أترى ؟ ان الامر على ما يرام بالنسبة لنا ، ولكن النساء
هن اللواتي لا يرفهن في ذلك .

التقط جيبرد بعض الصور ومن ثم انسحب بسرعة والرجسـال
يقتلهون وراة .

عندما كان أوان الرحيل ، دعتني النساء للغداء الليلة هناك
وقد أفراني ذلك ولكن كان على مسعود العراقي ان يعود الى
ريزاي ليمارس التعليم في اليوم التالي . لقد شعرت بالسعادة
لتوفر هذه العجة ، فلقد بدا لي ان مير خان ليس ضاعيا فسي
جعلنا نخوض تجربة مطابقة لتجربتنا مع الحاج اسماعيل ، على
الرغم من اني لم اثق معه ، كانت اشياء عديدة في مانوا منطوية
على سمات متناقضة ، ابتداء بقمعة زواج بروانة وانتهاء بالطريقة
التي ترك فيها الرجال جيبرد ليهلتقط صور للنساء دون استئذانهن
لم يحدث شيء من هذا القبيل مع الحاج اسماعيل قط .

قمنا برحلة اخرى الى مانوا ، وذلك لأن مسعود فطـل سيارتنا
اكثر بكثير على الحافلة الريفية وايضا لأن النساء كن قـسـد
رجونني كي اعود . ولكن لدى مودتي في التاريخ الذي حددناه لم
ارهن . ان شيئا مثل هذا لم يكن وارد حدوثه على الإطلاق . ولسو
أنه حدث فان الحاج اسماعيل وابنه طه كانا سيهران اكثر منّا
على مراعاة المواعيد .

اظهر مسعود نزيمته ثانية عندما اخذناه الى قرية اسرته

وهذه المرة لم يأمرني بالذهاب الى دار الحريم ، بل بدلا من ذلك تركن أنتباهه على مسجلتي التي احضرتها معي حيث اشارت فرعه ، فسأل :

— ماذا تفعلين بتلك ؟

— سأسجل بها قصصا .

— كان عليك ألا تحضريها . يجب ان تتركها في السيارة .

حاول جيرد التحدث ويمكنني ان اقول اننا كنا علي وشيك صدام شامل ، لقد تعب جيرد من تعجرف مسعود الشديد مثلي تماما . اخبرت مسعود ان تسجيل القصص هو من ضمن عملي وعزمت على ان اواكب التسجيل دون اخذ أي اعتبار لشكوكه . ولكن لعدم رغبتني في ان اتسبب في فورة غضب ، قررت ترك الآلة تحت مقعد السيارة لذلك الحين على ان استردها بعدئذ عندما يبتعد مسعود عن هذه الانحاء .

وجدت الأشياء في مسكن النساء كما كانت عليها في المرة الاولى التي زرت فيها فائوا . ومعظم النساء غائبات . وكانت الفتيات ، شيرين واخواتها قد ذهبن ايضا الى بحيرة ريـزاي وبذلك اصبحت في مهدة احدى زوجات ميرخان ، وهي امرأة فارعة الطول ، ذات شعر اسود ، بسيطة في سلوكها . جلست معها في حجرة كبيرة ، كان عدد من الخادومات يتناولن اللقم الاخيرة من الفطور المكون من الخبز واللبن ، رأيت امرأتين تجلسان امام قوائم طينية وتستخدمان مطارق صغيرة لتقطيع قطع السكر المخروطية الشكل الى كتل بحجم القضة التي يحتاجها الشاي . قالت احدى المرأتين انها تعرف قصة سترويها ضمن مجموعتي ، فشرعت فـسـي مغادرة الحجرة لأحضر مسجلتي . فسألتنني مضيفتي الى اين كنت ذاهبة ، فأجبته :

— الى سيارتي .

— خانم ، سيارتك ليست هناك .

انها مخطئة بالتأكيد ، اسرعت الى النافذة ونظرت نحو

الاسفل الى الفناء . وجدت المكان الذي تقف فيه سيارتنا ارضا خالية . فسألت بصوت مرتعش .

— أين هي ؟

— لقد اخذها الرجال وذهبوا للصيد .

قالت ذلك المرأة ذات الشعر القاتم ، فلم اصدق ان جيرد قد مضى بمسجلتي دون قول اية كلمة ، انه يعرف جيذا اني كنت قد عزمت على استخدامها ذلك الصباح .

أجلت بنظري في الحجرة المملئة بنساء لم أرهن من قبل ابدا وشعرت اني قد وقعت في شرك . كنت قد تجاوزت مرحلة الجلوس والتحدث وعلى نحو خاص مع هؤلاء النساء . لقد اتيت لمانوا متوقعة ان اعمل بدأب ، وكم سيطول الوقت قبل ان يعود الرجال ؟ هب ان السمك والماء اصابا مسجلتي ؟ !

فقدت القصة التي كنت انوي تسجيلها سلفا ، لأنه توجب على المرأة التي تطومت بأن تسردها ان تذهب خارجا وتخزن الخبز في التنور . ولكنني كنت اعلم انه يمكنني الحصول على قصص اخرى لو ان المسجلة كانت معي فقط . ان الذي اقلقني هو الطريقة التي اخذت فيها السيارة ببساطة دون ارجاع مسجلتي . هل كان خطا من التعاون معي وخداع مسعود امام ناظره ؟ حاولت ان اوضح سبب قلقي لهؤلاء النساء ، ولكنهن كن ينظرن الي باندهاش . فكيف لامرأة ان تناقش رغبة زوجها ؟ ولرغبة مضيفتي في تحسين مزاجي اخرجتني في جولة في القرية للقيام بزيارة الى زوجة الملاك .

في وقت لاحق من عصر ذلك اليوم وبعد ان عاد الرجال ، حيث كنت جالسة مع مضيفتي في حجرة نومها ، ومسجلتي تقبع بأمان الى جانبي ، اقترحت عليها انه بإمكاننا المضي في رحلة قصيرة الى النهر الذي ذهب اليه الرجال للصيد ، فسألت وهي تضعك :

— ولكن كيف يا خانم ؟

فأجبته :

- بامكاني السير الى هناك ؟

سألتني وقد اتسعت عيناها :

- بدون زوجك ؟

فقلت :

- نعم

لكنني حالما اقترحت القيام بهذه الرحلة ، ادركت اني لم اكن ارجو في الذهاب واني اردت فقط ان اظهر انه بامكاني أخذ السيارة انا ايضا . ولسوء الحظ لم يتوفر المجال لوضع هذه المسألة موضع نقاش ما او تسلية وفي مثل هذا التظاهر مع هذه المرأة ، فقد أخبرني مسبقا انها لاتسبح او تصيد السمك وانها تخشى السلاحف . كنت متأكدة من انها ستأخذ خمسة اشخاص آخرين معها للحفاظ على عفافها .

ابلغتها اني ماضية الى الديوانخانة متظاهرة اني احتاج الى استئذان زوجي ولكن رغبتي كانت ضعيفة في الذهاب الى النهر . أوامرات المرأة برأسها ، وبدأت بهبوط الدرج حتى عبرت الفناء . قابلت ميرخان في حجرة الجلوس للمرة الاولى . وكما قال جيرد كان يشبه الى حد بعيد موظف تأمين من الغرب المتوسط في الولايات المتحدة بعينييه الزرقاوين ووجهه الناعم وجسمه الممتلئ . لم يظهر سلوك ميرخان شيء من الانفعال العصبي الذي كان يتميز به الحاج اسماعيل . كان الرجل يضح بالثقة ويرودة الاعصاب وينظر اليّ بامعان دون ان يبتسم .

كان في محفظتي صور شيرين وبيروانة التي كنت قد التقطتها خلال زيارتي الاولى لمانوا في الخريف الفائت . كنت قد اعطيت السيد خليلي مجموعة من هذه الصور منذ زمن مضى ليعطيها لشخص ما كان في طريقه الى تيرغاوار ولكنها كانت قد اختفت دون ان يثير ذلك دهشتي . وفي زيارتي الاخيرة قالت شيرين انها لستم ترها ابدا . والان لدى مجموعة اخرى لاعطيها لشيرين الغائبة عن القرية . ولعدم معرفتي النساء اللواتي يمتن بصلة قرابة الى

شيرين ترددت في تسليمهن الصور . وحيث انني واقفة وجها لوجه مع ميرخان ادركت انها فرصتي الاخيرة . ولكنني عندما سلمته الصور وطلبت منه ان يعطيها لشيرين شككت في انها ستراها يوما ما . وماذا يهم رجل ، كان قد زوّج ابنة ذات خمس عشرة سنة ، من رجل عجوز له زوجتان اخريان ، ولماذا يرجع نفسه بوصول او عدم وصول صور لابنته كان شخص ما قد تركها لها .

تماما عندما هممنا بالمغادرة ، بدأ ميرخان وعلى نحو مفاجيء يتصرف بعناية كمضيف مهتم وقدم لنا قطعاً كبيرة من البطيخ . تناولناها ونحن واقفان في الخارج ومن ثم صعدنا السيارة تساءلت عن ماهية الرأي الذي كونه عنا اميرخان . هل كان مقتنعا مثل مسعود بأننا جواسيس ؟

كان من المحتمل جدا انه اعتبرنا شخصين غير مهمين ودون فائدة له اولا في شخص مهم آخر . كان ميرخان رجلا سياسيا محكماً وكما اخبرنا بنفسه كان قد طار لتوه الى طهران لحضور المؤتمر الأول لـ " رستاخيز " حزب الشاه السياسي الجديد .

كان واضحا تماما لي ولجيرد ، الاختلاف الجذري في اسلوب الحاج اسماعيل و ميرخان . كان الحاج يظهر ولاء كلاميا للحكومة الشاه للحفاظ على حياته . ولكنه لم يمتد بعيدا لدرجة يصبح فيها مناصرا متحمسا لـ " رستاخيز " فضلا عن ذلك لم اسمع بزيجات مثل زواج بروانة في عائلته ، على الرغم من ان الحاج لم يكن يعامل بناته معاملة حسنة تماما . فكل صورة كنت قد ارسلتها مؤخرا من امريكا لخديجة ونسرين او مريم - ويحرص من الحاج كانت قد سلمت كما ينبغي . من الواضح ان ميرخان هو رجل الاعمال الهادئ ، الامصاب المتميز في اية ظروف متغيرة . بينما كان الحاج اسماعيل انسانا حالما ، حاد الطبع ، مستبدا في احيان كثيرة ومحا في احيان اخرى . ان الاختلافات من وجهة نظرنا بين الرجلين الكرديين ، ظهرت بوضوح من خلال تعاملهما معنا . لقد جعلنا اميرخان ندرك اكثر من قبل كم كنا محظوظين للقائنا مع الحاج اسماعيل .

الفصل الثامن عشر

عندما تستخدم النساء الكرديات تعبير " سرجاڤا " فانهن يلفظن هذا الترحيب التقليدي والوداعي بنبرات رصينة ورزينة وبعيونهن مسدلة نحو الأرض ، عندما سمعت ورأيت هذا السلوك للمرة الاولى ، فزعت قليلا ، لماذا كن على هذه الدرجة من الجدية ؟ ولكني فهمت ذلك مؤخرا عندما ترددت على البيسوت الكردية ، وافت هذه العبارة لتكرارها مئات المرات . لاتنطق " سرجاڤا " باستخفاف ، وتعني حرفيا ، على عيني . وتستخدم في ابرام الوعود وكذلك للدلالة على الحل والترحال . ولدى الفرس تعبير مشابه وهو " چشم " ، وكان قد اقصي نوعا ما ، مثل العديد من التعابير الفارسية القديمة . بينما تعني " چشم (بلغة سائقي سيارات الاجرة الغربية والخدم ، حسنا ، او انني موافق ياسيدي فان تعبير سرجاڤا يعتبر شيئا مختلفا تماما . وكلمة " سرجاڤا " بالنسبة للأكراد ليست مجرد زوج من الكلمات ، بل تشكل ايضا مهذا ، والعهود لاتعنت بسهولة في كردستان .

مهما كانت تحمل كلمة " سرجاڤا " من معاني بالنسبة لمضيفتي فقد كنت اسمعها بما تعنيه حرفيا ، وليس فقط ضمن الشكليات التقليدية ، وعندما شعرت بأن وقتي في كردستان يمشي بسرعة ، بدأت افهم ما تعنيه " سرجاڤا " ، عندما آن اوان سماعها من خديجة وعائشة والحاج اسماعيل والبقية في الوداع الاخير . " على عيني " سيبقى دائما منظر نسرين وخديجة وهما على الصخور قرب البحيرة وملابسهما تتلاطم على الامواج مثل نبات خشخاش عملاق ، وقد تلبست بغيراتهما بقشرة مالهة ، وخديجة وهي تجلس القرفصاء بجانب كومة من لبوب المشمش التالف ، وتكسرهما وترمي الثمرة . " على عيني " سيكون الحاج اسماعيل وهو يحرق

بنا بعينين مطرقتين تحت ضوء الشمس خارج ديوان خانته ، ملماً
في محاولته فهم لغتنا الانكليزية ، وذلك كي يفهم جيرد ويفهمني
ويفهم علاقتنا ببعضنا البعض ، سينطح السيد ظلي بنحافته
في ذاكرتي وهو جالس بجانب فوق الكراسي المعدنية ، في محطة
الاذاعة ، بينما كنت اتابع قراءته المشوبة بالعواطف ، للملحمة
الكردية العظيمة " مم وزين " . لن انسى ابدا الملابس القوس
قرحبة في الينابيع الخالية المثلوجة وهي تسيل هزيلة من فوق
السفوح الجبلية ، مياه البحيرة الضارب في الزرقة ، زرقة السماء
الكردية الصافية ، وزرقة عيني الحاج اسماعيل ومريم . لن
انساهها ابدا .

كنت اعرف اني لن ابقى في كردستان دائما ، ومع ذلك فقد
تقلص بقية العالم امامي بقدر ما كنت افتقدها احيانا ، لم اعد
افكر بالمغادرة الى امريكا كل اسبوع مثلما حصل معي خلال
ايام الشتاء المعتمدة بعد حادث المصباح الكهربائي . لم اعد
انتظر البريد يائسة من عدم وجود احد ما قريبا مني لادعوه
صديقي . لقد تمكنت من بلوغ كردستان . وكنت قد بدأت اشق
بريزاي وبقية ايران واسلم بها جدلا . بدأ سلوك الناس يتبرأ
لي اقل غرابية . كانت الحياة موءلة من آلاف الاشياء غير المريحة
التي كانت قد بدأت بطريقة ما تعني لي شيئا ، مثل احتساء
الشاي وانتظار موظفي الجمارك لاعطائي احزمتي ، والمساومة في
البازار والمضي الى عميد الكلية للتحدث معه والجلوس في
حجرة الانتظار لمدة ساعة مع امين السر . لم تعد القرى الكردية
تبدو لي ملوثة لدرجة كبيرة ، واتخذت صفوف الوجوه المتسمة
برسمية بالغة في اليوم الصور معني ما ، وهرفت الرد المناسب
لتعبير " سرجاغا " عندما كان احدهم يبادرني به .
ولكن حتى لو اننا اعتدنا على محيطنا ، ولو بعد طول
انتظار ، كنا نعرف انهم لا ينتمون الينا ونحن لانتمي اليهم
وكنا نعرف اننا سنشكل جزءا من الحضور الامريكي الاكبر في
ايران طوال مدة اقامتنا ، لم يقدم لنا طلابنا الدعوات ، وثمانوا

لو اننا لم نأت على الاطلاق . ولدى اطلاقنا على الحالة غير السوية للجامعات ، لم نقدر ان نأمل بتعليم احد الشيء الكثير من العلم . فتح هذا المجال امامنا لممارسة بعض الفعاليات الخاصة ، مثل تجميع وسحب اموالنا ، وكان هذا نشاطا مقبولا لدى العديد من الموظفين الاجانب ولكنه لم يكن يعود علينا بالفائدة المرجوة .

كان جيرد مستعدا للمغادرة ، ولكني كنت لا ازال مترددة . كنت اريد معرفة المزيد عن الناس هنا . اردت تعلم جميع اللغات فهناك لغات محكية حول ريزاي تستغرق دراستها اضعاف من حياة المرء . ولكن جيراني كانوا يوهنون عزيمتي اكثر فأكثر حتى مع مقاومتي الرحيل . فقد كان الايرانيون المتمددون ، الغربيون ظاهريا وعلى نحو مخادع ، ينظرون الينا كأجانب ميؤوس منهم ، بغض النظر عن مدى محاولتنا لتغيير ذلك .

والامر الاكثر تشبيها لعزيمتنا كانت علاقتنا بالجفرين ، ولم يكن سهلا تسميتها بـ " رهاب " الاجانب وكرههم . كان ايرانيون آخرون يعتقدون ان اعتراض جيرانا علينا منطقي ، لأننا اجانب . ولكن الجفرين كانوا قد قاموا باشياء اكثر من مجرد التسامح معنا . لقد رحبوا بنا وباهم مفتوح لنا ، اخذونا الى انحاء ريفية عديمة ، قدموا لنا وجبات الطعام ومارونا اثاث المنزل . ومع ذلك فقد فسدت العلاقة بيننا شيئا فشيئا .

كان شعورنا الودي الاول يتناقض مع موقف بقية الجيران الذين كانوا يرتابون فينا منذ البداية . كان السلك الهوائي الذي مده لنا صديق امريكي لمذيعي ذي الموجات القصيرة مصدر قلق مبكر ، وعندما ظهر ، اتانا حالا رجل جار من منزل في احد الجوانب وقال ان السلك يسبب له صدمة كهربائية عن طريق انبوب التبريد ، وفي اشهر لاحقة ادق جار لنا في الجانب الآخر ان السلك يسبب صدمات لزوجته العامل عن طريق السياج المحيط بدرج

مسكنهم في الطابق الثاني . كانت ايضا حاتنا بأن هذا الهوائي خال من التيار تقابل بعدم التصديق ، وبدأت اشعر ان الكهرباء كانت حقاً شكلاً من اشكال السحر الأسود بالنسبة لهؤلاء الناس المتعلمين ظاهرياً وان لدى الاجانب اشباح تسبب الصدمات للناس .

ألقيت باللائمة على نفسي وعلى شهرزاد للطريقة التي انتهت فيها علاقتنا ، وفكرت في نفسي انه لولا دأبي ومثابرتي لهذه الدرجة على لقائي بالاكراذ لربما كان الامر مختلفاً . ولكن كان هنالك اناس ألقى اللوم برمته على كاهلهم لهدم الثقة والاحترام بيننا . والسيدة جام هي احدى هؤلاء الناس . انها المرأة ذات الثمانية والثلاثين عاماً والتي لم ترغب في ادخال جيرد الى فناء دارها عندما كان زوجها غائبا . لقد تحملت لساعات وساعات اشاعات السيدة جام وأقوالها المثيرة للبغضاء عن الجميع من اجانب ومحليين وعلى نحو خاص عن شهرزاد وحتى عن اقاربها هي نفسها . كنت اعتقد انها تتسلى وقد شئت المرات التي دمتنا فيها انا وجيرد لتناول الغداء عندها . ومرفاناً بهذا الجميل ، ارتكبت خطأ باعطاء عنوان ورقم هاتف اختي لابنها ذي الثلاثة والعشرين عاماً الذي كان في طريقه للولايات المتحدة . حتى انني كتبت لأختي احثها على تقديم المساعدة لهذا الشاب على نحو خاص ، حيث تراءى لي متعلقاً بوالدته لسدى مشاهدتي اياه في ايران . وفكرت في احتمال مواجهته صعوبات بمفرده في امريكا فلم تكن بعد لدى تجربة كبيرة مع شنائي ايراني مكون من ام وابنها .

بعد مدة اسابيع من ذلك نقل الشاب لوالدته رسالة نقدية تتعلق بحياة أختي الاجتماعية والجنسية ، حيث انت الام بعدها الى منزلي تريد معرفة متى ستزوج أختي . اخبرني هذه الأم الخرفلة تقريبا ان ابنها كان يتوقع من أختي ان تصبح صديقة له . وبعد ذكر هذا الموضوع مرات عديدة خلصت الى نتيجة حاسمة وهي ان الصديقة بالنسبة للسيدة جام وابنها تعني " عاهرة " بعدد

كتبت لي اختي وطلبت مني ألا أرسل أي شاب آخرين إليها ، لأن هذا الابن لم يتوقف عن ازواج صديق لها .

اتفقنا أنا وجيرد أن نغادر إيران أخيرا في نهاية الصيف وحددنا موعدا لأخبار العميد بذلك ليكون بإمكانه البدء فني ترتيب من سيحل محلنا ، ومن الواضح أنها لم تكن مهمة سهلة بما أن أجرتنا كانت مليئة بالتأخيرات والوعود المحنت بها حيث كان من المحتمل ألا يأتي بسببها أحد ، أقل تصميمنا منا إلى رهزاي قط . كان رد فعل العميد لسماع أخبارنا عبارة من غضب مكبوح ، وازداد إثارة بإطراد . وذلك بأن حددنا بقطع راتبنا الصفي الذي كنا نحسبه ضمن ما سنستلمه ، لقد صعدنا لذلك ، وبرر العميد إيماءاته تلك بقوله أننا قد تعهدنا بالبقاء لمدة سنتين على الأقل ؛ ولكن مقدنا حدد سنة واحدة فقط وحتى أنه لم يطالبنا بأن ننوّه إلى أننا عازمين على البقاء خارجا ، تلك السنة . وهذه أيضا نهاية أخرى سيئة وغير متوقعة لعلاقتنا مع العميد .

لم يكن ثمة انصاف قانوني للطريقة التي أنهى بها العميد مقودنا . كان العميد من أبناء نفس المدينة الإيرانية الواقعة في الشمال الشرقي التي أتى منها رئيس الوزراء . وكان الناس يقولون أن ذلك جعله أقوى من حاكم أذربيجان نفسه . لم تكن تلك هي المرة الأولى التي شعرنا فيها بالعجز في إيران . ولم يبال زملاؤنا في الكلية ولا جيراننا بنا ، عندما أخبرناهم بذلك ، ألم تكن نعرف أن نتعامل مع العميد بطريقة أفضل من هذا الأسلوب المباشر ؟ وكالعادة كان رد فعل الأكراد مختلفا . فهم أيضا يمثلون " الآخرين " في إيران . كانوا يفهمون اساليب العجم المثيرة للجنون وكانوا قد سئموا من الشاه حتى قبل أن نولد بأمد بعيد . أصغى الأكراد إلى قصة العميد بغضب متعاطف معنا ، ولكنني أدركت أنهم كانوا قد فهموها على نحو مختلف تماما عما كانت عليه . وذلك عندما أخبرتهم بها . فبغير قصد مني

ولعدم رغبتني بالاعتراف بأنني قد اخترت طوعيا مغادرة كردستان جعلتها تبدو كما لو أن العميد قد اقالنا دون ان يبلغنا بذلك. لم أقوم على مواجهة الحاج اسماعيل ، الحاج الذي غالبا ما كان يردد ان القرية هي قريتي ، وان اخبره اننا قد قررنا - وعلى نحو يبعوزه الحماس - المغادرة بعد اجل قصير .
- ولكن لماذا ؟

سأل الشيخ عبدالله . كان قد استوعب سلسلة الاحداث كما هي ، وحقيقة اننا كنا قد توقفنا عن العمل فعليا . وكان يعرف ايضا انه توجد مشكلة بطالة جدية في الولايات المتحدة . فسأل بطريقته التي تنم عن نضوج فكري :
- ماذا ستفعلن عندما تعودان الى هناك ؟ ألن يكون من الأفضل لكما البقاء هنا ؟

سأل الحاج اسماعيل عن رحيلنا هو ايضا ، ولكن ليس ملى اسما هو مفيد لنا . فهو كسيد اقطاعي ، قيل تفوق الغرب . وأنه من الطبيعي ان نرغب في العودة الى وطننا ، ولكن هل ثمة ما يدعونا للعودة بهذه العجلة ؟ ترك الحاج الحصانة لحين ليرانا قبيل ان يغادر لأنه قد بقي لنا بضعة ايام فقط للمكوث هنا .

خرجنا في أحد الايام الى الموقع الذي كانت تكف فيه سيارة اللاندروفر بجانب ميزان وكومة من اكياس القمح . وجدنا الحاج يناور بتهريك حصادته العملاقة تحت اشعة الشمس الساطعة فوق حقول القمح .

- اصعد الى هنا يا جيرد .
قال ذلك ساميا للفت الانظار الى آلتها الضخمة .
- هلا التقطت لنا صورة يا مارغريت خانم ؟

كانت هذه هي المرة الاولى والوحيدة التي طلب فيها الحاج ان التقط له صورة . كان قد سمح بأخذ صور له في القرية امام ديوانخانته ، ولكن هذه هي الطريقة التي ارادنا ان نتذكره بها في امريكا ، على انه مزارع عصري .

كانت خديجة تحبني دائما على المجيء وقضاء جل ايامي معها في منزل الحاج في المدينة . ولكن لم يكن باستطاعتي الذهاب كلما رغبت في ذلك . فقد كنت مشغولة ببيع المقتنيات التي جمعناها خلال اقامتنا لتأثيث شقتنا الجرداء . كان من الصعب التمييز بين المشتريين الحقيقيين والاشخاص غير النجدين وكما تبين لي فان بلوغ السعر النهائي للمبيعات والمشتريات في عملية البيع الجارية في ايران كانت مثبطة لعزيمة المراء . انت احدى النساء وتنبأت ان يصيب النعس مجموعة من الاطاق لم نكن نرغب في بيعها بسعر بخس زاعمة انها ستتكسر حالما تغادر .

كانت خديجة تود ان ابقى معها ، لأنها لن تكون في ريزاي او دستان عندما يحين اوان رحيلنا . كانت تخطط منذ شهر تقريبا للعودة الى قرية طفولتها ، لتقوم بزيارتها الاولى منذ زواجها في الصيف الفائت . ستحملها الى هناك سيارة اللاندروفر برفقة اخي طه ، والقبيلة كلبهار واشخاص آخرين عديدين . لم يكن مسموحا لطفه نفسه الذهاب ، وذلك بموجب الاعراف والتقاليد ولكنه هو ومريم قد عزمنا على ارسال خديجة مع جبل من الهدايا وعلب الحلوى واشواب من القماش ، ليعرفا اعمام خديجة العشرة مدى تقدير الاسرة الجديدة لعروستها .

كانت خديجة تحاول ان تبدو رزينة في يوم وصولها الى منزل الحاج اسماعيل لترحل منه لقريتها . فهذه لم تكن مناسبة تستلزم الجدية فحسب بما انها الزيارة الاولى لعروس بعد زواجها بل ايضا لأن احد اقارب خديجة قد توفي حديثا . وقد فسر ذلك ، لون فستانها الاخضر الداكن والنقص الواضح في الذهب الذي كانت ترتديه فوق مئزرها . وهناك رحيلي ايضا الذي يسبب لها الحزن . جلسنا معا وقد مسكت الواحدة منا بيد الاخرى نراقب الصغب حولنا ، بينما احضر المزيد من علب الحلوى والاقمشة من البازار وايضا سيارة اجرة ريفية لتعمل كل هذه الهدايا . لم يكن في وسعنا كليتنا ان نستجمع الحزن الذي كانت تتطلبه المناسبة

على الرغم من محاولتنا الحثيثة لذلك . فرحلة خديجة ، المتوقعة لها التيسير كانت مبهجة جدا اما رحيلي فكان لإيزال بعد عدة اسابيع ، ولا اعتقد ان اخذانا كانت تصدق ما افضت اليه الأمور .
- مارغريت ، انا حزينة جدا لرحيلك لاثرحلي ، امكثي هنا .

قالت ذلك وهي تبئسم وتشد على يدي :

- سأعود وسأزورك .

قلت ذلك بيمرح ، غير راضية في التركيز على حقيقة ان العودة

لن تكون مثل الإقامة هنا بعد ذاتها .

مشى الجميع بما فيهم طه وجيرد وخديجة هابطين السدرج الى خارج الباب الامامي حيث كانت ملب الهدايا قد حملت في سيارة فولكا حمراء وبضياء . بعد اخو طه الى جانب سائق سيارة اللاندروفر وخديجة الى يمينه وعباثتها السوداء المخرومة مستقرة على رأسها . وجلس بغية المرافقين في طفية اللاندروفر. لوّنا جميعا بأيدينا عندما انطلقوا في سبهم ومن ثم وقفنا انا وجيرد وطه في الشارع المغبر نهدق في منزل الحاج اسماعيل . لقد فرغ الآن تماما . فقد كانت زينب والأولاد والخدم والقرويون جميعهم في دستان لقفاء فترة الصيف هناك .

سيستيقظ طه وحده كل صباح ويمضي الى عمله في المدينة ويعود كل عصر وحده ليحضر غداه . لم تكن هذه حياة بالنسبة لكردى .

- هل تظنون اني قد فعلت الصواب لسماحي لها بالعودة ،

فالثلاثة اسابيع هي مدة طويلة ؟

سأل ذلك بين الهزل والجد .

- طبعاً لقد فعلت الصواب .

قلت ذلك لأعيد اليه الطمأنينة ولرغبتني في ان احببه لأنه قد

اصبح زوجاً مهتماً اكثر مما كان عليه من قبل .

لقد آن اوان رحلتنا الاخيرة الى دستان ، لنودع الحاج

اسماعيل وحريمه ونسرين ووالدتها . ذهبنا بالحافلة لأننا كنا قد بعنا سيارتنا . كانت هذه الرحلة تجربة بعد ذاتها . لأننا ركبنا احدى الحافلات المعطوبة التي كنا نراها تحمل الركاب الى ميرغاوار ، مارة بالكلية عدة مرات في اليوم ، تميل على نحو خطر الى احد الجانبين بسبب الثقل وبسبب حاجتها الى الصيانة ، بعد وصولنا الى موقف حافلة تيرغاوار كان علينا ان نمشي عدة مئات من الياردات عبر ساحة ممتلئة بالنباتات الشائكة والاشجار الصغيرة لنصل منزل مريم .

لامنني مضيفتي لعدم اخبارنا اياهم بأننا كنا بدون سيارة لكي يأتي احدهم الى المدينة ويأخذنا معه ، عندما جلست مع مريم ونسرين اخذنا ثحاثي باصرار على ان اعيد النظر في قرار المغادرة . قالت مريم :
- لو أنك تمكثين سنة اخرى يامارغريت ، فانك ستقتنين لغتنا وستصبحين كردية بحق .

وارادت نسرين ان تعرف اشياء ، فسألتنني :
- كيف ستواظبين على عدم نسيانك الكردية في امريكا ؟
فقلت معترفة :

- ربما سأنسى القليل .
فقلت امينة ، حيث كانت قد حضرت لمنزل مريم لروءيتي :
- اذا ، علمي لغتنا لوالدتك ووالدك ، وبذلك يمكنك ان تمارسي التحدث بها معهما .
وابدت نسرين اقتراحا :
- نعم والبسي ملابسك الكردية ليري الامريكان كم هي جميلة .

خامرني شعور غريب لدى التحدث عما سأفعله في امريكا ، فقد تراءى لي الاكراد ودستان منفصلين تماما عن بقية حياتي . ولم افكر بما سأفعله باللغة الكردية لدى عودتي الى امريكا بعد استخدامها كموضوع للاطروحة . لقد هالني التفكير بأن الكردية لن تكون ذات نفع كبير في المعاشات اليومية ، ماذا سأفعل بملابسي

الكردية ؟ خطر ببالي ان اقلل عليها في صندوق الثياب لا أريها
لاحفادي . لن ارتديها ثانية ابدا كملابس مناسبة ، لأنها ستشكل
مجرد عادة دخيلة وغريبة .

خلال وجودي في دستان في يومنا الاخير اقتترنت اشياء عديدة
ببعضها في فكري ، منها والدتي ومعرفتي للكردية ، اخلاقيات
المرأة الغربية واللاجئين .

لم اسمع الاكراد قط يبذلون آراءهم في لا أخلاقيات المرأة
الغربية مثل السيدة جام . وعلى الأقل لم يتحدث اكراد دستان
عن هذا الموضوع ابدا . اما اليوم فقد حضرت من طهران ابنة
سوسن الوسطى في زيارة لدستان ، حيث تقيم مع زوجها الطالب
هناك . كانت تعرف كل شيء عن الغربيات ، عن كيفية تقبيلهن الرجال
الآخرين امام ازواجهن . لم تسألني مثلما فعلت السيدة جام فيما
إذا كنت قد قمت بمثل هذه الاشياء ، بما انها كانت قد سمعت من
ماثلتها مسبقا ان سلوكي هو على مايرام ، ولكن شجبها العفوي
لنساء اجنبيات اخريات جعلني اكثر ادراكا من قبل لشعور الغربيين
الودي المتقلقل ، ولو انهم كانوا متمدنين على نحو مشابه
للاتراك لربما انعدم مكان في ايران يمكن لمرأة اجنبية ان تشعر
فيه بالراحة .

لم اتوقع ان ارى المزيد من اللاجئين بقدر عدم توقعي
المعادثة من تقبيل الرجال الآخرين . فبعد ظهورهم في الأنساق
تماما ذكرت امينة ونسرين عرضيا ان مجموعات من العراقيين قد
أتت مشيا الى دستان منذ اسابيع مضت . كانت الحكومة العراقية
قد طردت هؤلاء القبليين البائسين من قراهم الواقعة في اقصى
الشمال الغربي . لقد استمرت الحكومة العراقية باتباع سياستها
التي بدأتها قبل الحرب على الرغم من انها كانت قد وعدت بالعفو
العام لجميع الاكراد في نهاية الحرب وذلك بنقلهم عنوة من
الاراضيهم في الجبال الشمالية وتوطينهم في معسكرات في صحراء
جنوب العراق . وبعدئذ تعطى الاراضي الكردية الخصة للعرب ومن

المفترض ان كل هذه الاجراءات تتخذ للتأكد من ان يوما ما لن يكون ثمة تمركز للأكراد في اي مكان قريب من النفط العراقي وبذلك لن يتمكن الاكراد ابدا من المطالبة بأي من الفوائد التي يجنيها العراق من الثروات الكامنة في باطن كردستان .

اشار وصول اللاجئين بعض الالتهياج في دستان . فقد سار اللاجئين في الجبال لمدة اثني عشر يوما ، يتجنبون الجنود والاراضي الملوثة بطريقة ما على طول الحدود العراقية والتركية والارمنية . قدم لهم خدم مريم الشاي والسجائر وارسل لهم الحاج اسماعيل شاحنة مباشرة لتحميلهم الى معسكر اللاجئين . ولكن لم يول احد اهتماما كبيرا بمعاناتهم . ونسرين التي بدأت متأثرة ومهتاجة في تصرفاتها لوصولهم في البداية لم تتحدث معهم ابدا ، بل وقفت معي ومع امينة تحدث فيهم من على بعد ، وهم يجلسون تحت اشجار بستان المشمش ، تساءلت عن سبب توقعي توجيه المزيد من التعاطف نحو هؤلاء اللاجئين المنهوكي القوى وقد لوحت الشمس وجوههم وعلى ظهورهم الالبسة الرثة ، والاطفال الرضع في احضانهم ، حيث كان ذلك كل ما يملكون في العالم ، من دون ريب كنت افكر بمكان غير كردستان لدى شعوري بالخيبة لأن كل ما فعلته نسرين كان مجرد التحديق فيهم ، ولأن احدا لم يعاقنهم او يواسيهم او حتى يفكر بعدم تحويلهم مباشرة الى معسكر اللاجئين المغزو من قبل السافاك ، دون شك كنت افكر بكردستان مثالية ، لايشكل فيها الفارق الطبقي او القبلي عائقا ولا يعتبر فيها الزيباريون ، المساكين غرباء بالنسبة لأكراد دستان في كردستان يستقبل فيها الاكراد بأنفسهم الاكراد اللاجئين بدلا من السافاك .

وقفت مضطربة قليلا وانا اراقب المشهد امامي ، كانت مريم بلفاعها الملتف باحكام حول رأسها على سجادة الصلاة المفروشة امام منزلها ، كانت نسرين وامينة واقفتين في احد الجوانب تحدثان من بعيد ، واللاجئون يتحركون هنا وهناك بصورة عشوائية

ينظرون بقلق الى الدستورانيين . نظرت الى ساعتني وساورني قلق
حول امكانية عدم لحاقنا بالحافلة ، لقد آن اوان المضي الى
دار الحريم لتوديعهن . كانت مصافحاتنا هناك فاشرة على نحو
مشير للفضول والتساؤل . كنت اعرف انني غير مصدقة بانني راحلة
حقا ، اظن ان شعوري قد ترجم نفسه : شعرت بالخزي ، ودون شك
كان ذلك نابعا من ذاتي لاعتقادي اني لاستحق حقيقة توديعنا
افضل لانني انا نفسي اخترت الرحيل ، اختلفت الامور نوعا ما عند
مريم ، فقد قبلت نسرين وجهي وبدأت بالنشيج ، وقبلتني مريم
ايضا ومن ثم التفتت الى ابنتها لتهدئها ، حضر الحاج اسماعيل
ليعيدنا الى المدينة وبدأ هو ايضا حزينا ، صعدت سيارة
اللاندروفر وقد خامرني شعور بالخدر .

تأملت المنحنيات الظليلة للرجال عند الشفق ، وتدفق مياه
النهر ، والطريقة التي يمشي فيها الرعاة جنبا الى جنب ، لاننا
سرنا هذه المرة خلال الممر من ميرغاوار الى سهل ريزاي ، كان
محتملا ألا اعود الى المكان النائي ابدا ، وألا ابصر هذه الجبال
ثانية وألا اركب مع الحاج اسماعيل بعد هذا قط ، وربما هذه آخر
مرة ارى فيها نسرين ، تلك الفتاة القروية العاطفية الحالمة
بالفرار مع رجل قبلي برزاني ، لأنني كنت وسيلة اتصال بالمدينة
وبالعالم الواسع الذي كانت ترغب في امضاء حياتها فيه .

تأملت كل شيء بابتهاج محاولة ان اطبعه في ذاكرتي بحيث
يتعذر محوه ، لم اصدق ان ايران ستبقى هنا دائما تنتظرني كسي
اعود اليها ، على الرغم من اعتقاد الحكومة الامريكية ان حكم
الشاه سيدوم لمئات السنين . ومع ان دستان نفسها قد شيدت منذ
اقل من قرن خلا ، فان الاكراد كانوا يجوبون المنطقة ولايزالون
منذ آلاف السنين . لم يكن شمة سبب معقول للاعتقاد بأنهم لسن
يكونوا هنا . ومع ذلك فقد افق اسلوب حياتي الموءقت الى
الاعتقاد بأن لاشيء سيبقى كما كان .

يبعد مطار ريزاي عن كردستان مليون ميل في القلب والقلب ،

فهو يقع على بعد عدة اميال الى الشمال الشرقي من المدينة
وبذلك يشكل جزءاً من بلاد العجم جغرافياً وكذلك ثقافياً
واقتصادياً . عندما اندفعت انا وطه وجيرد فاتحين الأبواب
الرجاجية لقاعة الانتظار ذات الجدران الرخامية التي تعتبر
أحدى روائع الشاه المحلية ، كان علينا ان نتخذ سبيلاً ملتويماً
بين حشد ضخم لاييسر العبور ، لم تكن هنالك ارتال حقيقية امام
طاولة تسجيل الاسماء ، بل مجرد كتل متدافعة ، كان الموظف يحاول
خدمتها كلها دفعة واحدة . كنت بعيدة بتفكيري عن هذا المكان
حتى قبل جلوسي ، متفاسمة زاوية ذات مقعد اسود بلاستيكي مسح
جيرد والحشد يتحرك على نحو عشوائي حولنا ، كان زمن الاقلاع قد
انقضى منذ مدة قصيرة والناس لا يزالون يتدافعون لدى دخولهم قاعة
الانتظار ، بعضهم يذهب مباشرة الى مطعم المطار لطلب الطرخا
المشوية على فحم الكوك او الهمبرغر ، وآخرون يسجلون اسماءهم
بينما يقف هؤلاء الذين يلتقون بأناس او يرونهم صدفة وهم في
طريق سفرهم فيتحدثون مع بعضهم بأصوات عالية ، كان المشهد امامي
اقرب ما يكون الى حفلة كوكتيل ضخمة خالية من الشراب .

كان جيرد وطه قد استغرقا في محادثة لم اقدر على سماعها
بسبب الضجيج الذي كان يصم الأذان ، كنت افكر بكل الامور التي
يجب القيام بها في طهران وفي انكلترا ، حيث كنا ذاهبين لحضور
مؤتمر اكاديمي هناك ، شعرت كما لو اني كنت قد غادرت ريزاي
من قبل ، على الرغم من تواصل الاعلانات بأن طاشرتنا ستصل في
اية لحظة . واخيراً كنت قد تحولت الى ايرانية تماماً لاعتقادي
انها ستأتي في آخر الأمر .

بينما كنت انتظر ، نظرت حولي وشعرت بالذهول الذي ينتاب
المرء لدى ادراكه كنه الشيء ، لقد كنت اعرف العديد من هؤلاء
الناس . لم يكونوا الغرباء الذين رأيتهم لدى وصولي الى
ريزاي في مطلع العام ، ولا الاشخاص المجهولين المنتمين الى الطبقة
الوسطى والعليا في طهران . كان هؤلاء جيراني وزملائي الذين

قضيت سنتي معهم ، كانوا اشخاصا تناولت وجبات غذاء معهم
وتحدثت معهم كثيرا ، انتابني شعور بالكآبة ومع ذلك فقد كنت
قد سحرت وتسمرت في مكاني وظللت أتأملهم ، وهم يحدقون فيّ
وينتظرونني كي الاحظهم .

قدمت شهرزاد من احد الجوانب وقد برزت شفتاها الملونتان
بمستحضرات التجميل بابتسامتها المترفعة ، تلك التي كنت
الاحظها مرتسمة على وجهها دوما في الفترة الاخيرة ، اندفعت
واقفة على قدمي بينما كان جبرد وطه غافلين مستغرقين في
محادثتهما ويد احدهما بيد الآخر .
- اتمنى لك رحلة سالمة .

قالت شهرزاد ذلك بابتسامة متكلفة ، رافضة النظري عيني
بما ان نبرتها كانت تنم عن سلوك تقليدي شكلي ، اعربت لها عن
شكري ، ثم ابتعدت بخطوات متكلفة الاناقة ، وتساءلت في نفسي
هل سيبادر آخر بالتحدث معي . وبعد برهة وصلت السيدة جام ،
- مارغريت ، لماذا لم تحضري الى منزلي لتوديعي؟ وددت لـ
تاخذي بعض الاغراض لولدي في الولايات المتحدة .

لم يعد توبيخ السيدة جام يباغتني ، فقد كنت متيقظة لـ
وقلت :

- أنا آسفة ، لم يكن هناك متسع في حقيبتي ، وكما تعلمين
نحن راحلون من ايران .

بعد ان جلت بنظري حولي اكثر ، رأيت ضابطين من جيش
الولايات المتحدة ، والجواهري الذي افسد مفاجأة جبرد في عيد
الميلاد ، ووالد المصبي - الذي اتمنى ان لا يرى شرا - الذي كان
قد شهد حادثة المصباح الكهربائي . وعميد الكلية وأعضاء
عديدين من الكلية وشخص آخر كنت اعرفه . ولم ارغب في التحدث
معه .

اخيرا ، نهضنا انا وجبرد لدى الاعلان عن موعد الطيران.

نظرت الى طه كما لو اني لم أراه من قبل . كان قد انتظرنا خلال معظم فترة العصر ،على الرغم من انه كان من المفترض ان يكون في مكتبه طوال اليوم . كنت قد سمعت لنفسى بأن اتسمر مندهشة بهذا الحشد من العجم ، بدلا من التفكير في اخلاص طه غير المتذبذب وفي التوديعات في دستان .
- وداعا طه ،شكرا .

قلت ذلك وانا انظر في عينيهِ الزرقاوين الضاريتين الى الخضرة . أردت قول المزيد ،لأعبر عن ذلك الشعور الذي يتصاعد متفجرا ،فيّ ،وعن حقيقة ان هذا الرجل وعائلته لم يطلبوا منا شيئا سوى ان نكون اصدقاء لهم . تصافحنا ،ومشينا انا وجيـرد نحو الطائرة ،وبينما كنت اصعد على متنها، نظرت ورائي للحظة فرأيت ان طه كان لايزال ينتظر هناك وسط حشد العجم ليشهد اقلاع الطائرة بأمان وسلام .

سيكون من السهل افتقاد اثر الاكراد ،لدى العودة الى امريكا، وكتابة اطروحة عن اللغة الكردية جعلتهم يتراوون لى اقل حقيقة . بدلا من ان يبدو حقيقة مكشفة امامي . كان لابد للتجربة برمتها وللعاطفة ان ينجليا لأتمكن من التركيز على الاصوات التى دونتها على الورق وسجلتها فـى المسجلة .كنت أتساءل في نفسى احيانا كثيرة ، فيما اذا كان ثمة حاج اسماعيل او دانا او خديجة حقيقيون . كانت أصواتهم مسجلة ولكن أين هم الآن ؟ انهم في ذهني ، الذي أمضى وقتا صعبا في التسوية بين جو الجامعة العقيم وحضور كردستان المكثف .

يوجد أكراد في الولايات المتحدة ،وكنـت أعرف أن حوالى خمسين من الرجال الاكراد قد قدموا دفعة واحدة ومكثوا هنا . أما بالنسبة لآلاف اللاجئين في ايران ،الذين كانوا يرغبون في المجيء الى الولايات المتحدة ،فقد عرفت انه سمح لمجموعة ضئيلة منهم بالدخول الى أمريكا . كان الطبيب المتعاون مع السافاك

هنا . وكان أناس آخرون عديدون قد نجحوا بوسائل مختلفة فسي
المروور عن طريق دائرة الهجرة التابعة للولايات المتحدة .

قبض على رجل كنت قد التقيت به في ايران في مطار كيندي
لاستخدامه جواز سفر مزيف والى جانبه زوجته الشاحبة المفرومة
وفي حضنها طفل ذو سنة أشهر . تلقيت مكالمة من حجرة فسي
فندق نيويورك الذي كانوا فيه ، خائفين من أن يبيت القرار فسي
وضعهم . هل ستسمح لهم حكومة الولايات المتحدة بالبقاء ؟ لم يكن
قد صرح رسميا ابدا باعتبار الاكراد لاجئين ، وعندما حاول
هذا الرجل أن يتصل بأشخاص من الولايات المتحدة كان قد التقيت
بهم في العراق ، اصروا على عدم معرفتهم به . كانت ثمة فغوط
غامضة من مواقع عدة مبهمة في واشنطن تصر على عدم قبول هذا
الرجل داخل الولايات المتحدة .

في غضون ذلك ، كنت أكتب اطروحتي بهمع معرفتي بأنني
عاجزة من فعل الكثير . بدا أن لأحد في امريكا يعرف شيئا
عن دور السي . آي . او في مكان لم يسمع به يدمى كردستان . بدأت
الرسائل تصل الواحدة تلو الاخرى من الحاج اسماعيل ، دارا والشيخ ،
عبدالله وهم يعملون بتحقيقاتهم الخاصة ، وبنالون من مومند
عودتي ، عند النساء سمعت الأخبار من اذاعة محلية ، وقد نقلت
ان الحكومة الامريكية كانت على وشك تلقي صدمة بسبب التفرير
الصادر عن لجنة بايك التابعة للكونغرس ، والذي يبحث في دور
المخابرات المركزية الامريكية بطريقة سرية في الوقت الراهن ،
ليس في أماكن معروفة جيدا مثل انغولا ، وايطاليا ، فحسب بل
ايضا بين مجموعة عرقية مناهضة لسياسة الدولة المسيطرة عليها
وتدمى الاكراد ، في النهاية ظهر تقرير بايك واقيم الدليل على
ادعاءات الطبيب الكردي المتذبذبة اخيرا . عندئذ تساءلت من
مدى معرفة الحاج اسماعيل والشيخ عبدالله والبقية بالوضع ، هل
سيرهب بالامريكان يوما ما ثانية في كردستان .

يتألف الجزء المتعلق بالاكرد من تقرير لجنة بايك فقط من عمودين موجزين من صفحة مطبوعة ، ويصف التقرير في تعابير محددة كيف ان الولايات المتحدة والتي تعمل بتوجيهات من الشاه شجعت الاكرد لبدء ثورتهم سنة ١٩٧٤ لأن ايران ارادت ان تربك العراق . وتصف ايضا هنري كيسنجر وهو يوجه القيادة الكردية ضد المصالح الكردية لصالح الشاه ويستمر هذان العمودان في سرد كيفية ان الولايات المتحدة ادارت ظهرها ببساطة من ثلاثة ملايين من الاكرد المعاقين في العراق ومثتي ألف من اللاجئين المعجوزين داخل الحدود الايرانية عندما قامت العراق باعطاء " امتيازين " لا وزن لهما على سبيل التهدة والوصول الى اتفاق . وحسب أقوال اللجنة المنبثقة عن الهيئة التشريعية العليا ، الكونغرس " فان ماقمنا به كان مشروعا نابعا من سلوك تهيمن عليه مصالحنا الذاتية وحدها حتى لو كان ضمن محيط العمل السري " .

لم أكن مستعدة بعد لتصديق ما هو أسوأ ، وكذلك كان صديق لي كردي قد هاجر الى امريكا منذ اكثر من عقد مضى ، أخذنا معا نسخة من تقرير بايك وذهبنا الى محاضرة كان يلقيها موظف ذو رتبة عالية متخصص في قسم الشرق الاوسط التابع لادارة حكومية ، انتظرنا بصبر الى أن انتهت المحاضرة وأعيدت افكار متسمة بالتركاز عن الحرب العربية الاسرائيلية على نحو شامل . بعد ذلك رفع أسد ، الكردي يده وسأل بلغته الانكليزية المشددة :

— ماذا بشأن تورط الامريكان مع الاكرد ؟

حدث موظف الادارة الحكومية فينا ، بينما التفت الحشد الاكاديمي ليري الشخص الذي طرح هذا السؤال .

— الاكرد ؟

قال الموظف باندعاش . عند ذلك تذكرت الموقف لدى ذهابي لبرؤية العميد بشأن دارا .

— ماذا منهم ؟ ماذا لديك لتقوله حول الطريقة التي

ماملتهم بها امريكا ، باستخدامها لهم ومن ثم تركهم يواجهون مصيرا فظيحا ؟

كان تنفس الموظف مسموعا في مكبر الصوت .
- لا أعرف بماذا تنوه ، ليس لأمريكا علاقات مباشرة مع الاكراد .
رفع أسد نسخة تقرير بايك لرجل الادارة الامريكية ليراه . فصرف
الحاضرون انظارهم عنه . كنت اعرف ماكانوا يفكرون فيه . فقد
كانوا يعتبرونه مجرد مجنون شرق أوسطي آخر . وكذلك هو ليس
فلسطينيا ذا علاقات مع الطبقات الاجتماعية العليا .

صرخ أسد بصوت عال وقد دكن وجهه من الغضب :

- ماذا عن تقرير بايك ؟

- ان تقرير بايك مليء بأمور غير دقيقة .
ولم يحسم بعد او يسمح له بالنشر بالمعنى الضيق للكلمة
ولاشيء فيه يمكن ان يؤخذ على انه حقيقي على نحو مؤكد .

احاب الرجل على سوء ال طرحه شخص آخر ، جلس أسد بعدئذ بهدوء
وهمس باتجاهها من بعيد احد الحضور ، وهو واحد من خبراء الجامعة
في شؤون الشرق الأوسط غير الناضجين وقال :

- ما حدث للاكراد هو نتيجة خطئهم تماما . لقد سيعتبرون
لأنفسهم بأن يستغلهم الآخرون .

حلمت بعائلة وهي تعذب بعد هذا بمدة وجيزة ، حاولت ان ابعد
الاکراد عن تفكيري وان اركز على اطروحتي ولكن ذلك كان صعبا .
هتف لي اللاجئين الموجود في نيويورك ثانية وقال انه قد منح حق
اللجوء السياسي . ونقل الي مقتطفات من اخبار طيبة محدودة ،
حيث قال انه سيسمح لسبعمئة من اللاجئين الاكراد بالمجيء من
ايران الى امريكا . سبعمئة لاجيء من اصل ٢٠٠.٠٠٠ وما يقارب
من ١٠٠.٠٠٠ لاجيء فيبيننامي و ٧٠٠ كردي ، تمنيت لو تنقل مسألة
الاکراد كاملة في اخبار ال C.B.S سي . بي . اس . هيئة
الاذاعة الامريكية .

ذهبت في يوم شتوي قارس جدا لزيارة الرجل الذي كان قد
جاء بجواز سفر مزور وأبعد تقريبا ، لأن الاكراد لم يكونوا

لاجئين رسميين . كانت زوجته قد نجحت في ايجاد كل اساسيات
طبخة لتعد وجبة كردية مشكّلة من الارز والمعكرونة والخبز والشاي
والفاكهة . تناولنا غذاءنا ونحن جالسون على أرضية حجرة الفندق
في مكان ضيق عند نهايات الاسرة ، ووضع الطعام فوق اعداد قديمة
من جريئة النيويورك تايمز ، أبلغني الرجل انه كان يتفحص بدقة
وقلق الجرائد ، يبحث عن اخبار عن الاكراد .

كان وجه الرجل غير حليق وملفتا للأنظار ، بدا هو وزوجته
مبتهجين لرومية شخص يعرفانه مسبقا ، قبل التغيير الذي طرأ على
حياتهما التي كانت أكثر سعادة . سألتهما :

— ماذا ستفعلان الآن ؟

ابتسم الرجل بحزن وقال :

— لنعرف .

شعرت انهما كانا ينتظرانني لأقدم لهما اقتراحا مساعدا أو
عرضا ما . ولكنني كنت اقتني شقة صغيرة ولم تكن لدى اتصالات
تساعد هذا الرجل ليحصل على عمل . حاولت ان اوضح هذه الحقائق
له ولكن ابتسامته اتسعت أكثر ، وقال :

— نعم ، انا افهمك ، حسنا ، لابس في ذلك .

مضت ثلاث سنوات قبل عودتي الى كردستان . كان صيف سنة
١٩٧٨ فترة تصفية حسابات بالنسبة لايوان ، فترة لتسوية الحسابات
مع الشاه ووالده الذي سلب ثروات الأمة بقدر ما يمكن ان تتذكره
أغلبية الشعب . تلاشت الحواجز وسمعنا انا وجيرد اصدقاء لنا
في طهران يتحدثون بعلمية أكثر ضد حكومتهم أكثر مما كانوا
يجرؤون عليه في أي وقت مضى حتى في الولايات المتحدة . وبقدر
ما يتعلق بهذه الحواجز ، فان افواه الاكراد الذين كنا نعرفهم
جيّدا لم تتوقف عن الحديث بشأنها ابدا . لقد افصحوا عما يجيش
في صدورهم من مشاعر الحقد تجاه الشاه ووالده ولم يبق شيء
منها خفيا .

كانت لغتي الكردية قد تحسنت فعلا بعد كل هذه الأشهر مسمين

الاصغاء الى الاشرطة التي سجلتها والرجوع للتدقيق في القاموس الذي كانت ابنة نانا على وشك اثلافه . كان عليّ ان اتعلم ان حسن الاستقبال والحماسة التي شعرنا بها لدى وجودنا مؤخرًا في دستان لم تكن شيئًا مختلفًا من خيالنا . كان لا يزال ثمة ترحيب ينتظر عودتنا وحتى يمكن ان يكون اكثر حرارة .

كان رأسي لا يزال يفيض من الرحلة الطويلة التي قمنا بها في العافلة الى ريزاي ، الى ان انعطفت سيارة الاجرة البرتقالية نحو قرية الحاج اسماعيل . التغيير الأول الذي لاحظته هو وجود اعمدة كهرباء . وكانت تتفرع على نحو منحرف من خطوط الاسلاك الكهربائية الممتدة على طول الطريق المؤدي الى الحدود العراقية . لقد بات يوم الكهرباء قريبًا ، على الرغم من عدم وجود اسلاك على هذه الاعمدة الممتدة الى دستان . والتغيير الثاني الواضح والمباشر في دستان كان انجاب خديجة وطه ولدا ، بحيث قد ولد بعد فترة وجيزة من مغادرتنا كردستان وهو الآن طفل ذو سنتين ، مدلل جدا ومحبيب جدته . كان طه اخيرا قد تخطى عن كليته ، ظننا انه كان قد حل مسألة الاختيار بين كونه طالبا ذا خمسة وعشرين عاما في السنة الاخيرة في المدرسة العليا ، وبين اتخاذ مكانه كسيّد مأمول لاحدى اغني القرى في كردستان الايرانية . اما خديجة فهي في الوقت الراهن تحت اشراف حماتها لأن زوجها قد انتقل الى القرية . لم تكن تلك خديجة الخالية من الهم التي اذكرها ، وذلك بسبب ضغط واجباتها المنزلية وواجباتها تجاه طفلها . كانت في حالة نزق دائم وتشكو من الصداع ، ولكن بالطبع ، كل ذلك كان دون ما هو ظاهر ، ولم الحظه في البداية ، اخفت دوامة حسن الاستقبال كل شيء سوى الابتهاج الواضح على مضيفينا لوصولنا . وكما يقول المثل الايراني : الضيوف احباب الله . كان الاكسبراد يجعلوننا نشعر بالمودّة اكثر من أي مضيفين آخرين التقينا بهم .

رافقنا الحاج اسماعيل الى " درمان آغا " بسيارته التويوتا واثبتت ولائم في ديوانخانته ، حيث احضر الحاج اسماعيل آلة التصوير

الفوري واظهري في صور عديدة كان التركيز فيها علي ضئيلا ،
ليحتفي بهذه المناسبة الخاصة . فعلت اكثر مما كنت أريد في
دستان ، ربما لأن هذه كانت رحلتي الثانية ، وكنت اشعر بالثقة
اكثري نفسي مع الاكراد ، فقد شهرت بحرية اكثر في مداعبة
مضيفاتي عندما كن هن أيضا يفعلن ذلك وقررت ان اتسلق الجبل
الذي يرتفع خلف دستان على طول الطريق ، حتى الحدود التركية ، وقد
شكل هذا صدمة للحاج اسماعيل ومريم .

كنت الانثى الوحيدة في فريق مؤلف من ثمانية من أولاد الحاج
اسماعيل وأولاد اخته وجيرد . لقد كان الاكراد لطفاء معي بقدر
ما يستطيعون . فقد حملوا كامرتي بدلا عني وعندما ظهر رجلا
كهلا بجانب الممر الضيق يقودان حصنة في الاتجاه الذي كنا
نسير فيه ، طلب مضيفونا حصانين لنركبهما انا وجيرد . وبفضل
منايتهم المفرطة كنت قد انهكت فقط ولم امت ، لدى بلوغنا الثلج
والمعسكر الميني للقرية الذي يقضي الشتاءات في سهل ميرغاوار قرب
دستان . عرفت سبب عدم اعتبار الحاج هذا التسلق رياضة ولم اذا
حاولي بشدة ان يفتننا بالتخلي منه . ان التسلق عمل مطلوب من
الرعاة واسرهم ، الذين يأخذون الاغنياء الى مراعي تقع في اماكن
اعلى ، بعيدا عن مش السهل الجاف ، انه ليس امرا يفعله العظم
الشبان للتسلية . ومع ذلك ، وكالعادة ، فقد تفهل علينا الاكراد
بتحقيق رغبتنا واخذونا الى حيث كنا نريد .

اصبح التسلق اكثر امتاما برفقة محمد ، كنت اسمع منذ
زيارتي الاولى لدستان عن محمد ، عندما اخبرتني والدته واخت
الحاج اسماعيل ، ان لها ابنا يتحدث الانكليزية بطلاقة وانه يدرس
العلوم في احدى الجامعات الايرانية ، وبالنظر الى بيئة دستان
بدا ذلك غير ممكن الى حد بعيد ، حتى اني تساءلت اذا لم تكن
تبالغ قليلا ، وعلى كل حال ألم تظن خديجة ان روسيا الشيخ عبس
الأمير واسر بيته في كتابتنا نفس المكان ؟

ولكن محمدا كان حقيقيا تماما وتقريبا افضل من الحقيقة

بكثير . كانت انكليزته ظاهرة غريبة بالنسبة لشخص لم يخرج من ايران ابدا . على الرغم - وبالتأكيد - من انه لم يكن ابرع من الحاج اسماعيل فقد كان من المدهش ان ترى اهتمام كردي مولود في القرية موجه نحو علم الاحياء ودراسة اللغات على نحو رسمي بدلا من ان يوجه نحو الزراعة وصيد الغزلان والسياسات القبلية . ان وجود محمد في القرية احدث اختلافا كبيرا في أمر بقائنا . فلم يكن ثمة شخص في دستان يمكننا التحدث معه بالانكليزية قسط . ولكن اللغة لم تكن السبب الرئيسي والفعلي ، بما اننا كنا نتقدم جيدا في الكردية والفارسية ، ولم تكن نحتاج لمساعدته في الترجمة . ان المظهر الثقافي هو الذي احدث هذا الاختلاف بالتعليقات التي كان يبديها والاجوبة الجوهرية التي يجيبها عن القرية وعن اسرة كان قد اقام معها لمدة عشر سنوات ومن ثم فادرها الى مدينة اميال عنها . لقد كان من نواح عدة شخصا مريحا ، ومن نواح اخرى كان وجوده هنا بيئة تشير المصادمات . ولكن في النهاية كان حضوره يثير التساؤلات اكثر مما يجيب عليها .

اشناء عودتي الى ايران تحدث الي شخصان فقط حول شروط امريكا في الحرب الكردية الاخيرة . كان احدهما الشيخ عبدالله الذي اشار الى السي . آي . اي . على نحو غير مباشر . لقد اتضح لي الآن ان الشيخ عبدالله يعرف وكان قد عرف كل شيء جار ، على الرغم من انسحابه الرسمي الاضطراري ، اما الشخص الآخر الذي كان يعرف السي ، آي ، اي . والذي لم يترك مجال العفو ابدا ، هو السيد خليلي ، صديقي في محطة الاذاعة والذي كان قد قدمني اصلا الى عائلة الحاج اسماعيل .

فحسب رومية السيد خليلي فان السي . آي . اي . لم تكن مسؤولة عن قتل الاكراد العراقيين الذين اشتركوا في القتال فحسب ، بل من جميع الاكراد الذين طوقتهم الحكومتان في ايران وتركيا . وفي الحقيقة بدا انه ليس هناك حدود لقوة وقدرة امريكا في نظر السيد خليلي . التقينا انا والسيد خليلي وجيرد في احدى الليالي وجلسنا على مقعد في احدى الحدائق . بدت الحديقة مشل

اماكن عديدة جميلة في ايران ،وكأنها قد تحولت الى موقــــــف للسيارات ،التي كانت تسيـــــر بمحاذاتنا تماما في ممر ضيق مخصص للمشـــــي . وعندما ابديت استيائي من ذلك للسيد خليلي قال بمــــــا معناه ان دمار هذه الحديقة هو خطأ الولايات المتحدة كما كانت وبنفس القدر هي السبب في خراب الزراعة الايرانية ايضا .

كان بعضــــمما يقولـــــه السيد خليلي صحيحا على نحو مطلق ،ولكن تدمره بصورة عامة كان شبيها بالمسؤولية المتعذر السيطـــــرة عليها والتي كان العديد من الايرانيين يرغبون في رمي ثقلها على كاهل امريـــــكا . فحتى الآن يظن العديد من الايرانيين الليبراليين ان الولايات المتحدة هي التي كانت وراء تسلـــــم آية الله الخميني السلطة ، ان كل امر سيـــــ يمكن ان يحدث في ايران ،ولو فـــــي حداثتها ،يمكن ان يلقى امام عتبة امريـــــكا .

جلت بنظري نحو اليدر بعيدا من وجه السيد خليلي المنفعـــــل . شعرت بالانزعاج لتسلط هذه الفكرة على السيد خليلي ومن ثم انتابني شعور بالخل من نفسي لاحساسي بالانزعاج ، ماذا يريد منا السيد خليلي ؟ ماذا نريد منه نحن ايضا ؟ كان السيد خليلي يشير قلقي اكثر من اي شخص آخر التقيت به في ايران . عندما غادرنا ريزاي بعد اقامتنا فيها ، كانت صحته الجسدية والنفسية في حالة واهنة لدرجة اني تساءلت فيما اذا كنت سأراه حيا في زيارة اخرى . لقد تراءى لي مجسدا وعي كردستان وضميرها ،والآن وبعد ان قفيت فترة مع اللاجئين في امريـــــكا لاحظت كم يشبههم السيد خليلي في طريقة تفكيرهم وهديتهم . لقد كان لاجئا في ارضه الأم . ولسم يقدـــــر السيد خليلي ان يتأكد اهدا من أننا لسنا عناصر من السيـــــ آي . آي . فعلا ،على نحو مغاير عن الشيخ عبدالله .

كان تقبل انتقاد السيد خليلي اكثر صعوبة من انتقاد كردي آخر ، قومي متحدث وهو محمد ابن اخت الحاج اسماعيل . وقـــــ قضيت معظم وقتي في دستان برفقة محمد . اتحدث عن كل شيء تقريبا بدا انه لا توجد معطورات عند محمد ،وفي جو الروح الـــــ جدب . هـــــ السائدة في اب ان والروح الحرة الكردية التقليدية ،ان حوضـــــ

مناقشة طويلة حول مزمه على السفر الى تركيا والى جميع انحاء
كردستان في مهمة لتثقيف وتنظيم اخوانه الاكراد سياسيا لم تشر
في تفكيري الا بعن الاستعراب . لم يتحدث اليّ احد ابدا بتلك
الحرية ولكن من ناحية لم يكن ثمة شبهة لمحمد .

هدم عبدالله كل ما كونه من آراء حول محمد في احد الايام
بعد مضيه الى عمله في طهران ، فقد سألني :

- انك تتحدثين مع محمد كثيرا ، اليس كذلك ؟

تاملت وجهه متسائلة فيما ، اذا كان قلنا مثل خديجة حصول
مسألة ملاءمة قضاء الكثير من الوقت مع رجل هو ليس بزوجي ، وأردف
قائلا وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة خفيفة :

- أتعلمين ان بعض الناس يقولون ان محمدا يكتب تقارير
للسفك ؟

انتابتني فورة من الغضب لهول المفاجأة ، ثمة اناس آخرون
يوجهون ضروب الاتهامات هذه بسهولة ولكن ليس الشيخ عبدالله وبأمر
يمس قريبه . سألت بحدة متمسكة - على نحو يائس - بثقة وود
يتلاشان بسرعة رهيبة . انقلبت الحقيقة في لحظة رأسا على عقب
ولن تعود الصداقة مثلما كانت ابدا . لقد ادركت لتوي من الشعور
المرضي في معدتي انني حقا في ابران ثانية . واضاف الشيخ عبدالله
غير مبال :

- لا أعرف . ولكنني ظننت انه لزام عليّ اخبارك بذلك .

عندما عدنا الى طهران من زيارتنا الى كردستان ، تسرددت
ولكني بعدئذ هتفت لمحمد في مكان عمله ، نزولا عند طلبه . فسأل
انه متلف ليرينا انحاء المدينة أو ان يسامدنا بأي طريقة
ممكنة . تعطلت فعاليّتي لدى سماع صوته ثانية . كان محمد يذكرني
بالعاج اسماعيل من نواح عدة ، وفي الحقيقة كان محمد قد حدثني
عن مدى حبه واحترامه لخاله على الرغم من كل اساليب الحجاج
المتحفظة .

التقينا بمحمد في المتحف الايراني للفن الحديث ، وهو مؤسسة

بدأت انها تعكس اهتمام الامبراطورة فرح في الرسم الفرنسي. كان محمد برفقة امرأة زميلة له في العمل . وتساءلت فيما اذا كان كلاهما يعملان للسافاك في وقت لاحق وبعد ان تأملنا مجموعة الفن بامعان ، اخذنا محمد الى منزل احد اقاربه في شمال طهران. لقد اشار زواج محمد من زميلة له في الجامعة بدلا من زواجه من كردية، اشار انطبعا غامضا لدي .

بدأ الشك يراودني ثانية ، عندما قادنا عبر الفناء ومن ثم الى قاعة الاستقبال الايرانية المؤثثة على نحو فاخر ، كان جميع افراد اسرة زوجته يشادونه بمحمد خان . وقد بدا ذلك غريباً للغاية ، بما انهم ليسوا اكراد . لماذا يكتفون هذا الاحترام البالغ لابن قائد قبلي ، مولود في القرية ؟ في غضون ذلك المساء قدم لي محمد زوجا من الصنادل البلوجية ، المصنوعة من الياف شجر النخيل . عند العودة الى دستان روى لي كيف ان عمله قد اخذه الى جميع انحاء ايران. كان محمد قد قام بزيارات لاماكن فقيرة ومتخلفة الى حد لا يصدق ، اماكن كانت تجعل القرى الكردية تبدو مثل ضواحي ويستجستر ، كانت الحالة المتأزمة للبلوجيين في الجنوب الشرقي من ايران قد اثرت في محمد بشدة ، ربما لأن بلوجستان هي مثل كردستان ، مجزأة بين بلدان عدة ، مع كل المحاولات الايرانية والباكستانية للقيام ما باستطاعتها لاعاقبة القومية البلوجية .

- تفخلي هذا الصندوق .

قال ذلك محمد وهو يناولني اياه ، اخبرني في دستان انه عازم على تقديم هذه الذكرى لي من بلوجستان . ومع ذلك ففقدت حزمته في نفسي في طهران ، انه قد اعطاني اياه على سبيل الشكليات فحسب . لذلك تركته قابعا على طاولة المائدة عندما مضيت الى المنزل

راينا محمد ثانية في احد الايام ، ولفت نظري كيفية تدبره امره في الذهاب والاياب من عمله بهذه السهولة ، ولكن محمدا كان متحمسا كما هو دوما . وتبعنا الى مكتبة روسية تقع في الجانب الآخر من جامعة طهران ، حيث تصفحت كتبنا بحثا عن بعض الكتب الروسية

من الاكراد . وطبعاً لم نعثر على اي شيء . وكنا قد قمنا بزيارات عديدة اليها ولم نجد شيئاً قط .

التقى بنا محمد مرة اخرى ليودعنا . وكان في يده الصندوق المصنوع من الياق النخيل . وقال متميراً :
- لم تأخذه . لقد اهديتك اياه ، ألا تريدونه ؟

شعرت بالاضطراب لذلك ، لماذا كنت متأكدة انه لم يكن يقصد اعطائي اياه ؟ لم يكن هناك شيء بينم من سلوك شكلي وتقليدي في عاداته . ربما كان ذلك ماتمنيته فعلاً . فعلى الأقل لظقت
الرسميات لدي مبرراً لأكرهه .

تساءلت حينئذ ، كما أتساءل الآن ، فيما اذا كان محمد قد احس بفتورنا الغريب . وقد فتحت فمي اكثر من مرة لأتكلم وأوضح الموقف ولكن ارادتي خائنتني فالذي ابلغنا عن محمد هو الشيخ عبد الله .

ذكري محمد عندما وقفنا في الشارع في طهران نتصافح بأنه عازم علي المجيء الى امريكا وانه ينوي الحصول على الجنسية هناك واذاف :

- انها الطريقة الوحيدة كي أكون حراً في مساعدة أبناء جلدتي . فقلت له موحية :

- ولكنك ستنسى الاكراد ، عندما تذهب الى امريكا ، لن تفكر في العودة الى كردستان ، فنظر الي بوجه صارم وقال :
- ان والدي ووالده وجدته قد كرسوا حياتهم للقضية كردستان فتساءلت في نفسي ، هل يمكن أن تكون هذه كلمات عميل للسافاك .

انتهينا من المصافحة ومضى هو بخطوات واسعة سريعة نحو الشارع .

- انتظر ، انتظر يا محمد .

قلت ذلك وأنا أصرخ وراءه تقريبا ، بعدد لغني المسمت ولم أتفوه بكلمة ، ووقفت أراقبه بحزن وهو يبعد عن الطريق .

كلمة أخيرة

كنت خائفة في البداية ، لدى شروعي في تدوين تجاربي في كردستان ، فلم يكن قد مضى شهر بعد على عودتي من إيران حتى بدأت أشهر بعيون السافاك السرية ، تشغل كاهلي ، حتى في أمريكا وارتأيت بعدئذ ، انه ليس من الحكمة الكشف عن الحقائق الواقعية والممتعة ، ووضح أصدقائي الاكراد في خطر . لذلك فقد غيــرت الاسماء والأماكن وبعض التفاصيل ، لاختفاء هوية كل شخص ورد ذكره في الكتاب ، منذ البداية تقريبا .

عندما أكره الشاه على الخروج من إيران ، شعرت بانزويــح هذا الثقل ، اذ لم يعد هناك ما يسمى بالسافاك على الأقل ، كان من الصعب علي أن ابدى حماسا تجاه مفهوم دولة خافعة لحكم رجال الدين الشيعة ، على الرغم من ميلي المتعاطف مع الأقليات العرقية والدينية في إيران ، ولكنني أملت مع آخرين عديدين ، أن البوليس السري ومراقبة المطبوعات ، وتوجيه الاتهامات - حتى بالشك فقط - ستصبح ذكريات من ماضٍ وحشي مرعب . لم أعرف أبدا رأي أصدقائي الاكراد بآية الله الخميني ، اذ بعد مغادرتي إيران صيف ١٩٧٨ أصبحت الاضرابات في مراكز البريد مستمرة و اشتدت عمليات الاخلال بالأمن مما جعل المراسلات المتبادلة داخل وحول ريزاي مستحيلة . وبالإضافة الى ذلك لم أكن قادرة على معرفة ما حدث لهم في هذه السنة من العنف المتجدد .

انه لمن السخرية المريعة ، أن يحظى الاكراد الآن فقط بتغطية في الصفحات الاولى من الصحف الأمريكية . ففي حرب سنة ١٩٧٤ في العراق التي ذهب ضحيتها آلاف لا تحصى من الاكراد لم تتلق قفيتهم وكفاحهم القدر المماثل من الاعلان والدعاية المتدفقة عنهم من إيران يوميا في الوقت الراهن . سيعلم القليل القليل ، ذلك

الذي يقرأ التقارير عن المعارك ويتفحص بدقة صور الأكسراد المصطفين لينفذ حكم الاعدام فيهم، وتبدو الصحافة الأمريكية مثلهذه لنقل ان احدا ما يقاوم آية الله الخميني، حتى ولو أنه واحد من المجموعات القبلية، ألا وهم "الأكراد"، ومعظم التقارير الاخبارية تتجاهل او تشوش حقيقة وجود امة كبيرة ومتماكة في ارض كردستان المجزأة والخاضعة للحكومات في انقرة وبغداد وطهران .

هناك رومية نامية حول كردستان موحدة في الشرق الأوسط هذه السنة اكثر من اي سنة اخرى في الذاكرة القريبة، والحدود التي تفصل الأكراد من بعضهم غير مسيطر عليها، لأن الحكومات في ايران والعراق وتركيا كلها مزعومة . لا أحد يعرف اذا كان الخميني سيقدر على حشد جيش وترسيخ حكومة، لتسيطر على تلك الأرض الواسعة بشعوبها المتباينة . كانت العراق حديثا قد شهدت محاولة انقلاب ثانية وكان قد اعدم فريق ضخم آخر من المسوءولين في حزب البعث، وتبدو تركيا دوما على حافة الافلاس ويتولى الجيش والقوات المسلحة السلطة فيها .

أتساءل فيما اذا كان لدى الأكراد الذين ودمتهم سنة ١٩٧٨ معرفة طفيفة او حس داخلي باحتمال توفر مناخ جديد لهم، وانفتاح مجال واسع امامهم، جاء رحيلي الأول من ايران في غضون الاثار الكارثية لحرب ١٩٧٤ المشؤومة . بدا كل شخص حزينا، ليس الأكراد اللاجئين الذين كانوا يدرسون القرار للبقاء في المنفى أو العودة الى تعذيب وموت ممكن في العراق فحسب، بل جميع الأكراد في ايران، في تركيا وفي جميع انحاء العالم . سارت الحياة واستمرت على ما كانت عليه في ايران وتركيا التي لم يكن فيها للأكراد ضمان للحقوق الثقافية، اما في العراق فلم يعد هناك سبب كي يقدم النظام تنازلات للأكراد، بما ان كيسنجر والشاه قد قطعوا عنهم الدعم من الخلف، نظمت اعدامات جماعية، وشلت الممثلة الكردية في الحكومة العراقية واقصيت اللغة الكردية كوسيط للتعليم في المدارس والجامعات في كردستان العراق .

وعلاوة على ذلك نتجت آثار غير مباشرة أيضا بالنسبة للأكراد بسبب أحداث سنتي ٧٤-٧٥، فالعالم لم يكن متعاطفا مع القضية الكردية ابدا . وقد تقدم التقدميون الاكراد بطلب رسمي سنة ١٩٦٠ لعبد الناصر ، كي يرفع قضيتهم مع العراقيين الى هيئات دولية وقد امتذر عبدالناصر عن ذلك ، لا أحد في القاهرة او في اي بلد آخر حينذاك وفي الوقت الجاري ، قدر أو يقدر ان يفهم ايّة نزاعات يمكن ان تحدث في المنطقة . ان صداقات الاكراد ذات الاختيار السيء مع امريكا وشاه ايران ، خنقت اي ومضة ضئيلة من التعاطف ، كان من الممكن ان يجدها الاكراد بين اليساريين ، والمسلمين او القوميين العرب . على الرغم من انه شيء قابل للجدل ان تقول : ما كان لغير هذا ان يحدث اي تغيير في الموقف - حيث لم يقدم احد من هذه الجماعات الدعم للأكراد علنيا ابدا - فقد قدم هذا الأمر التسهيلات للحكومة العراقية كثيرا كي تقوم بالابادات الجماعية ، حيث اجبر في الوقت الجاري حوالي ٥٠٠,٠٠٠ الى ١٠٠,٠٠٠ من الأكراد قسرا على الإقامة في المعسكرات فـفي الصحراء الجنوبية العراقية ، بعد ان أجلوا تحت ضغط فوهة البندقية من قراهم في كردستان العراق . ويفرغ العراقيون رقعة من الارض يبلغ اتساعها مائتيارب عشرين الى ثلاثين كيلومترا على طول حدودهم مع ايران وتركيا وبذلك يحدثون ارضا بلا شعب ، فقد ابيدت الاشجار والمنازل والمحاصيل عن بكرة أبيها . ان الجزء الأكثر اخضرارا وخصوبة في كردستان يقع ضمن حدود العراق ولكن الينابيع الجبلية قد سدت بالاسمنت المسلح وصبت السوائل الكيميائية على النباتات الطبيعية .

ومع كل هذا فان الحكومة العراقية غير قادرة على قتل كل الاكراد في العراق ، كما لم يستطع الشاه ان يجعل من نفسه شخصا لا يقهر بقتل كل ايراني . ان جيل الاكراد الذين عرفتهم في مدرسة اللاجئين عند العودة الى ريزاي ، ليس مستعدا للعودة الى عراق يحكمه نظام عنصري ، لقد نشؤوا في كردستان ، حيث كانت لغّة الكتاب الأولى لتعلم القراءة والكتابة ونصوص الفيزياء بالكردية وليس بالعربية .

لا يزال القتال مستمرا في العراق ولكن القليل منه ما يلفت الانتباه في الصحف الامريكية ، وقبل عدة اشهر وافت المنية الملا مصطفى البرزاني ، رجل الثورة الكردية المتمرس بعدمعركة دامت خمس سنوات مع السرطان ، لقد مضى مسعود البرزاني ذو الخمس والثلاثين سنة لتوّه الى ايران ، بعد ان شهد احتضار والده على فراش الموت في واشنطن في امريكا ، حيث جمع القوات القديمة التابعة لوالده ، من البرزانيين ، وقادهم عائدا الى العراق عبر الحدود وقد نقل ان مسعود اصبح الامين العام للحزب الديمقراطي الكردستاني ، تلك المنظمة التي تلقت المساعدة من امريكا وايران . ان اسم "أوك" الاتحاد الوطني الكردستاني ليس معروفا في امريكا ، ومع ذلك فقد شرع في القتال وعده منذ الوقت الذي امر فيه البرزاني وجنرالاته رجالهم بوضع السلاح سنة ١٩٧٥ . وقد عاد الى العراق جلال الطالباني وآخرون من الذين كانوا قد اقصوا عن ح. د. ك. ما بين سنوات ١٩٦٠ و ١٩٧٠ . اني افكر بالشيخ مبداله وأتساءل فيما اذا كانت هذه الاحداث قد خطرت ببالسه لاحقا ام لا .

ابلغني اصدقاء لي في امريكا انهم عرفوا اكرادا عراقيين ظهروا على شاشات التلفزيون وعلى صفحات الصحف الواردة من كردستان الايرانية ، حيث ان سياسة الارض المعروفة الجارية في كردستان العراق لاتزال قائمة . كان الاكراد قد عادوا الى ادارة بلادهم مع مطلع حكم الشاه ، تماما كما بسطوا سيطرتهم عليها خلال الحرب العالمية الثانية ، عندما كان الجيش الفارسي مشغولا في مكان آخر . وكما كان من قبل في جنوب ريزاي ، فان هذا الحكم يبدو شرعيا تماما ، اكرادا يحكمون اكرادا . ولكن تدفقا من تقارير مشوشة عن اترك " أي اترك؟" يقاتلون اكرادا في منطقة ريزاي - ناعادة ، خلقت مفهوما معينا لدى معظم الامريكان ، كما فعلته مع مراسلي الصحف الذين كانوا يقومون بتغطيتها . من على هذا البعد ليس باستطاعتي الا ان افرض

الى هذا الافتراض وهو أن الدائرة القديمة من النزاع والانتقام بين العجم والكرد قد استوْءت في غياب القمع الحكومي ، أو ربما معدت في وجه الخميني لحضه للأغلبية الشيعية في إيران لحل الأزمة الكردية بالدم اذا اقتضى الأمر .

لا يستطيع الاكراد أن يسيطروا سيطرتهم على ريزاي ، لأنها مدينة تركية ، ولكن تقارير نشرت أن " الغارديان " نقلت أن الاكراد استولوا على مخفر الشرطة في سيرو ، التي عبرناها الى مقاطعة هكاري في كردستان تركيا قبل أربع سنوات ونصف خلّت . وفي الوقت الراهن من الممكن ألا نقدر على الذهاب الى تركيا الشرقية على الاطلاق ، بسبب الاحكام العرفية السارية هناك . ومن ناحية أخرى يمكن أن تكون سهلة . فربما يستطيع طه أخذنا الى هناك بسيارته اللاندروفر بدون مضايقات جوازات السفر أو التأشيرات . وتقول الاشاعات أن الاكراد في تركيا قد حبرروا مناطق بأكملها ، وأنهم يعبرون الحدود بالآلاف ليأتوا لمساعدة اخوانهم الايرانيين .

وقد نعت مسؤول إيراني الاكراد - وعلى نحو رسمي - بأنهم شعب رديء وبأنهم أدوات للشيطان . وكان قد أرسل آية الله الخليلي ليتصدّق باحقاق الحق في كردستان . ويحتل الجيش الإيراني مدن كردستان مدينة مدينة ابتداءً من سندانج وساقز ومهاباد وبوكان وبيرانشهر ، وصولاً الى بانه ، وقد نقل أن معظمهم قد لادوا بالفرار فالأكراد كما يتعين على الإيرانيين اكتشافه - ليسوا ، طهرانيين ويأمل الاكراد أن يعمدوا في الجبال لأمسـد طويل ، كما حدث في حرب ١٩٦١ في العراق .

ثمة تهديد وهو موجود دوماً ، بأن الفرصة المناسبة للأكـراد ستنقضي . وحكومة الولايات المتحدة بحاجة شديدة - بشكل يثير الفضول - لبيع السلاح لجهة ما ، لذلك ربما يكون الإيرانيون قادرين على استكمال المخزون الذي ورثوه من الشاه ، ليسبوا المزيد من السم والنار على كردستان .

تحدث الرئيس التركي الحالي على نحو فظ ، مدينا الأكراد ،
اذ يندر أن يفعل الأتراك ذلك ، عندما يتعلق الأمر بالأكراد ،
وذلك في كلمة له ألقاها في الذكرى السنوية للانتصار التركي
على اليونان سنة ١٩٢٢ ، وصرح قائلاً : " ليس هناك حيز للمناطق
وضروب النشاطات التحررية التي تستهدف الاختلافات اللغوية ،
العرقية ، الطبقية أو الطائفية في وطننا ، وستوقع الحكومة
الهزيمة بهذا الداء وستسحق رؤوس بعضهم " .

لو لم أكن مؤيدة للأكراد ، لما خلقت مضايقات لنفسني
بالكتابة عنهم ، ولكن لو حدث وعرف مزيد من الناس عن وضع
الأكراد فانه سيولون عناية كافية للتعبير من آرائهم بحرية
في الوقت الذي يحول فيه النظام العراقي كردستان الى أرض
خراب ، وسيهتمون بمساعدة الأكراد لاسماع صوتهم في الأمم المتحدة
الى جانب منظمة التحرير الفلسطينية ، وسيهتمون كذلك
بالاحتجاج والادانة ، عندما تستخدم الأسلحة الأمريكية ضد الأكراد
في ايران والعراق وتركيا .

ليس للأكراد أصدقاء ، هو مثل أستشهد به أحيانا كثيرة
للزوار الذين كانوا قد وصلوا الى كردستان أثناء المعارك .
ولكن موقفا جديدا قد نشأ في كردستان في الوقت الراهن ، بعد
درس سنة ١٩٧٤ وهو : أن الأكراد لا يحتاجون الى أصدقاء . فهم
بقدرتهم على البقاء والاستمرار قد تفوقوا على اليونانيين
والرومان والمنغوليين والعثمانيين والآن على الأمريكيين ، لذلك
ربما يكون موقفهم صائبا .

كاليفورنيا ، أيلول ١٩٧٩

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA

مكتبة الإسكندرية

بَعْضُ مِمَّا قِيلَ فِي الْكِتَابِ

"ان ابناء الجن ، هو مقدمة ضرورية جدا عن شعب شجاع وجدير بالاهتمام "

- وليم سيفر

. لا أظن ان احدا قد مسرح " أفرغ في قالب مسرحي " فجوة الجهل والتشوش وسوء الفهم بين شعوب من الغرب ، حيث المجتمعات الصناعية ، وشعوب من المجتمعات الاسلامية على نحو افضل من هذا . فالمرء هنا لا يرى الاكراد فحسب ، بل ايضا امبراطورية ايران الشاه المقسمة المتداعية للسقوط ، تنجح السيدة كان ، في الاحتفاظ بعنفوان وتوهج دهشتها الأصلية بهؤلاء الناس وبذلك المناظر الطبيعية على نحو لم يمسهم اى تغيير في كتاب مفعم باهتياج الثورة والحرب الاهلية كتاب مُتَعَب ظسة وخفية نشاطات السافاك والمخابرات المركزية الامريكية ، انها قصة تتوزع بين الرومانسية والرعب ، قصة تزيد من معرفتنا وتنورنا اكثر ، وهي مقروعة والاقبال عليها شديد .

- جوناثان رابان

مؤلف : رحلة في المتاهة

الفهرس

٧	استهلال
٩	مقدمة المؤلفه
الجزء الأول - خارج كردستان	
١٧	الفصل الأول
٣٦	الفصل الثاني
٥٥	الفصل الثالث
٧١	الفصل الرابع
٩٨	الفصل الخامس
١٢٢	الفصل السادس
الجزء الثاني - على تخوم كردستان	
١٥٥	الفصل السابع
١٧٤	الفصل الثامن
١٩٦	الفصل التاسع
٢٢٢	الفصل العاشر
٢٤٠	الفصل الحادي عشر
٢٦٧	الفصل الثاني عشر
٢٨٢	الفصل الثالث عشر
الجزء الثالث - داخل كردستان	
٣٠١	الفصل الرابع عشر
٣٢١	الفصل الخامس عشر
٣٣٩	الفصل السادس عشر
٣٧٦	الفصل السابع عشر
٤٠٧	الفصل الثامن عشر
٤٣٣	كلمة أخيرة
٤٣٩	بعض مما قيل في الكتاب
٤٤٠	الفهرس

لقد كانت الجبال للأكراد، كالصحارى للعرب تماماً. فهي مأواهم
ومعاشهم في السلم، وهي ملجؤهم في الحرب إذا مالت عليهم الحرب
بها يحنمون وفي شعابها يختفون. وكثيراً ما تحدث الرواة في كتب التاريخ عن
الغزوات التي كانت تحتاج كردستان قلباً فيروون أن الأكراد كانوا يكمنون
في بطون جبالهم، يترصدون غزائهم، حتى إذا صاروا في المرامي فاجؤوهم
كالجن من شقوق الجبال، وانقضوا عليهم خفافاً.

لعل اختفاء الجن عن أنظار الناس، وعزلة الأكراد الطويلة في جبالهم،
واختفاءهم في بطونها عن أنظار مهاجميهم، لعل هذا القاسم المشترك بين
الجن والأكراد هو الذي شد الأكراد إلى الجن. شدهم إلى حد الالتصاق
بل إلى حد الانتساب.

ولعل هذا القاسم المشترك، إضافة إلى بعض الصفات السلوكية
والخلفية مجتمعة، هي التي دفعت الرواة آنذاك أن يتوهموا في الأكراد ما
توهموا، وأن يتسجوا حول أصلهم الخرافات والأساطير، فيعتقدون أنهم
من الجن أو فيهم بعض ما في الجن والافمن أين للأكراد أن يكونوا «أبناء
الجن»؟ ومن أين انتقلت إليهم مورثات الحسناوات الأوريبات اللاتي
اختسارهن جان سليمان - كما تعقب الباحثة على الأسطورة، عاقلة وجوه
الشبه بين ملامح النساء الكرديات والأوريبات؟

دحام عبد الله

